

تاريخ ابن غنام
الجزء الثاني
المسمى:
(كتاب الغزوات البيانية والفتوحات الربانية)
للعلامة الشيخ
حسين بن أبي بكر بن غنام
(١١٥٢ - ١٢٢٥هـ)
اعتنى به
سليمان بن صالح الخراشي

تاريخ ابن غنام

تاريخ ابن غنام

الجزء الثاني

المسمى :

(كتاب الغزوات البيانية والفتوحات الربانية)

للعلاّمة الشيخ

حسين بن أبي بكر بن غنام

(١١٥٢ - ١٢٢٥ هـ)

- رحمه الله -

اعتنى به

سليمان بن صالح الخراشي


بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الغزوات البيانية والفتوحات الربانية وذكر السبب الذي حمل على ذلك

لم يزل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مقيمًا في بلد العُيَينة على الحالة الموصوفة والطريقة المعروفة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعلِّم الناس دينهم، ويُمِيت ما قدَر عليه من البدع، ويقيم الحدود، ويأمر الوالي بإقامتها.

وفي تلك الأيام جرت قضية استنكرتها قلوب أهل الزيغ والجهل والرَّدَى، الذين لم يستنشقوا مِن عَرْفِ الشريعة ريح الهدى، وهي أن امرأة من أهل العُيَينة زنت، فأقرت على نفسها بالزنا، وتكرر ذلك منها أربعًا، فأعرض الشيخ عنها، ثم أقرت، وعادت إلى الإقرار مرارًا، فسأل عن عقلها فأُخبِرَ بتمامه وصحته، فأمهلها أيامًا رجاء أن ترجع عن الإقرار إلى الإنكار، فلم تزل مستمرة على إقرارها بذلك، فكانت أقرت أربع مرات في أيام متواليات، فأمر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الوالي برجمها؛ لكونها قد أحصَنَت، وبذلك الإقرار قد صرحت وأعلنت، فأمر الشيخ عند ذلك أن تُشَدَّ عليها ثيابها، وتُرجَمَ بالحجارة على الوجه المشروع، فخرج الوالي عثمان وجماعة من المسلمين فرجموها حتى ماتت، وكان أولَ مَن رجمها عثمانُ المذكور، فلما ماتت أمَر أن يغسِّلوها وأن تكفَّن ويصلَّى عليها.

فلما جرت هذه القضية كثر القيل والقال من أهل البدع والضلال، وطارت قلوبهم خوفًا وفزعًا، وانخلعت ألبابهم رهبًا وجزعًا، وداخَلَهم من حصول تلك القضية السوية، والخصلة المرضية السُنية، والفعلة المحمودة السَنية، ما لم يعاينوا قبله مثله حزَن، ولم يعرِّج على أسماعهم في سابق الزمن، وذلك لما أَلِفُوه من الضلال والشرك، وما عاشوا فيه من الفواحش والإفك، كيف وقد

أتاهم ما لم يحتسبوا! ودَهَمَهم ما لم يرتقبوا! وطاف بهم ما لم يسعهم منه أن يهربوا، ومَجَّت الأسماع، ونفرت تلك الطباع، ما ليس لهم به دفاع، مع كونه الحكم المشروع بالسنة والإجماع!

فيالله العجب! كيف تنكر القلوب والعقول سنة الرسول، وتطاولت ألسنة العلماء على مَن نَصَر الشريعة وحَميت، ولكن الحبَ يُعمي ويُصِمّ، لم يكن لهم عدول ولا إباء، عن سنة الأسلاف والآباء، وكذلك شأن النفوس، إلى الباطل تميل، ولا يجد وازعًا في نفسه إلى الحق إلا القليل، ونحمد الله المولى الجليل أن جَعَل الشيخَ مِن هذا القبيل، وبنصر السنة كفيل.

ثم إن الشيخ لما أعياهم ردّ ما قاله من تلك المسائل الجليلة، عدلوا إلى ردها بالمكر والحيلة، فشَكَوه إلى شيخهم الظالم سليمان آل محمد رئيس بني خالد والحسا، وكان قبَّحه الله مغرمًا بالزنا، مجاهرًا به غير مختفٍ بذلك، وحكاياته في ذلك مشهورة، وقصصه فيه غير محصورة، فأغرَوه به وصاحوا عنده، وقالوا إن هذا يريد أن يخرجكم من ملككم، ويسعى في قطع ما أنتم عليه من الأمور، ويحسم مادة الأمكاس والعشور! فلما خوَّفوه بزوال محبوبه وتفويت مطلوبه، كتب إلى عثمان المذكور يأمره بقتله، أو إجلائه عن وطنه، وألزم عليه في ذلك غاية الإلزام، وشدد عليه في حصول القصد والمرام، وصرح له في المكتوب بأنك إن لم تفعل المطلوب فما لك عندي مستباح، وليس علينا في ذلك من جناح. فآثَرَ الدنيا على الدين، وسلك منهج المُبْطِلين، وأمر الشيخ بالخروج، ولم يكن إلى قتله سُلَّمٌ ولا عُرُوج، وذلك لما اقتضته الحكمة الإلهية والعناية الصمدانية، من إحياء دارس السنة المحمدية والآثار السلفية.

فخرج الشيخ إلى بلد الدِّرعية والسدَّة المرعية المحروسة، إن شاء الله، عن كل بلية، فنزل على عبد الله بن سويلم تلك الليلة، فأقام عنده ذلك اليوم، ثم

بعده انتقل إلى تلميذه الشيخ أحمد بن سويلم، فلما سمع بذلك الأميرُ محمدُ بن سعود، أسكنه الله دار الخلود، قام من فَوره مسرعًا إليه، ومعه إخوته ثنيان ومشاري، فأتاه في بيت أحمد بن سويلم، فسلم عليه، وبادره بالقبول والتقبيل، وأبدى له غاية الإكرام والتبجيل، وأخبره أنه يمنعه بما يمنع به نساءه وأولادَه مِن جميع مَن عاداه وكادَه، إلا أنه طلب من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، العهد والميثاق ألا يرحل عن بلده إلى سائر الآفاق، وهذا من عناية الله تعالى بهذا الرجل وتوفيقه، وإهدائه إلى سبيل الخير وطريقه، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

وكان الأمير محمد بن سعود في جاهليته بحسن السيرة معروفًا، وبالوفاء وحسن المعاملة موصوفًا، مشهورًا بذلك، دون مَن هنالك، فعند ذلك أعطاه الشيخ عقد المرام ألا يخرج عنه إلى بلاد، وبعد ذلك قام يدعو الناس إلى ما خُلِقُوا لأجله، ويحث على ذلك بخَيْلِه ورَجِلِه، حسب الاستطاعة، لا يفتُرُ عن ذلك ساعة، وكذلك قام معه وزراؤه وأعوانه وأنصاره، من أهل الدرعية وإخوانه، ومن مشاهيرهم ثنيان بن سعود ومشاري بن سعود وفرحان بن سعود والشيخ أحمد بن سويلم والشيخ عيسى بن قاسم ومحمد الحزيمي وعبد الله بن دغيثر وسليمان الوشيقري وحمد بن حسين وأخوه محمد وغيرهم، فجرَّدوا للدعوة أمضى سِنَان، وأرْخَوا في ذلك العنان، من غير تراخٍ ولا تَوَانٍ، وشَهَروا سيف العزم، وباتر الهمة والحزم، جزاهم الله خيرًا.

وكانت هذه الأمور المذكورة، والأفعال المقررة المسطورة، في حدود سنة سبع وخمسين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية، فلما استقر به القرار، في محروسة تلك الديار، وساعده على إعلان تلك الدعوة للملك القهار، مَن ذكرناه آنفًا من الأخيار، حشرهم الله في زمرة الأبرار، فبقي، رحمة الله عليه وأجزل

ثوابه لديه، قريبًا من سنتين، من غير شك ولا مَين، يناصح الناس ويكشف عن الحق حجب الالتباس، ويشيد السنة النبوية أقوى أساس.

وفي خلال هذه المدة أقبل إلى الدرعية للهجرة، مَن أحسن الله قصده، منهم: عبد الله بن محسن وإخوانه زيد، وسلطان المعامرة، وعبد الله بن غنام وأخوه موسى، وهاجر مع هؤلاء خلق كثير. وبعد أيام قليلة لم يجد عثمان عن القدوم على الشيخ وابن سعود من حيلة، لما رأى من جماعته وشاهده، وعلم أن الله رفع للدين مصاعده، فأقبل إليهم وقدم عليهم، وحاول الشيخَ في الرجوع إلى بلده، فأحال الأمر على محمد بن سعود، فأبى ولم يسعفه بالمقصود، فرجع على عقبه، ولم يفز بغاية طلبه، فأضمر العداوة والشر، وجدَّ في الغدر والمكر.

وفي أثناء تلك المدة أيضًا ناصح الشيخُ والأميرُ محمد بن سعود دهامَ بن دواس، رئيس البلدة المعروفة بالرياض، فاجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد، فلم يكن له إلى قَبُول الحق ارتياض، بل أعرض عنه نهاية الإعراض، واعتاض الدنيا عن الآخرة، وبئس الاعتياض، وحمله على ذلك البغي والحسد، الذين قل أن يخلو منهما جسد، وينجو منهما أحد، وإلا فهو قد أقر بأن هذا هو الدين، وأن ما يدعو إليه هو الحق المبين، وقد صح النقل عنه، والنطق بذلك منه، ولكن حقت عليه كلمة العذاب، وسبق له ذلك في أم الكتاب، فأبطن عداوة هذا الدين، وأظهر موالاة المبطلين.

وكان هذا الدين قد فشا في بلده ودخل فيه كثير منهم، فإذا رأى مِن جماعته مَن يُحب هذا الدين ويفشيه، أخذ يصادره ويؤذيه، وإذا رأى عدوًّا يُقرِّبُه ويؤيه، فجعل يتزايد في العداوة، ويتظاهر بقمع الحق لما كتب له من الشقاوة، ويعلن بالقبائح الشنيعة والفضائح الفظيعة، إذ كانت من أخلاقه القديمة وأفعاله القبيحة الذميمة.

وكان أبوه رئيسًا في بلد منفوحة متغلبًا عليها، فقَتَل أناسًا من جماعته من المزاريع ظلمًا وعدوانًا، فبقي بعد ذلك زمانًا ثم مات، وتولى بعده ابنه محمد، فقام عليه ابنُ عمه زامل بن فارس، هو وبعض أهل منفوحة فقتلوه، وأجْلَوا إخوانه، ومِن جملتهم دهام وإخوته عبد الله وتركي ومشلب وفهد، فاستوطنوا الرياض، وكان واليها إذ ذاك زيد بن موسى أبا زرعة.

فلما قُتل زيد المذكور، على غير سبب مأثور، وكان الذي قتله أحد بني عمه، وكان معتوه العقل، صعد عليه، وهو نائم في عليّةٍ له[1]، فذبحه بسكين معه، فلما قتله جاءه عبد لزيد يقال له خميس، فقتله ورماه من رأس العليّة، فتغلب العبد المذكور على بلد الرياض، وكان أولاد زيد إذ ذاك صغار، وزعم أنه قابض لهم حتى يتأهلوا لذلك، فأقام واليًا عليها مدة يسيرة نحو ثلاث سنين، ثم هرب خميس من الرياض خوفًا من أهلها؛ لأمور جرت منه، فأقام في الحائر مدة، ثم أتى منفوحة، فأقام بها مدة، ثم عدا عليه رجل من أهلها، كان قتل أباه زمن رياسته على الرياض، فقتله.

ثم بقيت الرياض مدة يسيرة بلا رئيس، وكان دهام بن دواس مدة تغلب خميس على الرياض خادمًا له، فلما بقيت الرياض بعد هروب خميس بلا رئيس، ترأّس فيها دهام بن دواس، بشبهة أن ابن زيد أبا زرعة هو ابن أخت دهام، فزعم أنه يكون نائبًا عنه في ذلك حتى يكبر ويعقل، ثم بعد ذلك يتخلى له عن الولاية وينصل، وهيهات الرجوع عن الأخلاق والطباع، وردع النفوس المجبولة على البغي والأطماع، فجرى مع ابن أخته على عادته وسنته، وعامله بما رسخ فيه مِن جَوْرِه وسطوته، فأجلاه عن البلاد، وأخلفه ذلك الميعاد.

---

(١) العليّة: سطح البيت.

فبعد صدور هذه القضية، واشتهاره بهذه الفعلة الردية، كرهه أهل الرياض، وسَعَوا في عزله، إذ لم يكن لهم حيلة إلى قتله، فاجتمعوا عليه، وأحاطوا بقصره وحصروه فيه، وكانوا عامة وغوغاء، ليس لهم رئيس يرجعون إلى أمره، ولا مصدر يصدرون عن رأيه وفكرته، فأرسل أخاه مشلبًا راكبًا فرسًا إلى محمد بن سعود أمير الدرعية، يطلب منه النجدة والنصرة على تلك الرعية، ويتضرع أن يعينه على دفع تلك البلية، فعند ذلك قام له محمد بالنصرة أتم قيام، وأرسل إليه من الجنود فئام، ورئيسهم مشاري بن سعود، فبلغ دهام بمجيئهم المرام والمقصود، فخرج من قصره مع تلك الجنود، وقتلوا من أهل الرياض ثلاثة أو أربعة رجال، ثم فروا بلا توانٍ ولا إمهال. فبعدها قر ملكه فيها، وأقام رئيسها وواليها، وأقام مشاري عنده شهور، ولم يتوقع ما صدر من الخبيث من الشرور، فاستفحل أمره وتعاظم فُجْرُه ونُكْرُه، وتزايد على الرعية شَرُّه، وتوالَى عليهم ضَرُّه، وتظاهر بأمور، وأعلن بفجور، تحاكي الأفعال النمرودية، والقضايا الفرعونية.

فمنها أنه غضب يومًا على امرأة، فأمر بفمها أن يخاط، ويتكرر في شفتيها تردد المخاط.

ومنها أنه غضب يومًا على رجل، فقطع من فخذه قطعة، وقال: لا بد أن يُسِيغَهَا مُضغة مُضغة. فحاول الرجل المعذَّب، بعد أن لم يجد له مهرب، أن يأكلها بعد أن تشوى، فلم يسعفه بذلك، فأكلها، نعوذ بالله من البلوى.

ومنها أنه غضب يومًا على رجل مسجون، ذُكِرَ له أنه فَكَّ بأسنانه الحديد، فأمر بمقمعة من حديد، فضُربت بها أسنانه، فتساقطت في مرة بلا ترديد.

ومنها أنه غضب على رجل آخر، فأمر بقطع لسانه، فقطعه بعض أعوانه.

وله قضايا مثل هذه كثيرة، ونظائر محققة شهيرة.

فلم يزل في تلك الحال، وأهل بلده يُعَانون منه التنكيل والوبال، ثم لما منَّ الله تعالى بظهور هذا الدين، ولمعت شوارق الحق المبين، ونادى منادي المولى الكريم ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، دُعِيَ دهام إلى هذا الحق الواضح، والبرهان الساطع اللائح، فأبى ونفر، وأعرض واستكبر، بل صد الخلقَ عن الدخول فيه وحذّر، وأخذ يسعى لأهله بالمكائد، ويترصد في عداوتهم المراصد، ويستليح[1] كل معاند وجاحد.

فأول ما تظاهر في هذا الدين بالعداوة والحرابة، وجمع لذلك أعوانه وأحزابه، أخزاه الله تعالى وجعل النار مآبه، أنه خان بأهل منفوحة، وهم إذ ذاك قد دخلوا في هذا الدين، وللأمير محمد بن سعود من المتَّبِعين، وهو إذ ذاك مُظْهِرٌ لمحمد بن سعود الصداقة والاتفاق، ولم يتبين منه قبل هذه الخيانة شقاق.

وحاصل ما جرى منه، وصفة ما صدر عنه، أنه عدا عليهم صباحًا، ومعه بعض البوادي، فرقان من آل ظفير، وأهل منفوحة على غرة وغفلة، لم يتبين من العداوة لهم شيء، فكمن لهم في أحد دور البلد ليلًا، وأمر البوادي والخيل أن تُغِير على بعض الزروع والنخيل، لكي يخرج أهل البلد، فيعقبهم الكمين على البيوت، فلما أصبح الصباح، وغارت الخيل والبادية على النخيل، وفزع أهل البلد عليهم، ولم يبق في البلاد أحد من المقاتلة، خرج الكمين ودهام معهم، فلم يخطئوا قصر الإمارة، فصعدوه وقهروا البلد، وأقاموا في ذلك ساعة، فلما

---

(١) جاء في «لسان العرب» (مادة: لوح): «ألاحَ بثوبه ولَوَّح به: أخذ طَرَفَه بيده من مكان بعيد، ثم أداره ولَمَع به؛ ليُرِيَهُ مَن يُحب أن يراه». فلعل معناها: يستميل، ويتعاون مع كل معاند وجاحد.

علم بذلك مَن خرَج، رجَع على عقبه وانزعج، وهموا بالرحيل والنقلة، بلا تثبيط ولا مهلة، حتى أن الله أعقبهم بالنصر والفرج، فانشرح صدر كل موحِّد وابتهج.

وسبب ذلك أن علي بن مزروع، وطائفة معه من أهل الدين، ثبت الله أقدامهم، وأعانهم وأعظم إكرامهم، صعدوا بعض البيوت المشرفة على قصر الإمارة، وبقُوا يرمونهم منه حتى قتلوا منهم أناسًا، فلما أعيتهم الحِيَل وضاقت عليهم السبل، وتحققوا أنهم إن بقُوا ساعة هلكوا، بعدما جزموا أنهم ولوها وملكوا، رموا بأنفسهم من وراء الجدار، إذ لم يكن لهم على معاينة الحِمَام اصطبار، فهربوا وقد لبسوا ثياب الخزي والخيانة والعار، وتَرَدَّوا برداء الرَّدَى والشَّنَار، وصار عقبى مَن ناوأهم وأخفاهم عنده في تلك الدار، شناعة السمعة وحلول الدمار، وقُتل مِن أشرارهم ورؤسائهم وفُجَّارِهم درع الصمعر وخضير الصمعر وزهمول الفضلي، وغيرهم نحو الأحد عشر، وأصيب دهام صوابين، وقُتِل حصانه، وقُطِعَت أصابع رجله، وهرب هو ومَن معه، يَعَضُّ أنامله من شؤم فعله، ويتجرع حرارة الجرح والصَّلَف، ويتحسى مرارة الندم والأسف.

ثم لمَّا تظاهر بعداوة الدين وعداوة ابن سعود، وتمزَّى بذلك وتميَّز، وسوَّل له الشيطان أنه للسياسة قد أحرز، حاربه ابن سعود، فلما تيقن ذلك، حمله الشيطان من التِّيه والطغيان، على نذر جَزُور لتاج بن شمسان؛ إن قطعَ ابن سعود عليَّ الفواره[1] عادِين على بلادي، فلما بلغ ابن سعود وإخوانه المسلمين ذلك، تعاهدوا على أن أول عدوة يعدونها عليه تكون في قصره، فوَفَّوا بذلك الوعد، وبذلوا لتحقيقه الجهد، فأتوا إلى باب القلعة التي فيها قصره، فشذبوا الباب

(١) غرب مدينة الرياض، أصبح الآن حيًا من أحيائها.

بالمنشار، ودخلوا بيت ناصر بن معمر وتركي بن دواس، فعقروا فيهما إبلًا كثيرة، ورمَوه بالرصاص وهو في عِلّيتِه، ثم خرجوا سالمين، ولله الحمد.

ثم بعد ذلك بيسير عدا ابن دواس على العماريّة[١]، فقتل عبد الله بن علي وعقروا أبله، فلما بلغ ابنَ سعود ذلك جمع أهل الدرعية وأهل عرقة، فرأى أنه يرصدهم ويكمن لهم في فيضة لبن[٢]؛ لأنها طريقهم الذي يرجعون منها، وكان ابن دواس قد كمن فيها، ورصد هو وإخوانه خوفًا على عدوته أن يشد عليهم الطريق، ولم يشعر بذلك ابن سعود وجماعته، حتى توافى الفريقان في الفيضة، واقتتلوا ساعة، ثم انهزم دهام وجماعته، والمسلمون بأثرهم، حتى طلعت عليهم عدوة ابن دواس التي صدرت من العمارية، فلم يشعر المسلمون إلا وهم خلفهم، فانكسروا، ولم يقتل إلا رجلان أو ثلاثة منهم، أكرمهم الله بالشهادة، ورجع كل منهم وقصد بلاده.

ثم بعدها بمدة يسيرة جرت واقعة مذكورة شهيرة تدعى وقعة الشياب؛ لأنه قد قُتل منها شياب من آل ابن شمس من أهل الرياض، وصفتها أن عثمان بن معمر مع جماعته من أهل العُيَينة، ومحمد بن سعود مع جماعته من أهل الدرعية، ساروا جميعًا إلى أهل الرياض، فلما قربوا من البلد، أغار بعضهم على نواحيها وكمن بعضهم، فخرج دهام مع أهل الرياض، فالتقَوا بمكان يسمى الوشام[٣] خارج السور، فلما خرج الكمين عليهم انهزموا، ولم يأل أحد على أحد، بل كل منهم عربد وشرد، وقُتل منهم نحو العشرة من المشهورين، منهم أحمد بن علي بن ناصر وشايبان من آل شمس.

---

(١) بلدة تقع شمال غرب الرياض بحوالي ٢٠ كم.

(٢) غرب الرياض.

(٣) روضة معشبة تجتمع فيها السيول. أصبح الآن من أحياء مدينة الرياض.

ثم بعدها الوقعة المسماة بوقعة العبيد، وذلك أن ابن سعود خرج في أهل الدرعية، وقراها خاصة، وسار على أهل الرياض، وعبأ كمينه في جرف يقال له جرف عبيان، ثم أغار على البلد، فخرج ابن دواس ومَن معه مِن المقاتلة خارج السور، فلما التقى الفريقان خرج الكمين، فرجع دهام ومن معه مكسورًا، وقُتل منهم نحو العشرة، غالبهم عَبِيد، ولهذا سميت بهم الوقعة بلا ترديد، وتسمى أيضًا وقعة غيبة؛ لأن القتلة بقُوا فيها أيامًا بلا دفن، وكفى بذلك مصيبة، وبقي دهام بعدها متحسرًا، وفي أمره متندمًا متحيرًا، إلا أنه للحرب في تهيؤ واستعداد، وفي التأهب للملاقاة وجمع الأمداد، طلبًا للمقاضاة والأخذ بالثأر ليشفي الفؤاد، فأجمع أمره، وصمم رأيه وفكره، أن يأتي إلى الدرعية ويغير، ويجعل الكمين فيما خفي من الحفير، فجمع الحاضرة والبادية، فأصبحت خيله على البلاد عادية، فخرجوا إليه سراعًا، ولم تألوا المقاتلة غير القتال دفاعًا، بل باعوا النفوس دفعًا عن الحرم، حتى كشفه الله تعالى فانهزم، غير أن المسلمين لما ظهر عليهم الكمين، ولى غالبهم مُدْبِرِين، وقُتل خمسة من المسلمين، ومن مشاهيرهم فيصل ابن الأمير محمد بن سعود، وأخوه سعود ابن الأمير محمد. وكان الأمير محمد، رحمة الله عليه، حين خرج ورأى أن الغارة لم تُفِذْ، ولم تعرج على نقص أحد، أشار برأي مبارك ميمون، وهو أنهم إلى بلادهم يرجعون، ولا يناشبونهم القتال، خوفًا من الكمين بالرجال، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطورًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وبعد هذه شمّر الأمير محمد للحرب ساعده، ولم تكن همته عن القتال قاعدة، بل كانت إلى ذُرَى المعالي صاعده، وفي هذه الواقعة من الفوائد النافعة والمصالح الجامعة، لمحمد والمسلمين، ما لا نَحُدُّه ولا نَعُدُّه تحريرًا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ **وكانت هذه الوقائع المسطرة، والأفعال المقررة، في حدود السنة التاسعة والخمسين بعد المائة والألف.**

ثم دخلت سنة الستين بعد المائة والألف.

وفيها وقعة تسمى وقعة دلقة[١] وذلك أن أهل العُيَينة وأهل حُرَيْمِلَاء وأهل الدِّرْعِيَّة وقُرَاها وأهل منفوحة، خرجوا في ربيع الأول يريدون الرياض ومصادمة أهلها فيها، فانفلت رجل من أهل حريملاء يقال له أبو شيبة من آل داود، فأنذر دهام وجماعته، فلم يأتهم المسلمون إلا وهم مستعدون للقتال، فصبحهم المسلمون في جوف البلد، فلذا سميت وقعة دلقة فاقتتلوا فيها قتالًا شديدًا، وحمي القتل عند باب القصر، والتقى دهام بن دواس مع حمد بن محمد بن منيس، وكان فاتكًا، وتقاتلا رَجِلَيْنِ، فضرب حمدُ بن محمد دهامًا ضربات بالسيف في جسده ورأسه، حتى أتى موسى بن عيسى الحريص إلى حمد بن محمد من خلفه، فقتله وصار سببًا لسلامة دهام، بعد أن أشرف على الحِمَام، ثم لم يكن جزاؤه له مع فعله فيه الجميل إلا المعاقبة والتنكيل؛ وذلك أن موسى بن عيسى بان له الإسلام وأراد الهجرة، فذُكِرَ ذلك لدهام، فأمر بقطع يده ورجله فقُطِعَتَا، ونَفَاه إلى الدرعية، فلم يبرح إلا ثلاثة أيام فمات.

وقُتل ذلك اليوم من أهل الرياض محمدُ بن سودا وسرحان البكاوي وابن مسيفر وثمانية غيرهم، وأما الجراحات فكثير، واستُشهد من المسلمين حمدُ بن محمد وحمودُ بن حسين بن داود وسليمانُ الزير وحسن الشميري وغيرهم. وكانت تلك الغزوة من غير رضا عثمان بن معمر ومشورته، لما يتهمونه من النفاق وموالاته لأهل الباطل خفية، إلا أن هذه الوقعة زادته رجسًا إلى رجسه، وخَبُثَ بها دَغَلُ نفسه.

ثم لما رجع كلٌ إلى بلده، وآب إلى مسكنه ومعهده، ومر أهل حريملاء على

---

(١) موضع في الرياض. «معجم مدينة الرياض» (ص ٤٠).

العُيَينة، طلب عثمان بن معمر من أمير حريملاء محمد بن مبارك العهد والميثاق، على الإخاء والمصافاة والاتفاق، وذلك لما أبطن من الشر، كما كان شأن ذوي النفاق، مع أن قلبه قد مُلِئَ من الرعب والوجل، وخالطه الخوف والذل والخجل، ثم إن عثمان غشيه الندم، وجلَّله الفشل، حيث لم يكن مع الغُزاة قد عزم، وخشي وقوع الإذلال والإهانة، وتصديق ما يُرمَى به من النفاق والخيانة، فأرسل إلى الشيخ وإلى الأمير محمد بن سعود، يستشفع إليه بكل صديق وودود، في قبول العذر والاعتذار، والصفح عن التخلف الذي صار، فقَبِلَا منه جَلِيَّ عذره، رجاء منهما ألا يعود إلى مكره، ثم إنه قدم إليهم ووفد عليهم، ومعه وجوه أهل حريملاء والعُيَينة، وعاهد الشيخ ومحمد بن سعود على الجهاد، والقيام بالنصرة والاستعداد، ولو إلى أية بلاد، فتوهموا فيه الصدق والوفا، وغاب عنهم ما كمن بقلبه واختفى، فعندها رأَّسُوه وكبَّرُوه، ورفعوه على المسلمين وأمَّرُوه، وصار ابن سعود له منقادًا، ولأمره طالبًا مرتادًا، ولا يخالفه ولا يشاققه، بل يتابعه ويوافقه، في السفر والبلاد، والغزو والجهاد.

وكان من أعظم ما على عثمان به نُقم، وأوضح ما رُمي به واتُهِم، أنه أرسل إلى إبراهيم بن سليمان أمير ثرمداء، وأمره أن يركب إلى دهام مع جماعته، ويَسُوسُه ويزين له الاتفاق مع عثمان والقدوم عليه إلى العيينة، ويتفوه في المجالس والمحافل، أنه لمنهج الإصلاح مائل، ولتكثير سواد المسلمين فاعل، والله أعلم أنه خائن خاتل، فحسَّن له تلك الأفعال، وقدم إبراهيم مع دهام بلا إمهال، فاجتمعوا عند عثمان في ذلك المكان، وكان ذلك من غير مشورة للشيخ وابن سعود ولا غيرهم من الأعيان، فصار سببًا لما ناله من الذل والهوان، فحين علم بذلك أهل البلد، ورأوا دهامًا إليه قصد، شق عليهم ذلك وعابوه، ولكنهم من الفتك به هابوه، وذلك أنهم عرفوا مراده وقصده، وتحققوا ما بذل فيه طاقته

وجهده، لما يشاهدونه منه، ويأثرون عنه، من موالاته أهل الضلال والمبطلين، وإبعاده عن حزب الموحدين، فاجتمع أهل البلد جميعًا، وساروا إليه سريعًا، فلما اجتمعوا عنده، ورأى ما أصابهم من الكآبة والشدة، مَوَّه عليهم مطلوبه وقصده، وقال لهم: ليس لي مراد، إلا الإرسال للشيخ من تلك البلاد، حتى يحضر عقد الصلح، ويتم بمجيئه المرام والصلح، ويدخل دهام في دائرة الإسلام، ويحكم عليه العهد غاية الإحكام، فاطمأنت نفوس القوم، لأجل قوله ذلك اليوم.

ثم إنه أرسل إلى الشيخ تلك الليلة، وأعملوا في قدومه الحيلة، يحثه على المجيء والحضور، ويستدعيه إلى ما دبره من الأمور، وقد ألقى الله في رَوْعِ الشيخ خيانته، وتحقق أنه لم يُوف أمانته، بل حُكى أن الشيخ جاءه النذير، يحذره عن الحضور والمسير، وأبدى غاية الامتناع، وتعذر عن الموافاة والاجتماع، فلما أخبرهم الرسول، بعدم القدوم والمثول، عرف المسلمون من أهل البلد، ما أعمله عثمان من المكر واجتهد، فحصروا ابن دواس في قصر عثمان، وهموا به إذا خرج بلا استئذان، فلما جنَّ الظلام خرج دهام هاربًا، ولبلده طالبًا، وللهوان والخزي كاسبًا، وكان صدور هذا الأمر منه، والتفوه بالمكر عنه، قبل أن يأتي إلى الشيخ والأمير محمد، ويأخذ منهما العهد المجدد، فلما تحقق عثمان من جماعته الغيظ والغضب، خاف من وقوع الشقاق وارتقب، وأخذ يصانعهم ويرضيهم بقوله، ويعتذر إليهم مما صدر عن فعله، لعلهم إلى ما كانوا من محبته يرجعون ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

ثم لما أبطل الله تعالى كيدهم وما أرادوا، وعلموا أنهم تضمخوا بقذر الخيانة وما أفادوا، ووصل إبراهيم بن سليمان إلى ثرمداء، تدرع لباس الحرابة وارتدى، وتنصل عن الدين واعتدى، وفارق منهج الحق والهدى، وبادر المسلمين بالحرب وابتدا.

ثم دخلت السنة الحادية والستون بعد المائة والألف.

وفيها جرت وقعة تسمى وقعة البنية[١] وذلك أن عثمان بن معمر لما أُعطِيَ العهدَ وأُمِّرَ، كما ذكرنا، سار بمن معه من أهل العُيَينة وأهل حُرَيملاء ومحمد بن سعود وأهل الدرعية وقراها وأهل ضرما إلى الرياض، فأتَوها من شرقيها يمشون في وادي الوتر، حتى نزلوا بين العود والبنية، فلم يجر ذلك اليوم قتال، إلا أن رجالًا من المسلمين تراموا مع أهل البلد من بعيد، فقُتل من أهل الرياض سليمانُ بن حبيب وأناسٌ معه، وأصيب منهم كثير، ودخل قلوبَهم من الرعب أمرٌ كبير، واستُشهد من المسلمين عبدُ الله بن عبيكة وابن عقيل.

فلما كان آخر اليوم سار المسلمون إلى منفوحة، وأقاموا بها ثلاثة أيام، يتداولون الرأي ويبرمونه غاية الإبرام، حتى انتظم الرأي واتفق، واجتمع الفكر واتسق، على المسير إلى الرياض والمكابرة، ومنازلتهم بالجد والمصابرة، فتعبأ المسلمون للقتال، وافترقوا فرقتين للمحال، فعمدت فرقة إلى صياح[٢]، فدخلوه وقت الصباح، فاستولوا على ما فيه من الأموال، وذلك بعد شدة القتال، وقُتل من مشاهيرهم موسى بن عبد القادر. والفرقة الأخرى ساروا أهل حريملاء وأهل عرقة، فعمدوا إلى مقرن[٣]، فدخلوها حتى وصلوا إلى الظهيرة، وكان جملة أهل البلد قد اجتمعوا فيها عند قصر دهام بن دواس، فاقتتلوا مليًّا، ثم خرج مَن ذكرنا من المسلمين بعدما اجتمع أهل البلد منهزمين، وقُتل من المسلمين خمسة وعشرون رجلًا، فخرجوا مسرعين.

---

(١) موضع في مدينة الرياض، غرب البطحاء.

(٢) حي من أحياء الرياض. كان قديمًا هو ومعكال ومنفوحة بلدان مستقلة.

(٣) كانت بلدة عامرة تقع في قلب مدينة الرياض. انظر تحديدها في «معجم مدينة الرياض» (ص ٧٩ - ٨٠).

ثم إن دهامًا وقومه لما فرغوا من قتال تلك الطائفة، أسرعوا في المسير إلى صياح، وكان مَن وَلِيَها مِن المسلمين، إذ ذاك في البيوت والنخيل متفرقين، فدهمهم فيها دهام، وأكرم الله بالشهادة مَن قرب له الحِمَام، وجاءهم بمن معه بغتة، وكان افتراقهم ذلك اليوم فلتة، فقُتل منهم عشرون، وكان جملة من استشهد ذلك اليوم خمسة وأربعون. ثم لما ظهر المسلمون عن البلاد، اجتمعوا خارجها فهدموا جدران البنية، وهدموا تلك المربعة المبنية، فلهذا سميت بهذا الاسم، ووُسِمَت بهذا الوسم، ثم رجع كلٌ إلى بلاده، ووطن أهله وأولاده.

وفي السنة المسطورة جرت وقعة تسمى وقعة الخريزة، وسُمِّيَت بذلك لكون القتال في مكان يقال له الخريزة[1] وذلك أن عثمان بن معمر سار بأهل العيينة وحريملاء، وعبد العزيز بن محمد بأهل الدرعية وقراها وأهل ضرما، فساروا جميعًا، وأميرهم عثمان بن معمر، حتى نزلوا بصياح، فلم يكن لأهله عن الخروج من براح، فخرجوا إليهم سراعًا، وراموا عن البلد دفاعًا، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، وقُتل من أهل الرياض ستة تقريبًا لا تحديدًا، وقُتل من أهل العيينة نحو عشرة رجال، ومن أهل الدرعية ومنفوحة ستة بلا إشكال، وقطعوا من الثمار المعلقة، أربعة من النخيل محققة، ثم رجعوا إلى بلدانهم، وساروا إلى أوطانهم.

وفي السنة المسطورة أيضًا جرت وقعة عظيمة تسمى وقعة البطين؛ لكون الواقعة والقتال صدر في مكان يقال له البطين[2] وذلك أن عثمان بن معمر سار بأهل العيينة وحريملاء، وعبد العزيز، حرسه الله تعالى، بأهل الدرعية وقراها

---

(١) قال ابن بشر (١/ ٢١): «موضع في صياح».

(٢) قال ابن بشر (١ / ٢١): «موضع قريب من ثرمدا».

وأهل ضرما، والأمير على الجميع عثمانُ، فساروا إلى ثرمدا، فنزلوا بها ليلًا حتى انغلق الصبح وبدا، وقد جعل المسلمون لهم خارج البلد كمينًا، يكون لهم إذا نَشَبَ القتال مُعينًا، فلما أصبح الصباح، واتضح النور ولاح، خرج أهل البلد إليهم، وأقبلوا للقتال عليهم، وتناشبت الرجال، وضاق مجال القتال، خرج إذ ذاك عليهم الكمين، فولَّوا الكفار مُدْبِرِين، ومنح الله تعالى المسلمين أكتافهم، وقتل أشرافهم، وكانت القتلى نحو السبعين، على سبيل التحقيق لا التخمين.

ثم بعد ذلك التجأوا إلى قصر يسمى الحريص، فتحصنوا فيه وخلت البلاد من المقاتلة، فأشار عبد العزيز وجماعة معه على عثمان بدخول البلد والمعاجلة، فأبى عثمان من ذلك وكانت منه مكيدة ومخاتلة، فعند ذلك استطال عليه عبد العزيز بالكلام، ووبخه ولامه غاية الملام. ثم إن عبد العزيز، حفظه الله تعالى، نهض مريدًا دخول البلاد، من غير توقف ولا استرداد، وأمر بذلك جميع أتباعه، فبادروا لامتثال أمره واتِّبَاعِه، ولكن كان الذي معه ذلك اليوم نَزْر يسير، ومع عثمان الجم الغفير. ثم إن عثمان بن معمر بعد تلك المراجعة، وصدور تلك المنازعة، ارتحل راجعًا إلى بلاده، وبقي عبد العزيز متحيرًا بين الدخول فيفوز بمراده، أو اللحوق بعثمان فيوافقه في ارتياده، حتى اختار الله تعالى له ما اختار، فجَدَّ في لحوقه فلم يأته إلا آخر النهار.

وأعظمُ ما صرَف في رأي عبد العزيز عن دخول البلاد، قلةُ مَن بقي معه من الأجناد، فأشار عليه وجوه مَن بقي معه، أن يلحق بعثمان فلحق به وتبعه، إلا أن الأحوال متغايرة، والقلوب بينهما متنافرة، فلما أضاء صبح الليلة، وأسفر جمع عبد العزيز حرس الله تعالى جميع الغنيمة، وأحضَرَ ونادى بالرحيل في قومه وثوَّر، وأخذ سائرًا على طريق الخبرة، لما أجمع على المفارقة أمره، وقال: لا

بد من إحضارها عند الشيخ وابن سعود، حتى يقسماها على المنهج المحمود. فقدم بها عليهم، وأحضرها لديهم.

وفي تلك السنة أيضًا غزا المسلمون ثرمدا مرة ثانية، ولم تكن همتهم عن الجهاد وانية، والأمير عليهم عثمان، ولم يخرج من أهل البلد للقتال إنسان، فدمر المسلمون المزارع، إذ لم يَحُلْ دونها من مدافع، ثم انقلبوا مسرعين، وإلى بلدهم راجعين.

وفيها أيضًا غزا المسلمون ثادق، فلما وصلوا إلى قرب تلك المرافق، وكان وصولهم ليلًا، وعبأوا الجيش واستعد الكمين، حتى ينشب القتال ويستبين، فلما خرج المقاتلة، ظهر الكمين بالمعاجلة، فأخذوا عند ذلك منهج الفرار، ولم يكن لهم على لقاء المسلمين من قرار، وقُتل منهم عند الانكسار محمد بن سلامة وستة معه، وأخذوا جميع الغنم المرتبعة.

ثم دخلت السنة الثانية والستون بعد المائة والألف.

وفيها وقعة تسمى الحبونية[1] سميت بذلك لأن القتال بها صار، وهُدم ما بها من جدار، وذلك أن المسلمين ساروا إلى الرياض، وأميرهم محمد بن سعود، رحمه الله تعالى، فلم يصلوا إليها إلا وضوء الصبح قد انتشر، وخرج أهل البلد إذ لم يأتهم ما يوجب الحذر، هذا وجيش المسلمين قد استعلى على تلك البروج، فلم يكن لأهل البلد إليها من عروج، وأخذوا يَتَرَامَوْنَ معهم بالرصاص، ولكن ليس إلى المقاربة من سبيل ولا مناص، وقد قُتل بينهم رجال في ذلك المجال، فقُتل من المسلمين ثلاثة: عبد الله بن شوذب وعبد الله بن حمود وغنام بن دعيج، وقُتل من أهل الرياض سبعة، منهم عبد الله بن سبيت،

---

(١) حي كبير في جنوب الرياض.

فلما غربت الشمس ذلك اليوم سار المسلمون إلى منفوحة.

وقد وقعت في هذه السنة وقعات كثيرة، لكنها صغار، فلهذا لم يكن لنا إلى تعدادها اعتبار.

ثم دخلت السنة الثالثة والستون بعد المائة والألف.

وفيها مقتل عثمان بن معمر، جزاء لما أبطنه وأضمر، وذلك أنه لما تزايد شره على أهل التوحيد، وأخذ يعمل في إذلالهم بلا ترديد، وظهر للمسلمين بغضه، وبدا لهم منه هجرانه ورفضه، وتبين لهم موالاته لأهل الباطل، وما ربك عما أراده بغافل، وتحقيق تقريبه للمنافقين واستئلافه، واشتهر شقاقه للمسلمين واختلافه، وكانت حاله بذلك شهيرا[1]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

فلما تحقق الشيخ عنه ما ذُكر، وتيقن ما سُطر، وجاءه أهل البلاد كافة، وشكوا إليه خشية الغدر والمخافة، وتثبت في تسطير هذه الأنقال، وتحرير ما يُرمَي به من سيئ الأفعال، وتحقيق ما له أُنمِيَ وخشي، على المسلمين وقوع ما به رمي، قال لمن قدم إليه ووفد عليه من أهل العيينة: أريد منكم البيعة على دين الله ورسوله، وعلى موالاة من والاه، ومعاداة من حاربه أو ناواه، ولو أنه أميركم عثمان. فأعطَوه على ذلك صفقة الإيمان، فتتابعوا على البيعة أفواجًا، فمُلِئ قلب عثمان من ذلك رعبًا وانزعاجًا، فعند ذلك زاد ما به من الغل

(١) قال ابن بشر (١ / ٢٣): «قيل إنه أتاه كتاب من محمد بن عفالق يُحرصه على معاداة المسلمين، ونقض بيعتهم، وعدهم». قلت: انظر مراسلاته مع ابن عفالق عدو الدعوة في بحث «موقف عثمان بن معمر من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب»؛ للدكتور عبدالعزيز آل عبداللطيف. ضمن كتابه «بحوث علمية محكمة» (ص ٢٩٣ - ٣٠٩).

والحقد، وزين له الشيطان أنه لا يفوز بالقصد، حتى يفتك بأهل الإيمان، ويُجْلِيَ مَن يُسلِم لأقصى البلدان، فينجلي ما بقلبه من الهم والأحزان، فأرسل لابن سويط[١] وإبراهيم بن سليمان[٢] يحثهم ويدعوهم إلى المجيء عنده والاجتماع، حتى يُنْفِذَ ما عزم عليه بالمسلمين من الإيقاع.

فلما تحقق أهل الإسلام، ما عزم عليه من ذلك المرام، وأبرز الملك العلام، لذوي الألباب من الأنام، مصداق قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، فتعاطى الأيمانَ على قتله من أهل التوحيد أناس، أرادوا بذلك القربة وإراحة الناس، وإزاحة ما عزم عليه من إيقاع النقمة والبأس، ومن مشاهيرهم حمد بن راشد وإبراهيم بن زيد، فأبطل الله بهم ذلك المكر والكيد، فلما انقضت صلاة الجمعة، وخرج سَرَعَانُ الناس مُسْرِعَة، قتلوه في مسجده ومصلاه، وأريح المسلمون من أذاه، فلم يَنْتَضِ لذلك سِنَان، بل لم تنتطح لمقتله عنزان، بل أُغْمِدَت، واللهُ المحمودُ، قواضب الفتنة، وأُخْمِدَت لواهب المحنة، واطمأن المسلمون، ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فلما قُدِمَ إلى الدرعية بتحقيق هذه القضية، وأسرع بذلك إلى الشيخ والأمير محمدٍ البشيرُ، عجّل الشيخ إلى العُيَيْنَة المسير، وذلك لَما خشيه من الاختلاف، وعدم الموافقة والائتلاف، وقدم عليهم ثالث يوم، فهدأت لمقدمه نفوس القوم، وتجاذبوا عنان الرأي والمشورة، والقضية في ذلك مشهورة، في الترئيس والتأمير، وتفويض الرياسة والتدبير، والكل بما يوافق مراده مشير، إلا أن أهل

---

(١) رئيس الظفير.

(٢) رئيس ثرمدا.

التوحيد والإيمان، لا سيما من باشر أو سعى في قتل عثمان، حاولوا ألا يؤمَّر مِن حَمُولة ابن معمر، ولا يولى عليهم منهم إنسان، خشية أن ينالهم منه ذل وهوان، فلم يوافقهم الشيخ في مرادهم، ولم يعرِّج على اجتهادهم، بل أبى وأعرض عن ذلك، وجنح إلى تمهيد المسالك، وإيضاح المحجة للسالك، فرأَّس عليهم مشاري بن معمر، وكبَّره فيهم وأمَّر، وكان ذلك منتصف رجب، كما حققه مَن حَسَب.

وفي هذه السنة أيضًا وقعة تسمى وقعة البطحاء[1] وذلك أن المسلمين عَدَوْا على الرياض ليلًا، فدخلوا البلاد، واستحر القتال والجلاد، عند باب المروة، بعدما دخلوها فجوة، فلما تراجع على المسلمين الإفزاع، نهد[2] غالبهم إلى الخروج والإسراع، ودارت الحروب على سبعة، وحصلت لهم من الله إعانة ومنعة، منهم: علي بن عيسى الدروع وسليمان بن موسى الباهلي ومحمد بن حسن الهلالي وعلي بن عثمان بن ريس وعبد الله بن سليمان الهلالي وإبراهيم الحر، فاقتتلوا أشد القتال، مع ضيق المعترك والمجال، فقتل تلك الساعة، من مشركة تلك الجماعة، ناصر بن معمر وجنيدل وخمسة أخر، ولم يُقتل من المسلمين إلا عبد الله بن سليمان وسليمان بن جابر من الأولين.

وفيها أيضًا جرت وقعة تسمى وقعة الوطية[3]، وكانت من أعظم قضية، وذلك أن المسلمين غَزَوا، وأميرهم عبد العزيز، حفظه الله، وساروا إلى ثرمدا سريعًا، فجاءهم النذير، فاجتمعوا مع أهل وثيثيه ومرات جميعًا، فلم يأتهم

---

(١) حي من أحياء الرياض، يقع شرق دخنة.

(٢) يقال: نهد القوم إلى بعضهم البعض؛ أي تجمعوا واستعدوا للحرب.

(٣) قال ابن بشر (١ / ٢٤): «موضع معروف في بلد ثرمدا».

الجيش والأجناد إلا وهم في أتم الاستعداد وتأهب للجلاد، وقد برزوا خارج البلاد، ولكن المسلمون قد أعدوا لهم كمينًا، فلما استمر القتال مليًّا، خرج عليهم ذلك الكمين، فانهزموا مدبرين، وقتل منهم خمسة وعشرون، منهم أمير وثيثيه علي بن زامل، وسبيهان، وكثير من تلك الشجعان.

ثم دخلت السنة الرابعة والستون بعد المائة والألف.

وفيها عدا المسلمون على الرياض، فاقتتلوا داخل البلد حتى ذهب الصبر والجَلَد، وتلاحقت أهل البلاد على المسلمين، فخرجوا بعد القتال منهزمين، وقد قُتل أناس من المشركين، وقُتل نحو الثمانية من المسلمين، منهم علي بن عيسى الدروع، خانه القضاء فلم يَفر لمّا كثرت عليه الجموع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان من الفتاك والشجعان، المشهورين بالعلو على الأقران، والصبر عند الطعان، في ذلك الوقت والزمان.

وفيها ارتد إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن أمير ضرما، ورجع عن الإسلام وخان، وقَتلَ من أشراف جماعته وقومه، لشؤم فعله ولومه، عمر الفقيه ورشيد العيزار وابن عيسى، لكونهم من أهل الإسلام والدين، وفي الدنيا من أهل الثروة والتمكين، فأَخَذَ مالهم بعد قتلهم أجمعين، فلم يَقُم بعد هذه الفعلة، سوى أربعة شهور في المُهلة، حتى قُتل هو وأولاده هبدان وسلطان، وأناس غيرهم من الأعوان، المشهورين بالتعدي والطغيان، وهرب مَنْ سَلم إلى سائر البلدان.

وصفة ما صدر: أن آل سيف السيايرة صقر وإخوانه وإبراهيم بن سلطان آل ذباح، تعاهدوا وتعاطوا الأيمان، على الفتك به لما ارتد وخان، فأَتَوه مع جماعته وهم في المجلس قعود، فقتلوهم وفازوا بالمقصود، ثم بعد هذه القضية المسطورة، ولّى الأمير محمد بن سعود عبدَ الرحمن إمارة ضرما المذكورة.

وفيها غزا المسلمون الزلفي، وأميرهم إذ ذاك عبد العزيز، فلما وصلوا الحسي[1] حُمَّ عبد العزيز، حفظه الله، فأمَّر على الغزو عبدَ الله بن عبد الرحمن، وانقلب راجعًا، فأغار الغزو على الزلفي، وأخذ غنمًا كثيرة ثم رجع.

ثم دخلت السنة الخامسة والستون بعد المائة والألف.

وفيها جرت خيانة أهل رغبة لأهل سدير والوشم، وذلك أن أهل سدير والوشم وجرّو معهم آل ظفير، وحزّبوا على أهل رغبة، وهم إذ ذاك قد دخلوا في الإسلام، وجرت عليهم الأحكام، فحصروهم في البد أيام، ثم إن بعض أهل البلاد، جنحوا إلى طريق الفساد، وأدخلوا تلك الأحزاب والأجناد، وحقن الله دماء أهل التوحيد من ذوي الإفساد، إلا أنهم أخذوا جمع أموال البلاد، وصب الله على أهلها سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد، فأصبحوا بعد حلول هذه المصائب عليهم والنِّقم، يَعَضُّون أنامل الأسف والندم، على ما حَلَّ بهم ودَهَم.

وفيها أيضًا حزّب أهل الضلال؛ أهل الوشم وأهل سدير وأهل الجنوب وآل ظفير وجلوية ضرما، فساروا إلى ضرما، وحصروا أهلها أيامًا، وعزموا أن يطيلوا بها مقامًا، وفي مدة هذه الإقامة، كلٌ شَدَّ للقتال ساعده وشدد سهامه، حتى أنهم في بعض أيام الحصار، نصبوا السلالم على رفيع ذلك الجدار، وأرخصوا في نيل مطلوبهم غالي الأعمار، طلبًا للفوز بالمنى والأوطار، وأخذًا بأنَفةِ الثأر، فصعد منهم السور، مَن قرُب أجلُه من الحضور، وكانوا نحو الثلاثين، فلم يرجع منهم أحد، وقُتل غيرهم خلق كثير يزيدون على العشرين في العدد، وغالب القتلى من أهل الحريق، ومنهم حمد بن عثمان الهزاني على التحقيق، ثم رجعوا بعد ذلك خاسرين، ومن مرادهم خائبين.

---

(١) تبعد عن الرياض شمالًا حوالي ٩٠ كم.

وفيها غزا المسلمون الخرج، وأميرهم في تلك الغزوة مشاري بن معمر، فأغار على الدلم، وأخذوا جميع سوائم الغنم، ثم انقلبوا راجعين، ولبلدانهم طالبين، فاقتفى أهل الخرج آثارهم، بعد ما تحقق عدتهم وعرف أخبارهم، فوقعت في عفجة الحائر الموافاة، وحصلت المصادمة والملاقاة، فأناخ لهم المسلمون، وكلهم للموت مستوطنون، لأن عددهم على الأربعين لا يزيد، والفزع فوق المائة بالتوكيد، فوطَّنُوا نفوسًا عن الفرار أَبِيَّة، وأخلصوا عند ذلك النية لخالق البرية، وصبروا عند هذه البلية، فجرى القتال من بعيد، والكل يرمي بالبنادق ويجيد، فلما رأى المسلمون ذلك لا يجدي ولا يفيد، نَهَدُوا عليهم للاختلاط، وعاجلوهم لقصد الارتباط، فلما عاينوا من المسلمين الموت، عرفوا أن لا منجا سوى الهروب والفوت، فكلٌ منهم امتطى راحلته ونار[1]، وآثر الهروب والفرار، ولم يكن لهم على ملاقاة المسلمين اصطبار، وقَتَلَ المسلمون منهم قريبًا من الثلاثين رجل، منهم شريقان قرُب له الأجل، وأخذوا كثيرًا من الركايب والسلاح، وبدا للمسلمين في ذلك الطلب الفلاح، وكان خيرة لهم وصلاح، كما قيل:

الصبر كالصبر مُرٌّ في مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

وأعلى من ذلك وأرفع، وأعلى منه وأنفع، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، متع الله به المسلمين، وأغاروا على فريق بدو يقال له (دهيمان) فأخذوهم أجمعين، وقُتِلَ من المسلمين اثنان: علي بن عثمان بن ريس وابن جري عمران.

وفيها وقعت من أهل حريملاء الردة والافتتان، واجتمع على ذلك كل إنسان،

---

(١) نار: هرب.

من أهل الفساد والعصيان، وتمالأوا على قتل مَن عندهم مِن أهل التوحيد والإيمان، وحملهم على ذلك الشيطان، وزين لهم ما كانوا عليه سابقًا من البغي والطغيان، وزخرف لهم سننهم القديمة في غابر الزمان، وأظهر لهم أن شوارق الدين والإيمان تُعْقِبُهم الذلة والهوان، فصار كل منهم إلى الفتنة ظمآن، وإلى لقاء الردة ولهان، فلهذا أوضحوا سبل الفتنة والردة، وأخذوا في تهيئة أسبابها المُعَدَّة، وأقاموا جهرًا أعوجَهَا، وشادُوا طريقها ونهجها، وتبينت لها منهم أسباب، وتوهم المسلمون منهم قبل وقوعها فتح باب، وعرفوا أنهم على الدين ليسوا بماكثين، بل ناقضين للعهد ناكثين.

واستنشق الشيخ من أخيه سليمان، أنه لأسباب الردة معوان، وأنه يُلْقِي إلى الرُؤسَا، وخاصة من الجُلَسَا، شُبهًا كثيرة، وإنما دعاه إلى هذا الحسدُ لأخيه والغيرة، فلأجل إلقائه عليهم الشُبه، وترويجه عليهم بما خفي معنىً واشتبه، كاتبه الشيخ وناصحه، بل أنبه وكافحه، وحذره شؤم العاقبة، وبين له أنه لا يُدرك مطالبه، فلم تُجْدِهِ النصائحُ والإنذار، ولم يجنح إلى منهج الاعتبار ومحجة الاستبصار، والطمأنينة والسكنى في تلك الديار، بل طلب واختار ركوب كواهل الأخطار.

وكان سليمان قبل أن يُطير من الردة اللهب، حين عزله الشيخ وعتب، أرسل إلى الشيخ رسالة، حبَّر فيها كلامه ومقاله، وزخرف فيها أقواله، ولكنها للعهد قد تضمنت، ولعقد الإيمان قد حوت وأحكمت، أنه إن وقع من أهل حريملاء ارتداد، لا يقيم يومًا في تلك البلاد، فلم يَفِ بذلك الوعد، بل أخلف الميثاق والعهد، وآثر السكنى والبقاء، أيام الفتنة والشقاء، كيف لا وهو أبو غدرها، والباعث على تأسيس أمرها، والداعي إلى تأسيس قبيحها ونُكرها.

وصفة ما جرى وصدر، وظهر منهم وبدر، أن كبار القرية، الذين تعاهدوا

على الفِرية، عزلوا محمد بن عبد الله بن مبارك، وكان هو الأمير، وولي التنفيذ والتدبير، وأصابه منهم إنسان، يسمى ابن حوشان، ثم أَجْلَوه مع أولاده، عن مسكنه وبلاده، وفر غيره من أهل الدين، إلى بلدان المسلمين، منهم عدوان بن مبارك وابنه مبارك بن عدوان وعثمان بن عبد الله أخو الأمير وعلي بن حسن وناصر بن جديع وغيرهم، فأتوا إلى الشيخ وإلى الأمير محمد بن سعود، فأخبروهم بذلك الأمر المشهود، وشرحوا لهم تلك الأفعال، وبينوا لهم مَن نَهَدَ فيها من الرجال.

ثم بعد ذلك بأيام قلائل، أرسلوا حمولة الأمير وعصابته إليه الرسائل، وزينوا له المجيء والقدوم، وحسنوا له الإقبال والهجوم، ووعدوه بعد الوصول، المساعدة على المأمول، والقيام معه والتبيين، ورده في منصبه والتمكين، فاستشار الشيخ في ذلك والأمير، ولم يكن أحد منهما بذلك مشير، وقالا: إن كان لا بد أنت فاعل، فإني لمدد معك جاعل، يكون لك عونًا على من هو خاتل. فأبى عن المراد، وأقبل بمن معه من العباد، حتى دخل تلك البلاد، وكان دخوله في غسق الدجا، فلم يشعر به جماعته إلا حين توغل وفجا، فلما تلألأ من الفجر نوره، وولى من الظلام ديجوره، تبين عند أهل البلد مجيئه وحضوره، فلم يكن لهم عليه بد من القيام، فأقبل عليه منهم فئام، وجَرَّعُوه كأس الحِمَام، وكَتَب له الشهادةَ ومَن معه المَلِكُ العَلَّام، إلا مبارك بن عدوان فهرب، وأعجزهم في الطلب، وكان جملة المقتولين ثمانية، كانت مناياهم دانية، ولم يحصل من رفاقته النصرة له والنجدة، ولم يُنجحوا مراده وقصده، بل خذلوه وتركوه مع من جاء وحده، ولا ينفع الحذر إذا حُمَّ القدر ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ بل ينقطع أمدها وأملها.

ثم بعد ذلك اجتهدوا في أسباب الحرابة، وأعدوا للحرب عدته وأسبابه،

وانتفخ منهم السَحْر[1] لما جرى وصدر، ولم يكن لهم عزم ولا همة، بعد إتيانهم تلك المدلهمة، إلا البناء على البلاد والتسوير، مخافة الخراب والتدبير، ثم أرسلوا إلى مشاري بن معمر، أن يدخل معهم في هذا الأمر المقرر، فأعرض عن ذلك وأنكر، وبقوا على ذلك الحصار، ومكابد الأضرار، بقية تلك السنة، لا تُخالط أجفانهم في الدجى سِنَة، وكانت تلك القضية في شوال، من غير شبهة ولا إشكال.

ثم دخلت السنة السادسة والستون بعد المائة والألف.

عدا أهل حريملاء على أهل الدرعية، فلم يحصلوا من ذلك بالأمنية، ثم عدا المسلمون عليهم مرات، وكروا عليهم في بلادهم كرات.

وفي آخر تلك السنة ارتد أهل منفوحة عن الدين، ونبذوا عهد المسلمين، وطردوا محمد بن صالح إمام المصلين، ﴿ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، فلما وقعت هذه الواقعة، خرج مهاجرًا من نفسه إلى الحق وازعة، وإلي الدين نازعة، وللباطل وأهله رادعة، وللشيطان قامعة، وفي أسباب الخير طامعة، وكان من خرج منهم في يوم سبعين، ثم بعده تلاحق أناس منهم مسترسلين.

ثم دخلت السنة السابعة والستون بعد المائة والألف.

وفيها طلب دهام، من الأمير محمد بن سعود الدخول في الذمام، وأن تجرى عليه وعلى بلاده أحكام الإسلام، ويقوم بتلك الوظائف والأحكام، وقصده بذلك الخديعة وإحكام حبلها أشد الإحكام، فطلب عليه خيل وسلاح، فلم ير بذلك بأسًا ولا جناح، ورغب في منهاج الإصلاح، فبذل ما طلب، وجنح للهداية ورغب، واستدعى من الشيخ رجلًا إمامًا، يطيل عنده مقامًا، وينشر في

---

(١) السَحْر: الرئة.

بلده للرعية أحكامًا، فأرسل إليه عيسى بن قاسم، فكان بشرائع الإسلام حاكم، وبتعليم التوحيد قائم، يقوم بذلك ويقعد، ويدل على الله تعالى ويرشد، ويجد حسب طاقته ويجمد، فانتفع به من أهل الرياض جماعة، حصلوا من التوحيد على بضاعة، وصارت لهم فيه قدم، ولهذا هاجروا لما نبذ دهام العهد وخرم، وسيأتي ذكرهم في محله، عند تحرير الارتداد ونقله.

وفيها جمع الشيخ أهل الإسلام من جميع البلدان، وبين المواعظ في الكلام غاية البيان، لما تظاهر من تظاهر بالردة والخذلان، وأوضح ما يجري على أهل التوحيد، من فجار العبيد ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وكشف لهم معاني آيات القرآن، وما ذكر في محكم التبيان، وكلهم لقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، منصتون، ولما يلقيه من الحكم والمواعظ يسمعون، ويتلو عليهم ما به ينتفعون ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وبشرهم بالنصر والظفر، وحصول المنى وقضاء الوطر، إن برحوا على الدين واستقاموا، ولم يبرحوا عنه بل ثبتوا عليه وداموا، وأمرهم بالرجوع إلى الله والتوبة، وصدق النية والأوبة، وتصدقوا بصدقات كثيرة، وسألوا الله النصر وتيسيره.

وفيها مقتل أولاد سيف السيايرة صقر وإخوانه، لما قاموا مع الباطل وأعوانه، وهموا بقتل الأمير، فأخبره بذلك النذير، فبادر إلى قتلهم، خشية فعلهم، فبادر بذلك وأسرع، وقتلهم بفوره أجمع، ولم يعاود على قتلهم أحد، بل جد في ساعته واجتهد.

وفيها مقتل سليمان بن خويطر، وسبب ذلك أنه قدم بلدة حريملا خفية، وهم إذ ذاك بلد حرب، فكتب معه سليمان بن عبد الوهاب إلى أهل العيينة كتاب، وذكر فيه شُبهًا مزخرفة، وأقاويل مغيرة محرفة، وأحاديث أوهى من نسخ العنكبوت، وأمره أن يقرأها في المحافل والبيوت، وألقى في قلوب أناس من

أهل العيينة، شُبَهًا مُضِرَّة شينة، غيَّرت قلوب من لم يتحقق بالإيمان، ولم يعرف مصادر الكلام بالإتقان، فكان يفعل ما به أُمر، فلما تحقق حاله واختبر، أمر الشيخ به أن يُقتل فقُتل، وامتُثِلَ أمره وقُبِل.

ثم إن سليمان على حالته لم يزل، يرسل الشُبَه في الكتب لأهل العيينة مع من خرج منهم ودخل، ويبذل في ذلك الجد في العمل.

ثم إن الشيخ أرسل لأهل العيينة رسالة[١]، أبطل فيها ما مَوَّهَ به سليمان وما قاله، وعطَّل فيها كلامه وأقواله، نَحَا فيها منهج الصدق، وبيَّن واضح الصواب والحق، فهي تجر زخر تياره وطمي، وسحاب هَمَل ودقه وهمى، زين فلكها بنجوم الحق الزواهر، وأشحن فلكها بعلوم التوحيد الزواخر، تلين قلوب السامعين لقولها، ويصغي لها أهل الهدى بمسامع، دلائلها محروسة عن معارض، وآياتها محفوظة عن مدافع، وهذا فصلها بحروفها.



فصل

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

روى مسلم في صحيحه عن عمرو بن عبسة السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت، وأنا في الجاهلية، أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان. قال: فسمعت برجل في مكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي حتى قدمت عليه، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستخفيًا، جُرَآءُ عليه قومُهُ، فتلطفت حتى

(١) تُسمى: «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد»، طُبعت مرارًا. ومن آخر شروحها: «فتح العلي الحميد في شرح كتاب مفيد المستفيد»؛ لمدحت آل فراج.

دخلت عليه بمكة، فقلت: وما أنت؟ فقال: «**أنا نبي**» قلت: وما (نبي)؟ قال: «**أرسلني الله**» فقلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: «**أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ به شيء**»، فقلت: ومن معك على هذا؟ قال: «**حر وعبد**» قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال. فقلت: إني مُتَّبِعُكَ. فقال: «**إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، أَلَا تَرَى حالي وحالَ الناس! ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سَمِعتَ بي قد ظَهَرتُ فَأْتِنِي**» قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم نفر من أهل يثرب، من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراعًا، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك. فقدمت المدينة، فقلت: يا رسول الله، أتعرفني؟ قال: «**أنت الذي لقيتني بمكة**» قال: فقلت: يا نبي الله، أخبرني عما علَّمَك الله وأجهَلُهُ، أخبرني عن الصلاة. قال: «**صلِّ صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس، وحتى ترتفع؛ فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وهي حينئذ يسجد لها الكفار، ثم صلِّ؛ فإن الصلاة مشهودة محضورة، حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة؛ فإنها حينئذ تُسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فإن الصلاة محضورة حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس؛ فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار...**» وذكر الحديث[1].

قال أبو العباس رحمه الله: فقد نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب؛ بأنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان، وأنه حينئذ يسجد لها الكفار، ومعلوم أن المؤمن لا يقصد السجود إلا لله، وأكثر الناس قد لا يعلمون

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢).

أن طلوعها وغروبها بين قرني شيطان، ولا أن الكفار يسجدون لها، ثم إنه ﷺ نهى عن الصلاة في هذا الوقت حسمًا لمادة المشابهة، ومن هذا الباب أنه كان إذا صلى إلى عود أو عمود جعله على حاجبه الأيمن، ولم يصمد إليه صمدًا، ولهذا نهى عن الصلاة إلى ما عُبِدَ مِن دون الله في الجملة، ولهذا يُنهَى عن السجود لله بين يدي الرجل؛ لما فيه من مشابهة السجود لغير الله[1]. انتهى كلامه.

فليتأمل المؤمن الناصح لنفسه ما في هذا الحديث من العبر، فإن الله سبحانه يقص علينا أخبار الأنبياء وأتباعهم ليكون للمؤمنين من المستأخرين عبرة، فيقيس حاله بحالهم، وقص قصص الكفار والمنافقين لِتُجْتَنَب ويُجْتَنَب من تلبس بها أيضًا.

فمما فيه من الاعتبار أن هذا الأعرابي الجاهل لما ذُكر له أن رجلًا بمكة يتكلم بالدين بما يخالف الناس، لم يصبر حتى ركب راحلته، فقدم عليه وعلم ما عنده، لما في قلبه من محبة الدين والخير، وهذا فُسِّر به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: حرصًا على تعلم الدين ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم. فهذا يدل على أن عدم الفهم في أكثر الناس اليوم عدل منه سبحانه؛ لما يعلم ما في قلوبهم من عدم الحرص على الدين، فتبين أن من أعظم الأسباب الموجبة لكون الإنسان من شر الدواب، هو عدم الحرص على التعليم، وإذا كان هذا الجاهل يطلب هذا الطلب، فما عذر مَن ادعى اتباع الأنبياء، وبلغه عنهم ما بلغه، وعنده من يُعرِض عليه التعليم، ولا يرفع بذلك رأسًا، فإن حضر أو استمع فكما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٤/ ١٢٧ - ١٢٨).

وفيه من العبر أيضًا أنه لما قال: «**أرسلني الله**» قال: بأي شيء أرسلك؟ قال بكذا وكذا، فتبين أن زبدة الرسالة الإلهية والدعوة النبوية هي توحيد الله، بعبادته وحده لا شريك له، وكسر الأوثان، ومعلوم أن كسرها لا يستقيم إلا بشدة العداوة وتجريد السيف، فتأمل زبدة الرسالة.

وفيه أيضًا أنه فهم المراد من التوحيد، وفهم أنه أمر كبير غريب، ولأجل هذا قال: من معك على هذا؟ قال: «**حر وعبد**» فأجابه أن جميع العلماء والملوك والعامة مخالفون له، ولم يتبعه على ذلك إلا مَن ذُكر، فهذا أوضح دليل على أن الحق قد يكون أقل القليل، وأن الباطل قد يملأ الأرض.

ولله دَرُّ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث يقول: لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين. وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الصحيحين[1] أن بَعْثَ النار مِن كل ألفٍ تسعةٌ وتسعون وتسعمائة، وفي الجنة واحد من كل ألف، ولما بكوا من هذا لما سمعوه قال ﷺ: «**إنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا أكملت من المنافقين**»[2] قال الترمذي: حسن صحيح.

فإذا تأمل الإنسان ما في هذا الحديث من صفة بدء الإسلام، ومَن اتَّبع الرسول ﷺ إذ ذاك، ثم ضم إليه الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم أيضًا أنه قال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[3] تبين له الأمر إن هداه الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٠).
(٢) الجامع للترمذي (٣١٦٨) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الترمذي).
(٣) صحيح مسلم (١٤٥).

وانزاحت عنه الحجة الفرعونية: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والحجة القرشية: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾.

وقال أبو العباس رحمه الله، تعالى، في (اقتضاء الصراط المستقيم) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: وأيضًا: فإن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ظاهره أنه ما ذبح لغير الله، سواء لفظ به أو لم يلفظ، حرام، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذُبح للحم وقال فيه: باسم المسيح. ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى مما ذبحناه للحم وقلنا عليه: باسم الله. فإن عبادة الله بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، والعبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، فلو ذبح لغير الله متقربًا إليه لحرم، وإن قال فيه: باسم الله. كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، وإن كان هؤلاء مرتدِّين، لا تباح ذبائحهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، ومن هذا ما يُفعَل بمكة وغيرها من الذبح للجن[1]. انتهى كلام الشيخ، وهو الذي ينسُبُ إليه بعضُ أعداء الدين أنه لا يكفِّر المعيَّن، فانظر رحمك الله إلى تكفيره من ذبح لغير الله من هذه الأمة، وتصريحه أن المنافق يصير مرتدًّا بذلك، وهذا في المعين؛ إذ لا يُتصوَّر أن تحرم إلا ذبيحة معين.

وقال أيضًا في الكتاب المذكور: وكانت الطواغيت الكبار التي تشد إليها الرحال ثلاثة: اللات والعزى ومناة، وكل واحد منها لمصر من أمصار العرب، فكانت اللات لأهل الطائف، وذكروا أنه في الأصل رجلًا صالحًا يَلُتُّ السَوِيق للحاجّ، فلما مات عكفوا على قبره، وأما العزى فكانت لأهل مكة قريبًا من عرفات، وكانت شجرة يذبحون عندها ويدعون، وأما مناة فكانت لأهل

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٦٤ - ٦٥).

المدينة، وكانت حذو قُديد من ناحية الساحل، ومن أراد أن يعلم كيف كانت أحوال المشركين في عبادة أوثانهم، ويعرف حقيقة الشرك الذي ذمه الله وأنواعه، حتى يتبين له تأويل القرآن، فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ وأحوال العرب في زمانه، وما ذكره الأزرقي في (أخبار مكة) وغيره من العلماء.

ولما كان لأهل الشرك شجرة يعلقون عليها أسلحتهم، ويسمونها (ذات أنواط) فقال بعض الناس: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط. فقال: «**الله أكبر، إنها السَّنَن، لتركبنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم**»، فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أَطَمُّ من ذلك أو هو الشرك بعينه؟[١]

إلى أن قال: فمِن ذلك عدة أمكنة بدمشق، مثل مسجد يقال له (مسجد الكف) الذي فيه تمثال كف يقال إنه كف علي بن أبي طالب، حتى هدم الله ذلك الوثن، وهذه الأمكنة كثيرة موجودة في أكثر البلاد، وفي الحجاز منها مواقع[٢].

ثم ذكر كلامًا في نهيه ﷺ عن الصلاة عند القبور، فقال: العلة لما يُفضي إليه ذلك من الشرك، وذكر ذلك الشافعي وغيره، وكذلك الأئمة من أصحاب أحمد ومالك، كأبي بكر الأثرم، عللوا بهذه العلة، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ ذكر ابن عباس وغيره من السلف أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم وصوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، ذكر هذا البخاري في صحيحه[٣] وأهل التفسير كابن جرير وغيره.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣١٣ - ٣١٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣١٨).

(٣) صحيح البخاري (٤٩٢٠).

ومما يبين صحة هذه العلة أنه لعن من يتخذ قبور الأنبياء مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا يكون ترابها نجسًا، وقال في نفسه: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**» فعُلم أن نهيه عن ذلك كنهيه عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، فسَدَّ الذريعة لئلا يُصَلِّي في هذه الساعة، وإن كان المصلِّي لا يصلِّي إلا لله ولا يدعو إلا إياه، لئلا يفضي ذلك إلى دعائها والصلاة عندها.

وكِلَا الأمرين قد وقع، فإن من الناس من يسجد للشمس وغيرها من الكواكب، ويدعوها بأنواع الأدعية، وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضل به كثير من الأولين والآخرين، حتى شاع ذلك في كثير ممن ينتسب إلى الإسلام، وصنف فيه بعض المشركين كتابًا على مذهب المشركين، مثل أبي معشر البلخي وثابت بن قرة، وأمثالها ممن دخل في الشرك وآمن بالجبت والطاغوت، وهم ينتسبون إلى الكتاب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]. انتهى كلام الشيخ، رحمه الله تعالى.

فانظر، رحمك الله، إلى هذا الإمام الذي نَسَب عنه مَن أزاغ قلبه عدمَ تكفير المعيَّن، كيف ذكر عن مثل الفخر الرازي، وهو من أكابر أئمة الشافعية، ومثل أبي معشر، وهو من المشهورين المصنفين، وغيرهما أنهم كفروا وارتدوا عن الإسلام، والفخر هو الذي ذكره الشيخ في الرد على المتكلمين، لما ذكر تصنيفه الذي ذكر هنا، قال: وهذه ردة صريحة باتفاق المسلمين. وسيأتي كلامه إن شاء الله تعالى.

وتأمل ما ذكر أيضًا في اللات والعزى ومناة، وجعله بعينه هذا الذي يُفعَل بدمشق وغيرها.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٠٤ - ٤٠٥).

وتأمل قوله على حديث ذات أنواط هذا، قوله في مجرد مشابهتهم في اتخاذ شجرة: فكيف بما هو أطم من ذلك من الشرك بعينه. فهل الزائغ بعد هذا متعلق بشيء من كلام هذا الإمام؟

وأنا أذكر لفظه الذي احتجوا به على زيغهم، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنا من أعظم الناس نهيًا عن أن يُنسَب معيَّن إلى تكفير أو تبديع أو تفسيق أو معصية، إلا إذا عُلم أنه قد قامت الحجة الرسالية التي مَن خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى(١). انتهى كلامه.

وهذا صفة كلامه في المسألة، في كل موضع وقعنا عليه من كلامه، لا يذكر عدم تكفير المعين إلا ويصله بما يزيل الإشكال، أن المراد بالتوقيف عن تكفيره قبل أن تبلغه الحجة، وإذا بلغته حُكم عليه بما تقتضيه تلك المسألة من تكفير أو تفسيق أو معصية.

وصرح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أيضًا أن كلامه أيضًا في غير المسائل الظاهرة، فقال في الرد على المتكلمين، لما ذكَر أن بعض أئمتهم توجد منهم الردة عن الإسلام كثيرًا، قال: وهذا إذا كان في المقالات الخفية، فقد يقال إن مخطئ ضالٌّ، لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها، لكن يصدر هذا منهم في أمور يعلم الخاصة والعامة من المسلمين أن رسول الله ﷺ بُعث بها وكفَّر من خالفها، مثل عبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحد سواه من الملائكة والنبيين وغيرهم، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام، ومثل إيجابه للصلوات الخمس وتعظيم شأنها، ومثل تحريم الفواحش والزنا والخمر والميسر، ثم تجد كثيرًا من رؤوسهم وقعوا فيها، فكانوا مرتدين، وأبلغ من ذلك أن منهم من صنف في دين المشركين، كما

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٩).

فعل أبو عبد الله الرازي. يعني الفخر الرازي، قال: وهذه ردة صريحة[١].

فتأمل هذا، وتأمل ما فيه من تفصيل الشبهة التي يذكرها أعداء الله، لكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا. على أن الذي نعتقد، وندين الله به، ونرجو أنه يثبتنا عليه، أنه لو يغلط أو أَجَلُّ منه في هذه المسألة، وهي مسألة المسلم إذا أشرك بعد بلوغ الحجة، أو المسلم الذي يفضِّل هذا على الموحدين، أو يزعم أنه على حق، أو غير ذلك من الكفر الصريح الظاهر، الذي بينه الله ورسوله، وبينه علماء الأمة، أنا نؤمن بما جاءنا عن الله وعن رسوله، ولو غلط من غلط، فكيف والحمد لله ونحن لا نعلم عن واحد من العلماء خلافًا في هذه المسألة، وإنما يلجأ مَن شاقَّ فيها إلى حجة فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وحجة قريش: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

وقال الشيخ رحمه الله، في الرسالة السنية، لما ذكر حديث الخوارج ومروقهم من الدين وأمره ﷺ بقتالهم، قال: فإذا كان على عهد النبي ﷺ وخلفائه ممن انتسب إلى الإسلام، من مرق منه، مع عبادته العظيمة، حتى أمر ﷺ بقتالهم، فيُعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام، وذلك بأسباب، منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه، حيث قال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ الآية. وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، حرَّق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كندة فقذفهم فيها، واتفق الصحابة على قتلهم، لكن ابن عباس كان مذهبه أن يُقتلوا بالسيف بلا تحريق، وهو قول أكثر الصحابة، وقصتهم معروفة عند العلماء.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٤ - ٥٥).

وكذلك الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح ونحوه، فكل مَن غَلَا في نبي أو رجل صالح، وجعَل فيه نوعًا من الإلهية، مثل أن يقول: سيدي فلان انصرني. أو: أغثني. أو: ارزقني. أو: اجبرني، وأنا في حسبك. ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال، يُستتاب صاحبُه، فإن تاب وإلا قُتل، فإن الله إنما أرسَل الرسل وأنزل الكتب لِيُعبد وحده، لا يجعل معه إله آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى، مثل المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، وتُنزل المطر، وتُنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم أو صورهم، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فبعَث اللهُ رسولَه يَنهَى أن يُدعَى أحدٌ من دونه ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدْعون المسيح وعُزيرًا والملائكة[1].

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ، آيات، ثم قال: عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل الدين، وهي أصل التوحيد الذي بعث به الرسل وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وكان ﷺ يحقق التوحيد ويُعلمه أمته، حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال: «**أجعلتني مع الله ندًّا! بل: ما شاء الله وحده**»[2] ونهى عن الحلف بغير الله، وقال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[3] وقال في مرض موته: «**لعن الله اليهود والنصارى؛**

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٣ - ٣٩٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١١٧) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٤٩٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٥١) والترمذي (١٥٣٥) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٦٢٠٤).

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يُحذر ما فعلوا[١]. وقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبَد**»[٢] وقال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني**»[٣].

ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يُشرَع بناء المسجد على القبور، ولا الصلاة عندها؛ وذلك لأن من أكبر أسباب عبادة الأوثان كان تعظيم القبور، ولهذا اتفق العلماء على أنه مَن سلَّم على النبي ﷺ عند قبره أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها؛ لأنه إنما يكون لأركان بيت الله، فلا يُشَبَّهُ بيت المخلوق ببيت الخالق، كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين، ورأسه الذي لا يقبل الله عملًا إلا به، ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ وقال ﷺ: «**من كان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله. دخل الجنة**»[٤] والإله هو الذي يَأْلَهُهُ القلب، عبادةً له، واستغاثةً له، ورجاءً له، وخشيةً وإجلالًا[٥]. انتهى كلامه.

فتأمل أول الكلام وآخره، فيمن دعا نبيًّا أو وليًّا، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني. ونحوه، أنه يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، هل يكون هذا إلا في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥) ومسلم (٥٢٩).
(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٤٦) وصححه الشيخ الألباني (أحكام الجنائز ١/ ٢١٧).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٤٤) والإمام أحمد (٢/ ٣٦٧) وصححه الشيخ الألباني (أحكام الجنائز ١/ ٢١٩).
(٤) أخرجه أبو داود (٣١١٦) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٦٤٧٩).
(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩٧ - ٤٠٠).

المعيَّن؟ والله المستعان. وتأمل كلامه في اللات والعزى ومناة، وما ذكر بعده، يتبين لك الأمر إن شاء الله تعالى.

وقال ابن القيم رحمه الله، في شرح (المنازل) في باب التوبة: وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يَتَّخِذَ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله، بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبتهم الله، ويغضبون لمتنقص معبودهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحدٌ رَبَّ العالمين، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا جهرة، وترى أحدهم قد اتخذ ذِكْرَ معبوده على لسانه، إن قام وإن قعد، وإن عثر وإن استوحش، لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده، وهكذا كان عُبَّاد الأصنام سواء، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذوها من البشر، قال الله تعالى حاكيًا عن أسلاف هؤلاء: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فهذا حال مَن اتخذ مِن دونه وليًّا يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى، وما أَعَزَّ مَن تَخَلَّصَ مِن هذا، بل ما أعَزَّ مَن لا يُعَادي مَن أنكرَه. والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين وأسلافهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله ذلك عليهم في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له[1]. ثم ذكر الشيخ رحمه الله، فصلًا طويلًا في تقرير هذا الشرك الأكبر.

ولكن تأمل قوله: وما أَعَزَّ مَن تَخَلَّصَ مِن هذا، بل ما أعَزَّ مَن لا يُعَادي مَن أنكرَه. يبين لك بطلان الشبهة التي أدلى بها الملحدون، وزعم أن كلام الشيخ

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٩ - ٣٤٠).

في هذا الفصل - أعني الفصل الأول - في الشرك الأكبر، على الآية التي في سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتكلم عليها، ثم قال: والقرآن مملوء من أمثالها، ولكن أكثر الناس لا يشعر بدخول الواقع تحته، ويظنه في قوم قد خَلَوا ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، كما قال عمر بن الخطاب: إنما تُنقَضُ عُرَى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وما ذمه، وقع فيه وأقره، وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية، فتنتقض بذلك عُرَى الإسلام، ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد والتوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانًا، والله المستعان[1].

فصل

وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والحلف بغير الله، وقول: هذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب حال قائله وقصده.

ثم قال الشيخ رحمه الله، بعدما ذكر الشرك الأكبر والأصغر: ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ، ومن أنواعه التوبة للشيخ، فإنها شرك عظيم، ومن أنواعه

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤١).

النذر لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع والذل لغير الله، وإضافة نعمة لغيره، ومن أنواعه طلب الحوائج من عند الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عمن استغاث به أو سأله أنه يشفع إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله لم يجعل سؤال غيره سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، ونسأل الله لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا، وزادوهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثانًا تُعْبَدُ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى تنقص الأموات، وهم قد تنقَّصُوا الخالق بالشرك، وأولياءَه الموحِّدين بذمِّهِم ومعاداتهم، وتنقَّصُوا مَن أشركوا به غاية التنقُّصِ؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به. وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم! ولله در خليله إبراهيم حيث يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وما نجا من شرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله[1]. انتهى كلامه.

والمراد من هذا أن بعض الملحدين نسب إلى الشيخ أن هذا شرك أصغر، وشبهته أنه ذكره في الفصل الثاني الذي ذكر في أوله الأصغر، وأنت رحمك الله

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦).

تجد الكلام من أوله إلى آخره في الفصل الأول والثاني صريحًا لا يحتمل التأويل، من وجوه كثيرة، أن دعاء الموتى والنذر لهم ليشفعوا له عند الله هو الشرك الأكبر الذي بعث عليه النبي ﷺ فكفَّر مَن لم يَتُب منه، وقاتله وعاداه، وآخر ما صرح به قوله آنفًا: وما نجا من شرَك هذا الشرك الأكبر إلا من عادى المشركين... إلى آخره.

فتأمل، إن الإسلام لا يصح إلا بمعاداة أهل هذا الشرك، فإن لم يعادِهِم فهو منهم، وإن لم يفعله، وقد ذكر في (الإقناع) عن الشيخ تقي الدين أن من دعا عليَّ بن أبي طالب فهو كافر، ومن شك في كفره فهو كافر[1] فإذا كان هذا حال من شك في كفره، مع عداوته له ومقته له، فكيف بمن يعتقد أنه مسلم ولا يعادِهِ؟ فكيف بمن أحبه؟ فكيف بمن جادل عنه وعن طريقته وتعذَّر: إنا لا نقدر على التجارة وطلب الرزق إلا بذلك. وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ فإذا كان هذا قول الله تعالى فيمن تعذَّرَ عن التبيين في العمل ومعاداة المشركين، بالخوف على أهله وعياله، فكيف بمن اعتذر في ذلك بتحصيل التجارة؟ ولكن الأمر كما تقدم عن عمر: إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. فلهذا لم يفهم به معنى القرآن، وأنه أشر وأفسد من الذين قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ ومع هذا فكلام هؤلاء الكفار نفاق، وإلا فهم يعتقدون أن أهل التوحيد ضالُّون مُضلُّون، وأن عبدة الأوثان أهل الحق والصواب، كما صرح به إمامهم في الرسالة التي أتتكم قبل هذه، خطه بيده، ويقول: بيني وبينكم أهل هذه الأقطار، وهم خير أمة أخرجت للناس، وهم كذا وكذا. فإن كان يريد التحاكم إليهم، ويصفهم بأنهم خير أمة

(١) الإقناع (٤/ ٣٠٠ - ٣٠١).

أخرجت للناس، فكيف يصفهم أيضًا بالشرك ومخالطتهم للحاجة؟ وما أحسَنَ قَولَ أصدَقِ القائلين: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ فرحم الله امرأ نظر لنفسه، وتفكر فيما جاء به محمد ﷺ من عند الله بمعاداة من أشرك بالله، من قريب أو بعيد، وتكفيرهم، وقتالهم حتى يكون الدين كله لله، وعلم بما حكم محمد ﷺ فيمن أشرك بالله، مع ادعائه للإسلام، وما حكم به في ذلك الخلفاء الراشدون، كعلي بن أبي طالب وغيره لما حرقهم بالنار، مع أن غيرهم من أهل الأوثان الذين لم يدخلوا في الإسلام لا يُقتَلُون بالتحريق، والله الموفق.

وقال أبو العباس بن تيمية في الرد على المتكلمين، لما ذكر أحوال بعض أئمتهم قال:

وكل شرك في العالم إنما حدث برأي جنسهم، فهم الآمرون بالشرك، والفاعلون له، ومن لم يأمر منهم بالشرك فلم يَنهَ عنه، بل يُقِرُّ هؤلاء وهؤلاء، وإن رجح الموحدين ترجيحًا فقد يرجح غيره المشركين، وقد يعرض عن الأمرين جميعًا، فتدبر هذا فإنه نافع جدًّا، ولهذا كان رؤوسهم المتقدمون والمتأخرون يأمرون بالشرك، وكذلك الذين كانوا في ملة الإسلام لا ينهون عن الشرك ويوجبون التوحيد، بل يسوّغون الشرك، أو يأمرون، أو لا يوجبون التوحيد، وقد رأيتُ من مصنفاتهم في عبادة الملائكة وعبادة الأنفس المفارقة أنفس الأنبياء وغيرهم ما هو أصل الشرك، وهم إذا ادّعوا التوحيد فإنما توحيدهم بالقول لا بالعبادة والعمل، والتوحيد الذي جاءت به الرسل لا بد فيه من التوحيد بإخلاص الدين لله، وعبادته وحده لا شريك له، وهذا شيء لا يعرفونه، فلو كانوا موحدين بالقول والكلام لكان معهم التوحيد دون العمل، وذلك لا يكفي في السعادة والنجاة، بل لا بد أن يعبد الله ويتخذه إلهًا دون ما

سواه، وهو معنى قوله لا إله إلا الله[1]. انتهى كلام الشيخ.

فتأمل، رحمك الله، هذا الكلام، فإنه مثلما قال الشيح فيه نافع جدًّا، ومن أكبر ما فيه من الفوائد أنه يبين لك حال مَن أَقَرَّ بهذا الدين، وشهد أنه الحق، وأن الشرك هو الباطل، وقال بلسانه ما أُرِيدَ منه، ولكنه لا يدين بذلك، إما بغضًا له أو عدم محبة، كما هو حال المنافقين الذين هم بين أظهرنا، وإما إيثار الدنيا، مثل تجارة وغيرها، فيدخلون في الإسلام ثم يخرجون منه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ الآية، وقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فإذا قال هؤلاء بألسنتهم: نشهد أن هذا دين الله ورسوله، ونشهد أن المخالف له باطل، وأنه الشرك بالله. غرَّ هذا الكلامُ ضعيفَ البصيرة.

وأعظم من هذا وأَطَمُّ أن أهل حُريملاء ومَن وراءهم يصرِّحُون بمَسَبَّةِ الدين، وأن الحق ما عليه أكثر الناس، ويستدلون بالكثرة على حسن ما هم عليه من الدين، ويفعلون ويقولون ما هو من أكبر الردة وأفحشها، فإذا قالوا: التوحيد حق والشرك باطل. وأيضًا لم يُحدثوا في بلدهم أوثانًا، جادل الملحد عنهم وقال: إنهم يقرون أن هذا شرك، وأن التوحيد هو الحق، ولا يضرهم عنده ما هم عليه من السب لدين الله، وبغي العوج له، ومدح الشرك، وذبهم دونه بالمال واليد واللسان، والله المستعان.

وقال أبو العباس أيضًا في الكلام على كفر مانع الزكاة:

والصحابة لا يقولون: هل أنت مُقِرٌّ بوجوبها أو جاحد لها؟ هذا لم يُعهَدْ عن

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٤ - ٣٥).

الخلفاء والصحابة، بل قال الصديق لعمر رضي الله عنهما: والله لو منعوني عَنَاقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. فجعل المُبيحَ للقتال مجرَّدَ المنع لا جَحْدَ الوجوب، وقد روي أن طوائف كانوا يقرون بالوجوب، لكن بخلوا بها، ومع هذا فسيرة الخلفاء فيهم جميعهم سيرة واحدة، وهي قتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، والشهادة على قتلاهم بالنار، وسَمّوْهُم جميعهم (أهل الردة) وكان من أعظم فضائل الصديق عندهم أن ثبَّته الله عند قتالهم، ولم يتوقف كما توقف غيره، فناظرهم حتى رجعوا إلى قوله. وأما قتال المُقِرِّين بنبوة مسيلمة فهؤلاء لم يقع بينهم نزاع في قتالهم. انتهى.

فتأمل كلامه في تكفير المعين والشهادة عليه إذا قُتل بالنار، وسبي حريمه وأولاده عند منع الزكاة، فهذا الذي ينسبون عنه أعداء الدين عدم تكفير المعين. قال رحمه الله بعد ذلك: وكفر هؤلاء وإدخالهم في أهل الردة قد ثبت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنة، انتهى كلامه.

ومن أعظم ما يجلو الإشكال في مسألة التكفير والقتال عند مَن قَصدُهُ اتباعُ الحق، إجماعُ الصحابة على قتال مانع الزكاة، وإدخالهم في أهل الردة وسبي ذراريهم، وفعلهم فيهم ما صح عنهم، وهو أول قتال وقع في الإسلام على مَن ادَّعَى أنه من المسلمين، فهذه أول واقعة وقعت في الإسلام على هذا النوع، أعني المدعين للإسلام، وهي أوضح الواقعات التي وقعت من العلماء عليهم من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا.

وقال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجُهَّال والطَّغَام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا

وكذا. وإلقاء الخرق على الشجر اقتداءً بمن عبد اللات والعزى[١]. انتهى كلامه.

والمراد منه قوله: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع.

وقال أيضًا: لقد عظّم الله الحيوان، لا سيما ابن آدم، حيث أباحه الشرك عند الإكراه، فمن قدم حرمة نفسك على حرمته، حتى أباحك أن تتوقى عن نفسك بذكره بما لا ينبغي له سبحانه، لحقيق أن تُعظم شعائره وتوقر أوامره وزواجره، وعصم عرضك بإيجاب الحد بقذفك، وعصم مالك بقطع يد مسلم في سرقته، وأسقط شطر الصلاة لأجل مشقتك، وأقام مسح الخف مقام مسح الرجل إشفاقًا عليك في مشقة الخلع واللبس، وأباحك الميتة سدًّا لرمقك وحفظًا لصحتك، وزجرك عن مَضَارِّكَ بحدٍّ عاجل ووعيد آجل، وخرق العوايد لأجلك، وأنزل الكتب إليك - أيحسُنُ بك مع هذا الإكرام أن تُرَى على ما نهاك منهمكًا، وعما أمرك مرتكبًا، وعن داعيه معرِضًا، ولداعي عدوك فيه مطيعًا، يعظمك، وهو هو، وتهمل أمره وأنت أنت! هو حط رتب عباده لأجلك، وأهبط إلى الأرض من امتنع من سجدة يسجدها لك، هل عاديت خادمًا طالت خدمته لك لترك صلاة! هل نفيته من دارك للإخلال بفرض أو لارتكاب نهي! فإن لم تعترف اعتراف العبيد للموالي فلا أقل أن تقتضي نفسك إلى الحق سبحانه اقتضاء المكافئ المساوئ، وما أوحش ما تلاعب الشيطان بالإنسان بينا أن يكون بحضرة الحق وملائكة السماء سجودًا له تترامى به الأحوال والجهالات، إلى أن يوجد ساجدًا لصورة في حجر، أو لشجرة من الشجر، أو لشمس أو لقمر، أو لصورة ثور خائر، أو لطائر صفر، ما أوحش زوال النعم، وتغير الأحوال،

---

(١) نقله عنه الإمام ابن القيم (إغاثة اللهفان ١/ ١٩٥).

والحَور بعد الكَور! لا يليق بهذا الحي الكريم الفاضل على جميع الحيوانات ألا يُرَى إلا عابدًا لله في دار التكليف، أو مُجَازًا لله في دار الجزاء والتشريف، وما بين ذلك فهو واضع نفسه في غير موضعها. انتهى كلامه.

والمراد أنه جعل أقبح حال وأفحشها من أحوال الإنسان أن يشرك بالله، ومثَّلَه بأنواع، منها السجود لشمس أو لقمر، ومنها السجود لصورة، كما يسجد للصور التي في القباب على القبور، والسجود قد يكون بالجبهة على الأرض، وقد يكون بالانحناء من غير وصول إلى الأرض، كما فُسّر به قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال ابن عباس: أي رُكعًا.

وقال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) في إنكار تعظيم القبور: وقد آل الأمر بهؤلاء المشركين إلى أن صنّف بعض غُلَاتهم في ذلك كتابًا سماه (مناسك المشاهد) ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في عبادة الأصنام[1].

وهذا الذي ذكره ابن القيم رجل من المصنفين يقال له (ابن المفيد) فقد رأيتُ ما قال فيه بعينه، فكيف ينكر تكفير المعين؟

وأما كلام أتباع سائر الأئمة في التكفير فنذكر منه قليلًا من كثير.

أما كلام الحنفية؛ فكلامهم في هذا من أغلظ الكلام، حتى أنهم يكفِّرُون المعيَّنَ إذا قال: مصيحف أو مسيجد. أو صلّى صلاة بلا وضوء، ونحو ذلك.

وقال في (النهر الفائق): واعلم أن الشيخ قاسم قال في شرح (درر البحار) أن النذر الذي يقع من أكثر العوام، بأن يأتي إلى قبر بعض الصلحاء قائلًا: يا سيدي

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٩٧ - ٢٠٢).

فلان، إن رُد غائبي أو عوفي مريضي فلك من الذهب والفضة أو الشمع أو الزيت كذا. باطل إجماعًا لوجوه.. إلى أن قال: ومنها ظن أن الميت يتصرف في الأمر، واعتقاد هذا كفر... إلى أن قال: وقد ابتُلِيَ الناس بذلك، ولا سيما في مولد الشيخ أحمد البدوي[(١)]. انتهى كلامه.

فانظر إلى تصريحه أن هذا كفر، مع قوله أنه يقع من أكثر العوام، وأن أهل العلم قد ابتُلُوا بما لا قدرة لهم على إزالته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لما ذكر سماع الفقراء وصورته، قال: هذا حرام بالإجماع، وقد رأيت فتوى شيخ الإسلام جمال الملة أن مستحل هذا كافر. ولما علم أن حرمته بالإجماع لزم أن يكفر مُستَحِلُّهُ.

فقد رأيتَ كلام القرطبي وكلام الشيخ الذي نقل عنه في كفر مَنْ استحل السماع، مع كونه دون ما نحن فيه بالإجماع بكثير كثير.

وقال أبو العباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثني الحصيري عن والده الشيخ الحصيري، إمام الحنفية في زمانه، قال: كان فقهاء بخارى يقولون في ابن سينا: كان كافرًا ذكيًّا[(٢)].

فهذا إمام الحنفية في زمنه حكى عن فقهاء بخارى أنهم يقولون في ابن سينا، وهو رجل معيَّن مصنِّف، يتظاهر بالإسلام.

وأما كلام المالكية في هذا فهو أكثر من أن يُحصَرَ، وقد اشتهر عن فقهائهم سرعة الفتوى والقضاء بقتل الرجل عند الكلمة التي لا يَفطِنُ لها أكثر الناس، وقد ذكر القاضي عياض في آخر كتاب (الشفا) من ذلك طرفًا، ومما ذكروا أن

---

(١) حاشية ابن عابدين (٢/ ٣٣٩ - ٤٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٤٠).

مَن حلف بغير الله على وجه التعظيم كفر.

وكل هذا دون ما نحن فيه بما لا نسبة بينه وبينه.

وأما الشافعية؛ فقال صاحب (الروض) رَحِمَهُ اللَّهُ: إن المسلم إذا ذبح للنبي ﷺ كفر. وقال أيضًا: مَن شك في كفر طائفة ابن عربي فهو كافر.

وكل هذا دون ما نحن فيه.

وقال ابن حجر في (شرح الأربعين) في الكلام على حديث ابن عباس «**إذا سألت فاسأل الله**» ما معناه: أنه من دعا غير الله فهو كافر، وصنّف في هذا النوع كتابًا مستقلًا سماه (الإعلام بقواطع الإسلام) ذكر فيه أنواعًا كثيرة من الأقوال والأعمال، كل واحد منها ذكر أنه يُخرج من الإسلام، ويكفر به المعيَّنُ، وغالبها لا يساوي عشر معشار ما نحن فيه.

وتمام الكلام في هذا أن يقال: الكلام هنا في مسألتين:

الأولى: أن يقال: هذا الذي يفعله كثير من العوام عند قبور الصالحين، ومع كثير من الأحبار والأموات والجن؛ من التوجه إليهم ودعائهم لكشف الضر، والنذر لهم لأجل ذلك، هل هو الشرك الأكبر الذي فعله قوم نوح ومَن بعدهم، إلى أن انتهى الأمر إلى قوم خاتم الرسل قريش وغيرهم، فبعث الله الرسل وأنزل الكتب ينكر عليهم ذلك، ويكفرهم ويأمر بقتالهم حتى يكون الدين كله لله، أم هذا شرك أصغر وشرك المتقدمين نوع غير هذا؟

فاعلم أن الكلام في هذه المسألة سهلٌ على مَن يسَّره الله عليه، بسبب أن علماء المشركين اليوم يُقِرُّون أنه الشرك الأكبر ولا ينكرونه، إلا ما كان من مسيلمة الكذاب وأصحابه، كابن إسماعيل وابن خالد، مع تناقضهم في ذلك واضطرابهم، فأكثر أحوالهم يُقِرُّون أنه الشرك الأكبر، ولكن يعتذرون أن أهله لم

تبلغهم الدعوة، وتارة يقولون: لا يكفر إلا من كان في زمن النبي ﷺ. وتارة يقولون إنه شرك أصغر، وينسبونه إلى ابن القيم في (المدارج) كما تقدم، وتارة لا يذكرون شيئًا من ذلك، بل يُعظمون أهله وطريقتهم في الجملة، وأنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم العلماء الذي يجب رد الأمر عند التنازع إليهم، وغير ذلك من الأقاويل المضطربة.

وجواب هؤلاء كثير في الكتاب والسنة والإجماع، ومِن أصرح ما يُجَابون به إقرارُهم في غالب الأوقات أن هذا هو الشرك الأكبر، وأيضًا إقرار غيرهم من علماء الأقطار، مع أن أكثرهم قد دخل في الشرك وجاهد أهل التوحيد، لكن لم يجد بُدًّا من الإقرار به لوضوحه.

المسألة الثانية: الإقرار بأن هذا هو الشرك الأكبر، لكن لا يكفر به إلا من أنكر الإسلامَ جملة وكذَّب الرسولَ والقرآنَ، واتَّبع يهودية أو نصرانية أو غيرهما. وهذا هو الذي يجادل به أهل الشرك والعناد في هذه الأوقات، وإلا المسألة الأولى قلَّ الجدال فيها، ولله الحمد، لِمَا وقع من إقرار علماء الشرك بها.

فاعلم أن تصوّر هذه المسألة تصورًا حسنًا يكفي في إبطاله من غير دليل خاص لوجهين:

الأول: أن مقتضى قولهم: إن الشرك بالله وعبادة الأصنام لا تأثير لها في التكفير؛ لأن الإنسان إن انتقل عن الملة إلى غيرها، وكذَّب الرسولَ والقرآنَ فهو كافر، وإن لم يعبد الأوثان، كاليهود، فإذا كان مَن انتسب إلى الإسلام لا يكفر إذا أشرك الشرك الأكبر؛ لأنه مسلم يقول: لا إله إلا الله. ويصلي ويفعل كذا وكذا، لم يكن للشرك وعبادة الأوثان تأثيرٌ، بل يكون ذلك كالسواد في الخلقة والعمى والعرج، وإن كان صاحبها يدعي الإسلام فهو مسلم، وإن ادعى ملة غيرها فهو كافرٌ، وهذه فضيحة عظيمة كافية في رد هذا القول الفظيع.

الوجه الثاني: أن معصية الرسول ﷺ في الشرك وعبادة الأوثان بعد بلوغ العلم كفرٌ صريحٌ بالفطر والعقول والعلوم الضرورية، فلا يُتَصَور أنك تقول لرجل، ولو من أجهل الناس وأبلدهم: ما تقول فيمن عصى الرسول ولم يَنْقَدْ له في ترك عبادة الأوثان والشرك، مع أنه يدعي أنه مسلم متَّبع؟ إلا ويبادر في الفطرة الضرورية إلى القول بأن هذا كافر، من غير نظر في الأدلة أو سؤال أحد من العلماء، ولكن لغلبة الجهل، وغرابة العلم، وكثرة مَن يتكلم بهذه المسألة من الملحدين، اشتبه الأمرُ فيها على بعض العوام من المسلمين الذين يحبون الحق، فلا تحقرها وأَمْعِن النظر في الأدلة التفصيلية، لعل الله أن يمنَّ عليك بالإيمان الثابت، ويجعلك أيضًا من الذين يهدون بأمره.

ومِن أحسن ما يُزيل الإشكال فيها ويَزيد المؤمنَ يقينًا ما جرى من النبي ﷺ وأصحابه، والعلماء بعدهم، فيمن انتسب إلى الإسلام؛ كما ذكر أنه ﷺ بعث البَرَاء معه الراية إلى رجل تزوج امرأة أبيه ليقتله ويأخذ ماله[1] ومثل هَمِّه بغزو بني المصطلق لما قيل إنهم منعوا الزكاة، ومثل قتال الصدّيق وأصحابه لمانعي الزكاة وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم وتسميتهم مرتدين[2] ومثل إجماع الصحابة في زمن عمر على تكفير قدامة بن مظعون وأصحابه إن لم يتوبوا، لما فهموا من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ حلَّ الخمر لبعض الخواص[3] ومثل إجماع الصحابة رضي الله عنهم في زمن عثمان رضي الله عنه على تكفير أهل المسجد الذين ذكروا كلمة في نبوة مسيلمة، مع أنهم لم يتبعوه، وإنما اختلف الصحابة في قبول توبتهم، ومثل تحريق علي بن أبي طالب رضي الله عنه،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١٤) ومسلم (١٦٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٩/ ٢٤٠).

أصحابه لما غَلَوا فيه، ومثل إجماع التابعين مع بقية الصحابة على كفر المختار بن أبي عبيد ومَن اتَّبَعَه، مع أنه يدَّعي أنه يطلب بدم الحسين وأهل البيت، ومثل إجماع التابعين ومَن بعدهم على قتل الجعد بن درهم، وهو مشتهر بالعلم والدين، وهلم جرًّا مِن وقائع لا تُعَدّ ولا تُحصَى.

ولم يقل أحد من الأولين والآخرين لأبي بكر الصديق وغيره: كيف تقاتل بني حنيفة وهم يقولون: لا إله إلا الله. ويصلون ويزكون! وكذلك لم يستشكل أحدٌ تكفير قدامة وأصحابه لو لم يتوبوا، وهلّم جرًّا إلى زمن بني عبيد الذين ملكوا المغرب ومصر والشام وغيرها، مع تظاهرهم بالإسلام وصلاة الجمعة والجماعة ونصب القضاة والمفتين، لمَّا أظهروا من الأقوال والأفعال ما أظهروا، ولم يستشكل أحد من أهل العلم والدين قتالهم ولم يتوقف فيه، وهم في زمن ابن الجوزي، وصنّف ابن الجوزي كتابًا لما أُخِذَت مِصْرُ منهم سماه (النصر على مصر) ولم يسمع أحد من الأولين والآخرين أن أحدًا أنكر شيئًا من ذلك أو استشكله لأجل ادعائهم الملَّة، أو لأجل قول (لا إله إلَّا الله) أو لأجل إظهار شيء من أركان الإسلام، إلَّا ما سمعنا من هؤلاء الملاعين في هذه الأزمان، من إقرارهم أن هذا هو الشرك، ولكن مَن فعَله، أو حسَّنه، أو كان من أهله، أو ذم التوحيد، أو حارب أهله لأجله، أو أبغضهم لأجله أنه لا يكفر؛ لأنه يقول (لا إله إلَّا الله) أو لأنه يؤدي أركان الإسلام الخمسة، ويستدلون بأن النبي ﷺ سماه الإسلام. هذا لم يُسمَع قط إلَّا من هؤلاء الملحدين الجاهلين الظالمين، فإن ظفروا بحرف واحد من أهل العلم، أو أحد منهم، يستدلّون به على قولهم الفاحش الأحمق فليذكروه، ولكن الأمر كما قال اليمني[1] في قصيدته:

أحاديث لا تُعْزَى إلى عالم فلا   تساوي فلسًا إن رجعت إلى النقدِ

---

(١) الصنعاني، في قصيدته في مدح الشيخ - كما سبق -.

ولنختم الكلام في هذا النوع بما ذكره البخاري في صحيحه حيث قال: (باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان) ثم ذكر بإسناده قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة**»[(١)] وذو الخلصة صنم لدوس يعبدونه، فقال ﷺ لجرير بن عبد الله: «**ألا تريحني من ذي الخلصة؟**» فركب إليه بمن معه فأحرقه وهدمه، ثم أتى النبي ﷺ قال: فبرك على خيل أحمس ورجالها خمسا[(٢)]. وعادة البخاري رحمه الله، إذا لم يكن الحديث على شرطه ذكره في الترجمة، ثم أتى بما يدل على معناه، مما هو على شرطه، ولفظ الترجمة، وهو قوله تغير الزمان حتى تعبد الأوثان لفظ حديث أخرجه غيره من الأئمة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولنذكر من كلام الله ورسوله وكلام أئمة العلم جملا في جهاد القلب واللسان ومعاداة أعداء الله وموالاة أوليائه، وأن الدين لا يصح ولا يدخل الإنسان فيه إلا بذلك فنقول:

باب وجوب عداوة أعداء الله من الكفار والمرتدين والمنافقين:

وقوله الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

---

(١) صحيح البخاري (٧١١٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٢٠).

قال الإمام الحافظ محمد بن وضاح: أخبرنا غير واحد أن أسد بن موسى كتب إلى أسد بن الفرات: اعلم يا أخي أن ما حملني على الكتاب إليك ما ذكَر أهلُ بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس وحسن حالك مما أظهرت من السُّنَّة، وعيبك لأهل البدعة، وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم، فقمعهم الله بك، وشد بك ظهر أهل السُّنَّة، وقواك عليهم بإظهار عينهم والطعن عليهم، فأذلهم الله بك، وصاروا ببدعتهم مستترين، فأبشر، أي أخي، بثواب ذلك، واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد، وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله وإحياء سُنَّة رسوله! وقد قال رسول الله ﷺ: «**من أحيا شيئًا من سُنَّتي كنت أنا وهو كهاتين في الجنة وضم بين أصبعيه**»[1] وقال: «**أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه، كان له مثل أجر من تبعه إلى يوم القيامة**»[2] فمتى يُدرك هذا أجر شيء من عمله، وذكر أيضًا: «**إن لله عند كل بدعة كيد بها أهل الإسلام وليًّا لله يذب عنها وينطق بعلامتها**»[3] فاغتنم يا أخي هذا الفضل، وكن من أهلهن، فإن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن وأوصاه: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من كذا وكذا**» وعظم القول فيه، فاغتنم ذلك وادع إلى السُّنَّة حتى يكون لك بذلك أُلفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أمة بعدك، فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة، كما جاء في الأثر، فاعمل على بصيرة ونية وحسبة، فيرد الله بك

---

(١) أخرج الترمذي (٢٦٧٨) من حديث أنس مرفوعًا: «**من أحيا سنتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة**» وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ٦٣٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٥) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٢٧١٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٠٠) وقال الشيخ الألباني: موضوع (ضعيف الجامع ١٩٥١).

المبتدع المفتون الزائغ الحائر، فتكون خلفًا من نبيك ﷺ فإنك لن تلقى الله بعمل شبهة. وإياك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس أو صاحب، فإنه جاء الأثر: «**من جالس صاحب بدعة نُزعت منه العصمة، ووُكل إلى نفسه، ومن مشى إلى صاحب بدعة مشى في هدم الإسلام**»[(١)] وجاء: «**ما من إله يُعبد من دون الله أبغض إلى الله من صاحب هوى**» وقد وقعت اللعنة من رسول الله ﷺ على أهل البدع، وأن الله لا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا، ولا فريضة ولا تطوعًا، وكلما ازدادوا اجتهادًا وصومًا وصلاة ازدادوا من الله بعدًا، فارفُضْ مجالسهم وأَذِلَّهم وأَبْعِدْهُم كما أبعَدَهم الله وأذلَّهم رسول الله ﷺ وأئمة الهدى من بعده[(٢)]. انتهى.

واعلم، رحمك الله، أن كلامه وما يأتي من كلام أمثاله من السلف، في معاداة أهل البدع والضلال ضلالة لا تخرج من الملة، لكنهم شددوا في ذلك وحذروا منه لأمرين:

الأول: غِلَظُ البدعة في الدين في نفسها، فهي عندهم أجلُّ من الكبائر، يعاملون أهلها كما يعاملون به أهل الكبائر، كما تجد قلوب الناس اليوم أن الروافض عندهم، ولو كان عالمًا أو عابدًا، أبغض وأشد من السني المجاهر بالكبائر.

الأمر الثاني: أن البدع تجر إلى الردة الصريحة، كما وجد من كثير من أهل البدع.

---

(١) أخرج الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام**».

(٢) البدع والحوادث (١/ ٨).

فمثال البدعة التي شددوا فيها مثال تشديد النبي ﷺ على مَن عبَد الله عند قبر رجل صالح، مما وقع من الشرك الصريح الذي يُصَيِّرُ المسلم مرتدًّا، فمن فهم هذا فهم الفرق بين البدع وما نحن فيه من الكلام في الردة ومجاهدة أهلها، أو النفاق الأكبر ومجاهدة أهله، وهذا هو الذي نزلت فيه الآيات المحكمات، مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الآية، وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾.

وقال ابن وضاح في كتاب (البدع والحوادث) بعد حديث ذكره: إنه سيقع في هذه الأمة فتنة الكفر وفتنة الضلالة، لا يحل فيها السبي والأموال، وهذا الذي نحن فيه فتنة ضلالة لا يحل فيها السبي ولا الأموال[١]. انتهى كلامه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: أخبرنا رجل عن ابن المبارك قال: قال ابن مسعود: إن لله عند كل بدعة كِيدَ بها أهلُ الإسلام وليًّا من أوليائه، يذُبُّ عنها وينطق بعلامتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله. قال ابن المبارك: وكفى بالله وكيلًا[٢].

ثم ذكر بإسناده عن بعض السلف قال: لأن أردَّ رجلًا عن رأي سيئ أحبُّ إليَّ من اعتكاف شهر[٣].

أخبرنا أسد عن أبي إسحاق الحذّاء عن الأوزاعي قال: كان بعض أهل العلم يقول: لا يقبل الله من ذي بدعة صلاة ولا صيامًا ولا صدقة ولا جهادًا ولا حجًّا

---

(١) البدع والحوادث (١/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٠٠) وقال الشيخ الألباني: موضوع (ضعيف الجامع ١٩٥١).

(٣) البدع والحوادث (١/ ٦) من قول عبد الكريم بن أبي أمية.

ولا صرفًا ولا عدلًا، وكانت أسلافكم تشتد عليهم ألسنتهم وتشمئز منهم قلوبهم ويحذرون الناس بدعتهم. قال: ولو كانوا مستترين ببدعتهم دون الناس ما كان لأحد أن يهتك عنهم سترًا ولا يظهر منهم عورة، الله أولى بالأخذ بها أو بالتوبة عليها، وأما إذا جهروا فنشرُ العلم حياةٌ، والبلاغُ عن رسول الله ﷺ رحمةٌ يعتصم بها على مصرّ بإلحاده[١].

ثم روى بإسناده قال: جاء رجل إلى حذيفة، وأبو موسى الأشعري قاعد، فقال: أرأيت رجلًا قاعدًا حتى ضرب بسيفه غضبًا لله حتى قُتل، أفي الجنة هو أم في النار؟ قال أبو موسى: في الجنة. فقال حذيفة: استفهِمْ الرجل وأفهِمْهُ ما تقول. حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فلما كان في الثالثة قال: والله لا نستفهمه. فدعا به حذيفة فقال: رويدك، إن صاحبك لو ضرَب بسيفه حتى ينقطع، فأصاب الحق حتى يُقتل عليه، فهو في الجنة، وإن لم يصب الحق ولم يوفقه الله فهو في النار. ثم قال: والذي نفسي بيده، لَيَدْخُلَنَّ النار مثلُ الذي سُئلتُ عنه أكثر من كذا وكذا[٢].

ثم ذكر بإسناده عن الحسن قال: لا تجالس صاحب بدعة؛ فإنه يُمرض قلبك[٣].

ثم ذكر بإسناده عن سفيان الثوري قال: مَن جالَسَ صاحب بدعة لم يسلم من إحدى ثلاث: إما أن يكون فتنة لغيره، وإما أن يقع في قلبه شيء فيزل به فيدخله النار، وإما أن يقول: والله ما أبالي ما تكلموه، وإني واثق بنفسي. فمن أَمِنَ اللهَ

---

(١) البدع والحوادث (١/ ٦).

(٢) البدع والحوادث (١/ ٨٧).

(٣) البدع والحوادث (١/ ١٢٤).

على دينه طرفة عين سلبه إياه[١].

ثم ذكر بإسناده عن بعض السلف قال: من أتى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام[٢].

أخبرنا أسد قال: أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يُلبِسُوا عليكم ما تعرفون. قال أيوب، وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب[٣].

أخبرنا زيد عن محمد بن طلحة قال: قال إبراهيم: لا تجالسوا أصحاب البدع ولا تكلموهم؛ فإني أخاف عليكم أن ترتد قلوبكم[٤].

أخبرنا أسد بالإسناد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم مَن يخالل**»[٥].

أخبرنا أسد أخبرنا مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن زيد عن أيوب قال: دخل على محمد بن سيرين يومًا رجل، فقال: يا أبا بكر، أقرأ عليك آية من كتاب الله، لا أزيد على أن أقرأها ثم أخرج. فوضع أصبعيه في أذنيه ثم قال: أُحَرِّجُ

---

(١) البدع والحوادث (١/ ١٢٥).

(٢) البدع والحوادث (١/ ١٢٦) وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٩٦) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٩٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام**».

(٣) البدع والحوادث (١/ ١٣٠).

(٤) البدع والحوادث (١/ ١٣٣).

(٥) البدع والحوادث (١/ ١٣٥) وأخرجه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) وحسنه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٣٥٤٥).

عليك إن كنت مسلمًا لَمَا خَرَجتَ من بيتي. قال: فقال: يا أبا بكر، إني لا أزيد على أن أقرأ ثم أخرج! قال: فقال بإزاره يشده عليه وتهيأ للقيام، فأقبلنا على الرجل فقلنا: قد حَرَّجَ عليك إلا خَرَجتَ، أفَيَحِلُّ لك أن تُخْرِجَ رجلًا من بيته! قال: فخرج، فقلنا: يا أبا بكر، ما عليك لو قرأ آية ثم خرج! قال: إني والله لو ظننت أن قلبي يثبُتُ على ما هو عليه ما باليتُ أن يقرأ، ولكني خفت أن يلقي في قلبي شيئًا أجهد أن أخرجه من قلبي فلا أستطيع[1].

أخبرنا أسد قال: أخبرني ضمرة عن ابن شوذب قال: سمعت عبد الله بن القاسم وهو يقول: ما كان عبدٌ على هوًى فتركه إلا إلى ما هو أشر منه. قال: فذكرت هذا لبعض أصحابنا فقال: تصديقه في حديث عن النبي ﷺ: «**يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، ثم لا يرجعون حتى يرجع السهم إلى فُوقه**»[2].

أخبرنا أسد قال: أخبرني موسى بن إسماعيل عن حماد بن زيد عن أيوب قال: كان رجل يرى رأيًا فرجع عنه، فأتيت محمدًا فرحًا بذلك أخبره، فقال: أشعرت أن فلانًا ترك رأيه الذي كان يرى! فقال: انظروا إلى ماذا يتحول! إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله «**يمرقون من الإسلام لا يعودون إليه**»[3].

ثم روى بإسناده عن حذيفة أنه أخذ حصاة بيضاء، فوضعها في كفه ثم قال: إن الدين قد استضاء استضاءة هذه، ثم أخذ كفًّا من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها، ثم قال: والذي نفسي بيده لَيَجِيئَنَّ أقوام يدفنون هذا الدين

(١) البدع والحوادث (١/ ١٤٨).
(٢) البدع والحوادث (١/ ١٥٣) والحديث أخرجه البخاري (٧٥٦٢).
(٣) البدع والحوادث (١/ ١٥٤).

كما دَفَنْتُ هذه الحصاة[١].

أخبرنا محمد بن سعيد بإسناده عن أبي الدرداء قال: لو خرج رسولُ الله ﷺ إليكم اليوم ما عرف شيئًا مما كان عليه وهو وأصحابه إلا الصلاة. قال الأوزاعي: فكيف كان اليوم! قال عيسى، يعني الراوي عن الأوزاعي: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان![٢]

أخبرنا محمد بن سليمان بإسناده عن علي قال: تعلموا العلم تُعرَفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله؛ فإنه سيأتي بعدكم زمان ينكر الحق فيه تسعة أعشارهم[٣].

أخبرنا يحيى بن يحيى بإسناده عن أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال: ما أعرف شيئًا مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة[٤].

حدثني إبراهيم بن محمد بإسناده عن أنس قال: ما أعرف منكم شيئًا كنت أعهده على عهد رسول الله ﷺ ليس قولكم: لا إله إلا الله[٥].

أخبرنا أسد بإسناده عن الحسن قال: لو أن رجلًا أدرك السلف الأول ثم بُعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئًا. قال، ووضع يده على خده: إلا هذه الصلاة. ثم قال: أما والله لمن عاش في هذه النكراء[٦]، ولم يدرك هذا السلف الصالح، فرأى مبتدعًا يدعو إلى بدعته، ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه،

---

(١) البدع والحوادث (١/ ١٦٤).
(٢) البدع والحوادث (١/ ١٦٩).
(٣) البدع والحوادث (١/ ١٧٢).
(٤) البدع والحوادث (١/ ١٨٨).
(٥) البدع والحوادث (١/ ١٨٩).
(٦) أي: الأمور المُنكرة.

فعصمه الله من ذلك، وجعل قلبه يحن إلى ذكر هذا السلف الصالح، يسأل عن سبيلهم، ويقتص آثارهم، ويتبع سبيلهم، ليعوض أجرًا عظيمًا، فكذلك فكونوا إن شاء الله(١).

حدثني عبد الله بن محمد بإسناده عن ميمون بن مهران قال: لو أن رجلًا نُشر فيكم من السلف ما عرف فيكم غير هذه القبلة(٢).

أخبرنا محمد بن قدامة بإسناده عن أم الدرداء قالت: دخل عليَّ أبو الدرداء مغضبًا فقلت له: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم من أمر محمد شيئًا إلا أنهم يصلون جميعًا(٣).

وفي لفظ: لو أن رجلًا يعلم الإسلام وأهمه ثم تفقده ما عرف منه شيئًا(٤).

حدثني إبراهيم بإسناده عن عبد الله بن عمرو قال: لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خَلَيَا بمصحفهما في بعض هذه الأودية، لَأَتَيَا الناس اليوم ولا يعرفان شيئًا مما كانا عليه(٥).

قال مالك: وبلغني أن أبا هريرة تلا قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فقال: والذي نفسي بيده، إن الناس ليخرجون اليوم من دينهم أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا(٦).

---

(١) البدع والحوادث (١/ ١٩٠).
(٢) البدع والحوادث (١/ ١٩١).
(٣) البدع والحوادث (١/ ١٩٢).
(٤) البدع والحوادث (١/ ١٩٣).
(٥) البدع والحوادث (١/ ١٩٦).
(٦) البدع والحوادث (١/ ١٩٥).

قف وتأمل، رحمك الله، إذا كان هذا في زمن التابعين، بحضرة أواخر الصحابة، فكيف يغرّ المسلم الكثرة أو تشكل عليه ولا يستدل بها على الباطل؟

ثم روى ابن وضاح بإسناده عن أبي أمية قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة، كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت بها خبيرًا؛ سألتُ عنها رسول الله ﷺ قال: «**ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى مُتَّبَعًا، ودنيا مؤثَرَة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع أمر العوام؛ فإن من ورائكم أيامًا، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**» قيل: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم**»[(١)].

ثم روى بإسناده عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «**طوبى للغرباء**» ثلاثًا، قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «**أناس صالحون قليل، في ناس سوء كثير، مَن يبغضهم أكثر ممن يحبهم**»[(٢)].

أخبرنا محمد بن سعيد بإسناده عن المعافري قال: قال رسول الله ﷺ قال: «**طوبى للغرباء؛ الذين يُمَسِّكون بكتاب الله حين يترك، ويعملون بالسنة حين تطفأ**»[(٣)].

أخبرنا أسد عن سالم بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**بدأ الإسلام**

---

(١) البدع والحوادث (١/ ٢٣١) وأخرجه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ٢٣٤٤) وقال: لكن فقرة أيام الصبر ثابتة.

(٢) البدع والحوادث (١/ ١٨٠).

(٣) البدع والحوادث (١/ ١٨١).

غريبًا، ولا تقوم الساعة حتى يكون غريبًا؛ فطوبى للغرباء حين يفسد الناس، ثم طوبى للغرباء حين يفسد الناس»[١].

أخبرنا أسد بإسناده عن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء» فقيل: وما الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون عند فساد الناس»[٢]. هذا آخر ما نقلته من كتاب (الحوادث والبدع)[٣] للإمام الحافظ محمد بن وضاح، رحمه الله تعالى.

قال المؤلف: وتأمل، رحمك الله تعالى، أحاديث الغربة، وبعضها في الصحيح، مع كثرتها وشهرتها، وتأمل إجماع العلماء كلهم أن هذا قد وقع من زمن طويل، حتى قال ابنُ القيم: الإسلام في زماننا أغرب منه في أول ظهوره[٤]. فتأمل هذا تأملًا جيدًا، لعلك أن تسلم من الهوة الكبيرة التي هلك فيها أكثر الناس، وهي الاقتداء بالأكثر والسواد الأكبر، والنفرة من الأقل، فما أقلَّ مَن سَلِمَ منها! ما أقلّه ما أقلَّه!

ولنختم ذلك بالحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله تعالى في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره»[٥] وفي رواية: «يهتدون بهديه، ويستنون بسنته، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن

(١) البدع والحوادث (١/ ١٨٣).
(٢) البدع والحوادث (١/ ١٨٢).
(٣) البدع والحوادث (١/ ٣ - ١٩٦).
(٤) مدارج السالكين (٣/ ١٩٨).
(٥) أخرجه مسلم (٥٠).

جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(١) انتهى ما نقلته، والحمد لله رب العالمين.

وقد رأيت للشيخ تقي الدين رسالة كتبها وهو في السجن إلى بعض إخوانه، لما أرسلوا إليه يشيرون عليه بالرفق بخصومه ليتخلص من السجن، أحببت أن أنقل أولها لعظيم منفعته، قال:

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا ﷺ تسليمًا، أما بعد:

فقد وصَلَت الورقة التي فيها رسالة الشيخَين الجليلَين العالمَين الناسكَين القُدْوتَين، أيَّدَهما الله وسائرَ الإخوان بروح منه، وكتَب في قلوبهم الإيمان، وأدخلَهم مُدْخَلَ صِدْق، وأخرَجَهم مُخْرَجَ صِدْق، وجعل لهم مِن لَدُنْهُ ما يتمّ به من السلطان؛ سلطان العلم والحجة بالبيان والبرهان، وسلطان القدرة والنصرة بالسِّنَان والأعوان، وجعلهم من أوليائه المتقين، وحزبه الغالبين، لمن ناوأهم من الأقران، ومن أئمة المتقين الذين جمعوا بين الصبر والإيقان، واللهُ مُحَقِّق ذلك ومُنْجِز وعده في السر والإعلان، ومنتقم من حزب الشيطان، لكن على ما اقتضت ومَضَت به سنته من الابتلاء والامتحان، الذي يميز الله به أهل الصدق والإيمان من أهل النفاق والبهتان؛ إذ قد دلَّ على أنْ لا بد من الفتنة لكل من ادَّعَى الإيمان، والعقوبة لذوي السيئات والطغيان، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠).

أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فأنكر سبحانه على مَن يظن أن أهل السيئات يفوقون الطالب الغالب، أو أن مُدَّعِي الإيمان يُتْرَكُ بلا فتنة تميز بين الصادق والكاذب، وأخبر في كتابه أن الصدق بالإيمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيله، فقال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ وأخبر سبحانه بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة، الذي يعبد الله فيها على حرف، وهو الجانب والطرف الذي لا يستقر من هو عليه، بل لا يثبت على الإيمان إلا عند وجود ما يهواه من خير الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ الآية، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وأخبر سبحانه عند وجود المرتدِّين، فلا بد من وجود المحبِّين المحبوبين المجاهدين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الآية، وهؤلاء الشاكرون لنعمة الإيمان الصابرون على الامتحان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ فإذا أنعم الله على الإنسان بالصبر والشكر كان جميع ما يقضى له من القضاء خير له، كما قال النبي ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته سَرَّاءُ فشَكَر كان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاءُ فصَبَر كان خيرًا له**»[1] والصابر الشكور هو المؤمن الذي ذكر الله في غير موضع من كتابه، ومن لم يُنعم الله عليه بالصبر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

والشكر فهو بِشَرِّ حالٍ، وكل واحد من السراء والضراء في حقه تفضي به إلى قبح المآل، فكيف إذا كان ذلك في الأمور العظيمة التي هي من محن الأنبياء والصديقين، وفيها تثبت أصول الدين، وحفظ الإيمان والقرآن من كيد أهل النفاق والإلحاد والبهتان، فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله، والله المسئول أن يثبتكم وسائر المؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة، ويتم نعمته عليكم الباطنة والظاهرة، وينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين على الكافرين والمنافقين، الذين أمرنا بجهادهم والإغلاظ عليهم في كتابه المبين[(١)]. انتهى كلام أبي العباس رحمه الله.

ومن جواب له رحمه الله، لما سئل عن الحشيشة؛ ما يجب على مَن يدَّعِي أن أكلها جائز؟ فقال: أكل هذه الحشيشة حرام، وهي من أخبث الخبائث المحرمة، سواء أَكَلَ منها كثيرًا أو قليلًا، لكن الكثير منها المسكر حرام باتفاق المسلمين، ومن استحل ذلك فهو كافر، يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتِلَ كافرًا مرتدًّا، لا يُغَسَّلُ ولا يُصَلَّى عليه ولا يُدْفَنُ بين المسلمين، وحكم المرتد شرٌّ من حكم اليهود والنصارى، سواء إن اعتقد أن ذلك يحل للعامة، أو للخاصة الذين يزعمون أنها لقمة الذكر والفكر، وأنها تحرك الساكن، وتنفع في الطريق، وكان بعض السلف ظن أن الخمر يباح للخاصة متأوِّلًا لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ فاتفق عمر وعلي وغيرهما من علماء الصحابة على أنهم إن أقروا بالتحريم جُلِدُوا، وإن أَصَرُّوا على الاستحلال قُتِلُوا[(٢)]. انتهى ما نقلته من كلام الشيخ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢١١ - ٢١٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٤/ ٢١٣ - ٢١٤).

فتأمل كلام هذا الذي يُنْسَبُ إليه عدمُ تكفير المعيَّن إذا جاهَر بسبِّ دين الأنبياء، وصار مع أهل الشرك، ويزعم أنهم على الحق، ويأمر بالمصير معهم، ويُنكر على مَن لا يسبّ التوحيد ويدخل مع المشركين لأجل انتسابه إلى الإسلام، انظر كيف كفَّر المعيَّنَ، ولو كان عابدًا، باستحلال الحشيشة، ولو زعم حلَّها للخاصة التي تعينهم على الفكرة، واستدل بإجماع الصحابة على تكفير قدامة وأصحابه إن لم يتوبوا، وكلامُهُ في المعيَّن، وكلامُ الصحابة في المعيَّن، فكيف بما نحن فيه مما لا يساوي استحلالُ الحشيشة جزءًا من ألف جزء منه! والحمد لله رب العالمين، انتهى.

وفي هذه السنة أيضًا جرت وقعة تسمى وقعة الغفيلي، وهو رجل في قصر من قصور ضرما، فعزم على الردة، وصمم عليها قصده، فأرسل إلى إبراهيم بن سليمان، يخبره بذلك الأمر والشأن، ويستنجده بأن يرسل إليه أعوان، فأرسل إليه بعض الجيش، لكي تطمئن نفسه ويسكن ما بها من الطيش، فعثر على ما نواه وأراد، واطلع على حاله أميرُ البلاد، فأرسل إلى الأمير محمد بن سعود، يخبره بالأمر المعقود، فجهز الأمير جيشًا في ساعته، من أهل العيينة وأهل الدرعية وغيرهما من جماعته، وبادروا إلى قصر ضرما بالمسير، ليعالجوا ذلك التدبير، وسار معهم محمد بن عبد الله أمير ضرما وغالب قومه، بعد التهيؤ في الحال والاستعداد في القتال، فلما قارب البلد، كمن في زرع الذرة وقعد، فلما مضى هزيع من الليل، سمعوا وقع حوافر الخيل، فبدروهم بالجملة، وقتلوهم فورًا من غير مهلة، ولم يسلك منهم فج الانهزام، إلا من نجا برأس طِمِرَّةٍ ولجام[1]،

---

(١) الطمِرّة: الفرس. وأخذه من قول حسان بن ثابت - رضي الله عنه -:

إن كنتِ كاذبة الذي حدثتني ... فنجوتِ منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمِرّة ولجام

وقُتِلَ من أهل ثرمدا، ممن أقبل منهم واعتدى، على سبيل التحقيق لا التخمين، قريب من نحو سبعين، وأُسِرَ أناس من الأماثل، منهم عبد الكريم بن زامل.

ثم دخلت السنة الثامنة والستون.

وفيها فتح الله تعالى للمسلمين حريملا، أخذوها بالسيف عَنْوة، وبغتوا أهلها بها فجوة؛ وذلك أن عبد العزيز، فسح الله له في الأجل، وبلغه غاية الأمل، غزا بالمسلمين، وكانوا نحو الثمان من المئين، وخيلهم لا تزيد على عشرين، فأناخ شرقي البلاد، وقد اشتد ظلام الدجنة في السواد، وقد عبَّأ المسلمين، وجعل ذلك الكمين في موضعين، فصار الأمير عبد العزيز في شعب عوجا[1]، ومبارك بن عدوان مع مائتي رجل، وأقاموا بالجزيع[2] فوجًا، فلما بدا جبين النهار، وأسفر وجهه واستنار، وأخذ أهل الفلاحة في الانتشار، شنّ الشعواء وأغار، فلم يكن لأهل البلد عن الظهور اصطبار، فعند ذلك نشب القتال، وتلاحمت الأبطال، وظهر الكمين الأول، فكان كلٌ مِن أهل البلد على الصبر قد عوَّل، وأرخصوا عند ذلك المُهَج، ولم يكن أحد لمنهج الفرار قد انتهج، حتى بدا لهم الكمين الثاني، فلم يكن أحد على القرار ثاني، بل جدوا في الفرار بلا تواني، وملك المسلمون أعقابهم، وحققوا مطالبهم، فقتلوا منهم مائة، عجَّل الله ذهابهم، وأراد استئصالهم وعذابهم، ونال المسلمون بذلك غاية الآمال والمنال، وغنموا تلك الذخائر والأموال، وطاف على أهل ذلك الأفعال، طائف العذاب والوبال، وقُتِلَ من المسلمين سبعة رجال، ودخل المسلمون البلد، ولم يكن أحد من أهل الشرك إلا شرد، وأعطى عبد العزيز بقية

---

(١) بين بلدتَي حريملا والقرينة.

(٢) من أحياء حريملاء، يقع شرقها.

الناس الأمان، وكانت البلد فيئًا من الله على سبيل الامتنان، وخرج هاربًا منها مختفيًا ابن عبد الوهاب سليمان، وأمَّر عبدُ العزيز مباركَ بن عدوان، وبئس الأمير كان، لأنه آثر بعد ذلك سبيل الشيطان، كما يأتي بيان ردته، في شهره وسنته، وقد أعطاه عبد العزيز من الأموال، كلَّ نفيس عزيز، وخيَّره في البيوت والمنازل، وفي البساتين والأصائل، وأخذ ما شاء من تلك الدار، واختار ما طاب من العقار، ولما توقف في حكم أموال أهل هذه البلدة الناسُ، كشف الشيخ، رحمه الله تعالى، عن ذلك حُجُبَ الالتباس، وأماط عن وجه الحكم الأدناس، وبت الحكم بأنها على المسلمين من جملة الإلباس، نظير ما صدر وجرى، من فعل السلف الكبرى. وكان ما ذُكِرَ لثمان مضت من جمادى الأولى يوم الجمعة، وأقبل عبد العزيز بتلك الأموال والغنائم إلى الدرعية، ثم وقعت فيها المقاسم.

وفيها تظاهر على نُصرة الدين، ومحاربة أهل الضلال والمشركين، عامة أهل شقرا، فأدركوا بذلك عزًّا وفخرًا، وأحرزوا ثوابًا وأجرًا، فاجتمعوا على ذلك بعد الافتراق، واضمحل ما كان منهم قبل ذلك من الاختلاف والشقاق.

وفيها محاربة ابن دواس الثانية في شعبان، بدت الردة من دهام، واجتمع هو وابن فارس على محاربة المسلمين والإسلام، بلا سبب من المسلمين لذلك باعث، بل على سبيل الاختيار أصبح للعهد ناكث، فأول ما جرى منه عدا على أهل أبي الكباش، وانقلب راجعًا منحاش[1]، ولما تظاهر دهام بذلك الاعتدا، وعدل عن سنن الاهتدا، وتبين ذلك منه وبدا، ضاق على أهل الدين والهدى، من أهل بلده السكنى عند أهل الردى، فأجمعوا على الهجرة، وكلٌّ حقق عليها

---

(١) أي: هارب.

رأيه وأمره، فتركوا الأموال والوطن، وباعوها بأغلى وأعلى ثمن، على مُولي المنن، فمن مشاهيرهم: محمد بن صالح وسعيد بن عمران، أهل الهجرة الأولى من الرياض إلى منفوحة ابن ذهلان عبد الرحمن وابن صالح وسعيد بن عمران وحمد أبا الحويل ومحمد بن دخيّل وعياله أحمد وموسى وعبد الله وموسى بن محمد وقاسم ومانع وعيسى بن نوح وعلي بن نوح وسعد بن نوح وأخوه موسى وعبد الرحمن بن جندل وموسى بن زياد وابنه محمد وعبد الرحمن بن سويدان وسليمان بن سحيم وسليمان بن حمد بن صالح وراشد بن نفيسة وعلي بن نفيسة وإبراهيم بن نفيسة وسليمان بن نفيسة وموسى أبا الحويل وعبد الرحمن أبا الحويل، ثم هاجر جميع مَن ذكرنا مِن منفوحة إلى الدرعية لما ثبت أسباب الردة من ابن فارس.

ثم هاجر معهم من مشاهير أهل منفوحة: حسين بن عثمان وعثمان بن حسين وسليمان بن حسين ومحمد بن حمد بن حسين وسلطان بن عبد الله ومحمد ابنه وإبراهيم بن سلطان وسليمان بن حسين وإخوته ناصر وسلامة وموسى والمخاضيب عبد الرحمن وعياله عبد الله وحمد وعيسى وعيال محمد علي يحيى وموسى وعلي بن مزروع وعبد الله وحسن والسحوم دهمش وعمر وحمد ومطلق ومن الزمامات يحيى وموسى وآل ندیان ثلاثة محمد والمغيليث وراشد وعلي ومنصور بن قاسم وسويلم بن قراش وعثمان بن مجلي وعربيد وعثمان العليوي ومحمد بن طفل ومبارك بن مرجان وغيث بن سحيم وولده ومحمد بن هلال وأخوه حمد وثالثهم علي وراشد التخيفي وعثمان التخيفي وسليمان الشعيبي وعبد الله بن نفيسة وعبد القادر وعيسى بن سرحان وعبد الله بن رشيدان ومفرج بن رشيدان ومفرج بن جلال وعيسى بن سعدون وولده محمد.

وفيها اجتمع دهام وابن فارس وأهل الوشم وأهل سدير وأهل ثادق وجلوية حريملا، فغزوا حريملا وحزّبوا عليها، وساروا جميعًا، فوصلوها وسلطان الليل قائم، والكرى على الأجفان حاكم، وغالب الأحراس نائم، فدخلوا في حلة تسمى الحِسْيان[1]، ولم يشعر بهم من البلد إنسان، حتى ملكوا تلك البساتين والحلة، واستعد كل منهم للقتال وملك محله، فأخبر بذلك الشأن مبارك بن عدوان، فنهض عليهم مع جماعة معه في الليل، فرجعوا ولم يخرجوهم من النخيل، فلما أصبح الصباح، اغتدى للحرب وراح، واجتمع مبارك مع قومه، والتقى معهم صبح يومه، وحمي بينهم القتال، وأخرجوا طائفة من تيك الجبال، وبقي طائفة من الرجال، وغالبهم من أهل حريملا من الجلوية محتصرين في البيوت خوف الاغتيال، ومكثوا نحو خمسة أيام، في أشر مقام، وفي مدة هذه الإقامة، كل يشد للرمي سهامه، وقَتَلُوا من أهل البلد، نحو ثمانية عشر من العدد، ثم بعد ذلك تسوّر المسلمون عليهم الدور، وحاق عليهم المكر والفجور، وحان عليهم القضاء المحتّم المسطور، فقُتِلُوا قِتْلَةَ رجل واحد، وكان دهام على مقتلهم واجد، وأخذوا ما معهم من سلاح، وغدا دهام بالخزي وراح، وكان جملة المقتولين من الأحزاب ستين، وقد دعا مبارك أناسًا من أهل حرْمة محصورين، وأعطاهم ذمة المسلمين، فخرج منهم على الأسر عشرة، فخان بهم وقتل منهم ستة قضى بهم وطره، ولم يشعر بذلك الشيخ وابن سعود، ولما جاءهم الخبر نقموا عليه بما صدر، كيف وفي الحديث «**ثلاثة أنا خصمهم**» وذكر رجلًا أعطى بي فغدر[2] فأخذ منهما الغضب غايته، وبلغ حده ونهايته.

---

(١) من أحياء حريملاء.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٧).

ثم دخلت السنة التاسعة والستون.

وفيها تقشع عن أهل القويعية غمام الشرك والشر والأذى، وزال عن أبصار بصائرهم القذى، واستنشقوا من عَرْفِ الحق شذا، وداخل أفئدتهم من التوحيد شائبة، وهبت لهم من ذلك سائبة، فصارت قلوبهم للدخول فيه طالبة، ولالتزام أحكام الإسلام راغبة، فأقبلوا على الشيخ والأمير محمد، حين أرادوا ذلك الطريق الأحمد، وقدم محروس الدرعية، كبار أهل القويعية، فبايعوا على الإسلام، والتزموا جميع الأحكام، ولقد صدقوا في تلك البيعة، ووفوا وأقاموا متجملين بجمال ذلك اللباس، فما خلعوه ولا نفوا، وكان أول من صار إلى التوفيق وداعِيَه، ودَعَتْهُ منه أذن واعيه، ناصر بن جماز العريفي وسعود بن حمد، فكل منهما سارع إلى ذلك الشأن ونهد، وبادر إلى الوفود فوفد، وهاجروا إلى ديار الإسلام، فنالوا الفوز والمرام.

وفيها سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، متع الله تعالى به المسلمين، في رفعة وتمكين، إلى منفوحة والرياض، فعَدَوْا على منفوحة، ودخلوا نخيل الصبيخة[1]، وأخذوا دوابًّا كثيرة، إبلًا وبقرًا وحميرًا، ثم خرج عليهم الأفزاع، فهزمهم المسلمون بالقتل والدفاع، وقتل منهم علي أبا الماسح وغيره، ثم جاءهم بعد ذلك أهل الرياض بالمدد، واستحرّ بينهم وبين المسلمين القتال والجَلَد، وكلٌّ شمَّر للجِلَاد واجتهد، حتى صاح بأحزاب الضلال، منادي الهوان والإذلال، فولَّوا مدبرين، ولبلدهم طالبين، ورجعوا بالخيبة والحسرة، وكم لهم مثلها من مرة، وكان دهام في تلك الأيام باديًا على أهل سدير والوشم، في تدبير الحرب والانتظام، والسياسة والمواعدة على المسلمين

---

(١) موضع مشهور يقع جنوب منفوحة.

والإسلام، وكان عند عبد العزيز بذلك خبر، قبل أن يرحل إلى منفوحة وبعد ما صدر، فلما رجع إلى الدرعية، وتحقق القضية، خرج مسرعًا يريد له الرصد، فكمن له قرب ضرما فإذا هو قد وفد، ولكنه شعر بالمسلمين، فولى مع من معه مدبرين، فطلبه المسلمون أشد الطلب، ولكنه جدّ في الفرار والهرب، ورمى عن الركاب كل ثقيل، وترك من المطي كل ظهر لا يسرع في الغارة والزميل، وأخذ المسلمون ما طرحه وترك، ولحق ببلده عبد العزيز وانفرك[1]، ثم إن عبد العزيز، حرسه الله تعالى، استأذن الغزاة في إعطاء جميع الغنيمة للمهاجرين، فطابت بذلك نفوسهم أجمعين، فأذنوا له في ذلك.

ثم دخلت السنة السبعون بعد المائة والألف.

وفيها وقعة تسمى وقعة الرشا[2]، عند من ترعرع في ذلك الوطن ونشأ، وكانت على أهل منفوحة، لأن المسلمين نقضوا البناء المعدّ لحجر السيل على النخيل المسمى عند أهل البلد بذلك، ودخل المسلمون عليهم البيوت والدور، ثم إن دهامًا أتاه الخبر المسطور، فنهض من ساعته، مع مقاتلة جماعته، بعدما قال لمن جاءه بذلك المقال: اثبتوا لهم ساعة؛ فإني أدهمهم مع الجماعة. فأقبل ابن دواس على المسلمين، وقد صاروا بهدم أساس الرشا مشتغلين، فقاتل من المسلمين من عند ذلك الأساس، حتى هزمهم مقاتلة أهل الرياض مع ابن دواس، وتصادم دهام في ذلك الظلام، مع واحد من فرسانه وحفدته وأعوانه، وتصافق الفرسان عند ذلك الطعان، وسقطا كلٌّ منهما على الأرض، وأخذ المسلمون على هيئة واجتماع، وخرج الذين دخلوا وسط الدور، بعد قتال

(١) انفرك: انصرف عن قصده.

(٢) قال ابن بشر (١ / ٣٣): «وهو حاجز للسيل عند بلد منفوحة».

مشهور، قُتِلَ فيه عبد الوهاب بن مشرف، وخرجوا عنها بعد ما قارب كل منهم الحِمام وأشرف، وصادفوا بعد أن خرجوا من تلك البلاد، دهام بن دواس ومن معه من الأجناد، فلم يعرفوهم وظنوهم من أهل الدور أمداد، وقد عرف المسلمون دهامًا وقومه، وظن كلٌ منهم أنه ملاق حِمامه ويومه، فحقن الله تعالى دماهم، وأنجح سولهم ومناهم، إلا أنهم قتلوا ثلاثة رجال، من أهل الرياض ذوي الضلال، قد عرفوهم بالرؤوس، فجرّعوهم من الحِمام مرّ الكؤوس، ورجع المسلمون إلى بلادهم، وقد استشهد منهم عشرة في تعدادهم.

وفيها أيضًا حزّب أهل الوشم وأهل سدير على شقرا، وراموا بذلك من الهتك أمرًا، فساروا وقد ملئت قلوبهم بالحقد والضغائن، فنزلوا بأجمعهم في قرية القراين، وأقاموا بها من الأيام ثلاثة، وكل يوم يناوشون أهل شقرا الحرب من غير توان ولا رثاثة، ويقع بينهم في قتال وطعان ومجال، حتى أراد الكبير المتعال الخذلانَ لأهل الضلال، فجاء محمد بن سعود الخبر، وتيقنه خبرًا فجرد صارم العزم للمسير، وأخبر بذلك أهل شقرا، وعين لهم الزمن المعلوم، وبيّن لهم يوم القدوم، الذي أجرى الله فيه القضاء المحتوم، على من هو لاستئصال المسلمين يروم، فلما جاء ذلك اليوم، وحان الذل بالقوم، خرج إليهم أهل شقرا، ليشغلوهم بالحرب قسرًا، خشية أن ينهزموا إن نالوا من مجيء المسلمين خبرًا، فلما نشب القتال وحمي، طلع عليهم عبد العزيز الكمي[1]، فلم يجدوا غير الهزيمة ملاذًا، ولا سوى قرية القراين معاذًا، فولّوا إليها مدبرين، وبقُوا بها منحصرين، وولي المسلمون أكتافهم في الهزيمة، ولولا قرب القرية لكانت المقتلة عظيمة، وقَتَل المسلمون منهم نحو خمسة عشر، وكان منهم من هو

---

(١) أي: الشجاع.

مشتهر، منهم حمد المُعيّى وسويد بن زايد وغيرهما، وأخذوا ركابًا وسلاحًا وفرسًا، ثم حصروهم في القرائن وأطالوا لهم مجسًا، وأقاموا قريبًا من عشرين يومًا في الحصار، في غاية الضنك والضيق حتى أيقنوا بالدمار، ولكن الله لما أراد لهم السلامة، أقبل ابن سويط وقومه ففهموا أخباره وأعلامه، فخرجوا ليلًا مختفين، وللنجاة طالبين.

وفيها قتل غزو بن فايز(١) في مكان يقال له الحسي(٢)، وذلك أن المسلمين جاءهم عنه الخبر، فجرد له عبد العزيز ونفر، وكمن له في الحسي ورصد، حتى جاء إليه ووفد، فاستأصل المسلمون شأفته، وقتلوا جماعته، وأضحى ابن فايز في أيديهم أسيرًا، حتى بذل في فداء نفسه مالًا كثيرًا، وكان جملة ما أعطى وأظهر، خمسمائة أحمر(٣).

وفيها أيضًا وقعة باب القبلى، وذلك أن عبد العزيز، حرسه الله تعالى، شمَّر ساعده للحرب والانتهاض، وسار بالمسلمين حتى نازل الرياض، وأعدّ في الليل الكميّ والكمين، قبل أن يفلق عمود الصبح ويستبين، فلما انجلى من الليل ظلامه، ونُشرت من الصبح أعلامه، وانتشر في الطريق الأنام، ظهرت غارة المسلمين والإسلام، فأسرع أهل الرياض إليهم، وشرعوا الأسنة عليهم، وأطلقوا الأعنة لديهم، فلم يكن غير لحظة أو ساعة، حتى كان الهروب طريق تلك الجماعة، وسبب ذلك حين عاينوا الموت في الكمين، وتيقنوا أن الله تعالى لهم معين، فعمدوا إلى الباب من الهرب، وكلٌ أراد الدخول قبل الآخر

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٣٤): «ابن فايز المليحي السبيعي».
(٢) قال ابن بشر (١ / ٣٤): «قرب بلد حريملا والصفرة».
(٣) نقد يُتعامل به في زمنهم.

وطلب، وتضايقوا عند الباب، وتكسرت في الدخول الحراب، وقُتِلَ منهم ثمانية رجال، دنت منيتهم بلا إمهال، منهم كنعان الفريد وصالح وابن نعران ورطيبان وغيرهم، وقتل من المسلمين عبد الله بن نوح.

وفيها سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، إلى الرياض، ونزل البنية، وخرّب جميع زروع الشمسية.

وفيها غزا المسلمون الوشم، وأميرهم إذ ذاك محمد بن عبد الله أمير ضرما، فوافق المسلمين في طريقهم ذلك غزو للصمدة[1]، أكثر من المسلمين هنالك، ففر المسلمون منهم، وجدوا في الفرار عنهم، وأسروا منهم بعض الناس، ففدوا أنفسهم من الأحباس.

وفيها غزا المسلمون وشيقر، وأميرهم عبد العزيز، فلما وصلوا إلى تلك البلاد، وكمنوا لهم في تلك الوهاد، وخرج المقاتلة للجلاد، واشتد الحرب، وكثر بينهم الطعنِ والضرب، طلع عليهم ذلك الدفين، وأقبلوا إلى المعركة مسرعين، فلم يثبت أهل البلاد، بعد شدة ذلك الجلاد، أن ولّوا على أعقابهم مدبرين، وقُتِلَ منهم أربعة رجال محقَّقين.

وفيها غزا المسلمون أهل ثادق، وأميرهم عبد العزيز، سلك الله تعالى به أحسن الطرائق، فلما وصلوا إلى حلتها، نزلوا قريب نخلها ومحلتها، فناوش المسلمين الحرب أهلها، وكان الحائل بينهم نخلها، فترامَوا الرصاص بينهم من بعيد، وكان ذلك الرامي يصيب ويفيد، وقطع المسلمون عليهم نخلًا، وعرفوا أن هذا شأن المسلمين فعلًا، وقُتِلَ منهم ثمانية رجال، وأقاموا محتصرين يديرون الفكرة والاحتيال، فلم يكن لهم سوى الإقبال على الإسلام من إمهال،

---

(١) من الظفير.

وطلبوا ذلك من عبد العزيز فأعطاهم، وحقق لهم مطلوبهم ومناهم، وقدموا مع الغزو إلى الشيخ في الدرعية، وأخبروه بحاصل القضية، وأمّر عليهم دخيّل بن سويلم، وأرسل معهم أحمد بن سويلم، يعلّمهم التوحيد والأحكام، ويحكم لهم الشرائع غاية الإحكام، وقد قُتِلَ من المسلمين ثمانية رجال، منهم محمد بن دغيثر ومحمد بن مانع وغيرهما.

وفيها غزا المسلمون أهل جلاجل، وعبد العزيز، حرسه الله تعالى، أميرهم الذي يرجع إليه سياستهم وتدبيرهم، فسار بالمسلمين ممن معه وساعده وتبعه، فنازل أهل جلاجل، وكان لإعداد الكمين فاعل، فلما خرج إليه منهم كل مقاتل، ونشب القتال وكان كل قرم لقِرنه خاتل، هزم الله تعالى أهل جلاجل، فولوا مدبرين على الأعقاب، ودخلوا البلد وغلقوا دونهم الأبواب، ونهب المسلمون من بيوت البلد ما استطرف، ثم رجع عبد العزيز بمن معه وانكف، وأقبل معه من مطاوعة سدير: حمد بن غنام وإبراهيم المنقور وابن عضيب، وذلك لما طلبهم عبد العزيز، وقصده قدومهم على الشيخ وموافاتهم له وقراءتهم عليه وأخذهم عنه، وأقبل معه أيضًا بابن سعدون وابن حماد، مخافة أن يُزَيِّنَا لأهل العودة الارتداد، ولما قدم عبد العزيز الدرعية، ومن معه من تلك الجلوية، أتاه أمير العودة عبد الله بن سلطان، وطلب منه المنة والإحسان، على ابن حماد وابن سعدون، واختار حرسه الله تعالى طريق الموافقة والهون، وإلا فهو قد تفرس فيهما أن أسباب الردة منهما تكون، فأطلقهما لأجل وجاهته، ولم يدرِ ما يصدر عليه من جماعته، فلما وصلوا البلاد، أخذوا للردة في الاستعداد، فلما هيأوا أسبابها على المراد، لم يجدوا ما تطيب به النفس، ويتم لهم به السرور والإنس، سوى قتل من غمرهم بذلك الجميل، ومقابلته بالصنع الوبيل، فقتلوا عبد الله بن سلطان، مقابلة لذلك الإحسان، وهذا شأن من وضع

المعروف في غير محله، وصرفه إلى غير أهله، يجازيه بقبيح فعله، كما قالت العرب في أمثالها: سَمِّنْ كلبَك يأكُلْكَ. وقال الشاعر:

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر

وقال المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندا في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندا

وفيها غزا المسلمون الرياض، وأميرهم عبد العزيز، وقصدهم يرصدون دهام إذا خرج إلى منفوحة يوم العيد، وكان عادته يوم العيد يخرج للسلام على ابن زامل، وأقاموا بين البلدين يرصدون، ولم يكونوا بما نووا يظفرون، إلا أنهم في تلك الإقامة، خرج زيد الصمعر فوافقوه فجرعوه حِمَامَه، ثم رجع عبد العزيز ومن معه من المسلمين إلى بلادهم سالمين.

ثم دخلت السنة الحادية والسبعون.

وفيها غزا المسلمون ثرمدا، وأميرهم عبد العزيز، أعزه الله بالطاعة، ونصره وأتباعه، فساروا إلى ثرمدا، وجرت وقعة تسمى وقعة النقيب، وذلك أن المسلمين لما اشتد غسق الدياجي، لم يكن لهم دون دخول البلد من مفاجي، وقد جعلوا لهم خارج البلد كمينين للرصد، فلما زال سواد الظلام، وذهب ذلك الإظلام، وسعى العباد خارج البلاد، وقد أخبروا بالمسلمين، وما هم عليه مجتمعين، وعرفوا أن المسلمين دخلوا حائطًا نقبوا لهم نقبًا في جداره، وأقاموا فيه متوارين بين نخيله وأشجاره، والكمين الثاني خارج البلد، لم يشعر به أحد، فاجتمع أهل تلك البلاد والحلة، على من عرفوا في النخل مكانه ومحله، وبقوا ساعة بقربه وحياله، ينتظرون من يخرج من ذلك النقب ورجاله، فلما أراد من فيه

الخروج، لم يكن لهم عن ذلك النقب من عروج، فقاموا يخرجون منه واحدًا واحدًا، ولم يكن أحد منهم لغيره فاقدًا، واستمروا على ذلك يخرجون منه أرسالًا، ولا يفهمون لمن يخرج منه حالًا، حتى اسود النقب وأظلم، وسد ضوؤه بعد أن أعلم، فتيقنوا مصاب أصحابهم، وتحققوا مصارعهم في انقلابهم، فلما تبين للمسلمين ذلك، خرج جميع من هنالك، ووقعت معركة بينهم عظيمة، وحقق الله تعالى على تلك البلاد الهزيمة، وقُتِلَ منهم اثنا عشر، منهم عبد المحسن بن إبراهيم رئيس ثرمدا، ومنهم بشر بن بلاع، واستشهد من المسلمين في تلك الغزو قريب من عشرين، منهم عيسى بن ذهلان ومحمد بن عبد الرحمن بن موسى ومفرج بن جلال.

وفيها غزا مبارك بن عدوان بركب معه من أهل حريملا، فوافق عبد الله بن سليمان معه أسير، ثم بعد وصوله حريملا منّ عليه وأطلقه من غير قليل من المال ولا كثير، ولم يستشر في ذلك الشيخ ولا محمد بن سعود، فنقموا عليه بذلك الفعل غير المحمود.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم عبد العزيز وساروا إلى سدير؛ فاستولوا على الحوطة والجنوبية، وذلك لأن أهل البلادين أرسلوا للأمير يريدون منه القدوم والتيسير، ومرادهم الدخول في الإسلام، والاستمرار تحت الذمام، فأسفعهم بالمقصد والمأمول، وأسرع إليهم المجيء والوصول، فلما دخلها عبد العزيز ومن معه فزع عليهم أهل سدير ولم يفوزوا بمرام، ثم رجع عبد العزيز بعد أن نصب لهم في كل بلدة أميرًا وإمام.

وفيها خرب المسلمون زروع منفوحة.

وفيها غزا المسلمون جلاجل أيضًا، وأميرهم عبد العزيز، فأخذوا منها سوارح الغنم، ثم لحقهم الطلب، فاقتتل مع المسلمين ثم بعد ذلك ولى وانهزم،

وملك المسلمون أعقابهم، ولم يكن سوى البيوت مآبهم، وقُتِلَ منهم ستة رجال، في تلك الساعة والحال.

وفيها أتى المسلمين الخبر، أن عريعر[١] كبير الحسا يريد التخريب على الإسلام وأهله، وقد صرّح بذلك في قوله لا فعله، وأخذ المسلمون للحرب في الاستعداد وتحصين البلاد.

وفيها في شهر رمضان سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، إلى الرياض، وجرت وقعة عظيمة على أهل الرياض، تسمى وقعة أم العصافير[٢]، وذلك أن المسلمين قدموها ليلًا، وجعلوا لهم رجالًا وخيلًا، أعدوا لهم رجالًا في مكان يقال له القبّة[٣] كمينًا، فلما أصبح الصباح وخرج إليهم أهل البلاد كان الله للمسلمين معينًا، فاستمر بينهم القتال، وضاق في المعترك المجال، حتى كشف الله تعالى جميع أفزاع الضلال[٤]، وقُتل منهم تركي بن دواس وابن فريان والجبري وحمود بن ماجد، ولم يُقتل من المسلمين غير واحد، ثم انقلب المسلمون إلى بلادهم، بعد تحصيل مراهم.

وفيها سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز حرس الله مهجته، إلى الرياض، فنزلوا البنية وملكوها، وتلاحقت عليهم الأفزاع، من منفوحة والرياض فاقتتلوا

---

(١) عريعر بن دجين (ت ١١٨٨هـ). قال الأستاذ عبدالكريم الوهبي في كتابه «بنو خالد وعلاقتهم بنجد» (ص ٣٥٩): «بلغ شخصه حدًا من الشهرة حتى أُطلق لقب آل عريعر على معظم زعماء آل حميد؛ سواء كانوا من خلفه أو من أسلافه».

(٢) مكان قديم يقع وسط مدينة الرياض.

(٣) بناء قديم يقع وسط مدينة الرياض. قال في «معجم مدينة الرياض» (ص ٦٥): «أحدثها رجل مبتدع اسمه تاج بن شمسان».

(٤) الأفزاع: الجماعة يفزعون للنُصرة والمدد.

في تلك الأراضي والبقاع، وكان القتال من بعيد بالبنادق، والكل من الطائفتين غير مقارب ولا موافق، وقُتِلَ بالرمي ذلك اليوم، ومن أولئك القوم، ثنيان بن مبيريك عبد الزرعات، وآخر يقال له الدفين، واستشهد من المسلمين راشد بن غانم وحميد بن قاسم وغيرهم نحو ثلاثة، ثم ثوَّر الأمير عبد العزيز من تلك الأماكن، فأناخ بالغذوانة[1] في ذلك الباطن، فأمر المسلمين جزاه الله تعالى خيرًا، وأعظم له أجرًا، أن يبنوا في ذلك الباطن قصرًا، يكون للمسلمين حصنًا وثغرًا، فأقاموا سبعة أيام في ذلك البناء والإحكام، ثم بعد الفراغ منه والتمام، أرخص لمن أراد من الغزاة أهله والقدوم عليهم من المشاة على الأقدام، وبقي هو مع الجيش بعض أيام.

وفيها جرت ردة مبيريك[2] بن عدوان، واتّباعه منهج الشيطان، وذلك أنه لما رجع من غزو البنيّة، وبناء القصر إلى الدرعية، عزله الشيخ ومحمد بن سعود الأمير، عن الإمارة في حريملا والتدبير، وأمّرا حمد بن ناصر بن عدوان، وأرسلا معه مفرج بن شعلان، وذلك لأنهما تخوفا على المسلمين منه، لأمور صدرت نسبت عنه، فاسترخص مبيريك الشيخ ومحمد الأمير، أنه يريد العيينة ثم يُسرع إليهما بالمسير، فأرخصا له في ذلك، فلما خرج مورّيًا بالسير إلى هنالك، اجتمع في ذلك الطريق مع أناس من أهل حريملا، فعاودهم على الردة، فلبّى له منهم فريق، ثم سار يريد حريملا مع من وافقه من جماعته، فلم يصل إليها إلا بعد ما ملك حمد بن ناصر ومن معه قصر إمارته، فدعا مبيريك أهل البلد لنصره ومعونته، فلم يُجبه أحد إلا بخذلانه ومهونته، فحين تحقق الأمر وعاينه، وعرف

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٤٠): «موضع معروف غربي الرياض».
(٢) تصغير: مبارك.

من جماعته المعاداة والمباينة، ولى على وجهه مدبرًا، وبقي على فعله نادمًا متحسرًا، وصارت منيخ[١] له وِجْهَه، فولى حريملا دبُره، ومنح تيك وجهه، وقُتِلَ ممن ساعده على الردة رجال، وفر الباقون باستعجال، ولما أتي الشيخ ومحمد الأمير، بما رامه مبيريك من التدبير، أرسلا إلى عبد العزيز وأخبراه بذلك، فجمع من عنده من الغزاة هنالك، فأخبرهم بالواقع والحادث، وأن ابن عدوان للعهد ناكث، وطلب منهم تجديد العهد والمبايعة، على الموت والمتابعة، فلما صدقوا في النية، وأخلصوا لله الطوية، وساروا يريدونه ودخلوا في طريقهم الدرعية، لقضاء بعض الحوائج والأغراض، فلما عزموا على النهوض والانتهاض، وراحوا سائرين إلى النعمية[٢]، فإذا البشير يفاجئهم بحصول الأمنية، فرجع عبد العزيز من فوره إلى الدرعية، ليبشر الشيخ ووالده بالقصة والقضية، فحمدا الله تعالى وشكراه، وسبحاه وكبراه، ثم سار بعد ذلك عبد العزيز إلى حريملاء تركيدًا للبلاد، وتطييبًا لقلوب أولئك العباد.

وفيها حزّب مبيريك بن عدوان وجمع من أهل سدير والوشم والمجمعة، من كل مريد شيطان، وقصده بذلك حريملا ليشفي منها الفؤاد، ويفوز منها بالظفر والمراد، فأتى الأمير محمد والشيخ الخبر، بما جرى وصدر، فأرسلا عبد العزيز والمسلمين إلى تلك البلاد، ليساعدوا أهلها ويحفظوها عن ذوي الفساد، فجاء الخبر مبيريك بن عدوان، فلم يقدر على وصول ذلك المكان، ولكنه سار مع أصحابه، وجملة أعوانه وأحزابه، فأناخ على البلدة، المسماة رغبة، فقاتلهم، ثم طلب من أناس من أهلها الخيانة له، فوافقه على ما أراده وطلبه،

---

(١) جبل في المجمعة، يُطلق اسمه قديمًا على: المجمعة وحرمه.

(٢) شمال الدرعية.

وأُدْخل بعض البيوت والدور، ثم أخرج منها بعد الحرب والقتال مكسور، إلا أن أمير رغبة وابنه راضي قُتل، وولى مبيريك بمن معه خاسرًا لمأموله لم ينل، ثم قدم عبد العزيز رغبة ومن معه من المسلمين، وأجلى من وافق مبيريك أجمعين، وأمر بهدم السور، خشية وقوع مثل ذلك الأمر المحظور.

ثم دخلت السنة الثانية والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها أتى الخبر الشيخ ومحمد الأمير، أن عريعر يريد الخروج على نجد والتسيير، فأمروا جميع بلدان المسلمين، بالبناء والاستعداد والتحصين، وقام عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالجد والاجتهاد، وشمر ساعده في البناء والاستعداد، فبنى على الدرعية سورين منضودين بالبروج، خشية التسور والعروج، ثم خرج بعد ذلك عريعر مع أهل الحسا وكافة بني خالد وأهل سدير والوشم والرياض والخرج، وكل منكر للحق جاحد، وعلى الباطل معين مساعد، وللضلال مؤيد معاضد، فأناخ أهل سدير والوشم والمحمل، ورئيسهم مبيريك بن عدوان، على أهل حريملا، وأقاموا يقاتلونهم ثلاثة أيام، فلم يكن لهم سبيل على أهل الإيمان، بل قُتل منهم رجال في أيام ذلك القتال، ثم رحلوا عنها وثوَّرُوا منها، وطلبوا من عريعر المدد والإمداد، ومساعدتهم بالجيوش والأجناد، فأمدهم بآل عبيد الله من بني خالد، وفرقان من عن-زة كبيرهم ابن هذال، فأناخ الجميع على تلك البلدة، والكل منهم قد بذل جده وجهده، وأرهف سنانه، ونخا أصحابه وأعوانه، فأحاطوا بالبلاد، ودخلها منهم ثلاث جنادب[1] للجلاد، فانتدب إليهم أهل تلك المحلة، وأخرجوهم مهزومين من النخيل والمحلة، وأركبوهم ولله الحمد غارب الهوان والذلة، وكفى بذلك عارًا

(١) هكذا. ولعله قالها إما لتحقيرهم، أو لتكثيرهم بأنهم كالجراد.

ومذلة، وقتَلُوا منهم رجالًا عشرة، والجرح أكثر من أن نعده ونحصره، ثم خرج أهل البلاد بعد ذلك النصر والناموس، وصدور ذلك الفعل المانوس، وساروا جملة مسرعين، إلى مناخ تلك الأحزاب المجتمعين، فحين عاينوا ذلك الإقبال، ووجوه الرجال، ولوا على أعقابهم مدبرين، وانهزموا راجعين، وأخذوا أهل البلاد كثيرًا من الأمتعة والزاد، ثم اجتمع ما ذكرناه آنفًا، بمن هو للتوحيد محاربًا مجانفًا، وحصل التوافق مع عريعر ومن معه، واتفق رأيه مع من ساعده وتبعه، أنهم يُلقون عصا التسيار، بالجبيلة محلة الصحب الأخيار، وينزلون تلك الفيافي والقفار، ويقاتلون أهلها إذا أسفر النهار، فعند ذلك ساروا جميعًا إليها، ونزلوا بأجمعهم عليها، وطنّبوا تلك الخيام، على ذلك المقام، وأثبتوا العمد والأطناب، على رفيع تلك الهضاب، وراموا تغيير منهج الحق والصواب، بما جاؤوا به من الباطل والضلال والإعجاب، إن ربك لسريع العقاب، فأمدهم المسلمون برجال، وبقوا أيامًا في أشد الجلاد والقتال، ثم إن أهل الباطل والضلال عَدَوا على القلعة وحاولوا الدخول، فلم يكن لهم إليه سبيل ولا وصول، وجاءهم وهم في ذلك المكان، من ورائهم أناس من أهل الإيمان، فلم يَلْوِ منهم أحد على أحد، بل كلٌّ منهم امتطى قدميه وشرد، وقُتِلَ منهم في أيام القتال، ستون من الرجال، وقُتِلَ من المسلمين نحو العشرة، ثم ولت تلك الأحزاب منهزمة منكسرة.

وفيها طلب أهل المحمل[1] من الشيخ ومحمد بن سعود الدخول في

---

(١) المحمل: إقليم من أقاليم نجد، وهو مجموعة من الأودية الصغيرة المنحدرة على السفح الغربي لجبل طويق (العارض)، ما بين سدير و الوشم إلى الشمال من شعيب حريملا، و أهم بلدانه: ثادق و رغبة و البير والبرة والعويند. ومعظم ما كان يُعرف بالمحمل يقع حاليًا ضمن حدود محافظة ثادق.

الإسلام، فأعطوا ذلك المرام، وطلب عليهم نصف الزرع وريع الثمرة؛ فالتزموا بتلك الأمور المقدرة.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين، فساروا ونزل بالقصب، وجعل له كمينًا خارج البلد، يشد أعقاب من بادر إلى ذوي الغارة وطلب، فلما تبين الفجر وانجلى، وارتفع ضياؤه وعلا، وتبينت لأهل البلاد حال المسلمين، خرجوا إلى القتال أجمعين، فلما استمر بينهم القتال، خرج عليهم الكمين باستعجال، فولَّوا مدبرين، وبقوا ببلدهم منحصرين، وقُتِلَ منهم سيف بن ثقبة، ثم بعد ذلك طلبوا من عبد العزيز الدخول في الإسلام، وأن تجري عليهم تلك الشرائع والأحكام، فوافقهم على ذلك المرام، وصالحهم على النخيل بثلاثمائة أحمر، فقبلوا ذلك المقرر.

ثم دخلت السنة الثالثة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز، أعزه الله تعالى، على الأعدا وأعلى به منار الهدى، فسار بأهل التوحيد، وغلّب العنَق على التوحيد[1]، فلم تطب له راحة في ذلك المسير، حتى أصبح على المجمعة مغير، وعدا على تلك البلد، وقتل فيها من وجد، فقتل في ذلك اليوم علي بن دخان وأربعة من أولئك القوم، وعقروا كثيرًا من الدواب، ثم انصرف إلى بلاده بحسن مآب.

وفيها غزا عبد العزيز بلدان الخرج، فسار إلى الدلم ودخلها ليلًا، وهجم وقتل من أهلها ثمانية رجال، وأخذ من دكاكين كثير أموال، ثم خرج منها وانصرف عنها، وعدا على قرية نعجان، فظهر عليهم أهلها فكسروهم بلا توان، وقتلوا منهم عودة بن علي، ثم رجعوا سالمين.

---

(١) العنَق: السير بين الإبطاء والإسراع. والتوخيد: السير السريع.

وفيها أيضًا سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، إلى ثرمدا، فنازلوها بعد أن استنار الصبح وبدا، وكمنوا لأهلها على العادة، طلبًا للإفادة، فلما خرج أهلها إليهم، وأسرعوا إلى الفزع عليهم، وجرى بينهم القتال، انكسر أهلها بعد ظهور الكمين بلا إمهال، فقتل المسلمون منهم نحو أربعة رجال، وأصيب مبارك بن مزروع من المسلمين في ذلك المجال، ثم بعد ذلك أرخص عبد العزيز لمن معه من الرجالة، أن يعمدوا إلى أهلهم، وسار هو بالجيش إلى الخرج وأجمع رأيه عليه وحاله، فشنّ على أهل الدلم الغارة، وقد سبقه عليهم النذارة، فلما أغار عليهم خرجوا مسرعين، فاقتتلوا أشد القتال مع المسلمين، ثم شدّ المسلمون عليهم، وعمدوا بالصدق إليهم، فانكشفوا مسرعين إلى الديار، وتحصنوا بذلك الجدار، وقتل المسلمون منهم سبعة، وأخذوا إبلا مجتمعة، ثم بعدما صدر من الدلم، جمع رأيه وعزم، أن يغزو الوشم، فسار على وجهته، وتصمم عزمه وهمته، فأناخ على وشيقر ليلًا وهيأ الكمين، فشعر أهل البلاد بالمسلمين، فخرجوا جميعًا إليهم، وأقبلوا للقتال عليهم، والكل قد صدق الطعان، في ذلك الوقت والزمان، حتى غشيتهم حملة الكمين، وخالطتهم أسنة الدفين، فولّوا على أعقابهم مدبرين، وقُتل نحو العشرين، ثم انقلب عبد العزيز بمن معه إلى بلادهم راجعين.

وفيها عزل الأميرُ محمد والشيخُ مشاريَ بن معمر عن إمارة العيينة؛ لأمور كثيرة ثبتت عنه شينه، وقدم الشيخ العيينة تلك الأيام، وأمّر سلطان بن محيسن المعامره على من بها من سائر الأنام، وأمر بهدم قصر آل معمر، فهُدم ذلك القصر، لما حقق عليه الشيخ الأمر.

وفيها غزا المسلمون منفوحة وحرقوا الزروع، ثم كان منهم إلى بلدانهم العودة والرجوع.

وفيها جرت وقعة آل ريس في بلد الرياض، فقتلوا من آل ريس أربعة بلا ارتياض، منهم علي، وقُتل معهم غيرهم.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم عبد العزيز، حرسه الله تعالى، آل عسكر من آل ظفير، وكانوا على الثرمانية[١]، فصبحهم عبد العزيز بالغارة الشعوائية، فوقع بينهم القتال، واحتنك القضاء في المجال، حتى قُتل رئيس أولئك الأبطال، وكان يقال له فوزان الذبيحة من روس آل عسكر، فانكسر ذلك الفريق وأدبر، وقتل منهم عشرة رجال، وأخذ المسلمون منهم عظيم الأموال، ثم انقلبوا إلى بلادهم راجعين.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم عبد العزيز، فسار إلى الوشم، وحقق عليهم العزم، فوافق في طريقه خمسة عشر رجلًا من أهل ثرمدا، فشن عليهم الغارة وعدا، فزبنوا بلدًا يقال لها الحريّق[٢]، فنازلها المسلمون، وطلبوا منهم أولئك القوم يخرجون، فأبى عن الموافقة والطاعة، مَن بالبلد من الجماعة، وقالوا هذه بئس الشناعة، فلما ألح عليهم عبد العزيز، وعرفوا أنه ليس دونهم أو الفدا من تجويز، افتدوهم منه بألف وخمسمائة زر[٣]، فقبل ذلك منهم وتركهم وصدر.

ثم دخلت السنة الرابعة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز، أدام الله تعالى فوزه، وكثر من الخير حوزه، فسار بأهل الدين يريد سدير، وحث لأجل ذلك السير، فلم يصل إليهم حتى سبقه

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٤٣): «ماء معروف قرب بلد رغبه».

(٢) بلدة تقع في منطقة الوشم، تبعد عن شقراء ٣٠ كم.

(٣) عند ابن بشر (١ / ٤٣): «وافتدوهم منه بألف أحمر، وخمسمائة أحمر». وهو نقد يُتعامل به قديمًا.

النذير عليهم، فتأهبوا لإقباله واستعدوا لقتاله، ولم يكن معه من الركاب سوى ثمانين من غير ارتياب، فأغار على بلدة يقال لها الروضة[١]، وجرى بينهم قتال، وصار عن قتل شهيّل بن سحيم الانفصال، ولم يُقتل سواه من المسلمين، ثم أقبل عبد العزيز بمن معه راجعين.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين سدير، فصارت على الروضة منهم الغارة، فخرج أهلها وابتدروا الحرب أعظم ابتدارة، وشدوا للقتال إزاره، فلما اشتد القتال وأججوا استعاره، ظهر عليهم الكمين فانكسروا أيّ انكسارة، وقتل منهم نحو الستة حين أعطى كل واحد منهم المسلمين اسْتَه، ثم رجع المسلمون إلى بلادهم، بعد نيل مرادهم.

وفي تلك الغزوة أغار المسلمون على الزلفي فجوة، فأخذوا سارح الأغنام ثم أدركهم فزع الأقوام، فتركوا ما معهم من الغنم، وصمموا على قتال من قصدهم ودهم، وجرى بينهم القتال ساعة، ثم كلٌ إلى محله ارتجاعه.

وفيها سار عبد العزيز، أعز الله تعالى به المسلمين، وأدام له التأييد والتمكين، فنزل على الرياض بالمسلمين، وأعدّ في مظلم الديجور ما شاء من الكمين، فلما قارب الفجر في الانبلاج، تبين حال المسلمين ووقع في البلد الارتجاج، وخرج أهلها ووقع القتال بينهم، وعجل الله لأهل الباطل حينهم، فبعدما حمي الحرب واستعر، وشد لها تلك الأفزاع الأزر، ظهر عليهم من المسلمين الكمين، فلم يكن لهم عون ولا عوين، فولّوا سراعًا مدبرين، وقد كسرت رِجل رئيسهم فهيد بن دواس، ولم يكن بعد كسرها لهم صبر ولا احتباس، وعاش فهيد نحو أربعين يومًا بعد كسره، ثم حواه لحد قبره، وقتل

---

(١) روضة سدير، تقع على بعد ١٦٠ كم تقريبًا شمال غرب مدينة الرياض.

منهم ثمانية رجال، واستشهد من المسلمين ستة في ذلك المجال.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين، فنزل منفوحة بالمريقبات[١]، وأقام فيها بقية ليلته وبات، فلما انبلج من الفجر الضياء، وتشعشع نوره وأضاء، وقد أعدّ الكمين في دياجر الليل، وكان للمسلمين إلى تخريب زروع منفوحة الميل، فلما تحقق أهل منفوحة ذلك الشأن، وتبين لهم في العيان، لم يكن لهم عن اللقاء من توان، فلما خرجوا إليه مسرعين، وأقبلوا عليه مهطعين، وناوشوا القتال المسلمين، ظهر عليهم الكمين المذكور، وحان بينهم القضاء المسطور، فأضحى أهل منفوحة وأفزاع الرياض، كل منهم منهزمًا مكسور، وقُتِل من جميع تلك الأفزاع سبعة رجال بلا نزاع.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز المذكور، ضاعف الله تعالى له الأجور، فصبح مساعد بن فياض مع قومه بالعتش[٢] في تلك الفياض، فلما طلعت عليه المسلمون، بقوا مدة يقتتلون، وراموا حماته ذلك الفريق، فلم يكن لهم إليها طريق، فشد المسلمون عليهم الحملة، فلم يكن لهم دون الهزيمة مهلة، فاستولى المسلمون بعد الهزيمة، على جميع أموالهم فكانت غنيمة، واستاقوا جميع الأغنام والآبال، واحتووا على الأمتعة والأسلحة والأموال، وقتلوا منهم عشرة رجال، منهم سعد القروى وأولاده، وقُتِل من المسلمين ابن عزاز كما بان تعداده، ثم رجع المسلمون إلى بلادهم.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين إلى قصر الغذوانة[٣]، يريد زيادة بنائه

(١) قال في «معجم مدينة الرياض» (ص ٧٤): «المريقب: اسم حي شهير وسط الرياض.. كان في الأصل قلعة حربية».
(٢) قال ابن بشر (١ / ٤٤): «بين سدير والمحمل».
(٣) شعيب يقع في حافة وادي حنيفة في غرب الرياض.

وتحصينه، ثم يرجع بعد حينه، ولكن إذا أراد الله تعالى أمرًا فلا بد من إنفاذه وتكوينه، فلما أراد الله ﷻ أن يبرز للخلق ما سبق في الأزل، ويبلو الناس بما فعل، ويهيئ الأسباب لمن دنا له الأجل، همَّ عبد العزيز، بلغ الله به الأمل، أن يهجم على الرياض ليلة العيد، ويبيّت أهلها ويبيد، فسار بعدما أظلم الليل وأغلس، والصبح لم يتنفس، فدخل البلد من المسلمين عدوة، فرآهم رجاجيل لابن دواس صادرين من نادٍ أو ندوة، فعجلوا إليه بالأخبار، فلم يكن له دون ركوب الخيل من بدار، فخرج بخيله ورجاله ودولته، يريد ركن المسلمين مع جماعته، فبادر إلى الركن المعد قبالة البلد، فلم يدرك منهم أحد، ثم ظهرت العدوة التي دخلت البلاد، وقُطِعَت ساقة ابن دواس ومن معه من الأجناد، وشن المسلمون عليهم الغارة بالخيل والجيش، والتهبت نار الحرب وزاغت الألباب من الجزع والطيش، ثم انهزم دهام مع دولته بعد إذلاله وكسر حدته، وقد قُتِلَ كثير من رجاله ومشاهير فرسانه وأبطاله، منهم حمد بن سودا وعبد الرحمن الحريّص وأبا المجبر، واستشهد من المسلمين خزام ابن عبيد وعثمان بن مجلّي.

ثم دخلت السنة الخامسة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين إلى منفوحة ليلًا، وقد أعد الكمين، فلما أخذ الصبح في الضياء والتبيين، تبينت لأهل البلاد غارة المسلمين، فنهضوا إلى اللقاء، وبادروا من غير بقاء، فاقتتل الفريقان، وحمي بينهم الطعان، فلما ظهر عليهم الكمين، أدبروا منهزمين، وقتل منهم سعد بن محمد بن فارس وشبيب الصنان، ولم يقتل من المسلمين إنسان.

وفيها سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، إلى الخرج وكمن لأهل نعجان، ولم يفطن بذلك من أهلها إنسان، فلما تبين الصبح وأنار، خرج أهلها للقتال

على البدار، فاستعجل كمين المسلمين بالظهور، وذلك لما قدره الله من الأمور، واشتد بينهم القتال ثم انكسروا على استعجال، وقَتَلَ المسلمون منهم سبعة رجال، وحصروهم في تلك القرية أيامًا وليالي، وقطعوا من تلك النخيل العوالي.

ثم سار عبد العزيز بمن معه إلى الوشم، ودخل ضرما لأجل تزهب الأزواد، ثم ساروا ولم يكن لهم دون مرات من مراد، فلما وصل في الليل إليها، وقدم في الظلام عليها، هيّأ للحرب كَمِيَّه، وأمرهم بالصدق وإخلاص النية، فلما تبين الفجر وانكشف، وولّى مُدلَهِمُّ الليل وانحرف، تبين لأهل مرات الحال، فلم يكن لهم دون اللقاء من مجال، فخرجوا للحرب مستعدين وللموت مستوطنين، فلم يلبثوا غير ساعة بعد ظهور الكمين، ثم ولّوا على أعقابهم مدبرين، وقتَل المسلمون منهم قريب عشرين، وقُتِل من المسلمين رجلان، ثم انقلب المسلمون إلى البلدان.

وفيها أيضًا سار عبد العزيز ومن معه إلى الوشم، ونزل بأهل الفرعة، وأناخ عليها في الليل جيشه وجمعه، فلما خرج أهلها لقتال المسلمين، واستمروا على القتال مجتمعين، خرج عليهم بعد ذلك الكمين، فولّوا مسرعين، وقُتِل منهم سبعة رجال، ولم يقتل أحد من المسلمين في ذلك المجال، ثم بعد ذلك بأيام طلب أهل الفرعة من أهل شقرا الدخول معهم في الإسلام، فأجابوهم إلى ذلك المرام.

وفيها أيضًا غزا عبد العزيز بالمسلمين يريد ثرمدا، وقد جد لأجل ذلك المسير، فسبقه إليهم النذير، فلما أغار عليهم لم يدرك المراد، لتحصن أهل البلاد، وجرى الرمي من بعيد، ولكنه لا يجري ولا يفيد، ولم يقتل من أهل البلد سوى شخص في العدد، ثم سار في وجهته وطريقه ذلك وغزوته، ونزل بين

الفرعة ووشيقر، وبنى هنالك قصرًا يكون للمسلمين ثغرًا، ويضيّق على وشيقر وأهله، وهذا من سديد رأيه وفعله، وأعد فيه للحرب والقتال شرذمة من الرجال، ولم يزل ذلك القصر مأهولًا، وبالمسلمين موصولًا، جامعًا لأسباب العمارة والنظام، حتى دخل أهل وشيقر الإسلام.

وفي تلك الغزوة أيضًا وضع عبد العزيز في شقرا خيلًا ورجالًا، زيادة على من فيها ليحسنوا بذلك حالًا، ويزيد أهل الباطل بهم ذلة ووبالًا.

وفيها غزا جدعان بن قعية بأهل عشر ركاب من المسلمين، فوافقهم ابن فياض مع غزو معه فناروا عنه مجتمعين[1]، وتزبّنوا قارة في ذلك المكان، ثم دعاهم شخص من عرينة بالأمان، فلما أقبلوا إليهم نبذ العهد وخان، ولا غرابة في هذا فقد وقع نظيره في سابق الزمان، وقُتِل في تلك الغزاة عبد الله بن براك ومعين بن ذبّاح وجدعان بن قعية وغيرهم نحو العشرة.

وفيها عدا المسلمون على ضرب مقرن في الرياض، فاقتتلوا معهم، وقُتِل من أهل الرياض ثلاثة، وأصيب شعلان بن دواس، واستشهد من المسلمين عبد الرحمن المشهوري وحمد بن سليمان القاضي.

وفيها أكل الدبى والجراد جميع زروع نجد وأشجاره، وحمى الله أثماره.

ثم دخلت السنة السادسة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز فسار بالمسلمين يريد الرياض والهجوم عليها، فجد السير حتى نزل حواليها، وعبّأ كمينه وعدوته، وهيأ في ليله سطوته، فدخل البلدة العادون وأقاموا بها يرتادون، حتى لمع بريق الفجر، فعلم ذلك الشأن

(١) ناروا: هربوا.

والأمر، وأقبل أهل الرياض، في أشد عزمة وانتهاض، فتجالدوا مع العادين، وكانوا لهم مبادين، واستمر ذلك القتال في ذلك المجال، بين أولئك الرجال، فقُتِل أربعة من أهل البلد، فولَّوا مدبرين، وقُتِل دهمش بن سحيم من المسلمين.

وفيها أيضًا سار عبد العزيز بالمسلمين، وكانوا لأهل الرياض منتدبين، فأسرعوا لذلك الشأن، حين تحكّم الرقاد في الأجفان، فوصل إلى تلك البلاد، فعبّأ للعدوة من أراد، وكانوا نحو المائتين من غير شك ولامَين، فدخلوا البلد واختفوا منها فيما اطمئن، وعندهم أن أهل البلد لم يكن لهم فطن، وظنوا أن عيونهم قد حكم عليها الوسن، وقد أراد الله تعالى أن يعلم دهام بما دبروه حالًا ، فأتاه مَن أصدقه مقالًا ، فعند ذلك شمر هو ومن معه عجالًا ، وأتاهم في مكانهم فرسانًا ورجالًا ، وأراد أن يقتطعهم دون الجيش الذي أبدى عن البلد اعتزالًا ، فبادره المسلمون حملة واحتمالًا ، وشمروا له جلادًا وقتالًا ، وأقبل بعد ذلك الجيش مشمِّرًا للجلاد أذيالا ، فاقتتلوا ساعة ثم انهزم دهام، وقد قُتِل من قومه ستة رجال، وثلاث من الخيل، ونال ولله الحمد هوانًا موالًا ، وقُتِل من المسلمين شريان، ورجعوا بعد ذلك بالأجر والإحسان.

وفيها عدا دهام بن دواس، وأبدى غاية الكيد والإبلاس، ورام بالمسلمين قاصمة الظهور، ولم يدر أن الله تعالى مريد لهم التمكين والظهور، فأعد لباطل ذلك الكيد عدة، وأعد لذلك الأمر أهل النجدة، واختار ذوي البأس والشدة، ولم يكن عند المسلمين توهم ولا يقين، مما دبر من حاله وقبيح أفعاله، حتى جاء المسلمين النذيرُ، يخبرهم بوصوله واستعجاله، فتفاوض المسلمون في الرأي والتدبير، ومن أين يكون الخروج للعدو والمسير، فأشار عبد العزيز على والده محمد برأي مبارك رشيد، وتدبير ميمون سديد، وذلك أن المسلمين يخرجون من القري لكونه طامنًا خفي، وأرسلوا لها سبرًا يحققه خبرًا، فلم

يَرُعْهُم إلا الرمي وصوته، فبادروا إليه قبل فوته، فالتقى الخيل مسرعة، وأطلقوا أعنتها فتبعه، حتى فجأوا دواسًا ومن تبعه، فاشتد بينهم القتال، ثم تلاحق الجيش والأبطال، وحمي الحرب واستعر، ولم يكن لأحد دون الذب عن عمره من مفر، حتى أن الله تعالى جَلَّتْ حكمته وعمت رحمته أيد المسلمين ونصر، ورزقهم على عدوهم الظفر، فقتَلوا من أهل الرياض خمسة وعشرين، ثم ولَّوا بعد ذلك مدبرين، وغنموا أربعًا من الخيل، وأخذوا جميع الركاب، ولم يكن لهم غير بلدهم من طلاب.

وقد كان عبد العزيز قبل قدوم هذا الخبر يشتكي من ألم الحمَّى بعض الضرر، فلما جاءته بذلك الأخبار لم يبال بما معه من الأضرار، بل شمر ساعده وشد الإزار، للقاء الأعداء والفجار، وقام في ذلك الأمر وقعد، وجد فيه طاقته واجتهد، حتى أنجح الله تعالى له ما قصد، وحقق له في أعدائه سؤله، وبلغه في أهل الباطل مأموله، وحمده في تلك الأفعال أهل الإيمان والكمال، وقتل من مشاهير خيالة أهل الرياض: علي القروى وسعد المرابع ومانع بن مشوط ومبيريك بن مبارك، فشفى الله تعالى بذلك قلب عبد العزيز والمؤمنين، وأذهب غيظ قلوبهم أجمعين.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، الحسا، فأزال الله تعالى بذلك الغزو عن قلوب المسلمين الهم والأسى، وكانت خيل المسلمين قريبًا في العدد من ثلاثين، فوصل إلى تلك الديار، بعدما أخذ النهار في الإدبار، وذهب ضوء شفق النهار، فأناخ قريب البلاد، وأرسل عينه إلى المطيرفي[1] ليرتاد، فألفاهم وقد أخذ الرقاد من أجفانهم المراد، وحكم عليهم الكرى بالإهجاد، فأخذ في

(١) من قرى الأحساء، تقع على بعد ١٠ كم شمال مدينة المبرّز.

أهبة دخول البلاد، بالتهيئة والاستعداد، فلما انجلت من الليل غياهبه، وبدت من الصبح سوافره ومذاهبه، هجم عليهم المسلمون فيها، وجالوا في قاصيها ودانيها، واستداروا في بيوت تلك البلد، يقتلون من يشاهدونه من أحد، فلم يسلم إلا من اختفى أو شرد، فقتلوا السبعين من أولئك المشركين، وأخذوا من الأمتعة والسلاح والدواب ما لا يحصره العد والحساب، وحسن للمسلمين في ذلك المآب.

فلما أرادوا إلى نجد الرجوع والانقلاب، أغاروا على أهل المبرّز في ذلك الصباح، وقتلوا أيضًا في طريق تلك النخيل من أهل الفلاحة بعض الرجاجيل، ثم انقلب المسلمون راجعين، فلما أتوا العرمه[1] وافقوا أناسًا مجتمعين من أهل الرياض وحَرمه، فقتلوا أهل الرياض وأخذوا أموالهم، وتركوا أهل حَرمه وحالهم، لأنهم إذ ذاك مهادنون، وفي السلم داخلون.

ولما وصل المسلمون إلى الرياض في هذه الغزوة، أغاروا على أهلها فجوة، وأخذوا لأهل منفوحة أغنام، ورجع كل إلى بلاده بالسلامة والأغنام، وقسمت تلك الغنائم في الدرعية، بين الغزاة بالسوية.

وفيها وقعت الردة من أهل وثيثيه، وذلك أن أهل وثيثيه، لما أرادوا أن ينبذوا الإسلام ويبدو للعهد نكثًا، أرسلوا إلى إبراهيم بن سليمان أمير ثرمدا يخبرونه بما عزموا عليه من الشأن، ويستنجدونه على القدوم ويحثونه على الوصول إليهم والهجوم، فقال: ذلك ما كنا نريد، وهذا هو الرأى السديد. فقَتَلُوا عند ذلك عبدَ الكريم بن زامل، ودخلوا مع إبراهيم في طريقه وعهده، وانتظموا في سلكه وعقده.

---

(١) العرمه: منطقه جبليه تكون على يمين المتجه شمالاً مع طريق الرياض القصيم السريع، وتمتد حتى منطقة سدير.

وفيها غزا عبد العزيز، حرس الله مهجته، بالمسلمين وآل كثير، يريد سبيع، لما نقضوا العهد، فجد في المسير، وأخذ سائرًا في الجنوب يريد سرعة الوصول، فوافقهم على سيح الدبول[1]، فأغارت عليهم من المسلمين الخيول، ولحقتهم الجيوش مثل السيول، فوقع بينهم المصادمة والقتال، ثم كان عن قتل مائق بن شليّة الانفصال، وأخذ المسلمون منهم نحو المائتين من الإبل، ثم رجعوا إلى بلادهم وقد أدركوا الأمل.

وفيها غزا المسلمون سدير، وقصدهم بذلك بعض العربان، فلم يوافقوا أحدًا في ذلك الزمان.

ثم دخلت السنة السابعة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها كاتب دهام بن دواس الشيخ والأمير محمد بن سعود، على أنه يريد الدخول في المنهج المحمود، ويلتزم القيام بجميع شرائع الإسلام، ويحافظ على الوفاء بالعقود، ويقسم أعظم الأقسام أنه يوفي بالعهود، فوافقوه على ما طلب وأراد، مع علمهم بأنه لا يوفي بوعد ولا ميعاد، ولكن لا يسعهم أن يصدوا عن طريق الحق والرشاد، من أراد الدخول فيه من العباد، وطلب الدلالة والإرشاد، ولكن طلبوا عليه على سبيل التوبيخ له والتنكيل، وطريق التأديب عن التغيير والتبديل، أَلْفَيْ زر معجّلة وأموال المهاجرين، يرد كل لمن هو له، فالتزم بذلك الصدق والقيام، وأظهر غاية الانقياد والالتزام، وأرسل إلى الشيخ والأمير، ما شرط عليه من النقد في التقدير.

وفيها سار المسلمون وأميرهم عبد العزيز، حرسه تعالى وأفاض عليه بره ووالى، إلى سدير، لملاقاة ذلك العدو الكثير، فلما وصل إلى جلاجل،

(١) غرب الأفلاج.

والظلام قد أخذ في التراجل، وأقام يهيئ التدبير لملاقاة العدو الكثير، فلم ينبلج من الصبح عموده، حتى استعدت أحزابه وجنوده، وكمن في موضعه الكمين، وعرف أهل الغارة من المسلمين، فلما استنار بياض الصباح، وخرجوا للقاء والكفاح، فلم يلبثوا للقتال إلا يسيرًا، ثم صار ذلك الفزع ينهرم مكسورًا، ولم يكن لهم عن دخول القرية من براح، وفي الحقيقة ليس عليهم في ذلك من جناح؛ إذ لا طاقة لهم ولا لغيرهم بالمسلمين في الكفاح. وقُتِل من أهل البلاد عشرة رجال في التعداد، وقطع المسلمون عليهم بعض النخيل، ثم انصرفوا راجعين بالتأميل، وقُتِلَ من المسلمين فرحان التمامي وصالح بن محمد بن صالح.

فلما وصل المسلمون إلى رغبة، فإذا غزوٌ من أهل اليمن قد أخذوا فريقًا من سبيع في الذمة ونَهبَه، واستولى على مال ذلك الفريق وسلبه، فأخبر ذلك الفريق عبد العزيز في أثناء الطريق، فشمّر ساعد الجد والعزم، ورفع إزار الهمة والحزم، وسار في يومه ذلك عن ساعته، مع من معه من أحزابه وجماعته، وحثَّ على ذلك الجياد، ولم يُثْنِهِ حرسه الله البعد والبعاد، ولا خوف ملاقاة الأجناد، وسأل الله تعالى أن يعينه على ذلك المَرام والمُراد، ويبلغه ما أمّله من أهل الفساد، وأخذ سائرًا في آثارهم متطلبًا لأخبارهم، حتى وصل إلى فيفاء سهلة، تسمَّى إذ ذاك قَذلة[1]، فإذا غزو اليمن قد ألقى بها رحله، وطرح فيها ثقيله وثقله، فلم يكن لهم دون لقائهم ساعة ولا مهلة، حتى تلاحمت الخيول والأبطال، وتلاحقت بالجيوش والرجال، وطال بينهم الطعان في ذلك المجال، وصدق المسلمون النية لمولاهم، فأنجح قصدهم ومناهم، فشدُّوا

(١) قال ابن بشر (١ / ٤٧): «بين بلد القويعية والنفود».

على أهل الشرك والضلال، ولم يكن لهم دون هزيمتهم من إمهال، فقتلوا منهم نحو الخمسين، وأسروا مائتين وأربعين، وأخذوا ما معهم من الخيل والركاب، ولم ينل المسلمين من مصاب، وكانت ركائب المسلمين فوق المائة على التحقيق لا التخمين، وخيلهم نحو الأربعين، وانقلب المسلمون إلى أهلهم راجعين، وكانت هذه الوقعة العظيمة والمنة الجسيمة في شهر رمضان، فحصل السرور والتهان.

ثم دخلت السنة الثامنة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها غزوة تسمى غزوة المديهيم، وكانت في صفر، وذلك أن عبد العزيز، أعزه الله تعالى بالإسلام، وأنجح له السُّول والمَرام، غزا بالمسلمين ومعهم في تلك الغزوة دواس بن دهام مع قومه، فسار عبد العزيز مُجِدًّا في يومه، ولم يزل في السير مُجِدًّا يبذل فيه جدًّا، يؤثر الوخَد فيه على الذميل[1]، ولا ينيخ فيه إلا القليل، وقصده بذلك الغزو والمسير فرقان من آل ظفير، يسمون مديهيم، وقد كانوا على جراب ماءٍ بنجد مقيم، فنزل بمن معه قريب ظلمة الليل البهيم، وأرسل عينه إليهم، فنظرهم وأشرف عليهم، فإذا هم على التحقيق فريقان، ولقاؤهم لا يطاق ولا يدان، وليس لأحد به يَدَانِ، فلم يكن لعبد العزيز سوى طلب المعونة والانتصار، من الملك القهار، على أولئك الأشرار، وبذل الجد والاجتهاد في قتال ذوي البغي والفساد.

وتفاوض المسلمون بينهم في صفة القتال والتلاق؛ لأن الفريقين كانوا في المنزل على افتراق، فتخوف المسلمون منهم أنهم إذا صبّحوا فريق غشيهم الفريق الثاني بالتطبيق، وكان المسلمون إذ ذاك ليسوا بالكثير، وركابهم لا تزيد

(١) الوخد: السير السريع. والذميل: سيرٌ أبطأ من الوخد.

على مائة وثلاثين بالتقدير، فأشار عليهم المبارك الميمون، برأي به النجاح يكون، وذلك أنهم يجتمعون ويحملون على فريق رجالًا، فإذا انكسروا انقلبوا إلى ركابهم فركبوها عجالًا، فيحملون بعد ذلك كافة مجتمعين، فيهزمونه أجمعين، فلما أضاء الصبح ونور، أخذ المسلمون في ذلك الرأي المدبر، فلم يفاجئ تلك الأعراب إلا أسنة المسلمين الأحباب، فبقوا معهم ساعة في جلاد وبذل وجد واجتهاد، حتى عاينوا ما ليس لهم به قبل، فولّوا سراعًا على عجل، وقُتِلَ منهم نحو الثلاثين، وأخذوا أموالهم أجمعين، وقُتِلَ من المسلمين المغيليث، ورجعوا إلى بلادهم بتلك الغنائم، ولم يقع لهم مثلها في المقاسم.

وفيها في ربيع الثاني جرت على المسلمين وقعة الحائر[1]، ذات اللقب المشهور والاسم الظاهر، وذلك لما اقتضته الحكمة الربانية والقدرة الصمدانية، من وقوع أسباب المحن وفتح أبواب الشر والفتنة، وابتلاء أهل التوحيد والإيمان بذوي الضلال والعصيان، وتسويل أولياء الشيطان لكل ضعيف اليقين والإيقان، أحوال الردة والافتتان، وتمييز أهل الباطل والفجور والضلال من ذوي التوحيد والكمال، حتى يتميز ذلك لدى الناس، ويظهر الطيب المبرَّءُ من الأدناس، من الخبيث المتضخ بالأرجاس، ويشاهد حاله ويستبين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

فكان سبب تلك الواقعة والنازلة الجامعة، أن أهل اليمن لما أُخذوا وأُسروا، وقتلوا في قذلة وقُهروا، شمروا للثأر أطراف الذيل، وجدوا في السير للنهار والليل، فلم يخطئوا عن الوصول والقدوم، والمسير إلى نجران والهجوم،

(١) قال ابن بشر (١ / ٤٧): «المعروف بحاير سبيع، بين الخرج والرياض». يبعد عن الرياض جنوبًا بحوالي ١٧ كم.

فشكوا لهم الحال وما عاينوا من الوبال، وشرحوا لهم على التحقيق ما صدر عليهم بذلك الطريق، وأن أصحابهم في الأسر والأغلال يعذبون كل يوم على التوال، ودَعَوْهُم إلى المسير والتسيار، والأخذ لهم بالثأر، وانتدب لهم بالمراد تلك الجماعة، والكلُّ منهم مَدَّ للشر باعه.

وكان الداعية في ذلك الشأن رئيس نجران، واسمه الحسن بن هبة الله، قبحه الله وأخزاه، فجمع جميع أهل نجران من الحضر والبدوان، والتأم معه قبائل اليمنان، فأقبلوا سائرين على عجل، حتى اجتمعت تلك القبائل والدول، ووطئوا بلاد المسلمين، فجاءهم خبرهم اليقين على التفصيل والتعيين، فجمع عبد العزيز، رحمه الله تعالى، مقاتلة المسلمين والإسلام، ممن بلغ سن الاحتلام، وأمرهم بالتأهب والقتال، والاستعداد للقاء ذوي الضلال، وسار بهم جميعًا يريد قرية الحائر، وكانت من بلاد المسلمين، وقد أرسل لهم قبله مددًا يكون عونًا وناصر، فلما وصل إليها وأشرف عليها، وقد كان رئيس نجران بها نازل، ولأركانها حافل، وبقي بها مدة أيام وليال، كل يوم يقع بينه وبين أهلها قتال.

وقد كان المسلمون في مسيرهم إلى الحائر، الذي نزل به ذلك العد والجائر، والجند المارق الفاجر، يتكلمون في مسيرهم إلى العدو والذهاب، بدلائل الخيلاء والإعجاب، الذي يكون غالبًا به المعاقبة والعقاب، ويصير سببًا إلى الابتلاء من رب الأرباب، فحين التقى المسلمون بأولئك الأحزاب، وقد وطّنوا أنفسهم في ذلك الموقف على ابتغاء الثواب، وبذل غالي الرقاب، حمي بينهم الوطيس، ولم يحصل بين الأبطال تنفيس، وبقي فرسان الإسلام تجول، ورجالتهم تسأل الله النصر وتصول، حتى قاربوا أن يكشفوا أولئك الأعدا، ويُلبسوهم ثياب الردى، ولكن أراد الله تكرمة أوليائه، وخذلان أعدائه، وتبيين

حزب المؤمنين ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فكتب على المسلمين الهزيمة في ذلك اليوم، وتبع ساقتهم أولئك القوم، وحقت عليهم الهزيمة، وقُتِل منهم مقتلة عظيمة، تقارب على التحقيق واليقين، أربعًا من عقود المئين، فصارت هذه الحادثة والنازلة الكارثة طهرة وتمحيصًا للمؤمنين، ومحقًا للضلال والمعتدين، ورفع درجات للمستشهدين، وعبرة للمعتبرين.

وأقام رئيس نجران أيامًا بذلك المكان، ثم ارتحل بالغذوانة، فكان ذلك الباطن مكانه، ولما نزل بذلك الموضع المذكور، خرج أهل ذلك القصر المشهور، إلى إبل له نحو عشرين، وأخذوها وانقلبوا راجعين، ثم تحصنوا في مكانهم، وقتلوا من جماعته ثلاثة أشخاص من ساعته، ثم بدا عليه دهام بن دواس، وأهدى عليه هدايا لقصد الإيناس، ورغّبة مما في قلبه من الشر والإفلاس، أن يمشيه ويسير به على بقية المسلمين والناس، ووعده على ذلك كثيرًا من الأموال، وأنك إن جردت سيف الجهاد والقتال، في هؤلاء الذين اعتدوا في الفعال، وفتحتَ بلدانهم، وقتلتَ أعوانهم، فزت بالسؤدد والمحامد، وألقت إليك نجد بالمقالد، وصرت رأسها ورئيسها، وغرتها ونفيسها، وغدوت حاكمها وواليها، تنفذ التدبير في أسافلها وأعاليها، فهَشَّ الخبيث عند زخرف ذلك المقال، وبَشَّ حين ما وعى ما موّه عليه من الأقوال، ولم يدر حاله، ولم يختبر أفعاله، بل بدا له أنه ناصح أمين، يريد له الظهور والتمكين، وما عرف أنه خائن أفاك، ومعتدٍ سفاك، وحثه على التأخر والإقامة، وأظهر حشيمته وإكرامه.

ثم أرسل أيضًا دهام إلى عريعر بالخبر والإعلام، ويحثه على الظهور إلى نجد، ويقرب له المرام والقصد، ويستجيشه في ذلك العام، ويخبره أن أهل نجد في غير نظام، وأن كلمتهم متفرقة، وأحوالهم متشتتة متمزقة.

وفي إقامة رئيس نجران تلك المدة كاتب المسلمين، في القوم الذين كانوا

عندهم مأسورين، فقبلوا ذلك الحال، وكان الشرط بينهم في المقال، أن يُطلق ما عنده من أسرى المسلمين، ويطلقوا من عندهم أجمعين، وقد كان الرئيس المذكور عنده من أهل الإسلام ما هو مأسور، نحو الثلاث من المئين، فأطلقهم جميعًا مكرمين، وقد مكث في ذلك المكان نحو خمسة عشر يومًا من الزمان، وقدم عليه أيضًا في ذلك المكان ذو الضلال والطغيان، زيد بن زامل[1] وفيصل بن سويط[2]، وأثنوا عليه في تلك الأفعال، وحمدوه في ذلك القتل والقتال، والتزموا له إن بقي جزيل الأموال، فلم يلق إليهم بال، ولم يَرْعَ لباطل ذلك المقال، وأرسل عريعر إليه يندبه أن يقيم بمكانه، حتى يقدم عليه، وأرسل إليه بالصحف والمكاتيب، وزخارف الأباطيل والأكاذيب، ومموّهات الرسائل والأرقام الموعود فيها بنفائس الأموال، والحطام وأجاويد الخيل الكرام، إن بقيت في ذلك المقام حتى أقدم عليك بالجيوش العظام، ويمنّيه منكرًا وزورًا، ويعده باطلًا وفجورًا ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فلم تُجْدِ تلك الوعود فيه، ولم يجنح إلى ما يعده ويمينه، ولم تَرْضْ للإقامة شكيمته، ولم ترضَ بباطل الوعود شيمته، ولم تركن لما زخرفوه همته، ولم تُصْغِ لها عزيمته، ولم تكن نفسه أبيّة عن الأطماع، بل تطمع في المال غاية الأطماع، وتنزع إلى حبه أشد النزاع، ولكن لما قذفه الله تعالى في قلبه من الرعب والإفزاع، والخوف والأجزاع، لم يقم غير ما ذكرنا في تلك البقاع، وأزاله الله تعالى عنها، وطرده وقذفه في هوّة الذل وأبعده، ولم يحسن له بعد تلك الأفعال له شأن ولا حال، بل كتب عليه الهوان والإذلال، وأصيب بالنقمة من الكبير المتعال.

---

(١) أمير الدلم.

(٢) شيخ الظفير.

وقال المصنف في ذلك الحال:

عين جودي بواكف هتان ... واسكبي عبرة من الأجفان
وأفيضي على الخدود دموعًا ... تحكي صوب الغمام في الهَمَلان
واهجري لذة الكرى في الدياجي ... قد كفى ما جرى من الأحزان
واذكري معشرًا وابكي مصابًا ... ما جرى مثله بماضي الزمان
لهف نفسي على فراق صحاب ... قد تتالوا بطاعة الديان
فهدوا للجهاد صدقًا وباعوا ... غالي النفس في رضا الرحمن
أسرعوا في امتثال أمر إله ... إذ دعاهم إلى قصور الجنان
صدقوا بيعة عليه وأوفوا ... ومضوا مسرعين للغفران
فأنيلوا الحياة مع مشتهى الجنات ... والحور في رفيع المكان
وانقضى راجعًا بخزي وذل ... من أتى غازيًا مع النجران

وفيها خرج عريعر إلى الدرعية، مع بني خالد كافه وأهل الحسا وسائر الرعية، فلم تصل جيوشه وأجناده وعساكره وأمداده إلى رمال الدهنا، حتى اختلج رئيس نجران ذهنًا، ومزج الخوف لبه، وملأ الله بالرعب قلبه، فلم يلبث بعده إلا قليلًا، ثم جد السير إلى بلاده وخدا ودميلًا، وآثر الليل هاديًا ودليلًا، فلما وصل عريعر إلى فياض الحسا، وارتوى من تلك الحياض القعسا، طاب كثير من أهل البلدان نفسًا، ولما استقر به القرار، في معمور تلك الديار، وانتشرت جنوده في فسيح ذلك الوهاد، وملئت تلك الفيافي والمهاد، تبين من أهل نجد الارتداد، ونجم الضلال والنفاق، وقام الباطل على ساق، ودعا فلبّت بسرعة له أعوانه، وأجابته على الفور أخدانه، وسارعت إلى دعوته شياطينه وإخوانه.

وأوّل من أجاب لداعيه، ولبى الصوت مناديه، وبادر إليه عجلًا، وسار له

هرولة ورملًا، ورام بأن يبلغ بذلك الباطل أملًا، وشهر راية الفتنة والإبلاس، دهام بن دواس، فكان مما رام بها على خيبة وإفلاس، وأهل منفوحة سلكوا معه في ذلك العرين، وتتابع نجد من ذوي الإسلام والعهد أجمعين ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ثم إن عريعر استشار من أهل نجد ذوي المعرفة والشأن، في المنزل الذي ينزله من الدرعية مع تلك العربان، ويسع الحضر والبدو من أهل الحسا وسائر البلدان، فاستقرت الفكر والأذهان، على أنه ينزل بين قَرِي القصير وقَرِي عمران[1]، كما هو معروف بذلك إلى الآن، فوجلت قلوب أهل البلاد، مما جاء به وكاد، وما جره عليهم وقاد، وملئت قلوبهم مخافة ومهابة، حين ضرب خيامه ومدّ أطنابه، ودهشوا من ذلك الكيد بالإرعاب، وأزعجهم ما رأوا من الأجناد والخيلاء والإعجاب، وما شاهدوا من عظيم تلك الأسباب، وبهرت قلوبهم تلك المدافع، التي ليس أحد دونها بممانع.

ولم يكن للمسلمين غير الله دافع، ولا سواه من معين ولا مدافع، فأنابوا إلى الله واستسلموا، ولجأوا إليه في كشف ما به دُهِمُوا، وتحققوا أنهم على الدين المنصور وجزموا، وجردوا سيوف الهمة على القتال وعزموا، وعلموا أنهم يرحمون فأُعِينوا ورُحِموا، وكلٌّ صدق النية لله وأناب، وأخلص في الإيمان والاحتساب، رجاء من الله في جزيل الثواب، وتأميلًا من المولى أن يحسن لهم المآب.

---

(١) بجوار الدرعية. والقَرِي (وتصغيره: قُرَيّ): اسم لكل مجرى سيل يغطيه، وهو يُشبه الروضة، غير أنه غالبًا لا يستقر به الماء. «معجم اليمامة» (٢ / ٢٨٣ - ٢٨٤).

فلما أناخ بذلك المكان الفسيح، أقام ذلك اليوم ولم يبد حربًا ليستريح، فلما بدا اليوم الثاني نهض مسرعًا من غير توان، حين أكملت الطلوع شمسه، مشمرًا للقتال طيبة نفسه، وقرب المدافع والآلات، وتلك الجيوش المزعجات، إلى قريب من الجدارات، وأقام يرمي بها رميات، يريد أن يهدّ تلك اللبنات، ويقض تلك البروج المستكينات، وأخذ يحث الرماة ويزجر، ويرد عليهم ويصدر، فلم ينل ولله الحمد المراد، وصدر وما أفاد، ولم ترم مدافعه لبنة من جدار، فكان للمسلمين ذلك اليوم أعظم اعتبار، وزيادة يقين في دينهم واستبصار، وقوة رجاء في الإعانة والانتصار، فكأنما والله قد نُشطوا من عقال، أو خرجوا من حبس واعتقال، بل كان الخوف لم يخطر لهم على بال، ولا ريب أن هذا تثبيت من الكبير المتعال، وتأييد من ذي العزة والجلال، وإلا فقلوب البشر لا تطيق بعض ما صدر، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

ولما كان آخر النهار قبل وقت الإعصار من ذلك اليوم المذكور، خرج المسلمون للعرضة خارج السور، وكان ذلك بأمر عبد العزيز، حرسه الله تعالى من جميع الشرور، ففرح بذلك أولئك الجنود، وقالوا هذا المنى والمقصود، فأسرع عليهم الأقوام، وكانوا على تهيئة في الانقسام، فأطلقت الفرسان على من خلف السور كان، وأسرعت الدول تسير على عجل، تريد من علو الباطن الدخول، حتى يفوزوا بالمأمول، فدخل عند ذلك عبد العزيز ومن معه من أهل النجدة، وكان علوّ الباطن مراده وقصده، فسابقهم إليه قبل الدخول، ولم يكن لهم إلى التمكين فيه وصول، فلم يكونوا من مأمولهم على حصول، وأخرجهم المسلمون منه قسرًا، ونَحُّوهم عنه قهرًا، وقتلوا منهم رجال، وأخذوا فرس ديوان، وكان لعريعر خيال، وقُتِل من المسلمين سلطان بن عدوان، وهويدي بن

نعران، وبَنَى عبد العزيز في ذلك ما هُدِم، وأحكَمَ بناءه وردم.

وأقاموا على ذلك أيامًا قلائل، كل يوم ينصبون للحرب الحبائل، ويعملون الآراء والفكر، فيما يقع بالمسلمين الأضرار والضرر، وقد أقاموا من الأيام مدة في أعظم ضيق وحرج وشدة، وقد بلغ الضرر منهم حده، والكل منهم يتحسر ويتندم على مجيئه الذي تقدم، ويسوّف ترياق الأسف والحسرة، ويَعض أنامله من الندم، حيث أجمع على المسلمين أمره، وأضحى عريعر ذلك الجبان مما شاهده وعاينه، وصار يدعو بالخيبة والعثار والويل والدمار، على من عليه أشار بذلك المسير والتسيار، فكانوا في المنزل في غاية الذل، يقاسون من الظمأ والعطش شدائد، لبعدهم عن المياه والموارد، وكل يوم تغيب شمسه وتطلع، تطلب نفسه الهروب وتنزع، ويروم الرحيل والترحال، لما وقع به من الوبال، وتأتيه شياطين أولئك الأعوان، وتثبطه على الإقامة بذلك المكان، مثل دهام بن دواس وزيد بن زامل، وأمثال هؤلاء الذين كل منهم لغرضه محاول، ولقمع الدين وأهله آمل، فيلين لهم بعض اللين، وينخون أيضًا بني عمه عليه، فيأتونه للراضة[1] ويستكين، حتى نفخ الله تعالى سحره وطاش، وأراد العجلة والانحياش[2]، فأتوا إليه وتَلَبَّبُوه، وحاولوه بطنًا وظهرًا وقلَّبوه، فلم يروا فيه وُجْدًا، ولم يجدوا به وِردًا، ولكنهم أدركوا منه تسييرًا ومعدًّا، وحَدُّوا له في ذلك حدًّا، وذلك بعدما أتوا إليه عتاة أهل الحريق، وزينوا له الإقامة وقالوا نحن نعرف المسبأ والطريق، ونحن لك القادة، وسترى منا لك الإفادة، فراض إلى قولهم، وقصد معرفة فعلهم، فلما توثقوا من راضته، شرعوا في الرأي وإفاضته،

---

(١) أي: الهرب.

(٢) أي: الهرب.

واستقرت المشاورة والمعاودة على أن غدًا تكون بيننا وبينهم المناهدة، ونصدقهم الحرب والمجاهدة، وتتفرق عليهم ثلاث فرق، ونظموا رأيهم ذلك حين انتظم سواد الغسق، وأخذ الرأي جهده من الحدق.

فوعت ذلك الترتيب آذان واعية من قريب، فأسرع بذلك من وعاه، وهو سالم بن جمهور، أثابه الله خيرًا وجزاه، ونقله إلى عبد العزيز ونماه، فلم تستتر بالضياء جهات الأرض، حتى قضى عبد العزيز من الاستعداد للقائهم الغرض، فلما ارتفع سناء النهار سارت تلك الأجناد الكبار، تروم الحصن والجدار، وأخذت القنبرة[١] والمدافع في لفح الشرار، واستعظم الأمر واستطار، وزاغت القلوب والأبصار، وأخلصت أهل التوحيد السرائر لعالم الضمائر، فصارت المهاشير[٢] ومن معهم على الزلاّل[٣]، وكافة بني خالد وأهل الحسا ذوي الضلال، نحر جدران سمحان[٤]، وأهل الحريق وابن دواس وابن فارس وأهل سدير والوشم وبقية العدوان، قصدوا قَرِي قصير، وصار قصدهم في ذلك السير، واكتنفوا جميع البلدة، والكل قد بذل جهده وأرهف من ماضيه حدّه، وراموا في ذلك أمرًا إدًّا، وكل قد حارب ربه وتعدّى، فلم ينل كل منهم رشدًا، ولا حاز مفخرًا وسعدًا، ولا نال من مراده مطلوبًا، ولا حصل من سؤله مرامًا ولا مرغوبًا، بل رجع كل منهم خائبًا مرهوبًا، خائفًا وجلا مرعوبًا، وقُتِلَ منهم نحو الخمسين، وهربوا عن المدافع مدبرين، فلم يَلْوِ أحد منهم إليها، ولا عرجوا تلك الساعة عليها، لما عاينوا من الإرعاب، وصب عليهم ربك سوط

(١) القنبرة: قنبلة المدفع. جمعها: قنابر.
(٢) بطن كبير من بني خالد.
(٣) بالدرعية، شمال حي الطريف، ومجاور لسمحان.
(٤) من أحياء الدرعية.

عذاب، وكان عيد بن تركي في المقتولين، وكان والده يديم عليه البكاء والحنين، ويتفجع عليه في كل ساعة وحين، وانهزم رئيس المدافع بعدما قطع الله يمناه، وتنحّت يده قدر ميل في الفلاة، ولم يحصل له بعض ما تمناه، ثم لما ولى عنهم الارتياع، كروا على مدافعهم بالارتجاع، فلم يجرد بعد هذه المرة ومذاقتهم لتيك المُرة، ومقاساتهم تلك الأهوال الممرة، قواضب قتال، ولم تسدّد للرمي سهام ولا نصال، بل باؤوا بالخزي والوبال، وشتات الشأن والحال، وهموا في غدهم بالمسير والارتحال، وكان جملة من قتل من المسلمين ستة رجال محققين، قال المصنف:

نفوس الورى إلا القليل ركونُها ... إلى الغي لا يلفي لدين حنينُها
فسل ربك التثبيت أي موحد ... فأنت على السمحاء باد يقينها
وغيرك في بيد الضلالة سائر ... وليس له إلا القبور يدينها
وأنت بمنهاج الشريعة سالك ... وسنة خير المرسلين تبينها
فكن صابرًا إن حلّ أو جلّ حادث ... فعاقبة الصبر الفتى يستزينها
وإياك أن تبدي لخطب مخافة ... ولا جزعًا من حادثات تشينها
وإن شمت من سحب الحوادث بارقًا ... فلا تخش لو يزجي إليك هتينها
فكم فرّجت من شدة إثر شدة ... وكم محنة مرت فسرّت سنينها
وكيف نفوس المخلصين ينالها ... هموم وخلاق البرايا عوينها
فقد سارت الأحزاب يوم عريعر ... محزّبة غِثّ الورى وسمينها
وجاءوا بأسباب من الكيد مزعج ... مدافعهم يزجي الوحوش رنينها
وأبدوا أمورًا يذهب اللب عندها ... ويسقط من بطن الرداح جنينها
وأقبل قادات الضلالة والردى ... وساداتها تبغي الهداة تهينها
وتبغي لأهل الدين في الأرض وقعة ... يغنّي بها في كل قطر مهينها

وهتك حمى البطحات ومن حل سمحها　　وسلب غوان ما تبدّل عينها
وراموا أصول الحق والدين والهدى　　يريدون أن يجتث منها متينها
وهدم دعامات المحجة بعد ما　　أشيد ذراها واستقر رصينها
وتغيير منهاج تألق نوره　　فأبصره غرب النواحي وصينها
ولكنهم حادوا عن الرشد وابتغوا　　مناهج آباء تغيّر دينها
ومن يعشُ عن ذكر الإله تضلّه　　شياطينُ لا ينفك عنها قرينها
فخانت لهم نجد لما قد أتوا به　　ولم يبق في الإسلام إلا أمينها
وهز ذوو الإسلام أعظم هزة　　على الدين بالبلوى فبان كمينها
لقد زاغت الأبصار وساعة أقبلت　　بنو خالد أظعانها وظعينها
ولكنّ مولى النصر ثبّت أهلها　　كما هو في دفع الأعادي يعينها
فقام بها عبد العزيز مشمرًا　　وساعده في الحرب متينها
فآبت قلوب الناس من بعد طيشها　　وقرت عيون واستسرّ حزينها
فآضوا وقد راضوا يقينًا وجردوا　　قواضب عضب ليس ينبو سنينها
وقد وطنوا للموت والله أنفسًا　　لنيل الرضا والعزّ هان ثمينها
وليس لها إلا التصبر واللقا　　من الله جيش والثبات كمينها
فنالوا عظيم الفوز والعز والمنى　　وما نال هذا بالنفوس ظنينها
وآبت جيوش الفسق بالخزي والردى　　وليس لها إلا الشنار رهينها
أبى الله أن تعلو على الدين راية　　فتربو ضلالات ويسمو مهينها
وأن يطأ الفساق في ذلك الحما　　ويهتك من تلك العوالي حصينها
فلا زالت البيضاء يسمو منارها　　ويزهو محياها ويصفو معينها
بحكم إمام المسلمين وعدله　　تحاط نواحيها ويُحمى عرينها
ولا برح المولى معزًّا وناصرًا　　سعود الذي يهوى العلا ويزينها

وفيها طلب دهام بن دواس الهدنة من الشيخ والأمير محمد، فأجابه إلى ذلك المقصد، واتفق على ذلك منهما الرأي والنظر، وكان ذلك من أدق الفكر، فهُودِنَ مَجَّانًا، وأقام في الهدنة زمانًا، يقصر عن السنة عدده، بل نحو عشرة أشهر أمده.

وفيها في ذي القعدة قُتِلَ محمد بن فارس وولَدُه عبد المحسن، وذلك أن أولاد عامل الحية وأناسًا من جماعته تحققوا الردة منه وفيه، فأرسلوا إلى الشيخ والأمير يخبرونهم بذلك الأمر الخطير، ويعاودونهم على قتله وولده قبل أن يقع ذلك منه ويصير، فنَهَوْهُم عن ذلك وأبَوا، ولم يسعفوهم على ما طلبوا، بل زجروهم غاية الزجر عن ذلك المرام، وأنّ عقد الهدنة قويّ الإحكام، فلم يُجْدِ فيهم ذلك التهديد، ولم يبالوا بذلك الوعيد، ولا أثّر فيهم ذلك الكلام، بل أثخنوهما بالكِلام، وسددوا لهما من الردى مصيب السهام، وأوردوه وابنه حياض الحِمام، في مجلسه الذي لا يرام، وأسرع إلى ابن دواس تلك الأخبار، فنهض من ساعته في المبادرة والابتدار، إلى منفوحة مع جماعته، وقد وصل الخبر بذلك إلى الدرعية في ساعته، فأخذ عبد العزيز وكافة المسلمين في السير إلى منفوحة مسرعين، مخافة أن يُسرع إليها دهام بمن معه من المبطلين، وقد تقدم أمامه كتاب من الشيخ إلى ابن دواس، يخبره أن هؤلاء الجماعة الذين فعلوا تلك الأفعال، طلبوا ذلك منا وعالجونا عليه قبل لما تحققوا من ابن فارس الاختلاف والاختلال، فزجرناهم عن ذلك وأغلظنا عليهم المقال، إلا أنا ذكرنا لهم أنا لا ننفيكم بل نذب عنكم ونؤويكم، فإن كنتَ تريد على الهدنة البقاء، فإياك أن تسلك سبيل الهلاك والشقاء، وإن كنتَ تريد النكث والحرابة، فاسلك منهجه وأسبابه، وجاء الرسول، وقد قربه إلى منفوحة الوصول، وجرى بينهم من القتال فصول، وقُتِلَ من أهلها رجلان تلك الساعة، وقتلوا منه واحدًا حين مدّ

لدخولها باعه، فلما قدم عليه الرسول بالكتاب، وعرف فحوى الخطاب، بادر إلى بلده بالانقلاب، فلم يصل عبد العزيز إليها ومن معه إلا وقد آب، ثم إن عبد العزيز بعدما خرج من منفوحة، سار إلى قصر الغذوانة، وأقام فيه أيامًا يصلح شأنه، ثم خرج منه وقصد مكانه.

ثم دخلت السنة التاسعة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها في ربيع الأول اعتدى دهام بن دواس، وأبدى الخيانة والإبلاس، فجمع زيد بن زامل وغيرهم، فعدا على الصبيخات[1] وأخذ منها طرشًا كثيرًا، وخرج أهل منفوحة فاقتتلوا معه، وقَتَل منهم ستة أو سبعة، وقَتَلوا منه نحو ذلك، وكان لهم عنه أقوى منعة، وثارت بينه وبين المسلمين بعدها الحرابة، وهو الذي فتح من الشر بابه، ودعا إلى ذلك أعوانه وأحزابه، وفي ذلك من السر المصون، والغيب المكنون، ما لا تحيط به الأفهام، ولا تدركه أفكار الأنام، بل تقع التقادير والأقدار، وتصدر إرادة الجبار، على غير ما يجول في الخَلْد والأفكار، وما لا يتخيله المتفكرون، ولا ينتجه المتفرسون، ليتذكر أولو الألباب، ويقفوا بالتسليم والاحتساب، لما دبره رب الأرباب، ويحصل لهم الأجر والثواب، إذ كانوا لأحكامه وإبرامه يسلّمون ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فكانت هذه القضيّة، وصدور هذه الخيانة الرديّة، سببًا لخروجه عن بلده بالكلية، ومبدأ لذهابه، وأنموذجًا على عذابه.

وفي منسلخ ربيع الأول توفى الأمير محمد بن سعود، رفعه الله إلى جنات الخلود، وآمنه يوم الفزع والورود، وسقاه من حوض محمد المورود.

---

(١) جنوب منفوحة.

وفيها بايع عبد العزيز أهلُ الإسلام، وأعطَوه على الإمامة عقد الإحكام، وأقبل على المبايعة والمعاهدة والمتابعة جميع الخاص والعام، من سائر الأنام، وقدم لذلك المسلمون من البلدان القاصي منهم والدان، وتتابع على ذلك الحضر والبدوان.

والشيخ، رحمه الله تعالى، هو رأس ذلك النظام، والمحكم للعقد بالإبرام، وكان يتلو عليهم أحكامًا وموعظة وتعليمًا ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وأسقط، حرسه الله تعالى، جميع المظالم، وأبطل كافة المغارم، وارتفع عمود الحق واستقام، وانتظم أعظم انتظام، وتأود[1] غصن المحجة البيضاء، وأقبلت الدنيا على رعيته فيضاء، وملئت قلوب العِدَا مما شاهدوا من سيرة الهدى، حسرة وغيظًا، وشهرت رايات الإسلام في الأقطار، وسارت بالفتوح الركبان في سائر الأمصار، وطارت قلوب أهل الضلال أيّ مطار، وزاد أهل الإيمان بذلك يقينًا وتسليمًا، ووجدوا في الدين والتوحيد تفهمًا وتفهيمًا ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم عبد العزيز الرياض، وذلك أنه، حرسه الله تعالى، سار بمن معه إليها ليلًا، وملك بروج جصّان[2] وأدرك منها نيلًا، فلما تبين الصبح وانتشر الناس، بلغ الخبر دهام بن دواس، فأرسل سريعًا في الحال رجلًا من جماعته خيال، إلى سبيع وكانوا قريبًا منه فعاجلوا بالمجيء والإقبال، وبادر في سرعة الامتثال، فلم يشعر المسلمون إلا بخيلهم في اقتبال، ثم خرج

---

(١) أي: تثنى.

(٢) لم يذكره الأستاذ خالد السليمان في «معجم مدينة الرياض»، وأفاد الأستاذ راشد بن عساكر أنه يقع في شمال غرب الرياض.

ابن دواس مع جماعته، لما علم مجيء سبيع من ساعته، وقصده الخديعة والمكر بالمسلمين ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ فحينئذ أمر عبد العزيز على المسلمين بالظهور والخروج، والنزول عن تلك البروج.

ثم إن دهام بن دواس خرج مسرعًا إليهم، يريد يناوشهم الحرب ويشغلهم، حتى تقدم سبيع عليهم، فعند ذلك سدد الله تعالى عبد العزيز وثبته وحماه، من ذلك المكر وجماعته، وصارت بينهم جولة قتال، قتل فيها من المسلمين عدة رجال، وأقبلت خيل أولئك البدوان، فابتدرهم من المسلمين فرسان، وحمي بينهم الطعان، ثم بعد ذلك انفصل الفريقان، وكلٌ قصد له مكان، ولم يدرك دهام من المسلمين ما رام.

وفيها غزا المسلمون العودة[1]، وأميرهم عبد الله بن محمد، فلم يجر بينهم قتال، ثم رجع إلى حريملاء، فغزا إلى شلية من سبيع، وهم بالعرمة، فصبحهم وأخذ إبلهم وخيلهم، وما معهم من الغنم والأمتعة.

وفيها أتى برَد عظيم لم يُعهد مثله، فمات الزرع والعشب.

وفيها جرت وقعة تسمى (وقعة العدوة)، وذلك أن المسلمين عدا منهم على الرياض ستون رجلًا، فخرج ولد زيد بن سليمان عجلًا مرتدًا من الدرعية، فأخبر أهل الرياض بالقضية، فلم تأتهم تلك العدوة إلا وهم مجتمعون لها في ندوة، فعَدَوا على صياح، فارتفع عند ذلك الصياح، ووقع بينهم الكفاح، ثم انهزم المسلمون، والخيل لهم وراءهم متبعون، فقتلوا منهم ثمانية رجال، وخمسة أسروا في الاعتقال.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، فساروا إلى الرياض، وأعدوا في

---

(١) في إقليم سدير.

الليل الكمين، فلما انتشر ضوء الصبح شعروا بالمسلمين، فبادروا إلى القتال، ولم يكن لهم عنه بد ولا احتيال، فلما حميت نار الحرب، واستقر الطعن والضرب، وظهر عليهم كمين المسلمين، انهزموا جميعًا مدبرين، وقُتِل منهم ستة رجال، وانقلب المسلمون راجعين.

وفيها همّ دهام بن دواس بأهل منفوحة، فوصل المسلمين الخبر، فأسرعوا إليهم بالنفر، فلم يستقر دهام في تلك النخيل، حتى جاءه مجيء المسلمين بالتعجيل، فولى على عقبه هاربًا، ولبلده دائمًا طالبًا.

ثم دخلت السنة الثمانين بعد المائة والألف.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، ثرمدا، وأتاها بعد أن هدأ الأنام، فكمن حتى استكملت الخروج للمرعى جميع ما بها من الأغنام، فاستاقها ذوو الإسلام، وفزع مَن في البلد من الأقوام، حتى وقع الاختلاط والالتحام، وجرى بينهم القتال وضاق المجال، وخرج الكمين، فشدت عليهم فرسان المسلمين، فعند ذلك ولّوا مدبرين، وقُتِلَ منهم نحو العشرين، منهم محمد بن عيد وحمد بن راشد ابنا إبراهيم بن سليمان، وقُتِلَ من المسلمين فواز التهامي وابن غدير، وتسمى هذه الغزوة (غزوة الصحن)[1]، عند أهل ذلك الوطن؛ لأن القتال وقع في مكان يقال له ذلك، ثم انصرف المسلمون راجعين، وتوجه عبد العزيز بالجيوش إلى منفوخة، وفي أثناء ذلك الطريق وافق ركبًا لابن دواس، فقتلهم، منهم محيسن بن قاري المعلومي على التحقيق، ثم دخل عبد العزيز منفوحة بالسرور والابتهاج، لإرادة عقد الدخول ببنت زامل الزواج.

وفيها في الفصل الأول سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالمسلمين، فنزل

(١) قال ابن بشر (١ / ٥٠): «موضع معروف خارج بلد ثرمدا».

بالبنية من الرياض، فخرج أهلها للقتال من غير ارتياض، فقَتَلَ منهم المسلمون أربعة رجال، ولم يبرزوا للطعان في مجال، وقُتِلَ من المسلمين مرشد بن حصين.

ثم دخلت السنة الحادية والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها ارتفع الأسعار والأثمان، ونفق الزاد في جميع البلدان، وبقي الناس في مقاسات البأس، وبلغ الأنام من غلاء الطعام هَمٌّ وظنٌّ وحزن وعنا، حتى بلغ الصاع جديدة ونصف، ووزنة ونصف بجديدة[1].

وفيها غزا المسلمون العربان، فلما سار المسلمون إليهم سبق النذير عليهم، فلم يصل إليهم من المسلمين فرسان، إلا بعدما أخذوا الأهبة للطعان، وكانت خيولهم تزيد على ست من عقود المئين، ورام المسلمون أنهم يجدونهم مغفلين، فلما شنت خيل الإسلام الغارة على أولئك الأقوام، وأخذوا بعض الإبل السوام، أطبقت عليهم خيل المطران، وفرسان أولئك العربان، فاشتد بينهم الطعان، ولم يكن إلى الفرار من إمكان، فثبّت الله أهل الإيمان، وتخلّصوا من شر ذوي الطغيان، وقُتِل بينهم بعض رجال من المسلمين؛ دوخي الصيخي وابن ربيّع، ورجعوا على اعتجال.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم هذلول بن فيصل، ومعه سعود بن عبد العزيز، وهذه أول غزوة غزاها، فساروا يريدون العودة، فأتوا تلك البلاد، وقد هجع العباد، وقد حكم على المُقَلِ الكَرَى، وما أشعر أحد بدخولهم وما درى، وقد أعدوا لهم في مكان كمينًا من الشجعان، وأوصوهم أنهم إذا استكمل أهل البلد

---

(١) الجديدة: نوع من العملة، كان يُستعمل قديمًا. والوزنة: مقدار عندهم، بمثابة الكيلو عندنا. وتبلغ الوزنة كيلو غرامًا ونصف.

الفزع والظهور، يعقبونهم على تلك القلعة والدور، فلما تبين ضياء النور، وأدبر الظلام الديجور، أغار المسلمون على أطراف البلدة، وكلٌ من جيشه وكمينه عرف قصده، فبدرهم بالقتال من أهل البلد ذو النجدة، فلم يأخذ المجال حدَّه، حتى دخل الكمين البلاد، فقتلوا فورًا ابن سعدون وأناسًا من أهل الفساد، فلما علم بما جرى وصدر مَن خرَج من أهل البلاد وظهر، رجعوا للقلعة، فإذا هي عنهم في منعة، وقتل المسلمون منهم رجال، ونودي بالأمان بعد انقضاء ذلك الحال، وصار ابن حماد فيها هو الأمير، ولم يغير عليه فيها بتغيير، حتى صدر على المسلمين منه ما يضير، ثم رجع المسلمون.

وفيها سار عبد العزيز، حرس الله تعالى ذاته، بالمسلمين إلى الرياض، فنزل بالمشيقيق[(١)]، وأقبل فزع أهل البلد إليهم، وصدقوا الحملة عليهم، ولكن الله منّ على المسلمين بالثبات، ولم يكن لهم إلى الفرار التفات، فقُتِل من أهل الرياض ستة من الأشرار، وقُتِل من المسلمين ناصر بن عبد الله ومحمد بن حسن الهلالي، ورجع المسلمون إلى بلادهم.

وفيها كاتب أهلُ الوشم عبدَ العزيز على مجيئهم ودخولهم في الإسلام، فأجابوهم بحصول ذلك المرام، فأقبل أهل الوشم بلده وقراه، ولم يبق منهم أحد حتى أهل مرات، فدخلوا في الدائرة الحصينة، والكل منهم رفض دينه، وبايعوا أهل الإسلام، واستمرت عليهم تلك الأحكام.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، فوطئ جلاجل، وطلب من سويّد النكال؛ لكونه مرتدًا قبل ذلك الحال، فأعطاه عن ذلك من الخيل خمسًا، فطاب بها عبد العزيز نفسًا، لكونها خيلًا بالجودة معروفة وبالنُجب مشهورة موصوفة،

---

(١) حي يقع جنوب الشميسي بالرياض.

ثم سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، في طريقه ذلك مُجِدًا، وكان فريق من اليمن على المربّع له قصدًا، فصبّح الفريق بالغارة، وأخذ عليهم إبلًا، ثم طلب آثاره، ورجع إلى بلده سالمًا، وللمال غانمًا.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين إلى الرياض، وجرت بينهم وقعة تسمى (وقعة المجوز)؛ لكون الوقعة بمكان يسمى بذلك، وكان القتال بينهم من بعيد بالبنادق هنالك، ولم يقع بينهم للقتال مقاربة، ولكن كلٌ أدرك بالرمي مطالبه، فقَتَل المسلمون من أهل الرياض خمسة رجال، ومن الخيل أربعًا، وقُتِل من المسلمين نحو عشرة، صارت لهم الجنة مرتعًا، منهم مبارك بن سبيت وزيد بن سعيد وابن رشيدان، وأقام عبد العزيز بقصر الغذوانة، أيامًا يغير على الرياض ويرجع مكانه.

ثم دخلت السنة الثانية والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها استمر غلاء الزاد، وبرح كافة العباد من المعيشة في مكابدة ونكاد، وتسمى هذه (سنة سُوقة)؛ لأن السعر بلغ حده وطوقه.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، وهو أول غزو تأمر فيه، فأغار على الزلفي، وقتل ثلاثة رجال، ثم رجع بلا إمهال.

وفيها سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالمسلمين إلى سبيع، وكانوا حينئذ على الحائر، فلم يزل يجد السير إليهم، حتى قارب الهجوم عليهم، فسبقه عليهم النذير؛ لما اقتضته الإلهية الأزلية من التدبير، فلم تقبل عليهم المسلمون، إلا وهم للقائه مستعدون، فحين طلعت عليهم طلائع الخيل كان منهم إليها أسرع ميل، فالتحم الفرسان، وحمي بينهم الطعان، والتزم الثبات كل من الأقران، حتى نصر الله تعالى المسلمين وأعان، فشد عليهم المسلمون الحملة، فلم يكن دون هزيمتهم مهلة، فانهزموا جميعًا وعمدوا إلى قصر الحائر سريعًا، فأقاموا به

محتمين، وكان أهله إذ ذاك مرتدين، وأخذ المسلمون ما معهم من الأمتعة والخيل والإبل، ورجعوا فائزين بغاية الأمل.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم سعود، بلغه الله تعالى المقصود، فأغار على فريق من اليمن، بعدما قاربهم واستكن، فلما صبّحتهم منه الغارة، لم يثبتوا غير ساعة، فلزموا الانكسار وتبعتهم إلى بيوتهم الخيول، ولم يكن لهم سواها وصول، وقُتِل منهم رجال، ولكنّ الله أراد لهم السلامة، ولم يشعر غزو المسلمين لاشتغاله بمن أمامه، إلا بالتئام بعض العربان عليهم، وإقبالهم إليهم، واستحرّ الطعن في أعقابهم، ورجعوا من حيث مآبهم، وأقبلت بعد ذلك العرب المكسورة، واجتمعوا على المسلمين، فكانت بينهم وقعة مشهورة، فاحتمى المسلمون وسلموا، وقُتِل منهم سبعة، غفر الله لهم ورُحِمُوا، منهم ناصر بن عثمان وفوزان بن ناصر، ورجع المسلمون إلى بلادهم.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، وركابهم نحو المائة على التخمين، فأغاروا على عنيزة، وخرج أهلها مجتمعين، وكانوا ذوي عدد من المئين، فوقع بينهم وبين المسلمين القتال، وأبدى المسلمون في ذلك اليوم المجال، من النجدة والإقدام، وفرط البأس والالتزام، ما بهر عقول أولئك الأقوام، وأدهش أذهانهم والأفهام، حين رأوا فعلهم بعد المخالطة والالتحام، فلم يكن حينئذ لأهل البلد عزم ولا اهتمام، سوى الفرار إلى البيوت على الأقدام، وقتَل المسلمون نحو العشرة، وكل من أهل الإسلام حمد ربه وشكره، وقُتِل من المسلمين ثلاثة رجال، ثم رجعوا إلى بلادهم من غير إمهال.

ثم دخلت السنة الثالثة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالمسلمين يريد الرياض، فوافق في ساعة خروجه من غير ارتياض، خيلًا كثيرة لدهام على الدرعية عادية، وقد

أخذت إبلا كثيرة لسبيع البادية، فأطبقت عليهم خيل المسلمين مُبادية، واستقر بينهم المجال ساعة، ثم أدبرت خيل ابن دواس خجلة مرتاعة، وقد قتَل منهم المسلمون أربعة يُعرفون، مطرود الفريد وابن المرابع وحسن الجعفري ودوخي بن مروان، ورجع عبد العزيز فلم يسر إلى ذلك المكان.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين من أهل الدرعية وقراها، فلما وصل إلى حريملا، حرسه الله تعالى، وحماها، أمر مَن هناك من بلدان المسلمين أن يخرجوا له الدول مجتمعين، فأخرج أهل سدير وأهل المحمل جمعًا كثيرًا من الدول، وقصد ما يريد من محل، فأناخ بالمسلمين على المجمعة، وكانت المسلمون عليها مجتمعة، وجرى بينهم وبين أهلها القتال، ودخل قلوب أهلها من المسلمين الأوجال، وقتلوا منهم تلك الساعة عدة رجال، منهم عبد الله وقويفل ابنا عثمان، وهما أخوا حمد رئيس المجمعة.

ثم إن عبد العزيز أمر بالرجوع على مَن مشى معه من الدول، وتبعه حين فرغ من أمر المجمعة، وغزا بالجيش من ذلك المكان، وكان ذلك في أثناء شهر رمضان، فجدّ سائرًا في ذلك الزمان، حتى وصل إلى قرية الهلالية[١]، وقد هجعت البرية، وكانت من قرى القصيم، فأناخ عندها في ظلمة الليل البهيم، ورتب كمينه وحاله، قبل أن يزيل النور من الظلام أوجاله، فلما أغار بعد انتشار النهار وخرج أهلها إلى القتال، وبذلوا في ذلك غاية الحال، ولكنّ الله الكبير المتعال سلط عليهم الرعب والإذلال، فانكسروا والمسلمون يقتلون في أثرهم باستعجال، وهتك المسلمون البلد في ذلك المجال، ودخلوها في تلك الحال، وأخذوا جميع ما بها من الأموال، ثم نودي فيها بالأمان بعدما قتل من أهلها رجال.

---

(١) من مدن القصيم، تبعد عن مدينة بريدة حوالي ٥٠ كم.

وأقام بها عبد العزيز بعض ليال، فذلّ أهل القصيم كافة، وغشيهم أمر عظيم من المخافة، فرغبوا في الدخول في الإسلام، والانقياد لمنير تلك الأحكام، ورفض ما يعبد من الأوثان والأصنام، وأقبلوا على عبد العزيز في تلك الأيام، فأخذ عليهم عقد الإبرام، ووضع عندهم معلّمين للتوحيد والشرائع والأحكام، ثم رجع عبد العزيز يريد الدرعية؛ ليقسم الغنيمة فيها بالسوية، وفي أثناء ذلك عثر على أثر غزو لبني خالد كبيرهم بطيّن هنالك، فعرفوا أنه غزو المسلمين فقالوا: لا طاقة لنا بأهل الدين. وكان هذا من رأيهم أجمعين، فتركوا المسلمين ومنازلتهم، بعدما حققوا مشاورتهم، وكفى الله المؤمنين القتال، وكتب على أولئك الغزو والمذلة والإذلال، وذلك أنهم أغاروا على عدة فرقان، من سبيع بأرض ضرما مقيمين في ذلك المكان، فجرى بينهم قتال وطعان، وحمي الحرب بين الفرسان، وساعد أهل البلد من الحضر أولئك العربان، وشمروا للقتال مع تلك البدوان، فهزم الله تعالى أهل الطغيان، وقتل منهم تلك الفرسان، وأخذ المسلمون منهم أموالًا كثيرة، وخيلًا نحو ست شهيرة.

وفيها غزا للمسلمين ركبٌ فصادف الشريف منصور، فأُخذ مع ركب معه وأُتي به مأسور، فمن عليه عبد العزيز بالإطلاق دون الفدا، فرجع بعد ذلك برخصة من شريف مكة في الحج لذوي الهُدى، فاغتنم لذلك من المسلمين طائفة، وسارت للحج آمنة غير خائفة، وقضت ركن الإسلام، وأدت المناسك على التمام، في ذلك العام، ورجعت بالحشيمة والإكرام.

ثم دخلت السنة الرابعة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين يريد آل ظفير، فأغار على المحمّرة[1] منهم

---

(١) من فروع الظفير.

في ذلك المسير، وكانوا قبل مجيئه على حذر لسبق النذير، ولكن أخذوا عليهم إبلًا كثيرة، وصارت بينهم مقاتلة شهيرة، قُتِل منهم بعض رجال، وانصرف المسلمون بتلك الآبال.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين، وأقاموا في الحائر مجتمعين، ولم يخرج إليه من أهلها أحد، فشرع في قطع النخل واجتهد، فلما عاينوا ذلك أهل البلاد، طار منهم اللب والفؤاد، وحين شاهدوا هذه القضية، عظمت عليهم الرزية، وأحاطت بهم البلية، فلم يجدوا سوى الاستسلام منهجًا، وإظهار الانقياد والإسلام معاذًا وملتجا، فطلبوا من عبد العزيز في الإسلام الدخول، فأجابهم إلى ذلك السُّول، وأسعفهم بالمأمول، فبايعوه على الإسلام، والتزموا في الأحكام بالقيام، ورجع عبد العزيز بمن معه.

ثم دخلت السنة الخامسة والثمانون بعد المائة والألف. ١١٨٥

وفيها غزا سعود، حرسه الله تعالى، يريد منيخ[1]، فلما وصل حريملاء بمن معه من المسلمين، ذُكِر له غزو لآل ظفير مجتمعين، وكان رؤوس ذلك الغزو آل ضويحي ووهق بن فياض، فجد في ساعته في الانتهاض، وحث السير في آثارهم بعد تحقق أخبارهم، فأدركهم في أرض غيانة، وأسرعت إليهم بها فرسانه، فلما عرفه آل ظفير وعلموا شأنه، كل منهم انهزم يريد أهله ومكانه، فعضّ المسلمون عليهم الساقة، وأسروا بعض أولئك الرفاقة، وقتلوا منهم رجالًا، منهم وهق بن فياض، وشتتوهم حالًا، فلم يسلم من القتل والأسارى إلا من طلب الفرار، ثم رجع المسلمون.

وفيها أرسل الشيخُ وعبدُ العزيز إلى والي مكة أحمد بن سعيد الشريف هدايا،

---

(١) يُطلق على المجمعة وحرمه - كما سبق -.

وكان قد كاتبهم وراسلهم، وطلب منهم أن يرسلوا فقيهًا وعالمًا من جماعتهم، يبين لهم حقيقة ما يدعون إليه من الدين، ويحضر عند علماء مكة، فأرسل إليه الشيخُ وعبدُ العزيز الشيخَ عبد العزيز الحصين، وكتب معه إلى الشريف رسالة، وهذه نسختها، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم، المعروض لديك أدام الله فضل نعمه عليك، حضرة الشريف أحمد بن الشريف سعيد، أعزه الله تعالى في الدارين، وأعز به دين جده سيد الثقلين، أن الكتاب لما وصل إلى الخادم، وتأمل ما فيه من الكلام الحسن، رفع يديه بالدعاء إلى الله بتأييد الشريف؛ لما كان قصده نصر الشريعة المحمدية ومن تبعها، وعداوة من خرج عنها، وهذا هو الواجب على ولاة الأمور، ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علم، امتثلنا الأمر، وهو واصل إليكم، ويحضر في مجلس الشريف، أعزه الله تعالى، هو وعلماء مكة، فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك، وإن اختلفوا أحضر الشريف كتبهم وكتب الحنابلة، والواجب على كل منا ومنهم أن يقصد بعلمه وجه الله ونصر رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ فإذا كان الله سبحانه قد أخذ الميثاق على الأنبياء إن أدركوا محمدًا ﷺ على الإيمان به ونصرته، فكيف بنا يا أمته؟ فلا بد من الإيمان به، ولا بد من نصرته، لا يكفي أحدهما عن الآخر، وأحق الناس بذلك وأولاهم أهل البيت، الذين بعثه الله منهم، وشرفهم على أهل الأرض، وأحق أهل البيت بذلك مَن كان مِن ذريته ﷺ وغير ذلك يعلم الشريف، أعزه الله، أن غلمانك من جملة الخدام، ثم أنتم في حفظ الله وحسن رعايته.

فلما وصل إليهم عبد العزيز المذكور، نزل على الشريف الملقب بالفعر، واجتمع هو وبعض علماء مكة عنده، وهم: يحيى بن صالح الحنفي وعبد الوهاب بن حسن التركي مفتي السلطان وعبد الغني بن هلال، وتفاوضوا في

ثلاث مسائل وقعت المناظرة فيها:

الأولى: ما نُسب إلينا من التكفير بالعموم.

والثانية: هدم القباب التي على القبور.

والثالثة: إنكار دعوة الصالحين للشفاعة.

فذكر لهم الشيخ عبد العزيز أن نسبة التكفير بالعموم إلينا زور وبهتان علينا، وأما هدم القباب فهو الحق والصواب، كما هو مسطور في غير كتاب، وليس لدى العلماء فيه شك ولا ارتياب، وأما دعوة الصالحين وطلب الشفاعة منهم والاستغاثة بهم في النوازل، فقد نصَّ عليه الأئمة الفواضل، وقرروه من الشرك الذي فعله الأوائل، ولا يجادل في جوازه إلا كل ملحد جاهل، فأحضروا من كتب الحنابلة (الإقناع) فرأوا عبارته في الوسائط وحكايته الإجماع، فصار لهم بتلك العبارة اقتناع، ولهم إلى الإقرار إسراع، وتفوهوا بأن هذا دين الله، وانتشر فيما بينهم وشاع، وقالوا: هذا مذهب الإمام المعظم، وانصرف عنهم عبد العزيز مبجلًا مكرم.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين يريد الرياض، فعَدَوا منها على معكال[1]، وخرج أهلها فجرى بينهم قتال، فلما استقر جلادهم للمسلمين، خرج عليهم الكمين، فلم يلبثوا غير ساعة، ثم كان منهم إلى البلد ارتجاعه، وقتَل المسلمون منهم ستة رجال، منهم عتيق بن زايد، ثم هَمَّ المسلمون بالارتجال، فلما وصل المسلمون إلى بعض بلدانهم، انقلبوا راجعين يريدون الرياض لشأنهم، فكان من القضاء والقدر أن دهام بن دواس قد سار وظهر عاديًا على أهل عرقة[2]، وليس عند المسلمين منه خبر، فلما خرجوا في ذلك الشأن التقوا جميعًا قريبًا من ذلك

---

(١) أصبح من أحياء الرياض حاليًا، وكان قديمًا بلدة مستقلة.

(٢) أصبحت داخل نطاق مدينة الرياض من جهة الشمال الغربي.

المكان، فأطبقت عليهم من المسلمين فرسان، فلم يلبثوا ساعة للطعان، بل انهزموا إلى تلك البلدان، فكان أول قتيل منهم دواس بن دهام، ثم جَدّ في أثرهم أهل الإسلام، وهم فيهم يقتلون، حتى قتل منهم عشرون، وآخرهم ابنٌ لدهام، واسمه سعدون، وكان الذي باشر قتل دواس عبدُ العزيز أميرُ الناس، صرف الله عنه كل بأس، فرجع دهام بأعظم البأس، مرتديًا من الذل والخزي أضفي لباس، متجرعًا من الهم أصفى كأس، فلم تزل له بعد هذه عين قريرة، ولا حالة من المعاش سريرة، بل كلما غفت العيون أبدى من الأسف المكنون، ما لا يعرف ولا يقاس، لا سيما على مفارقة سعدون ودواس، فنودي عليه بلسان الحال من بعيد ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين حتى نزل الرياض، وخرج أهلها مسرعين، ولم يكونوا عن القتال منثنين، وطال القتال بينهم، فجعل الله لبعض أهل الباطل حينهم، وشد عليهم المسلمون، فأسرعوا يجهدون، وقد قتل منهم أربعة رجال، منهم ابن رومي الذي في ذلك المجال.

ثم دخلت السنة السادسة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز بن محمد بالمسلمين، فلم يبرحوا في ذلك السير مُجِدّين يريدون آل حبيش[1]، وكانوا نازلين بأرض صبحا، فلما قاربوهم كمنوا حتى يحققوا أمرهم مرامًا ونجاحا، ويستعدوا لملاقاة أولئك الفرسان طعانًا وكفاحا، فلما انجلى الديجور، وعم ضياء النور، وفرغوا من الصلاة صُبحًا، شنت عليهم عاديات المسلمين ضبحًا[2]، فأخذوا عليهم آبال، وفزع أهلها للقتال، وراموا

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٥٩): «من بوادي العجمان».

(٢) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أي: الخيل العاديات التي يخرج منها صوت من صدرها ليس بصوتها المعتاد من صهيل أو همهمة.

لها فكاك، ولم يكن لهم إلى ذلك إدراك، بل وقعوا في هوة الأدراك، وقتل منهم أناس، ورجع المسلمون بإيناس.

وفيها غزا سعود، حرسه الله، بالمسلمين يريد من الرياض الإبل والغنم السارحة، فلم تزل همته على الجد في السير بارحة، حتى وصل إليها بعد الهجود، فكمن كمينه هناك سعود، فلما خرجت السوائم للرعاية، بدت غارة المسلمين إليها بداية، فالتجت إلى البلد الإبل، وخرج الفزع إليها بالعجل، فتقابل كلٌ من الفريقين، واقتتل حتى صدقتهم فرسان المسلمين، فانهزموا مدبرين، وقد قتل منهم سبعة، منهم مرخان بن فريان وعبد الله الساري.

وفيها غزا عبد العزيز، فسار بأهل الدين يريد أهل الرياض المسرفين، فوصل لذلك قريب السَحَر، فقضى قبل الصبح من التعبية الوطر، فلما بدا الصبح مسفرًا منيرًا، وقضى الصلاة تبدّى مغيرًا، وارتفعت الأصوات في البلاد، وخرج بعد الاستعداد، من يريد القتال والجلاد، فلما عاينوا أهل الإسلام، جلّلهم الرعب والإحجام، فلم يحصل لهم بعد الالتحام فرط إقدام، بل مكثوا في القتال زمان، مرتدين ثياب الهوان، فلما شدّ عليهم أهل الإيمان، انهزموا من غير توان، وقُتِل منهم مرزوق المطيري ومحمد بن فايز، وقُتِل من المسلمين علي بن محمد الأمير[1].

وفيها مات الشيخ أحمد بن مانع، رحمه الله تعالى، في رمضان، وفي آخره مات ثنيان بن سعود، أسكنهما الله تعالى دار الخلود، وكان لهما بهذا الدين المنهج المحمود.

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٥٩): «أمير ضرما».

ثم دخلت السنة السابعة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين، متع الله تعالى به سنين، فنزل بالرياض وألقى رحلته في تلك الفياض، ونازل أهلها مدة من الليال، وكل يوم يجري بينهم قتال، واستولى المسلمون على بروج وجدران، فأسرعوا إلى تهديم ذلك البنيان، وهدموا ذلك المرقب الشامخ، فصار الدمار لارتفاعه ناسخ، وقُتِل من أهل البلد رجال، وبات أهلها في غاية الأوجال، يسامرون في الدياجي السُّهَى، مما حل بهم ونزل بساحتهم ودَهَى، وقد عرتهم الذلة والدهشة، وغشيتهم الرجفة والرعشة، لا تهدأ لهم قلوب ولا عيون، وقد أيسوا من أنفسهم وخابت منهم الظنون، وقد قارب أن يفتحها إذ ذاك المسلمون، لما بان لهم من الانتصار وما ظهر على أهلها من الرعب والإنذعار، ولكن إرادة المولى غالبة على العباد، وليس يجري إلا ما اختاره وأراد، فانصرف عنهم جميع المسلمين، وأُخّر الفتح إلى حين، وقد قُتِل من المسلمين اثنا عشر رجلًا، نالوا من الشهادة أملًا، منهم عقيل بن نصير وسلطان بن حفيتان.

وكانت هذه الوقعة في صفر، ولم يشرق بعدها لدهام عز ولا سفر، بل هم بالرحلة والسفر، والجلاء عن ذلك الوطن، الذي ثوى فيه وقطن، وحلّ به وسكن، فأخذ في تدبير النقلة والارتحال، مما داخله من الرعب والأوجال، وخالط قلبه من الخوف والإذلال، فبقي أيامًا وليال، لا يَحسن له حال، ولا ينشرح له بال، مخافة على أهله والعيال، وأسفًا على ذهاب تلك الأموال، وأسفًا على فراق الحلّة، والبعد عن تلك المحلّة، ومعاناة الجلاء والنقلة، والأرض به واجفة، وريح الهروب عليه عاصفة، وهو يُصبر نفسه ويتصبر، ويتجرع مرارة الأسف ويتحسر، وينادي بالويل على نفسه كل ساعة، وهي إلى الفرار نزّاعه، ولا تروض إلى البقاء والاستقرار، ولا تميل إلى المكث في

هاتيك الديار، حتى نادى عليه منادي الذل والصغار: إلى كم متى التصبر والاصطبار، والحلول والقرار، وحتى متى تقدّم في ذلك رِجْلًا وتؤخر الأخرى، والجلاء هو الأولى لك والأحرى! وصاح به قلّاع الحصون: إلى متى هنا السكون؟ فقد آذن ليل الباطل بالزوال، وأعلمت سحب الشرك بالارتحال، وتقشعت غياهب الزيغ والضلال، ولاح نور الهدى والهداية، وانجلت دياجي الضلالة والغواية، وتلألأ عمود الصباح، وأشرق لأهل الإسلام السعد ولاح، وغدا البلاء على الباطل وراح، وأعلن عليهم لسان الفتح وهم يسمعون: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

فلما حان من شمس الباطل غروبها، وآن لأهلها جلاؤها وهروبها، وأن تثبت في روضة الرياض قواعد الدين، وتمحق دولة المفسدين، ويظهر لأهل الإسلام النصر والظفر والتمكين، وتعلو كلمة الحق على المبطلين، وتمحى آثار ذوي المكر والمعتدين ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، جمع جميع أعيان بلده، وأخبر بحقيقة عزمه ومقصده، وأنه يريد الهروب والجلاء، وأن فؤاده مُلِئ رعبًا ووجلًا، فصاحوا كلهم عليه، وأقبلوا بأجمعهم إليه، وقالوا: ما حملك على هذه الأفعال؟ وما الموجِبُ لها من الأحوال؟ أهذا لنا مكر وخداع، حتى تعرف منا الصدق بإجماع، أم حدث بك من الجن انتزاع؟ فاستعذ بالله من الشيطان، فلن تُرَاع! فقال: دعوا عني هذا الهذيان، فليست الرياض لي بأوطان، وليس عيالي فيها بسُكَّان، وما شاء الله كان. ولم يَرْعَوِ من ذلك المقال والمحاولة عن الارتحال، ولم يستطع إلى ذلك سبيلًا، ولا وجد من قلبه عليه دليلًا، بل انتفخ سَحَرُه ولُبُّه، وطاش فؤاده وقلبه، وتعاظم منه في الحشا ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فانفضوا من حوله سراعًا، وعرفوا أنهم لا يدركون به دفاعًا، فازدادوا ذعرًا

وارتياعًا، وتحققوا أنهم منها مخرجون، وأنهم له متبعون ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ فتردَّوْا وراء القنوط والإياس، وكل ساعة ينتظرون حلول النقمة والبأس ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

فلما انتصف ربيع الثاني خرج عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالمسلمين، يريد الرياض وحربها وتدميرها وخرابها، وقد جرّد أهل الإسلام لذلك صوارم الاعتزام، ونهضوا كافة وليس لهم دونها مرام، وقد ارتجوا الفتح من الملك العلام، ووطنوا نفوسهم على حصارها ليالي وأيام، ولم يكونوا بما في الغيب مشعرين ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ فلما وصل، حرس الله تعالى مهجته، وأبّدَ عزّه ودولته، في مسيره ذلك إلى قريب عرقة، انبلج له عمود الأنس والسرور، وانسلخ مدلهم ذلك الديجور، وطلع له طالع السعد، وبرق له بارق الفجر والمجد، وتبدى له في أفق ذلك الطريق، لوامع المسرة واللطف والتوفيق، وكان بذلك جديرًا وحقيق، وناداه لسان المبشر والبشير: إلى من تسعى وتسير وجميع عِدَاك في تدمير، وإلى كل بلد في مطير؟ فأَرْخ ذيول الهنا، فقد جاءك القصد والمنى، وزال عنك النصب والعنا، فسعيك إن شاء الله مشكور، وأنت على ذلك مأثور، وقد ضوعفت لك في هذه المدة الأجور، وصارت لك العقبى على ذوي الفجور، والغلبة والنصرة على أهل الفساد والشرور، فقد خلت لك القصور، وتأهبت إلى لقائك الصدور، وقد قفرت تلك الدور، ممن كان بها يتعدى ويجور، وقد حقت كلمة العذاب على الفاسقين، وجاء وعد الله لحزبه الفائزين ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، فحمد الله تعالى على هذه الأنعام، وشكره على هذه المواهب الجسام، والعطايا الوافرة العظام، وقال وهو خاضع لربه مستكين، حامدًا لله رب العالمين: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فسار يريد ما هيأ الله تعالى له من مكان، وما خوله من تلك الأوطان، وشيّعه في ذلك الطريق الأمن والأمان، وحفّه فيه الأنس والتهان، ووصل إليها قبل غروب الشمس، بأكمل فرح وأنس، وطيب قلب ونفس، فدخل تلك البلد، فإذا دهام قد ولى منها وشرد، وذلك أن دهام بن دواس، لما حاق به من ربه البأس، وقرب أن يسقي كؤوس الأحزان، ويلقى المذلة والهوان، وتكون الدائرة عليه لأهل الإيمان، جمع كافة ما له من أعوان، وما أراده من الشأن، فكل بقي متحسرًا حيران، يَعض أنامله ندمان، فخرج هو وأولاده وأعوانه، وغالب أهل البلد شأنهم شأنه، ولم يبق في البلاد إلا القليل، مخافة من فعلهم الوبيل، وقصدوا جميعًا الدلم، ونوى سكناها، وعزم وجد في الطريق ومن معه، ومات نحو أربعمائة من الخلق ممن تبعه، لأن جلاءهم كان في القيظ، فزادوا حرارة مع ما بقلوبهم من حرارة الغيظ، فصَلَتْهُمْ لواعج القيظ وجمرته، وحرقتهم عواصفه وحدته.

هذا، والمسلمون قد جدوا في أثرهم المسير، ينقذون بالماء كل ضعيف وفقير، ويقتلون كل شيطان مريد، وكل ذي بأس شديد، حتى وصلوا إلى الدلم المعروفة، وقطعوا تلك المفاوز المخوفة، ونادى عبد العزيز فيها بالأمان، إلا من كان مشهور بالسوء بإعلان، فعند ذلك ظهر من كان مختفيًا وبان، ولم يُقتل إلا عبد المحسن بن شاخص وصالح المهشوري وبراك بن حميدان ومحمد بن سليمان، ولم يُقْتَلْ غيرهم إنسان، وأرسل عبد العزيز إلى أهلها الذين ناروا[1]، وخرجوا مع دهام وساروا، يدعوهم إلى الرجوع، فلم يكن أحدٌ عنه بممنوع، إلا من تميز بالشر والفساد، وتوغل في طريق العناد، وتسربل بالبغي والإفساد،

(١) ناروا: هربوا.

ففاؤوا إليها وآبوا، وقد ربحوا في ذلك وما خابوا، وسكنوا بها فطابوا، وكانت جميع تلك الأموال، والنخيل ذوات الإغلال، فيئًا من الله ذي الجلال، لكونها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، فكانت لبيت المال من غير ارتياب، وحَسُنَ تملكه لها وطاب، وأقام بها عبد العزيز أيامًا، ونصب فيها أميرًا وإمامًا.

وكتب الشيخ لعبد العزيز في تلك الأيام رسالة أرسلها إليه، فقدمت في الرياض عليه، وقال فيها:

أُحِبُّ لك ما أُحِبُّ لنفسي، وقد أراك الله في عدوك ما لم تؤمل، فالذي أراه لك أن تُكْثِرَ من قول الحسن البصري، كان إذا ابتدأ حديثه يقول: اللهم لك الحمد بما خَلَقْتَنَا ورَزَقْتَنَا وهَدَيْتَنَا وفَرَّجْتَ عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كَبَتَّ عدوَّنا، وبَسَطْتَ رزقنا، وأظهرتَ أمننا، وأحسنتَ معافاتنا، ومِن كل ما سألناك ربَّنَا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا طيبًا حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

خاتمة: يحتاج لها كل طالب، ويتشوق إليها نفس كل راغب، ويرتدع لها كل عدو محارب، ويتعظ بها كل خائف من الله مراقب، ومَن نال مِن التوحيد رفيع المراتب، وهي أن الله القادر الحكيم، والآخذ الشديد الأليم، أقام دهام بن دواس يصادم أجناد الدين، ويبذل جده في حرب ثلاثين من السنين والأعوام، لا يكاد يهنأ له طعام، ولا تستغرق عيونه في دجى الظلام بلذيذ المنام، إلا أنه أظهر الاستعانة، وأبدى الاستكانة، في ثلاث سنين للدخول مع المسلمين، وأقام في بلده الأحكام والشعائر، ولكنه يتربص بأهل الدين الدوائر، فكان إذا أتاه من الدرعية أحد قام في توقيره وإكرامه وقعد، وأظهر له في الإسلام الغبطة والرغبة، وإن كان قد مُلِئَ من بغضه قلبه، وإذا رأى أحدًا من جماعته مبديا التوحيد والديانة، أخفى له الذلة والإهانة، وكانت هذه الثلاث سنين متفرقة من

السنين في عشرين، والذي قتل من الفريقين في هذه المدة أربعة آلاف في الحساب والعدة، ألف وسبعمائة من المسلمين نالوا الكرامة، وألفان وثلاثمائة من الضلال صارت عقباهم الندامة.

قال المصنف:

كشف الحقُ ظلمةَ الإغلاس ... ومحا الدينُ جملةَ الأرجاس
وأزال الصباح ديجور ليل ... طالما ساعد الأسى في احتباس
فظلام الضلال والشرك ولى ... وضياء الرشاد والرشد راسي
وتجلت غياهب البغي لمّا ... آذن الزيغ والردى بانتكاس
ورياح القبول والنصر هبت ... فالأعادي قلوبهم في ارتجاس
ومنادى السرور أضحى ينادي ... بالهنا والمنى بغير التباس
وليالي الهموم ولّت سريعًا ... وتقضَّت بلا قنوط وياسي
زانها الصبر في اللقا فاستنارت ... بضياء السعود من غير يأس
وطيور الأفراح بالفتح غنت ... فوق أفنان غصنه المياس
حين أمّ الإمام بالفتح ساع ... مخبر عن جلا بني دواس
فاستزاد الإسلام حوزًا وفوزًا ... وسرورًا وعاد باستيناس
ومضى الهم والعنا وتجلى ... يوم أخلى الرياض ذو الإبلاس
كم بدى من أبي سعود سعودٌ ... وفتوح ومفخر لأناس
قد علت رتبة الشريعة لما ... شاد أركانها بأقوى أساس
وسمى منهج المحجة سمكًا ... واستبانت معالم في اندراس
وتبدى الهدى فأضحى سناه ... ساطع النور لامع النبراس
وأضاءت بذلك بلدان نجد ... ومضوا بعده بغير احتراس

وأتت بعد ذا الفتوح وأضحى طالب الدين في مزيد التماس
فاستقرت قواعد الدين فيها واستمرت سكانها في اقتباس
وأتى التوحيد يتلو جهارًا سورة الفتح لانتصار الناس
وبدا الدين وجهه مستنيرًا حين ميطت براقع الأدناس
خلد الله في النعيم إمامًا أظهر الدين بعد طول ارتكاس
وغدا معلنًا بدعوة حق والورى في مناهج الخناس
أوضح السبل للأنام وأحيا ميتًا غيبوه في الأرماس
وجلا الوقر عن مسامع قوم والعمى عن بصائر في انطماس
ساعدته عصابة الحق حتى لبسوا للحروب أقوى لباس
عصبة لا تهاب هول المنايا كلهم في اللقاء صعب المراس
عزروا الدين بالقنا والقواضي وأزالوا عنه قذى الأنجاس
بذلوا للجهاد فيه نفوسًا روضوها للموت بعد شماس
كم تجلت لهم خطوب شموس فجلوها بكل لدن وقاس
أيد الله نصرهم وعلاهم ببقاء الإمام في إيناس
وأدام الإله نصر سعود ناصر الدين لابني العباس

وفيها وقع الطاعون في بغداد والبصرة وما بينهما من البلاد، وتزايد أمره وتفاقم، وجل الخطب وتعاظم، وكل يوم يموت من البشر ويُدفن في تلك الحفر مئات من الأنام، وطال ذلك عليهم ليالي وأيام، حتى فني أكثر أهل البصرة ومن والاها من قرى المجرة[1]. ويُذكر أنه مات في ذلك الطاعون مئات الألوف من جميع البلدان متفرقون.

---

(١) بجوار مدينة سوق الشيوخ «جنوب العراق».

وفيها أرسل عبد العزيز، حرسه الله تعالى، إلى زيد بن زامل رئيس الدلم، بنبذ العهد والأمان، وليس هنا إلَّا الدخول في دائرة أهل الإسلام والإيمان، فلم يثن إلى ذلك الشأن منه عنان، ولا التفت إليه مختالًا بما لديه، وسعى في حشد الناس والأحزاب، لمّا أراد الله تعالى عليه تعجيل العذاب، وأرسل إلى رئيس نجران يستجيشه ويستدعيه، ويعده على مجيئه الأموال ويمنيه، ويُضعف أمر هذا الدين ويوهيه، فلم يرعو إلى ذلك المقال، وقصده زيادة الشرط في المال، والتوثق قبل الشروع في الحال.

ثم دخلت السنة الثامنة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها أيضًا أرسل زيد بن زامل إلى رئيس نجران يدعوه إلى ذلك الشأن، ويحثه على القدوم في ذلك الزمان، وتعجيله قبل طوارق الحدثان، فلان إلى ذلك فؤاده؛ لأن طلب المال هواه ومراده، وغارت لنيل المال عيونه، وحارت في ذلك أوهامه وظنونه، وصارت أنامل يده ينادمها عُثْنُونه[1]، فتأمل ساعة وفكر، ثم أجمع عزمه ودبر، وحرر مقصوده وقدر، وحقق مطلوبه وقرر، فأرجع إليه الرسول يريد أن يبين له المبذول، ويُعرفه بالعائد والموصول وفائدة المحصول، حتى يكون بعد ذلك الحصول، وينجح السير والوصول، ويُنجز لكم المرام والسول، فأرجع إليه بما راض جأشه عليه، وأن ذلك يتمثل لديه، فوقع بينهما المشارطة، وانبرام العقد والمرابطة، وحصل التقارر بعد المعاودة والمفاوضة، على قريب من ثلاثين ألف زر تُعجل بها المقابضة، وطلب زيد بن زامل من رئيس نجران أن يُرسل إليه أرهان، حتى يُرسل إليه الذي استقر واستبان، فأرسل إليه الرئيس رهنًا من جماعته، وأعيان قومه وخاصته، وعجل

(١) العُثْنُونُ من اللحية: مانبت على الذَّقَن وتحته سِفْلًا. (لسان العرب).

بهم له في ذلك العام، رغبة في تعجيل الحطام، وأداء ذلك الشرط والالتزام.

فلما قدموا على زيد أولئك الأقوام، جدّ في تحصيل ذلك المال، واستيفائه من الرعية بالإذلال، وأقاموا على ذلك ليالي وأيامًا، لا تذوق عيونهم في الدجى منامًا، ويعانون من ذلك جهدًا وسقامًا، وضيقًا وإلزامًا، ويرتجون لهم مآبًا ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، فلما نص له ذلك المال، أرسل به في الحال، لقصد نجح المرام بقدوم أولئك الطغام.

وفيها نزل عريعر مع بني خالد وعنزة على بريدة، وأعمل فيها مكره وكيده، وأقام بها بعض أيام، وهو يحاول في أهلها بالخديعة والإبرام، وتليين الجناح لهم في الكلام، فجاشت إلى ذلك قلوبهم، وحاطت بهم ذنوبهم، فاستدعى عريعر أميرها عبد الله بن حسن للخروج إليه والمواجهة، حتى يكون الخطاب مشافهة، فاغتر بذلك وظهر، وسار إليه وابتدر؛ فعند ذلك حجر عليه وأسر، فدُخلت المدينة على حين غفلة من أهلها، وما أقبحها من خصلة، فجالت في البيوت أولئك الأعراب، وكسروا تلك الأبواب، فلم يجد أهلها من ذلك مهربًا، ولا ألفوا للنجاة مطلبًا، وشمر راشد الدريبي لذلك إزاره، وقصد في ساعته قصر الإمارة، وكان قبل ذلك منه جاليًا، وذلك البلد منه خاليًا.

وفر مَن يخاف مِن المسلمين على نفسه من المبطلين، وتفرقوا في البلدان، حتى جاءهم من ربهم الصلة والإحسان، فكاتب عبد العزيز أهلها الذين خرجوا منها، ونفروا هاربين عنها، وهم آل عليان، على أنهم يُقبلون عليه، ويقيمون عنده أحسن الله قصده، فأسرعوا إليه المجيء والإقدام، وقابلهم بغاية الإكرام، ورعى لهم تلك الذمام، وأقاموا في نهاية الاحتشام.

وأقام عريعر في ذلك المكان بعض أيام وليال، ثم شمر في المسير والارتحال، فسار منها وظعن عنها، ومعه عبد الله بن حسن ذلك الأمير، ولم

يزل عنده في حكم الأسير، حتى جاءه قضاء العظيم الكبير، وحان أن يُسْقي ذلك الكأس المرير، وينفذ فيه الإرادة والتقدير، ويتجرع كأس الحِمام بعد ذلك العز التام، فنزل به في أرض الخابية السام، فخر من ذلك المقام السامِ، وضمه ضيق اللحود، وصار أكلةً للدود، بعد ذلك القنا والقنابل، ومسايرة الجيوش والجحافل، وهذه سُنَّة الله في جميع المخلوقات والعبيد، ومفاجأة الحِمام بغتة لذوي البأس العتيد، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وفيها غزا سعود، حرسه الله، بالمسلمين يريد الدلم، والسعد قد قارنه وألمّ؛ فسار حتى قرب إليها، وشارف الهجوم عليها، فأناخ على حين غفلة من الناس، وقد هجع أهل الأندية والأحراس، فعبأ عند ذلك من الكمين ما أراد، وهيأ أهل الغارة من أولئك الأجناد، فلم تستقر الشمس طالعة، حتى صارت خيول المسلمين إلى الغارة نازعة، فوافت كثير أغنام، فاستاقها على التمام، وخرج بعد ذلك من أهل البلد من فيه نجدة، وكان استرداد تلك الأغنام قصده، فناوشهم المسلمون القتال، والكل قد بذل فيه طاقة الحال، حتى ظهر الكمين عليهم وبدا، فصاح بهم صائح الذل والردى، فانكسروا ولكن بعدما جهدوا وجدوا، فانهزموا مدبرين، وما لَوَوْا على الساقة وما ردوا، وقتَل المسلمون عشرة من رجالهم، ودخلوا بلدهم بكسافة بالهم، وتشتيت حالهم، وقُتِلَ من المسلمين رجلان: عوض بن ذئب وراشد بن مطيع.

ثم بعد ذلك ارتحل سعود، فلما وصل إلى الحائر جهز سرية من المسلمين، وأمّر عدامة بن سويري عليهم أجمعين، وأمره أن يقصد الزلفي، ويأخذ ما يجده هناك ويلقي، فسار من ساعته ومن معه عدامة، فوافاه ركب من أهل الزلفى أمامه، فشن عليهم الغارة، ولم ينج أحد منهم بنياره، ولا آواه حين شمّر فيه

إزاره، فكلٌ منهم تجرع حِمامه، وكان الموت غايته ومرامه، وكانوا نحو العشرين، فقتلوا أجمعين.

وفيها وفد أهل حرمة والمجمعة على الشيخ وعبد العزيز يريدون الإسلام، فعاهدوا على ذلك والتزموا القيام بجميع الوظائف والشعائر والأحكام، غير أنهم طلبوا منهما عدم المطالبة بالجهاد، حتى يتوفر أهل تلك البلاد، وكان مرادهم الإمهال سنتين، ثم يشمروا بعد ذلك من غير مَيْن، فلما عرفا منهما الحقيقة والرغبة، ساعداهم على الموافقة والطِّلْبَة، ثم كانت إلى بلادهم الرجعة والأوبة، بعدما أدرك كُلٌّ مطلوبه.

وفيها وفد محمد بن رشيد الهزاني وأعيان أهل الحريق، يريدون الإسلام الذي هو أسهل طريق، فقدموا على الشيخ وعبد العزيز، سلك الله بهما مسلك التوفيق، فبايعوا على الإسلام، والتزموا القيام بجميع الأحكام، ثم بعد ذلك رجعوا إلى بلادهم بعد حصول مرادهم.

ثم دخلت السنة التاسعة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين يريد الخرج، فجد المسير، حتى إذا قارب الضبيعة[١] بعد الهجوع، أناخ يهيئ الجموع، ويعبئ أهل الغارة والكمين، فلم ينجل الظلام ويضمحل الإظلام، إلا وقد أخذ من التعبئة أحسن نظام، فعند ذلك شن الغارة أهلُها، وأخذوا من الأغنام، فخرج عند ذلك أهل البلاد، وناوشوا المسلمين الجِلَاد، حتى بدت لهم من الكمين أسنة، فأطلقوا للفرار أعنّة، وولَّوا جميعًا مدبرين، وأقاموا في البلاد محتصرين، وقد قُتِل منهم تلك الساعة اثنا عشر رجلًا، ورجع المسلمون على أعقابهم وقد أدركوا أملًا. ثم إن المسلمين

---

(١) مدينة زراعية في محافظة الخرج.

أخذوا في قطع الأشجار والنخيل، فقطعوا من ذلك ما ليس بالقليل، وذلك جميع نخل الشدى.

ثم ارتحل عبد العزيز بالمسلمين ونزل بالدلم، ونوى حصار أهل زميقة[١] وعزم، فأقام عليها للحصار، وأشرف أهلها على الدمار، وخرب من نخلها وزروعها، وقطع من أصلها وفروعها، ثم انصرف راجعًا إلى بلاده بعد نيل مراده، واستأذن الغزاة في إعطاء تلك الغنيمة آل عليان، فأجابوه بطيب لسان وجَنَان، وقد استشهد من المسلمين ثمانية رجال، منهم فهد بن سلمان، رحمهم الله تعالى.

وفيها سار رئيس نجران يريد أهل الإيمان، ومحاصرتهم كافة في البلدان، فأقبل معه من سائر الأعراب ما لا يقدر على عَدِّه حُسَّاب، ولا تحصره الألباب، وقد انضم إليه والتأم كل جلف وطَغَام، وأشخاص كالأنعام، بل هم أضل منها في الأفهام، وكل من بلغه ذلك المسير والتسيار، سارع إلى المسارعة والبدار، خصوصًا سكان الفيافي والقفار، فأقبلت معه وبعده، خيّب الله قصده، أصناف قبائل البادية، كلها على أهل الحق عادية، وجَدُّوا لأهل التهيئة سيرًا ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ وساعده في ذلك الأمر والشأن، كل رئيس وحاكم شيطان، من أهل نجد وغيرهم من الحضر والبدوان، وأعانوه على طمس هذا النور، وإطفاء مصباحه المضيء في الديجور، جميع أهل المعاصي والفجور، بأنواع كثيرة من الأموال، وأمدوه من النقود بما لا يخطر على البال، ولا يحصره لسان المقال، وبارزوا في ذلك الكبير المتعال، وحاربوا ذا العزة والجلال، فلم تنجح لهم آمال، ولم يحصلوا من القول على حال.

---

(١) بلدة تقع جنوب مدينة الدلم.

وأرسل له بطين بن عريعر من النقود، ما ناف عنده على المقصود، فذُكِرَ أنه أرسل له بما يزيد على ستة آلاف مشخص[١]، وأظهر له من أحمال الطعام من الحسا وأشخص، فقدم عليه من الحسا ثلاثمائة من الزاد، فزال عنه الجوع والهم والأسى، وتلاحقت عليه الأمداد من الجموع والزاد، وهو مقيم على الحائر من تلك البلاد، وكل يوم يجري بينه وبين أهلها القتال والجلاد، وقد قتَلوا منه في تلك المدة قريبًا من أربعين رجلًا في العدة، فزال ولله الحمد عن أهل تلك البلدة كل رعب وخوف وشدة، وذُعِرَت مَن معه من أجلاف الأعراب، وعرفوا أنه من مقصوده خسر وخاب، وما أطمعهم في المجيء معه والإقدام، إلا ما صدر عنه قبل ذلك العام، وما عرفوا ما في ضمن تلك المرة للمسلمين من العز والمسرة، وما انطوت عليه من الحكم والأسرار، ما لا تحيط به الأفهام والأفكار، بل يحسبون أن ذلك لعقة عسل، فرجعوا بخيبة الأمل، وظنوا أن المسلمين أكلة جزور، فآبُوا بالثبور والعثور.

وكان عبد العزيز، حرسه الله تعالى، في تلك المدة والإقامة، قد أرهف حده واعتزامه، وصقل جده واهتمامه، في تجهيز الجيوش والإمداد، إلى كل قرية وبلاد، فأرسل إلى الرياض مددًا، فأقاموا بها أمدًا، وخرج سعود، بلغه الله المقصود، بالمسلمين فعمد إلى ضرما وأقام في نواحيها، وغاراته تراوح الأعادي وتغاديها، وتباغت البوادي العادية وتفاجيها، فأغار هو وجنده المنصور، على اليمن ذوي الكفر والفجور، وكانوا بأرض العرمة[٢] يسيمون، وفي شعابها تلك الأيام يقيمون، فلم يرتفع بعض الأيام للشمس سَنا، ويجلو

(١) عملة نقدية كانت تستعمل في زمنهم.

(٢) شرق مدينة الرياض - كما سبق -.

تلك الأعراب الباغية من عيونهم وسَنا، إلا وهو قد أشرف عليهم ودنا، ويحل لهم الكرب والعَنَا، فشنت عليهم فرسان المسلمين الغارة، وكُلٌّ شمَّر للقتال إزاره، وجرى بينهم ذلك اليوم طعان، وقُتِل من كل الفريقين فرسان.

ثم رجع سعود بمن معه إلى ضرما، وانهزم أولئك اليِمنان عن رعي ذلك المكان، فاجتمعوا مع رئيس نجران على الحائر، وأقاموا مع ذلك العدو الجائر، حتى وقع بينه وبين أهلها الصلح، فسار عنها ولم يحصل مما رام على نجح، وقصده هو ومن معه، وساعده من الحضر والبدو وتبعه، بلدة ضرما، وكان سعود قد سار عنها وظعن منها، فلم تأت تلك الأقوام وهو في ذلك المقام، بل وضع في البلاد من الرجال عددًا، يكون لأهلها عونًا ومددًا، ويزدادون بهم همة وجلدًا، فلم تنزل بهم أولئك الجيوش الرعاع، وتحف بتلك البروج الرفاع، وتملأ فحاج تيك البقاع، إلا والمسلمون قد استعدوا للدفاع، وأخذوا من الأهبة شأنها، وحصنوا تلك البلد بروجها وحيطانها، فجد ذلك الرئيس الشيطان، وأتى من الحرب ببكر وعوان، ولم يُبْقِ جَهْدًا مِن نفسه ومَن معه من الأعوان، فنهض في ثاني يوم نزوله عليها، وقرّب جميع أجناده إليها، وأبرزوا من الاجتهاد، وطلائع الصبر في الجلاد، وسيما النجدة والقوة والشجاعة والفتوة، ما ظنوا أنه يرهب أهل البلد، ويرعب ذوي البأس والجَلَد، ولكن الأحد الصمد ثبت أقدام أهلها، حين شد القوم في حملها، وتوغلوا بين أشجارها ونخلها، فأنزل الله عليهم السكينة والثبات، فلم يكن لهم، ولله الحمد، إلى الذل التفات، بل صدقوا لعالم الخفيات، وخالق البريات والسرائر والنيات، فرموا أولئك الأشرار بمصيب البنادق بين النخل والأشجار، فكانت شهب الرصاص كأنها عليهم مرسلة، أو من فوقهم منزّلة، فخرجوا هاربين سراعًا، ولم يدركوا نفعًا ولا انتفاعًا، ولم يستطيعوا حينئذ دفاعًا، وقتَل

المسلمون منهم خلقًا كثيرة، وأوقعوا بهم جراحات غزيرة، وأسقَوْهُم من الأسف كأسًا مريرة، فانهزموا عنهم وارتحلوا منهم بحالة ضريرة، وذلة واضحة شهيرة، فلم تكن بعد تيك لجميع الأعداء عين قريرة، ورجعوا كلهم خائبين، قد أسفوا على ما قدموا أجمعين، وأصبح أهل الإعانة مختبرين، وعلى بذل المال متندمين، وودوا لو أُخِّرُوا إلى حين، وصاروا ممن خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

ثم بعد تمزُّقِ هذه العساكر المجرورة، وتشتت هذه الجيوش المرعوبة المكسورة، وتفرق تلك الأجناد المذعورة، قصد كُلُّ قَبِيل قَبِيله، ونحا كل ذي جيل جيله، وعمد كل ذي وطن إلى وطنه، وحنّ كل ذي سكن إلى سكنه، فنقلوا قبائل العجمان، وحملوا معهم على سريره رئيس نجران، وقد أرهقه المرض والأسقام، وأضنت جسمه مواد الآلام، وكان ذلك الرئيس في الشر قرين إبليس، وقد فتن أولئك الهمج من الناس، مما يبدي لهم من حساب الرمل والتخمين والأحداس، وافتتن أولئك البوادي، وساروا له بالأموال الروائح والأغادي، فلم يشك أحد من جميع تلك الطوائف، أن ذلك الرمّال لأسرار الغيب حافظ عارف، وعلى ما يحدث من المكونات محيط واقف، فكانوا إذا أرادوا القتال حملوه على سريره في المجال، وقصدهم بذلك الاستنصار، ورفع ما يحفهم من الآصار، فمات في أثناء انصرافه، وشاهد جزاء سعيه وإسرافه، تحسّى عليه مرارة الحزن جميعُ أصهاره وأسلافه، وفقد تلك الكهانة والتنجيم كافة خلانه وأُلافه، وفاجأه وارد الحِمام قبل وصول بلده، وما فاز بمرامه.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، فأغار على الضبيعة، ولم يخرجوا إلى قتال، فكان الرمي بينهم من بعيد، وقتل من الكل بعض رجال، فقُتِل من المسلمين موسى بن حماد وعبد الله بن غانم، ثم انصرف المسلمون منهم ورجعوا عنهم.

وفيها مات مشاري بن سعود، وكان له في الجهاد مقام محمود.

وفيها أيضًا غزا سعود، متع الله تعالى به المسلمين، فسار يريد بريدة ومعه آل عليان الذين خرجوا منها هاربين، فجد إليهم المسير، فلما وصل إلى قرب البلد، ولم يشعر به من أهلها أحد، لكونه نزل ليلًا بساحتهم، وكان وقت هجعتهم وراحتهم، فلم يستقر به القرار في أرض تلك الديار، حتى عبّأ جيشه وكمينه، وقام ينتظر الصباح وحينه، فحين أسفر له منير ذلك الضيا، وفرغ من صلاة الصبح وقضى، نهض في إنجاز ما دبّره ومضى، وكان ولله الحمد له في ذلك السعي رضا، وذلك أنه شن الغارة عليهم صباحًا، فلم يخرجوا إليه كفاحًا، ولم يجدوا دون الحصار في البلد صلاحًا، ولا ألفوا دونه مَراحًا، مع أنهم لم ينالوا من ذلك فوزًا ولا نجاحًا، فأقام المسلمون على البلد أيامًا، وكل يوم يقع بينهم قتال ومرامي.

فلما أعيا المسلمون أمرها، وجهد أهل البلد حصارها وحصرها، ولم يبالوا بما نالوا من الضرر والأضرار، ومنازلة تلك الجموع والحصار، اقتضى رأي سعود أن يبني تجاههم للمسلمين حصنًا، يكون لهم ثغرًا وأمنًا، فأمر ببنائه، فبنى تلك الأيام وزيد في بنائه بجودة الإحكام، ووضع فيه عدة من أهل الإسلام، أميرهم عبد الله بن حسن[1]، ثم رجع سعود ومن معه إلى الوطن، وأقام أهل ذلك القصر فيه، وكل يوم يشنون الغارة على أمير بريدة وتؤذيه، وبقوا أيامًا لا تسرح لهم سائمة، ولا تبقى لهم عين نائمة، وبوادر الحرب كل يوم عليهم قائمة، وفرسان ذلك الثغر لاستيلائهم رائمة.

فلم يجد أميرها راشد الدريبي من الأسباب، إلا بعثه إلى جديع[2] بكتاب

(١) قال ابن بشر (١ / ٦٤): «من رؤساء آل ابن عليان أهل بريدة».

(٢) قال ابن بشر (١ / ٧٤): «رئيس آل حبلان من عنزة»، فارس مشهور.

يستعينه ويستنجده، فلم يكن إلى ما يريده يسعده، فرجع منه الرسول بخيبة المأمول، فلما جد به الحصار والضيق، وضاقت عليه مناهج التسديد والتوفيق، لم يجد إلى سلامة عمره منهجًا، ولا طريق سوى أخذ الأمان على عمره، وحاق به شؤم غدره ومكره، فأرسل إلى عبد الله بن حسن يطلب لنفسه خاصة الأمان، وخروجه من تلك الأوطان، فأعطاه عبدالله ذلك بإعلان، وبادر إلى مواجهة عبد الله بذلة وهوان، ودخل عبد الله بن حسن وجماعته البلد، فقتل من قوم الدريبي كل من عثر عليه ووجد، فقتل في ذلك اليوم والحين من أولئك الجماعة نحو الخمسين، واستولوا على جميع ما فيها من الأموال، وتأمّر عليها عبد الله بعد الفراغ من تلك الحال، وصارت تلك القضية وصدور هذه الموهبة السنية، إنقاذًا لأهل القصيم وما فيها من البرية، من غمرة الضلال الوبية الرديّة، فأظهروا الإسلام، ودانوا بجميع الأحكام.

ثم بعد مضي ذلك بأيام وليال، وفد عبد الله بن حسن مع رجال من وجوه أهل القصيم، على الشيخ وعبد العزيز لأجل المعاهدة والتسليم، فتُلُقُّوا بأتم إقبال وقبول، وفازوا بأعمّ مطلوب وسول، وعاهدوا على الإسلام والقيام بالأحكام على التمام، وأقر عبد العزيز كل أمير بلد في بلده أميرًا، وزادهم حشمة وتوقيرًا، وأمّر عبد الله بن حسن على جميع بلدان ذلك الوطن، لا يعارضه منهم أحد فيما أراده وقصد، واستمروا على حالة مرضيّة سنين، ثم تغيروا وانقلب كثير منهم لأجل فتنة يأتي ذكرها بعد حين.

وفيها غزا محمد بن جماز مع جماعة من أهل الوشم، فوافاهم بطين بن عريعر بأرض النبقية[١]، فقُتِل غالب أهل تلك السرية، ونار[٢] باقيهم وسلم،

---

(١) من قرى القصيم، تبعد عن بريدة حوالي ٤٥كم.

(٢) نار: هرب.

ووهى عز بطين بعد تلك القضية وهُدم، وتضعضع أمره وحاله، وتشتت عزمه وباله، ونقم عليه لقبح أفعاله إخوانه ورجاله، وأخذ سلطانه في الضعة والانحطاط، وحاق به أمر الله وحاط.

وفيها قدم زيد بن زامل على عبد العزيز في الدرعية، فجاءت من غير إشعار ولا إخبار القضية، ولا معاودة ولا أخذ أمان، ولا مفاوضة ولا رويّة، فلم يشعر عبد العزيز إلا بقدومه ومفاجأته له وهجومه، مع أناس من أعيان قومه، فبايعوا على الإسلام، فتراضت تلك النفوس التي نشأت في التكبر والإعظام، وألفت في ذلك منهج آبائهم القدام، فدانوا بشريف تلك الأحكام، والتزموا بجميعها القيام، وطُلب عليهم كثير من أنواع السلاح، وعدة من الخيل المطهّمة الملاح، فلم يلقوا بذلك نجاح ولا جناح، ولا رأوا به حوبًا ولا بأسًا، ولا رفعوا للإبانة والامتناع رأسًا، فأتوا سريعًا بما طُلب، وأرسلوا بجميع ما أريد وكتب، وحقق عليهم وحُسب، فلما وصل إلى عبد العزيز جميع المطلوب، وأحضر لديه المقرر المكتوب، أخذ منه جزاه الله خيرًا بعضًا، وبعض تركه لهم رفضًا، مسامحة لقلوبهم وتطييبًا، وتوليفًا لأولئك الأشرار وترغيبًا.

ثم دخلت سنة التسعين بعد المائة والألف.

وفيها قتَل زيد بن زامل فواز بن محمد من أهل الحوطة، وذلك أنه أتى ابن زامل في بلاده، لمّا أراد الله كرامته واستشهاده، فطلب منه المحاكمة للشرع وسرعة انقياده لمشاجرة بينهم سابقة، فلم يَنْقَدْ له ولا وافقه، بل نفر عنه ولا طابقه، وأنبه على ذلك الكلام وقال: أأنقاد في بلادي إلى الأحكام، ويُنفَّذ عليَّ في الشرع النقض والإبرام، وأنا رئيس مَن في هذه البلدة من الأنام، فكيف أُهَان وأُسَام ويُلْوَى عنقي وأضام؟ فجرّد عليه صارمًا غير كهام[1]، وجرّعه كأس

---

(١) أي: غير كليل.

الحِمام، وارتدى برداء الغدر، وتسربل بالخزي والذل والإهانة، فلم يحصل له ولله الحمد الإعانة، بل مذقه الله تعالى وأعوانه، وملَّك الله تعالى المسلمين تراثه ومكانه، واستولَّوا ساحته وأوطانه، واحتَوَوا رعيته وحيطانه، فسبحان من لا يعجزه شيء، ولا يفوته حي، سبحانه.

فلما صدر عنه هذا الغدر والفتك، وظهر منه هذا المكر والهتك، وبلغ ذلك على الجزم واليقين عبد العزيز إمام المسلمين، أمر بغزو المسلمين عليه، وإرسال الجند إليه، فجدّ المسلمون إليه في الوصول، فلم يلبث إلا قليلًا حتى أحاطت به الجيوش في النزول، ونزل بساحته الجحافل والخيول، فلم يستقر بهم هناك القرار، بل لم يقيموا بها شطر نهار، حتى شمّر للجلاء الساعد والإزار، وحاق به ما اقترف من الآثام والأوزار، وما صنع من العلو والاستنكاف والاستكبار، فهرب على ظهر فرسه مع ولده وبعض خواصه الأشرار، فدخل عبد العزيز وحزبه البلد، فلم يُغِرْ منها على أحد، بل أعطى أولئك الأمان، إلا أصهار من تعدى وخان، وما له من خاصة وأعوان، فأمر على جميع أولئك القوم والملأ بالخروج عن تلك البلد والجلاء، وأمَّر عليهم سليمان بن عفيصان، واستمروا على ذلك شطر زمان، وعليهم سيمة الإسلام والإيمان، حتى أراد الله الرحيم الرحمن، أن ينحطوا إلى حضيض الذل والهوان، وينخرطوا في سلك أهل الضلال والخذلان.

وفيها قدم أهل منيّخ وأهل الزلفى على الشيخ وعبد العزيز لأداء السلام، وتجديدًا لعهد الإسلام، ووفد معهم سليمان بن عبد الوهاب، ولم يكن له إلى منيّخ رجوع وانقلاب، بل حسن له في الدرعية السكنى والمآب، فقوبلوا بالقبول والإكرام والبشاشة، وكان من الشيخ إلى أخيه سليمان أعظم تحنن واهتشاشة، فدثر حاله حينئذ وأراشه، ووسّع عليه قوته ومعاشه، وكان هذا

شأنه مع غيره[١]، طيب الله في ضريحه مهاده وفراشه، فكان ذلك سببًا لإنقاذ سليمان، وصدقه مع أهل الإيمان، وتحققه بهذا الشأن، فقام في هذا الدين بتحقق جزم ويقين، وأقر على نفسه واعترف بما قدمه قبل وأسلف، ووفى بما عاهد عليه وما أخلف، ومات، ولله الحمد، على حالة رِضا، بعدما جرى منه وما مضى، فلم يوافه القضا إلا بعدما رفض ما كان عليه وانقضى.

وفيها وفد أهل اليمامة، وأميرهم البجادي حسن، فقدموا على الشيخ وعبد العزيز في ذلك الوطن، جددوا للإسلام عهدًا، وأرسل معهم معلمًا في ذلك المبدأ، وهو حمد العريني، فسار معهم لأجل نشر التوحيد والتعليم، ومكث عندهم حتى صدر منهم ذلك الأمر العظيم والخطب الجسيم، وذلك أن أهل تلك القرية شرعوا ينسجون أردية الغدر والفرية، وينظمون أحوال الخيانة والردة بلا مرية، يدبرون فيها مظلم الآراء، ويديرون أسباب التعدي والاجتراء، ويحاولون الفتك بمن عندهم من أهل الدين، حتى اجتمعوا عليه بيقين، وتعاهدوا عليه مجتمعين، وتجاهروا به غير مختفين، فلما تحقق منهم ذلك حمد العريني وابن داعج، وعرفوا أنهم من غير شك يريدون الردة، وأنهم يبغونهم بالقتل غدًا أو بعده، خرجا منهم هاربَين، وكانا للسلمية طالبَين.

ثم بعد ذلك أسرعا إلى عبد العزيز بذلك الخبر، فأمر المسلمين فورًا بالتجهيز للغزو، فخرج سعود بهم وظهر، وجد السير إليهم ليلًا ونهارًا، لا ينيخ إلا وقت الراحة اضطرارًا، أو جنوح الشمس اصفرارًا، حتى وصل إلى السلمية[٢]، فألقى الرحال ووضع فيها من المسلمين عدة رجال، وأرسل إلى الدلم والضبيعة

---

(١) رحمه الله، وهذا من حكمته في تأليف من يُقبل على الحق، سواء من أقاربه أو من غيرهم.

(٢) من مدن محافظة الخرج.

ونعجان[١] مرابطية كثيرة من أهل الإيمان، خشية معالجة الردة والافتتان، وبقي أيامًا كثيرة يكاتب أهل اليمامة من جهة تلك القضية، ويحث حسن البجادي على إخراج أهل الشر من بلاده والأعادي، الذين صدرت منهم تلك السعاية، واجتمعوا على المسلمين بالفتك والنكاية، فوعده الامتثال والإخراج، وليس دون ذلك من إرتاج[٢]، ولا عن جلائهم من إفراج، ولكن بعدما ترحل عن هذه البلدة - يعني السلمية -، وتحط الأثقال في الدرعية، وكان هذا منه خديعة ومكرًا، وقد حاق به شؤم فعله قسرًا، وما أغنى كيده وما نوى، بل حطه في قعر الإذلال والخزي فثوى.

وذلك أن سعودًا لما جاءه منه الوعود، بأن ينفي عن بلده اليمامة كل من لا يحسن له بها الإقامة، ولا يعرف أهل التوحيد قبل ذلك إسلامه، ولا تبينت له قبلُ صلاحيّة واستقامة، وبعدما تشرع في الارتحال، تكون منا الطاعة والامتثال، رضي بذلك منه وما جال في خلده ما صدر عنه، وما شعر أن وراءه من الغدر نسيجه، وأن بارتحاله تبدو له النتيجة، فحينما أخذ سعود في الارتحال والمسير، شرع حسن مع جماعته لأسباب الردة في تدبير، فلم تنخ له في البطحاء الركاب، وتحط الأثقال أولئك الأصحاب، إلا والردة قد أحكمت لها الأسباب، وولج إليها من كل باب، وأظل أهلها مدلهم العقوبة والعذاب.

وحاصل ما صدر وتحقيق ما جرى وظهر، أنه خرج مع أهل النجدة من أصحابه وكافة رجاله وأحزابه، يريد مَن في السلمية من المسلمين، وكانوا بذلك الأمر مشعرين، ولقدومهم مستعدين، وللقائهم متأهبين، فلم ينور الصبح

---

(١) من مدن محافظة الخرج.

(٢) أي: إغلاق.

بالإسفار، حتى هجم أولئك الأشرار، وكان لهم إلى حلل النخل البدار، وراموا أن يسابقوا المسلمين على القلعة المسورة، فلم يكن ولله الحمد لهم عليها مقدرة، فبذل دونها أهل التوحيد المعذرة، وأرخصوا ذلك اليوم الأعمار، وكان لهم فيه الغاية من الثبات والاصطبار، وطال بينهم القتال، والكل شمر الساعد والأذيال، وأنف من المعرة والإذلال، وبذل في ذلك جده وجهده، وتبين فيه أهل البأس والنجدة، وأنجز الله تعالى للمسلمين وعده، فحمى الله تعالى عباده المؤمنين، وصرف عنهم كيد المعتدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فرجعوا على أعقابهم من حيث جاؤوا، وانقلبوا بالعار والخزي إلى مكانهم وفاؤوا، وقُتِل من المسلمين اثنان، ورجع أعداؤهم بالهوان.

وفيها صاح إبليس بأهل الخرج وتنفس، وسول لهم الخروج عن الحق ووسوس، وزين في الارتداد منهاجه، وحث على إغوائهم أعوانه وأفواجه، وأقبل عليهم بخيله ورَجِلِه ركضًا، فقاموا بذلك وأسرعوا إليه نهضًا، وفتح لهم اللعين ذلك الباب، وطرح بهم في مفازة الهلاك والعذاب، وجمع عليهم من أنواع الذل أسباب، ثم نادى فيهم بالخراب والذهاب، فتلك ليس لي إليكم رجوع ولا إياب، فقد صارت عقباكم الندامة، وليس لكم عليَّ ملامة.

وحاصل ما جرى منهم من قبيح الأفعال، وما وقع بهم من الإهانة والإذلال، أنهم لما حسنت لهم الردة، وحقق كل منهم فيها قصده، لم يجدوا قَيِّمًا ورئيس، سوى قرين إبليس، وهو زيد بن زامل، وكان إذ ذاك عن الأمر غافل، وبما دبروه وراموه جاهل، وليس للرئاسة حينئذ بآمل، فأرسلوا إليه بالقدوم، فقد جاءك ما تريد وتروم، فأسرعْ إلينا بالإياب، فالمنى أتاك بغير ارتياب، فلم يرعو إلى ذلك الباطل والأذى، وقال من رام هذا فقد وسوس وهذى، ولا أقدم عليكم إلا إذا، ولكن أرسل إليكم ابني، وهو نائب فيكم عني، ويقف على حقيقة الحال، وما

صار إليه المآل، فخرج ابنه يريد الدلم، ونوى ذلك وعزم، فلم يَرُعْهُمْ حتى قدم عليهم وهجم، فأرسلوا عند ذلك إلى آل مرة، وكانوا قريبًا منهم ليقضي الله فيهم أمره، وأعلم بذلك أيضًا أهل اليمامة، فعجل كلٌّ منهم مجيئه وإقدامه، واجتمعوا يريدون المسلمين الذين في البلاد، وليس عندهم خبر بمن نواهم وكاد، بل هجموا عليهم من غير تأهب ولا استعداد، ووقع معهم في جوف البلاد المقاتلة والمقابلة والجلاد، فقُتِل من المسلمين نحو عشرة رجال، ونار[1] غالب المسلمين من غير إمهال، وتفرقوا في بلدان المسلمين، وبقي أهل الباطل في الدلم مجتمعين.

ولما جاء زيد بن زامل ذلك الخبر، وتحقق من أهل بلده ما جرى وصدر، أسرع إليهم المسير والارتحال، وقدم عليهم بعد مضي أيام وليال، وما تصور في ذهنه أنه يخرج منها بهوان وإذلال، ويعجل له الإخراج منها والجلاء والانتقال، وحين وصل خبر ذلك الأمر الصادر والفعل القبيح الهادر، إلى إمام المسلمين، متع الله تعالى به في تمكين، جهز إليهم سعودًا وأصحابهم، وعجله في المسير وأحزابه، فجد السير إليهم حتى قدم هو ومن معه عليهم، فأناخ في بلد السلمية لأجل إخراج من فيها من رعيّة، فأقام فيها نحو يومين، حتى تجهز للارتحال، وتهيأ منها للجلاء والانتقال، جميع أهل التوحيد، بسكينة وتأييد، ثم سار مرتحلًا، بعدما نال منها أملًا، وخرج معه من غير المرابطية، حمائل كثيرة من أهل السلمية، بجميع ما لهم من أهل وحيوان وأثاث، من غير تلبث ولا ارتثاث، ولا مبالاة بذلك الوطن ولا اكتراث، بل هم لما عند الله محتسبون ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

---

(١) نار: هرب.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، حرسه الله تعالى، وأفاض عليه جوده ووالى، يريد الخرج وآل مرة الذين فيها، ومن ساعد على تلك الردة ومقويها، فجد، حرسه الله تعالى، في ذلك، يريد جميع من هنالك، وقد اجتمعوا في تلك الأراضي، جميع من له في الردة ارتياض، وعنّ له إلى بعثها انتهاض، وقد ملأ تلك الفيافي الفجاج، من له في الباطل والزيغ انتهاج، واحتسبوا في ذلك للقتال والمقاومة، وتأهبوا للجلاد والطامة، بل هم كل ساعة إليها في انتظار، وليس لهم عنها بد ولا اصطبار، فتقرب إمام المسلمين إلى الله رب العالمين، بالدعاء بالنصر على المبطلين، وحث إليهم النجائب، وأعمل في النص الركائب، حتى قاربهم حين الهجود، وكانوا غفاة رقود، فعند ذلك عبّأ أهل الغارة والكمين، حتى أخذ الفجر يبدو ويستبين، فلما انكشف غيهب الدجى وزال، وجدّ الضوء في الاشتعال، وفرغ من سُبحة الصبح، شرع فيما كان له السرور والنجح، فأمر أهل الغارة وغاروا، فربحوا في سعيهم وما باروا، وبادروا إلى أمره وما حاروا، فاستاقوا جميع الآبال، وما كان دونها إهمال، فلما أشعرت قبائل العرب والبادية، أقبلت جميعها عليهم عادية، فاختلطت الفرسان والأبطال، وكان بينهم أعظم مجال.

وكان المسلمون قد وطئوهم في مضيق شعب من الشعاب، فلما نهضت إليهم أولئك الأعراب، وعاجلوهم بالفزع والانتداب، فأمسكوا من الشعب المضيق، ولم يكن للمسلمين فيه فسيح طريق، فرمى من المسلمين بعض الناس، وكان سببًا لحصول الضرر والبأس، فانكشف أهل الدين، وجَدَّ في ساقتهم فرسان المبطلين، وأخذوا يجاهدونهم ساقه، والكل قد بذل فيه الطاقة، واحتمى أهل الإسلام في ذلك المكان والمقام، وصبروا على مصادمة أولئك الفرسان الأجلاف، وثبتوا لطعانهم في حالة الانكشاف، غير أن المسلمين قُتِل منهم نحو

الأربعين، على سبيل الحدس والتخمين، وفك أهل الباطل غالب الإبل، واستاق المسلمون على عجل، ورجع المسلمون إلى بلادهم، وأكرم الله تعالى من تقدم باستشهادهم.

ولما وصل عبد العزيز إلى الحائر جهز سرية إلى اليمامة ثمانين راكبًا، فعقروا فيها إبلا، ثم رجع كل إلى أهله آتيًا، وقُتِل من المسلمين المشهورين عبد الله بن حسن أمير القصيم وهذلول بن نصير.

ثم دخلت السنة الحادية والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم سعود يريد الخرج، فذكر لأهل تلك البلاد أن هنا غزو للمسلمين، فتأهبوا في الاستعداد، ونفر منهم كل جريء الفؤاد، ومن مارس الحرب والجلاد، فخرجوا إلى لقائه، قبل غارته واعتدائه، فتوافق الفريقان، وتصادف الجمعان في أرض السهبا، والكل منهم قد روض على الصبر قلبا، ورام لعدوه استيلاء وسَلْبًا، وقوى جأشه حتى ينال غنيمة ونهبًا، ويفك نفسه مما أحاط به واهيه وكربًا، فطال بينهم المجال، واستحرّ القتل والقتال، وقتل من الكل رجال، ثم حصل بعد أن جهد كل منهم الانفصال، ورجع كل إلى بلاده، ولم يحصل على نيل مراده.

وفيها عُثر على أهل سدير ومنيّخ بنسيج أردية الردة وبرود، وسعاية في فتح بابها المرتج المسدود، وتبين من أناس فيه قيام وقعود، وأتى الشيخ وعبد العزيز الأمير من حقق له ذلك النسج والتدبير، وحق له أن ينشد على لسان التحذير:

أرى خَلل الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

فلما أعلمَ الشيخ وعبد العزيز عثمانُ بن عبد الله بمن قام فيها وقعد، جهز عبدَ الله بن محمد في المسير إلى تلك البلد، فسار في يومه ذلك ونهض، فلما وصل

عبد الله ومن معه من المسلمين إلى بلدان سدير ومنيّخ، أمر علي الحسيني ومحمد بن إبراهيم وحمد بن عبد الله من أهل حرْمة، ومن أهل سدير صعب بن مهيدب رئيس الحوطة ومنصور بن حماد رئيس العودة وعياله، بالجلاء عن ذلك الوطن، الذي نَوَوا به إيقاع الفتن، لكون تلك الأمور المسطورة والأحوال المشهورة المزبورة، جميعها منسوبة لهؤلاء الجماعة المذكورة، فأتى بهم إلى الدرعية لأجل نسخ تلك القضية، فلم تقم أولئك الغزاة في الأوطان، بل بادروا الخروج إلى الخرج بإعلان، فجَدَّ عبد الله بن محمد بمن معه من المسلمين في ذلك المقصد، ففاز بالمكان الأسعد، وذلك أنه صبّح الدلم بالغارة، وأشعل فيهم ناره، فقتل ستة رجال، وعقر عليهم كثيرًا من البقر والآبال.

وفيها ثارت للردة في حرْمة ثائرة، وأضرمت للحرب نائرة، وذلك أن ذوي القلوب الشريرة الفاسدة، والأفئدة المغلولة الحاقدة، والنفوس التي هي للمسلمين في الحقيقة حاسدة، وللحق منكرة جاحدة، حصل بينهم تواطؤ وتوافق، وتساعد وتطابق، على إشعال نار الردى، وإطفاء مصباح الهدى، فصارت منهم الأيمان والمعاهدة، والحلف والمعاقدة، ورئيسهم في ذلك الغدر وناسج أردية الخيانة والمكر جويسر الحسيني، فوطّأ لقلوب رؤساء سدير، وهم سويّد بن محمد وآل ماضي وحمد بن عثمان، على الغدر بأهل الإيمان، وأن أهل كل بلد تقتل مِن المسلمين مَن بها قام وقعد، فأعطَوه على ذلك ما أراد، وطاعوا له بالمراد، فلم يكن لهم ولله الحمد عون ولا إسعاد، ولا ظفروا برشاد، وخابوا وآبوا بسخط رب العباد.

فلما أرادوا أن يبادروا بالإنجاز، ويعالجوا الفرصة بالانتهاز، أرسلوا إلى كبار المسلمين الذين في المجمعة، أن يأتوا إلى حرْمة يُعلمون فهنا متعلمون ومستمعة، وقد انتظم العقد والإبرام، وأتقن مرادهم بالإحكام، على قتل أولئك

الأقوام، ولكن أراد الله تعالى إذلال أولئك العتاة اللئام، فلم يجئ أهل الدين والإسلام، ولم يحصل منهم إلى حرْمة إقدام، فجاء أهل الدين والإسلام إلى حرْمة، وهم محمد بن شبانة وعثمان الثميري وكنعان بن عيسى وغيرهم، فلما كان لهم المجيء والإقدام، أرسل جويسر ومن معه من الأقوام، إلى أميرهم عثمان بن عبد الله، وكان في نخل له، يُعلمونه بقدوم تلك الجماعة، ويودّون تعجيله وإسراعه، وقد أعدوا له ستة رجال لقتله ساعة المجيء والإقبال، منهم أخوه خضير وابن عمه عثمان، فتكفلوا لهم بذلك الشأن، فلما قدم يريد البلاد، وكان أولئك له في طريقه بمرصاد، ولقتله في تأهب واستعداد، قاموا عليه فقتلوه، ونال جويسر وقومه منهم ما أمّلوه، ثم بادروا إلى حبس مَن عندهم ومَن استدعوه ومَن قصَدَهم، وهم محمد بن شبانة وكافة إخوانه، وشمّروا إلى المجمعة الأذيال، وخرجوا يريدونها بلا إمهال، وغايتهم قتل مَن بها من المسلمين، وإمساك قلعتها للتحصن والتحصين، فلم يصلوا إلى فِنائها بالأقدام، حتى كان لأهل الدين ممن في البلد إلى القلعة سُرعة وإقدام، فأقاموا مدة يحاولون الولوج فيها والدخول، فلم يكن لهم إلى ساحتها وصول، فرجعوا منها بخيبة السول.

وأرسل أهل المجمعة بعد انقضاء القضية، إلى عبد العزيز رسولًا على مطية، يخبره بما صار، فعجل إليه التسيار، حتى وصل إليه الخبر عن الوقعة ثاني نهار، فأمر سعودًا والمسلمين بالتجهيز مجتمعين، فجَدَّ سعود لنيل المقصود، وبادر في الأهبة في الحال، وخرج على غاية الاستعجال، فلم يلق عصا الاستراحة حتى كانت حرْمة مناخة ومُراحه، فطنّب على تلك الهضاب رفيع تلك الخيام والقباب، وبقي عليها أيامًا مقيمًا، وكل يوم ينالون من القتال أمرًا عظيمًا، لا ينكفون عنه ليلًا ولا نهار، والكل يبدي على ذلك الجلد والاصطبار، وقُتِل بينهم

من الرجال ذو عدد، في تلك المصابرة والأمد، فلما جهد الحصار أهل البلاد، وأضناهم القتال والجلاد، تحققوا أن سعودًا لا يكاد ينصرف عنهم بغير المقصود، وآيسوا من باطل الوساوس والآمال، وجزموا أنهم لا يحصلون على طائل ولا حال، طلبوا من سعود الدخول في الإسلام والإقبال، وأبدَوا له الندم والأسف والإذلال، فأسقط عنهم النكال، وتلقاهم بالقبول، وكان لهم إلى مرامهم وصول، واشترط عليهم أن ينفوا جميع الأشرار، وهو جويسر الحسيني، فأسرعوا في البدار، فبايعوه على الإسلام، والتزموا له جميع الأحكام، وأمَّر عليهم ناصر بن إبراهيم، وأطلقوا محمد بن شبانة وإخوانه الذين معه.

ثم لما عزم سعود على المسير والإقبال، عزل رئيس المجمعة فأمره وأهله بالارتحال، لما صار منه من تلك الأفعال، ثم لما وصل إلى جلاجل عزل سويّد بن محمد عنها، فأمره وأهله بالانتقال منها، وأمّر في المجمعة عثمان بن عثمان، وفي جلاجل ضويحي بن سويّد، وسار رئيس المجمعة إلى القصب وأقام فيها، وقصد سويّد شقرا، ورجع سعود بمن معه من المسلمين، ثم أمر عبد العزيز على حمد بن عثمان وسويّد بالمجيء إلى الدرعية، فكانت لهم سكن، والكل ثوى فيها حتى مات فظعن.

وفيها سارت للمسلمين فرسان يريدون الغارة على الدلم، فقضى الله تعالى وحكم، أن أهل الخرج يوافونهم قبل الأراكة[1]، فلم يسع المسلمون الانصراف والانفراكه[2]، بل كلٌ أمّل من عدوه مَرامَه وإدراكه، فجالت تلك الفرسان وجرى بينهم الطعان، وقتل من المسلمين منيف بن نصير وابن شبهى، وأصيب من الخرج عدة رجال، ورجع المسلمون بعد ذلك الحال.

---

(١) نخيل بجوار الخرج. «معجم اليمامة» (١ / ٧١ - ٧٢).

(٢) أي: الهرب.

ثم دخلت السنة الثانية والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها سار المسلمون وأميرهم عبد العزيز، حرسه الله تعالى، يريد الدلم، وقد صمم على حصارها وعزم، فجد السير إليها، حتى أناخ عليها، وكان وقت لذة الكرى، فما أبصره أحد ولا درى، فتوهل بعض الحلل، ونال منها المراد والأمل، وبقي ينتظر الصباح، حتى يحصل له من مراده النجاح، فلما أسفر ضوؤه ولاح، وفرغ من صلاة الإصباح، نهض إلى الحرب، وأشعل حجرة الطعن والضرب، وأحاط المسلمون بجميع تلك الحلل، وأحكموا الأسباب لأخذ الآراء والعمل، وما يشعرون أن أهلها ممتعون إلى حين ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ فجدوا إلى تحصيل المطلوب، وإدراك المنى والمرغوب، ولم يحيطوا علمًا بأن ذلك غير مقدر لهم ولا مكتوب، فأرجف أهل البلاد، وآيسوا من أنفسهم في مصابرة الجلاد، وطمع أهل الإسلام في الفتح، لما عاينوا من علامات النصر والنجح، وذلك أن أهلها لما خرجوا لقتال المسلمين، ونهضوا إليهم ضحوة مجتمعين، والتقوا معهم في تلك الحلل، فكسرهم الله تعالى وهزمهم على عجل، فولّوا سراعًا على غير مهل، فعند ذلك داخل أهلها الذل والخلل، وملأ قلوبهم الرعب والوجل، حتى إن بعض أهل تلك الأوطان، طلب لنفسه الأمان، ولكن أمر الله غالب، ولا يفوته سبحانه هارب.

وكان من قضاء الله تعالى المقدر، وحكمه النافذ المراد المدبر، أن زيد بن زامل ذلك اليوم في اليمامة عند أولئك القوم، فلما سمعوا الرمي في تلك البلاد، فزع هو ومن فيها من العباد، ونهضوا إلى ذلك سريعًا وأقبلوا جميعًا، وكان غالب مقاتلة المسلمين بأهل تلك البلد محيطين، وبحللهم محدقين، وعلى أخذهم مشرفين، فانصبّ زيد ومن معه على محطة الجيش المجتمعة، من غير فكرة ولا خبرة ولا اختبار ولا تدبر ولا استبصار، بل قضاء الملك القهار،

وقدر ميسر من الأقدار، وذلك أنه عدل من المحلة التي يسمع بها اللغط والأصوات، وعليها المقاتلة والرماة، ورام أن يدخل البلد من الباب، يظن أن ليس هنالك أحد، فإذا الجيش بحذائه نازل بقربه وفنائه، ولم يشعروا إلا بالجلبة والصياح، وتشريع أسنة الرماح، وإطلاق أعنة الجياد الملاح، فانذعر الجيش وطاش، واندهش حيرة وارتعاش، وأخذ زيد من ركاب الجيش نحو الخمسين، وقُتِل حينئذ بعض المسلمين، ثم اجتمع المسلمون وتراجعوا سريعًا، وتلاحقت مقاتلتهم جميعًا، وقربوا إلى البلاد كافة، وخرج أهلها للقتال بعد الذلة والمخافة، فوقع بينهم في تلك الساعة قتال، وقتل بينهم رجال، ثم بعد ذلك وقع التفرق والانفصال.

وسار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، ومن معه من المسلمين، فأناخوا على نعَجان أجمعين، وبقوا أيامًا لها محاصرين، حتى فتح الله تعالى على المسلمين منها ببعض الحلل، فأخذوها وفر أهلها على عجل، وقُتِل فيها رجال، وفاز المسلمون بكثير أموال، ورجع المسلمون إلى بلادهم، وقد أكرم الله نحو العشرين من المسلمين في تلك الغزوة باستشهادهم، وقُتِل من جميع أهل الخرج فيها قريب من ذلك.

وفيها نزل سعدون بن عريعر[1] الخرج، وأرسل لعبد العزيز يطلب الصحبة، فوافقه على ذلك وشرط عليه ألا يقرب البلدان، قصده مكر وخديعة، يزين لأهل البلد الردة، ثم بعد ذلك نزل مبايض[2] فبان قصده، فنبذ إليه عبد العزيز عهده، فأقام مدة، ثم خاف من المسلمين فارتحل في القيظ، وتوعر في مظماة الدهناء

(١) تولى الأحساء بعد مقتل أخيه «دجين» عام ١١٨٩هـ.

(٢) تبعد عن مدينة الرياض قرابة ١٦٠كم شمالاً، أصبحت فيما بعد هجرة لقبيلة مطير.

والصمّان[١]، وتوسط فيها ذلك الزمان، فناله وقومه أعظم النصب، وتعبوا أشد التعب، ومات ما عندهم من الأغنام، وكابدوا طلائع الحِمَام، وأوهن الله تعالى كيده وما رام.

ثم دخلت السنة الثالثة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها عزم أهل حرْمة على الردة، ونَوَوا وخلعوا ملابس الدين، وطَوَوا ونشروا للخيانة والردى علمًا، وسَعَوا إليها أُمَمًا، وهيأوا لأسبابها وفتح بابها أمرًا مُحكمًا، وعقدًا رصينًا في زعمهم الفاسد مبرمًا، وذلك أنهم أرسلوا إلى سعدون، رئيس بني خالد، بما دبروه، فكان على ذلك الشأن واجد، وعلى القيام فيه والنصرة له مُجِدّ مساعد، فاستدعوا أيضًا أهل الزلفي، فكان كل منهم على ذلك مستلفَي، ولإنجازه كل حين منتظر مشفي، فلما لبَّاهم أولئك الأقوام، وأجابوهم على المساعدة في ذلك المَرام، وأوعدوهم على يوم من الأيام، ينفذ فيه ذلك الإبرام، ويصدر فيه العقد والإحكام، وتُرَاق فيه دماء ذوي الدين والإسلام، فلما قرب سعدون من البلاد، وتحققوا إنجاز المراد، وعرفوا أنه يُصبحهم غدًا، عمد أهل الباطل والردى، فألبسوا أناسًا منهم ثياب النساء الغواني، وأمروهم أن يسيروا إلى المجمعة من غير تواني، ويصعدوا إلى بروج القلعة، حتى يدهموا المسلمين في البلد ثم تكون لهم فيها متعة، فلما بادروا إلى ذلك الأمر، وعجلوا النيل ذلك القصر، وصعدوا إلى تلك البروج، فأمسكوها حتى بدا من جماعتهم المجيء والخروج، فتنبه أهل الدين لكيد المعتدين، فسددهم الله تعالى وأعانهم، وخذل تلك الطائفة وأهانهم، فلم يظفروا بمرام، ونقض الله تعالى حبل ذلك الإبرام، وأقبل سعدون بن عريعر وبنو خالد وأهل

---

(١) المظماة: الأرض الواسعة التي ليس فيها موارد للمياه، يظمأ فيها الإنسان.

الزلفي وأهل حرْمة، فأناخوا على المجمعة أيامًا، وحاصروها وراموا بها من الفتك مرامًا.

وكان تلك الأيام حسن بن مشاري مقيمًا في جلاجل مع جماعة من المسلمين، فلما حاصر أهل المجمعة أحزاب المبطلين، نهض هو ومن معه إلى المجمعة ليلًا، فكانوا لأهلها مددًا، ونالوا بهم نيلًا، وأقامت أولئك القبائل والأحزاب، في حصار للبلد وإضرار وخراب، وعمدوا إلى قطع النخيل والأشجار، رجاء أن يدين أهلها إلى السلم والنزولة والانحدار، إذا شاهدوا هذا الإضرار، ولا يكون لهم على ذلك صبر ولا قرار، فثبّت الله تعالى المسلمين، وأوهن كيد المعتدين، وكان أعظم مَن امتُحِنَ في ذلك الأمر قبلُ وبعدُ، فبذل في ذلك غاية الصبر والجهد، وأوذي فيه وابتُلِيَ، وصدر عنه في القيام ذلك الأمر الجلي، أحمدُ التويجري، رحمه الله تعالى.

ولما وصل عبد العزيز الخبرُ عن ذلك الحال، وما دبره أهل الباطل والضلال، وما اجتمعوا عليه من الردى، أمر بالنفير والمسير على ذوي الهدى، فخرجوا بعد الاستعداد والأهبة، ولم تكن لهم سوى الأحزاب مراد ولا طِلْبَة، وأمّر عليهم عبد الله بن محمد، فأسرع إلى ذلك الأمر وأنجد، فلما وصل الخبر إلى تلك الأحزاب، أن المسلمين في قدوم وإياب، وليس لهم غيركم طِلَاب، عاجلوا بالارتحال وبادروا للمسير باستعجال، وشمروا في الرجعة والانقلاب، ولم يظفروا مما راموا بحسب مآب، فلما وصل عبد الله بن محمد ومن معه من المسلمين إلى حرْمة، وكانوا إذ ذاك نائمين، فعبّأ الجيش والكمين، فلم يسفر بضوئه الفجر، وتُقْضَى صلاته ذات القَدْر، حتى أخذ كل حزب مكانه، وثبّت على القتال جِنَانه، فلما شعر أهل البلاد بما دهم ساحتهم من العباد، وما حاط بهم من الهلاك والهم والأنكاد، انذعرت قلوب ذوي الشر والفساد، وارتعش

منهم اللب والفؤاد، وتمنوا أنهم لم يكونوا لما قدموا فاعلين ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فأحاطوا بهم من كل ناحية، وجزموا عند ذلك بنزول الداهية، فأقام المسلمون لها محاصرين، ولفتحها آملين، كل يوم ينهدون إلى القتال والقتل، ويجدّون في تقطيع الأشجار والنخل، فقطعوا نخل المويس جملة، ولم يكن قُطِع بغير أناة ولا مهلة، فآيس من الإعمار، مَن في البلد مِن الأشرار، ونزل بهم الجهد والحصار، وأزعجهم ذلك التخريب والدمار.

وآخر يوم القتال هجم عليهم المسلمون فيها من بعض الأقطار، ووقع بينهم الجلاد والجلد والاصطبار، وبذل المسلمون عند ذلك النفوس الغالية، وآثروا الباقية على الفانية، وقُتِل من الأشرار مَن مَنِيَّتُه دانية، وهم عشرة رجال، كُلٌّ بالغ حده في الشر والضلال، منهم مدلج المعيِّي ومحمد بن إبراهيم، ثم رجع المسلمون إلى بلادهم، وأبقى عبد الله بن محمد رجالًا من المسلمين وخيلًا في المجمعة، حتى ينالوا أهلها بذلك عزًا وتحصنًا ومنفعة، وليضيقوا على أهل حرْمة المعاش، فلا يكون لهم إليه سبب ولا انتعاش.

وفيها في رجب غزا عبد العزيز يريد السلمية، فلما قاربها شعر به مَن بها مِن البرية، وانصرف راجعًا، بعدما كان بها طامعًا، ولم يصدر منه على أهلها منازلة ولا غارة، لأمر اقتضاه رأيه واختاره، ونهض في ساعته في ذلك الطريق، لإرادة الله له بالتوفيق، فجد السير والمسير، يريد فرقانًا في أرض عَرْوى نجد[1] من مطير، فصبحتهم فرسان المسلمين والإسلام، واستقبلهم مقاتلة أولئك الأقوام، وحمي بينهم الطعان، وثبت الله أهل الإيمان، فشدوا عليهم، وصمموا الحملة إليهم، فولّوا هاربين، وأخذوا تلك الأسلاف أجمعين[2]، وحازوا من الآبال

(١) جنوب الدوادمي.
(٢) الأسلاف: الجماعات.

فوق المراد والآمال، ثم رجعوا إلى بلادهم من غير إمهال، وقُتِل من المسلمين ثلاثة رجال، منهم عدامة بن سويري.

وفيها غزا سعود، أسعده الله تعالى وأفاض عليه بره ووالى، فسار بالمسلمين يريد حرْمة، ويرجو الله أن ينزل بهم البأس والنقمة، فجد السير إليها ليلًا ونهارًا، فلم يجد دونها قرارًا، حتى أناخت تلك الجموع المؤيدة المنصورة، بساحة تلك الطوائف المكسورة، وأقام أيامًا عليها، كل يوم ينهض للقتال إليها، ويقع بينهم جلاد وقتال، وتقتل بينهم رجال، في كل جولة ومجال، فصابرهم على ذلك أيامًا وليال، وهم في غاية من الذل والإذلال، واستولى المسلمون على النخل وحللها، فآيس أهل البلد من رجائها وأملها، وضيق عليهم بعد ذلك أهل الإسلام، واحتنك عليهم فضاء ذلك المقام، وحاق بهم قضاء الملك العلام، وتحققوا أن البلد يدخل عليها مِن أقطارها، وقد ذل جميع حماتها وأنصارها، فلم يجدوا منهجًا ينتهجونه، ولا عونًا يرتقبونه ويرتجونه، سوى النزول على الإسلام، وحقن دماء أولئك الأقوام، وإزالة ما يخشى على أهل الدين ويحذر، فدانوا بذلك وثبت الله الأمر وتقرر، فنزلوا وعاهدوا، واشتروا من سعود جميع ما في البيوت من الأموال والطعام وتعاقدوا، فأمر بهدم جميع القصور، وإزالة ما فيها من الدور، وبجلاء آل مدلج كافة، فطاروا إلى البلد من المخافة، فأضحوا على ما أسلفوا من الأعمال وهم متندمين، ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ثم دخلت السنة الرابعة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، زاده الله تعالى نصرًا وتمكين، فحث الأعوجية[1]

---

(١) في (لسان العرب): «وأعوج: فرس سابق رُكب صغيرًا فاعوجّت قوائمه، والأعوجية منسوبة إليه».

والجياد، وقصده الزلفي لأجل ما جرى منهم من الفساد، فشمّر إليهم المسير، وفاجأهم قبله النذير، فلم تصل إليهم تلك الجيوش والأجناد، إلا وهم في غاية من الأهبة والاستعداد، فشمروا الإزار والذيل، للخروج إلى لقاء غارة الخيل، فانتهزوا لذلك وانتدبوا، وأسرعوا إلى مطاعنتها وطلبوا، فالتحمت الفرسان، واستمر بينهم الطعان، وقُتِل بينهم رجال في ذلك المعركة والمجال، ثم وقع منهم الانفصال، ورجع سعود ومن معه من المسلمين إلى بلدانهم أجمعين.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد الله بن محمد، فسار بالمسلمين إلى الزلفي وقصد، فأعجل الركائب في نيل ما هو طالب، فلم يصل لذلك المحل، حتى سبقه النذير على عجل، فكانوا متأهبين للقدوم، وكل يوم ينتظرون الهجوم، فلما أغار على تلك البلاد، لم يحصل له منها مراد، فانصرف عبد الله راجعًا، فلما وصل إلى رغبة رجع مع أهل العارض، ورجع أهل سدير وأهل الوشم يريدون بلدانهم، وإذا سعدون بن عريعر مع جموع بني خالد لهم مُوَافٍ مُعَارِض، فأطبقت عليهم تلك الجيوش والجموع، ولم يكن أحد منهم مسلّم ممنوع، فحالوا على جميع ذلك الجيش، وسلم الله تعالى من له بقية من العيش، ونارت[1] خيول المسلمين، وولي الباقي فرسان المبطلين، وقُتِل من المسلمين نحو من الثلاثين، منهم حسين بن سعيد أمير العودة وعبد الله بن سدحان من كبار أهل شقرا.

وفي ذلك اليوم أغارت خيل لبني خالد على فريق من المسلمين سبعان، فإذا عندهم ناس من أهل ضرما منصرفون من غزو عبد الله ركائب وفرسان، فحين

---

(١) نارت: هربت.

غارت خيول بني خالد، خرج إليهم كل شهم شجاع مجالد، فجالدوهم ساعة وزمانًا، وأَسَر المسلمون منهم فرسانًا، منهم سعدون بن خالد، وفدى نفسه بثلاثة آلاف زر[1] أضحى لغالبها ناقد.

وفيها سار سعود بالمسلمين يريد الحوطة، فجدّ السير إلى تلك البلاد، وأعمل في ذلك غاية الاجتهاد، فأناخ وسط الليل حولها، ولم يشعروا بذلك أهلها، فرتب أصحاب الكمين، وأهل الجيش أجمعين، فلم يضئ الفجر إسفار، ويخرج أهل الحاجة للانتشار، إلا والغارة غادية، وغرر الجياد عليهم بادية، والأصوات عالية بعدما كانت هادئة، فأسرعوا الخروج أولئك الأقوام، وكان لهم إلى اللقاء إقدام، فطال بينهم المجادلة والالتحام، وكل ارتدى برداء الصبر والاعتزام، وقُتِل من أهل البلد في ذلك المجال خمسة عشر من الرجال، وقُتِل من المسلمين بطي المطيري، ورجع المسلمون إلى بلادهم.

ثم دخلت السنة الخامسة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها سار المسلمون وأميرهم سعود، بلغه الله تعالى المنى والمقصود، فحث على السير جياده وركابه، وكانت الدلم مراده وطلابه، فتوغل في تلك الأراضي، وقد هدأت بلذة الإغماض، فعند ذلك قام في أداء أكيد الافتراض، من التهيئة والتعبئة عند إرادة الانتهاض، فلم يكن له عن ذلك صدود ولا إعراض، ولا انحراف ولا ميل إلى الراحة، حتى أشعل الفجر مصباحه، وركض الصبح على الدجى، وبدره بعموده وفجا، فعند ذلك أذن للمكتوبة، وسأل الله تعالى فيها أن ينيله مطلوبه، فلما فرغ من صلاته، نهض إلى تعبئته، وأخذ الكمين مكانه، وحرض على الصبر جماعته وإخوانه، فلما أخذت الشمس في

---

(١) عملة نقدية.

الإسفار، كان له إلى الغارة البِدَار، وقبض جميع مَن في الدلم مِن المقاتلة، ورموا الجلاد والمقابلة، فأورت فيهم أهل التوحيد والإيمان شُعل النيران، وأرووا من نحورهم أسنان المُرّان[1]، فطاشت لذلك قلوبهم وزاغت أبصارهم، ورعبت كماتهم وأنصارهم، فولّوا عند ذلك الأدبار، ولم يكن لهم على ذلك الهول اصطبار، وانهزموا على أعقابهم مدبرين، وبرحوا في بلدهم متحصنين.

وأقام المسلمون أيامًا في قتالهم، وحصارهم مجتهدين في حربهم ودمارهم، كل يوم يصابحون قطع نخيلهم وأشجارهم، فقطعوا خضر بن عشبان في ذلك الزمان، فعرتهم الذلة والهوان، وعلتهم هموم وأحزان، وقُتِل منهم في ذلك الوقت والأمد، رجال من غير حصر عدد.

ثم إن سعودًا، حرسه الله تعالى، نوى بناء قصر في ذلك المكان، ويجعل فيه من أهل الدين والإيمان، من يضيق على أهل تلك الأوطان، وصمم على ذلك الرأي والبناء، فنال بذلك الرفعة والثناء، وقد كان بذلك الرأي والده مشير، وهو مبارك المشورة مسدد التدبير، فرفع قواعد بدع الحق الشامخ العال، فكان ولله الحمد سببًا لهدم بدع الغي والزيغ والضلال، فلما فرغ من بنائه وإتمامه، وقضى من تشييده وإحكامه، وضع فيه من الإبطال عِدّة، وجعل فيه خيلًا ومن آلة الحرب عُدّة، وكان جميع مَن فيه ذوي بأس في اللقاء وشدة، وصبر عند الأقدام ونجدة، وأمّر عليهم محمد بن غشيان، وكان ذا شجاعة وحده، ثم انصرف سعود راجعًا، وفي بلده راغبًا طامعًا.

وفيها غارت من المسلمين خيل من قصر البدع، فتوافقت مع خيل لأهل اليمامة، فجالوا معهم ساعة، فقتل المسلمون فرحان بن راشد البجادي وجرّعوه حِمَامَه.

(١) أي: الرماح.

وفيها ارتد جديع بن هذال[١]، بعدما ادعى الإسلام وعاهد وكان عليه من إقبال، فولى هاربًا، وفي الضلال راغبًا، ولنهجه طالبًا، فأراد الله أن يوافقه مطير في ذلك السير، فناوخه أولئك العربان، وقُتِل جديع وأخوه وثلاثة معهما فباءوا بالخسران.

وفيها حزّب أهل البغي والعدوان، وذوي التعدي والطغيان، على قصر البدع الذي فيه ابن غشيان، وذلك أن هذا القصر لما أُسِّس وبُنِي، واهتم بأمره واعتُنِي، واختير من الرجال حماته وفرسانه، والمرابطون فيه وسكانه، فكانوا أُولِي بأس شديد وإقدام، ليس في اللقاء عليه مزيد ومصابرة في الطعان والإقدام، وعدم الخوف من الحمام، ولم يتبين من أحد منهم في اللقاء إحجام، وكانوا في غالب الليالي والأيام، يَغْدُون على أهل الخرج وينالون منهم المرام، ويقعدون لهم المراصد، ويأخذون كل قادم وقاصد، من الأقارب فضلًا عن الأباعد، ويقتلون كل صادر ووارد، واستمر عليهم ذلك الحال، وتجرعوا منهم غصص الوبال، وأقاموا في أكسف بال، لا يطعمون لذة المنام في دياجي الظلام، قد حاربوا الرقاد وصالحوا السهاد، والحرب توقد عليهم غاية الاتقاد، فلما سقمت منهم الأجسام، وضاق عليهم في بلادهم المقام، وحالت وجوههم ذلك الزمان، وتغيرت منهم الألوان، وضوت منهم الأبدان، وعميت عليهم مناهج الحيل، وسددت عليهم مناهج جميع السبل، ولم يلقوا في إزالة ذلك القصر سبب، واستعانوا في ذلك أفكار العجم والعرب، حتى جاءهم شخص من تلك النواحي ممن تسمى بالمعرفة وانتسب، فشَكَوا له حالهم ومصابهم وما نزل بساحتهم وأصابهم، فقال: ثكلتكم الأمهات، وعدمتم الترفهات، معشر

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٧٤): «رئيس آل حبلان من عنزة».

الحمق والسفاحات، وأرباب الجهل والترهات، لم تلدكم النساء للحروب، ومكافحات الخطوب، وإنما ولدتم للغيّ والهوى والمبطلة، فلستم مساعير الحرب ولا رجاله، أعَرَتْكُم من هذا القصر أحزان، حتى ذهب منكم اللب والجنان، أغَشِيَتْكُم منه الذلة والهوان، وتشبهتم بالغواني ذوات الأخدان، وتلفعتم بمروط النسوان؟ فقالوا: سبحان الله، يا أخا العربان، كيف ينطق بالتأنيب منك لسان، وتسرع إلينا بهذا الإغلاظ والهذيان، ونحن الكُمَاة الشجعان، ولكن قد التقت حَلَقَتَا البِطَان[1]، واحتنكت علينا الأوطان، فعسى أن يكون للراحة منك يدان! فقال:

سوف أريكم فكرة ليس بها من عوج	بشراكم بالفرج فما بكم من حرج
إذا رأوها ذهبت قلوب تلك الهمج	تبصرة وهمة تلقي العدا في رهج
ففكرتي منقادة وقادة كالسُرَج	أبدى من العز لكم فخرًا رفيع الدرج
وجاءكم مرادكم فأصبحوا في بهج	فقد تولى عنكم غيهب خطب مزعج

فقالوا: دعنا وهذه الغمغمة، واتركنا وهذه الجمجمة، فبين لنا بالإفصاح، حتى نفوز بالأرباح. فقال: ائتوني بأقوى الأخشاب، حتى أصنع لكم ما بقي من الرصاص من الأبواب، وأجعلها مثل الصندوق، وأعلاه مطبوق، والرجال فيه مداريع، وبأيديهم المفاتيح والمصاريع، ويحمل ذلك الصندوق على عجل، وأهله فيه قعود على مهل، ويدفعونه أولئك القعود، فيسير بالدراريج غير مردود، فإذا وصل إلى السور يفتح، ويحصل المراد وينجح، فيهدم السور وينقض، ويوهي أساسه وينفض، وترمى أحجاره، وتقتل بعد ذلك أنصاره، وتدخل فيه الأجناد، ولا يبقى فيه أحد من أولئك العباد.

---

(١) البِطَان: الحِزَام الذي يُجْعَل تحت بطن البعير، وفيه حلقتان، فإذا التَقَتَا فقد بلغ الشَّدُّ غايتَه. يُضرب مثلًا للأمر الذي بلغ غايته. (مجمع الأمثال).

فلما أخبرهم بتلك الحيلة وفاه، أقبل منهم كل يقبل فاه ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، فاحكم بما تريد من أموالنا وتستكين. فقال: ذلك بعدما يتم المراد، ويحصل لكم الإسعاد، فعجلوا لي بالأخشاب والأعواد. فأسرعوا في الاستعداد، وآتوه بما طلب وأراد، وشرعت الصناع تصنع في الحديد، وأقاموا على ذلك أيامًا بلا تعديد، وهم في تعب شديد، حتى فرغ من أمره ذلك الشيطان، وأبرز كيده من غير توان، وقعد فيه أناس متدرعون عتاة مردة، وأخذوا يدفعونه ويعطي مِقْوَدَه، وهيّئوه إلى السور ومرصده، فلما توسط في الطريق عند القصر ومشهده، أبى إلا الوقوف، وكأنه عن المسير مصروف، فعجل الله لكثير مَن فيه الحتوف، وحاولوا في ذلك أعظم حيلة، فلم يكن إلى ما راموه وسيلة، وقالوا: قد زال الفرح وجاء الترح، إن بقي هذا العجل في هذا المكان والمحل، هبط مَن في القصر ونزل، فقادوه علينا، وأوصلوه إلينا، فكنا كمن ألقى نفسه في الهلاك، ووضع لإتلافها حبائل وأشراك.

وكان القوم الذين فيه لا يقدرون على رده، ومَن جاء مِن الأحزاب قُتِل قبل أن يصل إلى حده، فحاروا وخاروا وخسروا وباروا، يوم تعدَّوا وجاروا، وبقوا ساعة وزمانًا، يعانون هما وأحزانًا، وقد تسربلوا بلباس الإحجام، وأبت أن تسير إلى رده الأقدام، حتى جرى بينهم عتاب وملام، وتنادب وبكاء بدموع سجام، فانتدب له رجال، وناداه بعضٌ منهم وقادوه قريب الحال، ثم بعد ذلك شبوا عليه النار، وقالوا: لا تستطيع تشاهده منا الأبصار. فلما غربت الشمس ذلك اليوم وأقبل الإظلام، اجتمع أهل الحريق والحوطة وأهل الخرج بالتمام، وساروا يريدون الهجوم على القصر والصعود، وقد تعاهدوا على ذلك بالأيمان والعقود، فوصلوا إليه بالمحامل، والكل للصعود آمل، فشرعوا في الرقي والصعود، وقتل منهم جمع غير محصور ولا معدود، وبذلوا جد الاجتهاد فلم

يشتفوا بمراد، ورجعوا وقد قُتِل منهم خمسة وعشرون، وباؤوا بالخزي والهون.

ثم لما أعياهم ذلك القصر وعناهم، ونكد عليهم معاشهم ودنياهم، وحاروا في أقصاهم وأدناهم، ولم يحصل لهم فيه مناهم، حدر[1] منهم جماعة من آل زامل وآل بجاد، إلى سعدون بن عريعر في تلك البلاد، وطلبوا منه المساعدة والإسعاد، فأجابهم إلى ذلك المراد، فتواعدوا على الخروج معه، فخرج بعد ذلك هو والبدوان ممن تبعه، ونزل على البدع مع تلك العربان، ثم بعد ذلك أقبل جميع أهل البلدان، وهم أهل الحريق واليمامة والحوطة وأهل الخرج، فاجتمعوا على سعدون، وهم لهدم ذلك القصر دائمون، ومع سعدون المدافع، فاشتعلت بينهم نار الحرب والكل دون عمره يدافع، وبقوا يرمون بالمدافع السور، فلم يقع فيه من الرمي محذور، وكان عن الهدم مُوَقًّى محظور، حتى تبين لهم البأس، وعرفوا أن الله تعالى قد نصر أولئك الناس، وأنهم عن الوصول إليهم لا يقدرون، فعند ذلك عزم على الرحيل سعدون، وقالوا: هذا لا يكون، فبعدك يقع علينا عذاب الهون. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، اختاروا منهجًا فيه تسلكون، فلستم بعد ذلك تلامون. فظعن وارتحل، وكلٌ قصد ما له من محل، وتفرقت ولله الحمد تلك الدول، وبقي سعدون بمدافعه مهتمّا، وعلى إتيانه بها نادمًا مغتمّا، لا يدري كيف يفعل ويصنع، وهو إلى الهروب قد أسرع، وعلى الانهزام قد عزم وأزمع، فهو يجدّ فيه ويربع، فاقتضى رأيه الشنيع، أن يتركها في اليمامة على سبيل التوديع، فسار وتركها في اليمامة، فأخذها أهل الإسلام حين كان للدين بها إقامة.

وفيها غزا عبد الله بن محمد بالمسلمين، فسار يريد اليمامة، وأرسل عيونه

---

(١) أي: ذهب.

أمامه، وطلائعه قدامه، حتى أناخ عند البلد وسط الليل، وكان له على تعبئة جيشه مَيل، فرتب الكمين، فلما أخذ الضوء ينير ويستبين، أغار الجيش على البلاد، فخرج أهل الجلاد، وتطاعنوا قليلًا، وصبر أهل الدين صبرًا جميلًا، حتى ظهر كمين الموحدين، فأسرع أهل الباطل مُوَلّين، وعلى أعقابهم منهزمين، وقُتِل من أهل البلد دون العشرين، منهم أحمد بن رشيد وعبد الله البجادي، ثم بعد ذلك انص-رف عبد الله بن محمد ومن معه من المسلمين، فأغاروا على الحريق، فألفاهم يحشون مجتمعين، وكان لهم جماعة معهم مجنّبين، فناوشوا القتال ثم انهزموا بانجفال، وقُتِل منهم عشرون من الرجال، ورجع أهل الإسلام بأحسن حال.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، زاده الله تعالى عزًا وتمكين، يريد أسلافًا مجتمعة من قبائل العربان، من آل ظفير وعنزة مقيمين على ماء مبايض[1] في ذلك الزمان، فانتضى[2] سنان الهمة والعزم، وجرّد صارم الجد والحزم، إلى ذلك الأمر والشأن، حتى وصل إليهم بعد آن، فشنت عليهم الغارة الفرسان، وكانوا على أهبة واستعداد للقاء الشجعان، فجال معهم المسلمون، وهم على العزم والصبر ثابتون، ولأنفسهم على الموت مُوَطّنون، فلم يدرك منهم أهل الدين وأهل الإسلام، في ذلك اليوم غاية ولا مرام، وانصرفوا عنهم بسلام، وكان هذا أمر من الملك العلام، ليرى خواص الأنام، ما خفي في الغيب من الأسرار والحكم والأحكام، فارتحل سعود عنهم ونزل بأرض تمير[3]، ثم أرسل إلى مدد من أهل سدير، فأقبلوا سراعًا إليه، وقدموا فورًا عليه، فظعن بعد

(١) في سدير.
(٢) أي: سلّ.
(٣) مدينة تقع في منطقة سدير، على بعد ١٤٠ كم شمال غرب مدينة الرياض.

ذلك وارتحل، وجدّ يريد تلك العربان الأُوَل، فأسرع النزول مع أولئك الدول، فلم يعد إليهم بعد ذلك اليوم، إلا وقد جاء الإمداد من العربان أولئك القوم، فحين رأوا أهل الإسلام قادمين، فرحوا بذلك لأنهم كانوا على انصرافهم نادمين، فأبدوا بالمسلمين الاستهزاء والاستخفاف، ولم يدخل قلوبهم منهم مخافة ولا إرجاف، بل جزموا أنهم لهم غنيمة، وأنهم مهما شدوا عليهم شمّروا للهزيمة، فكان البلاء موكَّلًا بالمنطق، فصيّر الله عليهم ذلك وحقق، فحين حمل عليهم المسلمون، طاعنوهم ساعة ثم جدوا في الفرار لا يلوون، فتولى المسلمون أكتافهم، حين حقق الله تعالى انكشافهم، وقد قُتِل منهم في ذلك الحال فوق المائة من الرجال، وغنم المسلمون ما معهم من أمتعة وأثاث وأموال، وجميع السلاح والأغنام والآبال، وكان دهام أبا ذراع[1] ممن كان لروحه في ذلك الحين انتزاع.

ثم دخلت السنة السادسة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، من كل مكروه وبلغه ما يرجوه، بالمسلمين يريد الحوطة، فحث السير إليهم حتى قدم إليهم، وكان وقت القدوم والإقدام، حين عسعس الظلام، واستقام غيهب الإظلام، فلما أناخ وأقام، لم يسرع إلى لذة الراحة والمنام، بل أخذ في التدبير والاستعداد لمقاتلة أهل تلك البلاد، فلما قضى من ذلك المراد والغرض، وأدى من الدعاء ما أوجبه الله وافترض، بادر إلى القتال وانتهض، فأغارت الفرسان على طارفة البلد، فلما عاينوا ذلك لم يتخلف عن الخروج منهم أحد، فالتقوا أهل الدين، وكانوا من الصبر على يقين، إلا أن الله تعالى ليس لأمره رادّ، ولا يقاومه سبحانه أحد من

---

(١) شيخ الصمدة من الظفير.

العباد، فحين صمم المسلمون عليهم بادوا، وقصدوا البلد وناروا[١]، وقتل منهم في ذلك الوقت والمجال، خمسة عشر من الرجال، وأقاموا في بلادهم في جهد وضيق، لا يتيسر لهم إلى الخروج طريق، والمسلمون في تلك المدة، قد بذل كل منهم في التخريب وقطع النّخل جهده، فقطع جميع نخل الرحيل، ثم كان للمسلمين إلى نعَجان ميل، فساروا إليها وأقاموا حواليها، وقطعوا شيئًا من النخل ثم انصرفوا إلى أهلهم راجعين.

وفيها جرى ذلك الأمر العظيم والخطب المدلهم الجسيم، وهو ارتداد أهل القصيم، فقدر المولى الرحيم أن يرتعوا في ذلك المرتع الوبيء الوخيم، وذلك أن كافة أهل القصيم، إلا بريدة والرس والتنومة[٢]، لما أراد الله تعالى عليهم المسكنة والذلة، وقضى عليهم في سابق الأزل بالهوان والمذلّة، وأن يلبسوا ثياب الخزي والعار، ويتدرعوا بمدارع أهل النار، ويتحلوا بحلية الأشقياء الفجار، ويسلكوا مسالك الأشرار ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ مِن شر مَن أراد بهم الفجور والإضرار، ونوى بهم قاصمة الظهر وأصروا على ذلك غاية الإصرار، فرجع آيبًا بالخيبة والأوزار - اجتمعوا على الغدر بأهل الدين، وقتل مَن عندهم مِن أهل التوحيد وخصوصًا المعلّمين، فحضر كافة رؤسائهم وكبرائهم وقدمائهم، في ذلك الوقت والزمان، يوم الجمعة في خفي مكان، فتفاوضوا الأمر وأبرموه، وشدوا عقدته وأحكموه، وتعاطوا بينهم الأيمان والعهود، وحققوا الوفاء بالعقود، على قتل أهل كل بلد مَن عندهم من المسلمين موجود، في يوم معين عندهم معدود، وزمن مؤجل معروفٌ وقته مشهود، فحين

---

(١) ناروا: هربوا.

(٢) من مدن محافظة الأسياح بالقصيم.

ثم ذلك الأمر وانقضى، انصرف كل إلى بلده ومضى، ولم يكن عند المسلمين من ذلك خبر، إلا أنهم على ما يصدر عليهم في حالة يقين ورضا، فأرسل أهل تلك الأوطان إلى سعدون بن عريعر، يخبرونه بذلك الحال والشأن، حتى يقدم ومن معه من البدوان، فكان قدوم ذلك الرسول عنده هو المنى والسول، فبادره بإعطاء البشارة بعدما أعلمه بالمأمول، وأنه سريع الحصول، فبادر إلى الأمر في الحال، وآذن في جميع البوادي بالارتحال، فأقبل بنو خالد كافة وعنزة وجدوا في السير والإقبال، تعجيلًا لذلك المرام الذي لم يخطر له على بال، وقد داخله من السرور والاستئناس، ما لا يُعرف حدّه ولا يقاس، وقال: الآن حان للزمان أن يفي، فننتهز الفرصة ونشتفي، وقد قرب أن يطلع لي بأفق نجد، نجم العز والفخر والمجد، وينتشر صوت صيتي في الأقطار، فأكون حامل راية الشرف والافتخار، فتنحطّ لهيبتي رقاب الملوك، فلا يروم أحد لمنهجي سلوك، ولم يختلج في لبه أن شمس عزه قد أذنت للغروب بدلوك، وأن جيشه مقدر عليه أنه موتور به مفتوك، وأنه يرجع من حيث جاء معثورًا مقروحًا منهوك، فسار بمن معه من الحماة والكماة والأنصار، يريد أهل تلك الديار، حتى ينجز منهم ما دبّر وصار، ولسان الحال يتلو عليه ولكن لا تأمل ولا اعتبار ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وحين قارب أن يلقي عصا السير والترحال، ويحط عن الظهر الأثقال، في أرض تلك البلدان، أسرع أهل الشر والعدوان، وشرعوا الأسنة على أهل الإيمان، فقتل أهل الخبراء[1] إمامهم في الصلاة منصور أباالخيل يوم الجمعة، وهو للصلاة مريد، فقطعوا منه الوريد، وقُتل ثنيان

(١) من مدن القصيم.

أبا الخيل، وقتل آل جناح رجلًا من أهل الدين مكفوف البصر، وصلبوه بعصبة رجله، وفيه رمق من الحياة، وقتل آل شماس أميرهم علي بن حوشان، وفعل بقية أهل البلدان مثل ذلك الفعل والشأن.

ومن لطف الله تعالى بأهل بريدة، وسلامتهم من الشيطان وكيده، وتوفيق الله لهم وكرامته، وحفظه لهم وعنايته، أن سليمان الحجيلاني وابن حصيّن وغيرهم عزموا على الردة، وثبت ذلك عند حجيلان، فلما أقبلت تلك العربان بادر حجيلان إلى قتلهم، فقُتلوا ولم يدركوا ما أملوا، ثم أرسل إليه أهل عنيزة على سبيل السلام والإكرام، وإظهار المبادرة في الامتثال والاعتزام، مَن عندهم مِن معلّمة الأحكام، ومفهّمة التوحيد الذي خُلقت لأجله الأنام، وهما عبد الله القاضي وناصر الشبلي، وقالوا: هؤلاء إليك قربة، ومن تقرب إلى الله تعالى بهم كفّر ذنبه، وهم منا إليك هدية، وليس في قتلهم علينا ولا عليك عار ولا إزر ولا خطيّة، ولا مسبة عند الناس ولا رزية. فجرد عليهم صارمه وبأسه، وأسقى كلًا من صِرْف الِحَمام كأسه، فلبس من الخزي لباسه، فقتلهم حين جاؤوه صبرًا، فنال من مولاه حربًا وإزرًا، وحقق الله تعالى لأهل الدين شهادة وأجرًا.

فلما استقر في تلك الفجاج الفسيحة الوسيعة، مع تلك الجيوش والأسلاف[1] الهائلة المنيعة، لبس أهل الشر والفساد، وأهل الشقاق والنفاق والعناد، من أهل تلك الأوطان والبلاد، ملابس السرور والفرح، وزال عنهم ما كان في قلوبهم من الهم والأسى والترح، وجاءت منهم جموع وأجناد، وأنصار وأمداد، كيف لا وهم الذين قدحوا في ذلك الزناد، وأَوْرَوْا جمرة الفتنة أعظم

(١) الأسلاف: الجماعات.

الإيراء والإيقاد، وأرووا شبَا المواضي[١] من ثغور أولئك العباد، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

ولما نزل بذلك المحلّ، عجل الله لأناس من جماعته الأجل، فبادروا إلى بريدة في الإسراع، وراموا ههنا حصول الأطماع، فلم يَؤُبْ إليه منهم إلا الأقماع، فداخله الرعب والارتياع، حين أرسل إلى بريدة يريد الخيانة، فأرسلوا إليه تلك الرؤوس، وقالوا هذه ضيافته وحشيمة الإقامة والجلوس، فتشبط غيضًا وغضبًا، وآلى إن ظفر بأهلها أن يُقطعهم إربًا إربًا، ويوقع فيهم من الفتك والهتك أمرًا عجبًا، وشمّر إلى أهلها في المنازلة، وكانت منه إليها معاجلة، ولم يحسب أنها تبقى إلى أمد بعيد، فضلًا عن كونه يرجع عنها ولايفيد، بل جزم أنها مفتوحة عن قريب، وأن سعيه لا يضيع ولا يخيب، فآب أول يوم المنازلة بالخيبة والحرمان، والقتل والذل والهوان، وقُتِل جماعة من قومه، في ساعته تلك لا يومه، ثم عاد والحملة يومًا آخر على السور، فرجع منقوصًا موتور، وقُتِل من أولئك الحمر السود، كل من رام الهدم للسور أو الصعود، وبقيت قتلاهم لا تنتقل، ولا ترفع للدفن ولا تُحمل، بل بقي غالبهم ملقىً مهمل، غير أنهم صاروا للعاديات مائدة، فهي إليهم تلك الأيام كل حين قاصدة، وصادرة وعائدة، فبقي أيامًا حائرًا متندمًا، ثم أجمع رأيه وعزمه محققًا مصممًا، أنه يسوق عليهم جميع الآلات والخلق مزدحمًا، ويَلِجُها بعد هدم بروجها وأسوارها مقتحمًا، وأنه يعاقب من الجيوش من لم يره متقدمًا، فنهض إلى إنجاز ذلك العزم، وإنفاذ تلك الهمة والحزم، وبادره على تؤدَة من الصباح، متيمنًا بالبكور في النجاح،

---

(١) الشبا: جمع شباة، والمراد بها شباة السيف، وهو حده القاطع. والمواضي: السيوف القاطعة؛ سميت بذلك لكونها تمضي في جسم الإنسان إذا ضُرب بها.

وحصول الأرباح، كما يروى في الأحاديث غير الصحاح: «**بورك لأمتي في بكورها**»[(١)] وليس على راويه من جناح.

فأقبل بكيد عظيم مهول، يحق للألباب عند رؤيته الإزالة والذهول، فصبر أهل الدين وصابروا، وجَدَّ أهل الباطل وكابروا، وراموا اقتحام البروج والسور، وهدم تلك الحصون والقصور، والهجوم على أهل تلك الدور، فثبت الله لأهل الحق القلوب، ولم يكن أحد منهم بمذعور ولا مرهوب، فرجع ولله الحمد مذعورًا مرعوب، مهزومًا مغلوب، وما أغنى عنه ذلك الكيد شيئًا، وكانت له الذلة والمقتلة فيئًا، ثم بعدما صدر منه ما صدر، وجرى منه ما تبين وظهر، عض من الغيظ الأنملة، حيث لم يرجع بما كان أمَّلَه، وبقي على أفعاله السالفة، وقضاياه التي هي للشرع مخالفة، متحسرًا متأسفًا، متندمًا متحيرًا متحسفًا، فتفاوض مع أولئك الرؤساء، الذين هم لا يزالون عنده جلساء، في ما يدفع عنه الهم والحزن والأسى، واتفق الرأي السديد الجامع، والأمر الذي هو للمراد قاطع، وللعدو مذلة قامع، وللمقاتلة مزعج رادع، أنك نصبت لأجل هدم السور مدافع، ويأتي لها بحكم ومدافع، فلا يبقى لأهل البلد عن ذلك دافع، ويصير لك معاند ومشاقق متابع، ولحكمك منقادًا طائع، فأجابهم أن هذا هو الرأي السديد، وسينجز هذا قريبًا غير بعيد، فشرع في أسباب ما كان لهم به مجيب، وإنجاز ذلك الأمر الذي هو في زعمهم صائب مصيب، وجمع له أهل تلك الأوطان من جميع البلدان، من أنواع الصفر جملة، وأنجزوا له في قريب مدة ومهلة، فلم تمض من الأيام مدة، حتى اتفق عنده من ذلك عدة، وشرع في

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٥٤) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٢٨٤١) وأخرجه أبو داود (٢٦٠٨) والترمذي (١٢١٢) وابن ماجه (٢٢٣٦) بلفظ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ١٣٠٠).

صبّها الصانع، فكان في إحكام هيئتها طامع، وأقام يعالجها في إحكامها أيامًا، فلم ينل من ذلك مَرامًا، بل حاز ذلة وخيبة وآثامًا، وأطال في ذلك الأمر مكثًا ومقامًا، وكلما صبها أبت، وكلما أفرغها في القالب خَبَت، فلم يتم لها حال ولا استقامة، ولم يدرك منها مقصوده ولا مرامه، وعرف في باطنه أن لهذه شأن، وإن لم يفي بذلك لسان، وكل يوم أو غالب الأيام، يجري قتال وجلاد مع أولئك الأقوام.

وأهل الدين والهدى، لم يبالوا بمقام أهل الردى، بل كل يوم من الحزم في مزيد، ومن البأس والنصرة في تجديد، ومن الله تعالى في إعانة وتأييد، فكان حالهم عبرة من الله تعالى للعبيد، وآية يستيقنها قلب كل جبار عنيد.

وفي أثناء تلك الإقامة، بني قصرًا وأنجز إتمامه، وجعل فيه عدة من الرجال، وذوي البأس في المجال، وكان موضع ذلك ليس إلى الحلة إليه من سبيل، فانتدب المسلمون إليه ليلًا، فنالوا من مرادهم نيلًا، وقد أعلمهم أهل الإسلام، أنهم يريدونهم جنح الظلام، فعجلوا لهم بالإعلام، وبادروهم في ذلك القصر، فهُدِم وأُزِيل، وبقي كل مَن فيه مجنَّد لا قتيل، ولم ينج منهم سوى واحد، وكان بالخبر عن قومه وارد.

وفي أثناء تلك المدة، أغار سعد بن عبد الله أمير الرس مع جماعة من قومه على سارحة أولئك الأعراب، فأخذوا غنم سعدون، وكانوا نحو أربعمائة في الحساب، تسمى تلك الغنم الدغيموات، كثير من غنم تلك البريات.

وفي أثنائها أيضًا عدا أهل بريدة على بيت من الشعَر، جعله عبد الله بن رشيد للحرب من التيه والبطر، وكان فوق النهير[1] مشهورًا، وفيه آلات للحرب

(١) بئر وبستان نخل جنوب بريدة.

وزهبة[١] فأضحى لديهم مجرورًا، وقتلوا فيه أربعة رجال، ورجعوا في ضحوتهم في أحسن حال، فلما مضت من الشهور مدة، نحو خمسة في العدة، وتحقق له من مراده الحرمان والخيبة، وأراد لأهله الانصراف والأوبة، عزم على اقتحام البلاد، والدخول على أولئك العباد، وقد صنع منتريسًا[٢] من الخشب، يسمى عِجلًا عند أولئك العرب[٣]، يرد الرصاص عمن فيه، فلا يضره ولا يؤذيه، فلما ساقوه إلى مرقب البلد، وكان في ذلك المرقب عشرة من العدد، تكلموا مع أهل المرقب، وذلك أن عثمان آل أحمد استفتح وهو مع ساقة العجل، وجَدَّ في الدعاء واجتهد، ورفع صوته وقال بفصيح اللسان والمقال: اللهم انصر مَن هو مِنَّا على الحق. فأمَّن على دعائه أولئك الخلق، وصار أهل المرقب عند سماعه من المؤمنين، فكانوا هم أهل الحق، فلذا صاروا من سطوتهم مُؤَمَّنِين، وحاولوا فيهم نكاية، فلم يحصلوا على غاية، واجتهدوا أن يدركوا إليهم وصولًا، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلًا، ورُدَّ كُلٌّ منهم خاسرًا خائبًا ذليلًا، وتُرِك أكثرهم ذليلًا.

ثم بعد ذلك حمل على البلد حملة هائلة، وأصبحت تلك الأمم عليها صائلة، وعلى جميع أركانها جائلة، وإلى تسور الأسوار مائلة، يساقون بالسيف من أعقابهم، في مسيرتهم وذهابهم، فازدحموا عند السور والبروج، فلم يفوزوا منها بصعود ولا عروج، بل قطعت عندها الحناجر، وأعان الله تعالى مَن بها مِن محاصر، وكان له عونًا وناصر، فطار عند ذلك الاقتحام، وهول ذلك الازدحام، كثير من الروس والهام، من تلك الأقوام، وانقلبوا بخيبة المقصود

---

(١) الفشك والرصاص.

(٢) المنتريس: ما يتترس به الرجال المحاربون في الحرب، فيكونون خلفه ليقيهم رصاص البنادق أو الرماح. وهو الترس.

(٣) العِجل هنا: صندوق من الخشب، يسير على عجلات.

والمرام، من ذلك البأس والإقدام، فلم تسر إليها بعد ذلك أقدام، ورجع أهل الحق بالفوز والأجر الجسيم، والعناية والقبول من الله الكريم، كما قال سبحانه في الذكر الحكيم: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾، وارتحلت قبائل أولئك الأحزاب والعربان، عن ذلك الموضع والمكان، بأمر عظيم من الخزي والهوان.

ولما سارت تلك العشائر، خرج حجيلان ومن معه مسارعًا مبادر، ففاجأ بريدة آل شماس، وقتل من وجد بها من أولئك الناس، فأوقع بها النقمة والبأس، وخرج غالب أهلها نائرين، مع تلك الجيوش السائرين، وعرفوا أنها ليست لهم بدار مقام، فهربوا مع أولئك الأقوام، وشدوا في الانهزام.

ثم بعد صدور تلك القضية، وانصراف العساكر بالرزيّة، ضاق وسيع الفجاج، على من ساعد ذلك المنهاج، وانزعجت قلوبهم أشد الانزعاج، فلم يجدوا عن الدخول في حوزة الإسلام بُدًّا، ولم يبصروا سواه قصدًا، فأقبلوا على حجيلان يريدون الإسلام والإيمان، وأعطاهم الأمان، وأجابهم إلى ذلك الشأن، بعدما شرط عليهم النكال، فكُلٌّ بذلك دان، وأقبلوا إليه مسرعين، وحدانًا ومجتمعين، ووفدوا بلدًا بلدًا، ولم يبق إلا أهل عنيزة بُعدًا.

وفيها غزا ركب لأهل بريدة في أثر سعدون، يطلبون الاختلاس من تلك البوادي ويريدون، فوافقوا ظهرة مع النفيثي بأرض المستوي[1]، فكان ذلك الركب لجميع الظهرة محتوي، وقتلوا جميع الرجال، وأخذوا ما معهم من الأموال، وقد كان مع تلك الظهرة لأناس من أهل المدينة مال كثير، فأمر بأدائه

---

(١) مفازة واسعة تقع إلى الجنوب الشرقي من القصيم. «المعجم الجغرافي - بلاد القصيم»؛ للعبودي (ص ٢٢٥٦).

عبد العزيزالجليل منه والحقير، فأدي تامًّا من غير نقص ولا تغيير، لأنها كانت أوقافًا وأحباس، فلم يرد أخذها لأولئك الناس، وإن لم يكن فيه معرة ولا بأس.

وفيها ارتداد أهل الروضة، لما كان من سعدون إليهم أوضة[١]، وأقبل إليهم بالعساكر والأجناد، عجلوا بالردى والارتداد، وخلعوا ذلك العهد، فخابوا وخسروا ولم يفوزوا بقصد، فلما ظهر منهم ذلك الحال والشأن، بادر أهل التوحيد والإيمان، إلى قلعة البلد، فشمر كل ساعده فيها واجتهد، وتحصنوا فيها، وأقبل سعدون وجموعه، فطاف بها هو وربوعه، وجَدَّ تلك الأجناد مع أهل البلاد، في محاصرة أولئك العباد، وأقاموا على ذلك أيام، حتى حاول في قطع مائهم أولئك الأقوام، فلما شعروا بذلك فزعوا، وخافوا على أنفسهم وجزعوا، فطلبوا على أنفسهم الأمان، وخرجوا بعد الاستئمان، واستولى سعدون وآل ماضي البلاد، ثم نهضوا بعد ذلك إلى أهل الداخلة[٢]، وكان فيها محمد بن غشيان، وأناس من أهل النجدة الفرسان، فحاولوا إليهم الوصول، فلم يكن لهم إلى ذلك حصول، ونالوا من أولئك الحماة، ورصاص المجيدين الرماة، ما أذهل منهم الألباب، وردهم على الأعقاب، فلم يكن لهم على الإقامة مصابرة، ولا على تلك العصابة مكابرة، فانصرفوا بالخيبة والحرمان، وقد قُتِل منهم أشخاص غالبهم من الأعيان، وثبت بلدان سدير على الدين والإسلام، بعدما كان من سعدون القدوم والإقدام، والأمور الهائلة العظام.

وكان إذ ذاك حسن بن مشاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في جلاجل مقيم، فصانهم الرحمن الرحيم، عن تعاطي أسباب الجحيم.

---

(١) أي: عودة.

(٢) من بلدان سدير.

ولما بلغ عبد العزيز، حرسه الله، ما صدر من أهل الروضة وجرى، وعلم به يقينًا ودرى، أمر سعودًا أن يتجهز والمسلمين، حتى ينقذوا أولئك المحصورين، فبادروا في الأهبة والجهاز، وكان ذلك سريع الحصول والإنجاز، فظهر سعود يريد التعجيل إليهم والانتهاز، وحين وصل إلى ثادق نزل حتى يتلاحق الجموع والدول، ثم يسير بتمام أهبة على عجل، فيدرك عند ذلك الأمن، فلما بلغ سعدون ظهور العصابة المنصورة، وأن ألوية العز عليهم خافقة منشورة، ورايات الإمداد مرفوعة، على رؤوسهم مشهورة، حصل له الرعب والإرجاف، فلم يكن له عند ذلك صبر ولا ائتلاف، بل أخذته الذلة والارتعاش، ولم يحصل لأهل البلد منه بعد ذلك انتعاش، بل ولى مدبرًا وانحاش[1].

فلما ارتحل وشرع في السير، انتدب أهل الإيمان من قرى سدير، ما معهم من الإمداد، مثل حسن بن مشاري وابن غشيان وقومهما من الأنجاد، فبادروا أهل الروضة بالقتال والجلاد، فخرج إليهم أهل الشر والفساد، وطال بينهم القتال في ذلك المجال، وقُتل منهم عدة رجال، منهم أميرهم عون بن ماضي، ثم ولوا مدبرين، وأقاموا بعد ذلك منحصرين، ثم أقبل سعود بجيوش المسلمين، فنزل على أولئك القوم المحصورين، فأخذ جميع الحلل التي كانت في النخل، ومكث أهل البلد في حلتهم، متحصنين في محلتهم، وفي قلعة البلد أناس من آل ماضي ورجاجيل لسعدون بن عريعر، فطال عليهم الحصار، وشرع سعود في قطع النخل والأشجار، فلما تحققوا بهم نزول النقمة والباس من رب الناس، وغلبهم القنوط والياس، طلبوا من سعود الأمان، واللحوق بأهل الإيمان، فأجاب طِلبتهم، ولبى دعوتهم، ونزلوا على حكمه، وما اقتضاه منير

(١) أي: هرب.

فهمه، فعاهدوه على الإسلام، والتزموا بجميع الأحكام، واعتذروا من سوء ذلك القيام وقبح ذلك المرام، واشتروا منه جميع ما في البلد من الأموال بدراهم نقدوها له في الحال، وأمر بجلاء آل ماضي ومن ساعدهم من الرجال، فخرج عنها جميع أهل الشر والفساد، وأمَّر عبد الله بن عمر على تلك البلاد، وانصرف سعود راجعًا.

ثم دخلت السنة السابعة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها سار سعود بالمسلمين يريد أهل الخرج، ذوي الفساد والهرج، فلما وصل إلى قرية الحائر، أُخبر في أثناء طريقه وهو سائر، أن آل مرة هنالك، فأمر على الدول بالرجوع وانصرف عن قصده ذلك، وسار بالجيش يريد فريقًا من مطير يُدعون الصهبة، فعمد إلى ذلك الفريق وطلبه، وحث الجياد في السير؛ لئلَّا ينتذر فريق مطير، وكانوا على المستجدة[1]، فبذل في التعجيل جهده، فلم يفجؤهم إلا غارة الخيل، وكانوا في سرعة اللقاء كالسيل، وشدوا للارتحال في الأظعان، والحروب عن ذلك المكان، وبقيت حماة الفرسان، مشمرة للذب عنهم في الطعان، حتى أعياهم الأمر وعالهم، وغشيهم من مرارة المران ما هالهم وكدر بالهم، فمزق الله تعالى رجالهم، وشتت حالهم، فأُخِذُوا بذلك السكان عن قريب، ولم يكن لهم في السلامة نصيب، وقُتل منهم رجال كثيرة وشجعان شهيرة، مثل خلف الفغم ودخيل الله بن جاسر، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال، وانصرفوا في أحسن حال.

وفيها غلا الزاد جدًّا، وبلغ في الغلاء حدًّا، وأخذ الناس من ذلك الجهد والبلا، وكان سببًا للفناء والبلا، وطال ذلك على أهل نجد وسكانها، ولم يروا

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٧٧): «المزرع المعروف». وهو يبعد عن حائل ١٢٥كم جنوبًا.

مثله في أزمانها، وعم ذلك جميع بلدانها، فسقموا من الجوع، وليس إلا إلى الله الرجوع، واستمر ذلك سنين، وبقوا تلك المدة مُسْنِتِين، وقد حالت عليهم السنين والأحوال، وشاهدوا أشد الأهوال، ومات من ذلك كثير من النساء والرجال، فضلًا عن البهائم والأطفال، فكان كثير إذا شرع في الصلاة خرَّ وسقط، حتى يظن رائيه أنه من الجن قد اختبط، ووسوس في عقله واختلط، فالتجأوا إلى مولاهم في كشف ما هَمَّ، ودفع ما نزل بهم ودهم، فأجاب جل وعلا دعاء ذلك الملا، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وينجح أمله ورجاه، فأنزل الله تعالى في قلب عبد العزيز الرأفة والرحمة والتحنن بضعفاء تلك الأمة، فأمر جميع البلدان في تلك السنين والأزمان، أن أهل كل بلد ومكان، يُحْصُون ما عندهم من المساكين والضعاف، ويقيتونهم من الطعام ما به قوام وكفاف، فامتثلوا أمره وقوله، وانتهجوا عمله وفعله، وقام، حرسه الله، في الناس حين حلول البأس أعظم قيام، فأفاض من الإنعام على أولئك الأنام، خصوصًا أهل الحاجة والأرامل والأيتام، وشمّر بالإحسان منتدبًا، وجد في المعروف والبر محتسبًا، وكان لأجره من الله مرتقبًا، ولم يزل على تلك الحالة مستمرًّا، حتى كشف الله تعالى عن الخلق ضرًّا، فنال بذلك ثوابًا وأجرًا، وحاز مجدًا وفخرًا.

وفيها مقتل زيد بن زامل، وذلك أنه أغار على أهل سبيع، وهم إذ ذاك على الرياض، فأخذ عليهم إبلًا ثم انصرف من ساعته من غير ارتياض، ففزع على أثره سليمان بن عفيصان، وليس معه إلا جماعة يسيرة من أهل الإيمان، فجد السير في طلبه، وحث المطي في عقبه، فأدرك ابن زامل مع قومه، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة راكب بأرض يقال لها الحَنية[١] من نجد، فشن عليهم

---

(١) بمحافظة الخرج.

الغارة، فنال بذلك أعظم قصد، وقتل زيد بن زامل، وانهزم جميع من معه من القبائل، وأخذ بعضًا من ركابهم، وفك الإبل وولَّوا على أعقابهم، ورجع سليمان ومن معه بالنصر والأمان.

وفيها أهدى عبد العزيز، حرسه الله تعالى، إلى سرور والي مكة المشرفة خيلًا وركابًا، وكرمه بذلك وشرفه، وقصده بذلك التشريف والإكرام، وإهدائه ذلك النفيس الذي هو أجل الحطام، الرخصة لأهل الدين والإسلام، في أداء واجب الافتراض والالتزام، خامس أركان هذا الدين، على التحقيق والجزم واليقين، الذي مُنِعُوه من سنين، وكانوا على قضائه متوجدين، فجاء الأمر منه في ذلك بالرخصة، فشمر المسلمين وانتهزوا الفرصة، فحجوا ذلك العام، وكانوا نحو ثلاثمائة من الأنام.

ثم دخلت السنة الثامنة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها عدا براك بن زامل وأهل اليمامة، على منفوحة فسبق النذير أمامه، فلم يردوا أهل البلد، حتى تأهب كل منهم واستعد، فحين أغاروا عليهم بادروا في الخروج إليهم، فاعتنقوهم سراعًا، وأرهقوهم بأسًا ووقاعًا، وجالدوهم فجلدوهم، وفرقوا جمعهم وبدروهم، وقتلوا من القوم المعتدين، نحو خمسة عشر وفيهم أناس من المرتدين، فأتي سعود بذلك الخبر، فجرد عزمه لطلابهم، وظهر وجد في أثرهم، فلم يدركهم فرجع وصدر.

وفيها غزا سعود، حرسه الله تعالى، بالمسلمين يريد الحسا، فأعمل في ذلك العيس، وجد في السير والسُّرَى فلم ينخ ما سوى المكتوبة والتغليس، حتى هجم من ذلك الوطن وقرايا تلك السكن، على قرية يقال لها العيون[1]، فألقاهم

(١) من قرى الأحساء، يُنسب لها «العيونيون» الذين أزالوا حكم القرامطة.

وقد استولى الكرى على العيون، فدبّر أحواله وشؤونه، وأهل القرية لم يأتهم عنه خبر ولا يظنونه، فلما أن نسخ حالكَ الديجور شعاعُ الضياء والنور، وفرغ في صبحته من دعائه وسُبحته، نهض إلى ما هيأه وأراد، ووطئ ما خرج عن الحصن من مساكن تلك العباد، وأخذ جميع ما في تلك الدور والبيوت، من الحيوانات والأمتعة والقوت، وبقي ابن مهنّى وجماعته في الحصن متحصنين، وناوشهم المسلمون القتال وكانوا من الخوف على أعمارهم مجتهدين، فلم يدركوا منهم مرامًا، ولم يطيلوا عندهم مقامًا، وانصرف المسلمون عنهم، ورجعوا منهم، وقد قُتِل ناصر بن عبد الله وعبد العزيز ديان.

ولما أقبل سعود، بلغه الله تعالى المقصود، من الأحسا راجعًا، ولأمله طامعًا، اقتضى رأيه السديد، وفكره المصيب الرشيد، أن يعبر على اليمامة، فألفاهم وقد خرجوا جميعهم أمامه، وساقهم القضاء والتقدير، ونفوذ حكم الإرادة والتدبير، لما أراد الله عزه ونصره وإكرامه، وأن يحل بأعداء هذا الدين بأسه وانتقامه، ويسقى كلًا من أهل الشر كأسه وسهامه وحِمَامَه، فاشتاقت نفوسهم إلى الخروج للتنزه والابتهاج، ومطالعة أزهار الرياض في تلك الفجاج، فلم يستقروا في تلك الرياض، حتى وردوا من المنايا الحياض، فدهمتهم الفرسان من أهل الدين والإيمان، في ذلك الموضع والمكان، فراموا عند ذلك الشجاعة، ومد كل إليها باعه، وحسبوا أن لهم بها استطاعة، فلم يكن لهم ذلك ولم يُقدر، ودنا لهم أجلهم المحتم المقدّر، فحالت عليهم الخيول، وهب للمسلمين عليهم الصَبا والقبول، فشمروا عند ذلك للهزيمة الذيول، وولّوا على أعقابهم مدبرين، وقصدوا بلادهم متمزقين، وقد قتَلَ المسلمون منهم نحو الثمانين، على التحقيق لا التخمين.

وفيها غزا سعود، حرسه الله تعالى، بالمسلمين وقصد عنيزة من بلدان

القصيم، وحث السير في ذلك مشمرًا لا ينيخ إلا في الضرورة ولا يقيم، فلما وطئ في جنح الدجى من تلك البلد أرضها، وقضى من صلاة الصبح سننها وفرضها، أغارت على طارفة البلد فرسانه، وطافت بفنائها شجعانه، فخرج إليها من أهلها كل ذي بأس شديد، واستمروا مع المسلمين في تصدير وتوريد، وبذلوا من الشجاعة ما ليس فوقه مزيد، وقُتِل بينهم في ذلك المجال بعض من الرجال، منهم من المسلمين ثنيان بن زويد[1] وغيره، وجرى بينهم مع سعود كلام في الصلح فلم يتم المقصود، ثم بعد ذلك انصرف عنهم وارتحل منهم.

ثم دخلت السنة التاسعة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا سعود فأخذ إبلًا معاويد[2] لأهل الحريق، كانت مودعة عند سبيع فأخذها من ذلك الفريق.

وفيها غزا سعود بالمسلمين يريد أرض أهل الجنوب، وكانت فِرقان اليمن له المطلوب، فألحّ السير إليهم حتى قدم عليهم، فألفاهم في أرض الرويضة[3] يرعون، فألفى رئيسهم في قصر الرويضة، فأخذه وقتله وقرّب الله له أجله، ثم غارت خيوله ورجاله على أولئك الأعراب، وغشيهم من عظم العذاب أعظم سحاب، فلم يكن لهم على المقابلة قدرة، ولم يكن لهم في الرجاء حيلة ولا فكرة، فولّوا مدبرين على الأعقاب، وشمروا في الهزيمة والانقلاب، ولكن الله تعالى قضى أمرًا وقدر، واختاره ودبر، وذلك أن المسلمين لما كشفوا ذلك الفريق، وراموا أخذهم على التحقيق، أقبلت عليهم من فِرقان السهول كراديس

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٧٨): «الشجاع المذكور».

(٢) الإبل المعاويد: التي ترفع الماء من البئر العميقة.

(٣) تبعد عن مدينة الرياض ٢٤٠ كم غربًا.

من الخيول[١]، فرجع عنهم حينئذ المسلمون، لأنهم إذ ذاك لم يكونوا لهم يعرفون، وفك الله أولئك الأقوام بعد ذلك الانهزام، ولم يعرف السهول جيش المسلمين إلا بعدما ألفوهم مدبرين، وكانوا معهم داخلين ولحكمهم تابعين، فكانوا على تلك القضية نادمين.

وفيها قتَل براكَ بن زيد آل زامل بنو عمه زويمل[٢]، ومعهم عبد الله بن محمد بن راشد، وظنوا أنهم يدركون حكم الدلم والرئاسة فسدت عليهم تلك المقاصد، ولم ينل كل منهم ما هو قاصد، وطردوهم أهل البلاد، وكانوا ذوي بغي وفساد، فقصدوا الدرعية، وطلبوا خطة الدين السويّة، ولم يكن يرد عن دخولها أحد من البريّة، ثم بعد ذلك الحين هربوا إلى الحسا مرتدين.

وفيها غزا سعود، يسر الله تعالى له المقصود، فشمر مع المسلمين يريد الخرج، فذكر له وهو في أثناء ذلك النهج، أن هنا ظهرة كبيرة وأمم من أهل الخرج والفرع كثيرة، ومعهم من الأموال وأصناف الأحمال ما لا يخطر على البال، فأقام سعود ومن معه على الثليما[٣] يرصد تلك الخلق المجتمعة، حتى أقبلوا يريدون الماء، وكانوا إذ ذاك على ظمأ، فشن الغارة عليهم المسلمون، فأخذوا السابق الذين هم للماء مسرعون، وقتلوهم قتلة رجل واحد، ثم أناخت الظهيرة ورام كلٌ منهم أن يُجالد، فاستمروا معهم ساعة في جلاد، ووقع المصابرة والاجتهاد، حتى تبين لهم أنهم لا يظفرون من السلامة بمراد، فعندها طلبوا من سعود السلامة على الرقاب، فأعطاهم ذلك وأجاب، ومنح الله تعالى عباده المؤمنين السلامة والنصر والتمكين، وغنموا تلك الأموال، وفازوا بالأجر

---

(١) الكردوس: الخيل العظيمة.

(٢) تصغير زامل.

(٣) قال ابن بشر (١ / ٧٩): «الماء المعروف قرب الخرج».

والإقبال، وقُتِل في ذلك المجال نحو سبعين من الرجال، منهم ابن زيد زامل وابن زيد الهزاني وسنان بن شاهين، وغيرهم مشاهير، وقُتِل من المسلمين نحو ثلاثة رجال.

وفيها قدم ربيّع وبدن ابنا زيد، وهما رئيسا المخاريم[١]، وجماعة من قومهما، على الشيخ وعبد العزيز راغبين في الإسلام، طالبين منهج الأمن والاستسلام، فعاهدوا على ذلك الطريق، وكان لهم في القيام بذلك هداية وتوفيق، فقد هدى الله تعالى بهم أناسًا من أهل الشرك وفريق، وصاروا ردمًا في الوادي لا يروم رأس الباطل هدم الحق فيه ولا يطيق.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، متعهم الله تعالى بنصره سنين، فجد السير يريد الدلم من الخرج، وسأل الله تعالى أن يسهل له ذلك النهج، فناداه منادي الإقبال بلسان الحال، وهو ينصّ في تيك البيد الفساح: سر فليس عليك جناح، وقد قُدِّر لك الخير والصلاح، وأُعِدَّ لك الربح والأرباح، وتقدمك النصر والفلاح، وهُيِّئَ لك في فتح البلد مفتاح، فاطوِ القفار في الدجى، فعندك من حسن الرجاء ضياء ومصباح. فسار لذلك وشمَّر، وحث الجياد الضُّمَّر، فلم يطل لركابه إراحة الجران، ولم يلق لخيله رَسَن ولا عِنَان، حتى استقر في تلك البلدان، ورأت بالعيان ملتف تلك الجنان، فحينئذ ذاق طعم الكرى المُقَلُ والأجفان، بعد تعبئته الكماة والشجعان، وتدبير جميع ما له من شأن، فلم يضمحل سواد الظلام وينتشر سرعان الأنام، إلا وفرسانه عادية مغيرة، وسنابكها للعثير مثيرة، فكانت لمن صافقته مردية مبيرة، غير مؤمّنة ولا محيرة، فعند ذلك علت في البلاد ضجة العباد، وغشيتهم أصوات الفزع والارتياع، والحزن والالتياع، فأقبل جميع مَن

---

(١) من الدواسر.

في البلد مِن المقاتلة والأفزاع، وراموا عن خلل النخل مجالدة ودفاع، فلم يجدوا إليه من سبيل، ولم يلغوا لهم به كفيل، فرجع كل منهم خاسئًا ذليل، وقتل رجال من أولئك القبيل، واستولى سعود جميع النخل وحللها، فنالت نفوسهم سُؤلها وأملها، ومكث أهل البلاد كافة محاصرين في القلعة، من المخافة وسحائب الذلة عليهم مظلة، ونوائب الجلاء بهم مطلة، وشجعانهم من الرعب مستذَلَّة، وأقدامهم إلى الهروب مستقلة، لا يجدون ساعة من الراحة، وحزب الدين مشمر في الحرب صباحه ورواحه، وقد أظهروا للتجلد علامة، وظنوا أنه يخفف مقامه، وحسبوا أنه يكون وسيلة للسآمة والتضجر، ولا يزالون يعللون النفوس بالمحال منه والمأيوس، تعلل المسجون بالآمال والمحبوس، حتى انقطع منهم الأمل والرجا، وعراهم الخطب وفجى، وشاهدوا منه مدلهم الدجى، وناء عليهم بكلكله وسجى.

وذلك أن سعودًا لما رأى ما هم به من الحصار، وأنهم لا يطول لهم مكث ولا قرار، اقتضى رأيه وفكرته، واستجمع نظره ومشورته، أن يبني قصرًا للمسلمين بين النخل وتلك الحلل، ويجيد بناءه عن الخلل، حتى ينقطع من أهل القرية الأمل، وينزلوا إلينا على عجل، فلما فرغ بناؤه وتم، ونوى سعود المسير ويترك أناسًا فيه وعزم، خرج جميع مَن في القلعة إليه، وعزموا على البيعة عليه، فحملوا حملة رجل واحد، وتقدم كل من هو في الحرب يجالد، ومَن هو على الثبات والصبر يساعد، فتلقاهم المسلمون بعزم باتر، وبأس مُجْدٍ غير فاتر، حتى أدار الله تعالى عليهم الدوائر، وكان لأهل الدين معينًا وناصر، ولأولئك الفجار مُذِلٌّ كاسر، فرجع كل منهم على عقبه خائبًا خاسر، وتمنى أنه لم يكن للقتال بارزًا ظاهر، وقُتِل منهم رجال كثيرة، منهم تركي بن زيد ورجال غير شهيرة، يزيدون على العشرين، وأقاموا في القلعة محتصرين، وهمُّوا بعد ذلك

اليوم أن ينزل على سعود جميع القوم، ولكن أسر إليهم بعض آل زامل ممن كان مع المسلمين نازل، فقال: اثبتوا مكانكم، والزموا أوطانكم، فأنا آخذ لكم الأمان، وأحكم لكم عقد الاستئمان. فكان بينهم وبين سعود واسطة، ولإحكام العهد رابطة، فأخذ لهم من الأمان عقدًا، وتمم لهم عهدًا، واشتروا منه ما في تلك البيوت والدور، من الحيوانات والأمتعة والسلاح والطعام ما ليس بمحصور، واستقر بينهم الأثمان، فانتقدوها بذلك المكان، ودخلوا في حصن الأمن والأمان، وفي دائرة أهل الإيمان، وأمَّر عليهم سليمان بن عفيصان، وكانت كافة نخلها بيت مال، فاء الله تعالى به ذو الجلال، وأجلى عن البلاد كل من جد في الفتنة واجتهد، ومَن كان قبل ذلك بالسبابة لهذا الدين معروفًا، وبالبغض له مشهورًا موصوفًا.

وفيها تبين ذلك الحال واشتهر، وشاع بين الناس وانتشر، رجفت قلوب أهل الجنوب، وحلّ من البأس والكروب وغياهب الخطوب، ما لم يَدَعْ لهم قلبًا، ولم يثبت لهم لُبًّا، فكلٌّ منهم أرسل إلى سعود بالطاعة ولبّى، فأقبل أهل الحوطة وأهل الحريق وأهل اليمامة والسلمية وكافة الخرج، على سعود، فأحكموا للإسلام العهود، واشترط عليهم في النكال ما شاء من النقود، فكان جميع ذلك لديه محضرًا منقود، ثم انصرف بذلة لمولاه واستكانة، مكثرًا لحمد مولاه وشكره سبحانه، وقصد أهله ومكانه، ثم بعد انقضاء هذه الأمور، وصدور ما هو مزبور، وفدوا راغبين في الإسلام أهل الأفلاج، فأتوا الشيخ وعبد العزيز طلبًا لسلوك ذلك المنهاج، فعاهدوا على الإسلام، والتزام جميع الأحكام، فحسن منهم ذلك القيام.

ثم دخلت السنة التي هي للمائة ختام، وبها يكون الثاني عشر للقرون تمام، ويتم بها العقد والانتظام.

وفيها دبت بين بني خالد الفتن، واستحكمت في قلوبهم الشحناء والإحن، وسَعَوا في أسباب الحوادث والمحن، وجَدُّوا في أسباب القطيعة بما قدروا عليه من الأمور الشنيعة، فأضاعوا شَجْنَة الأرحام، وقام فيها ذوو الأحلام، فأراقوا بينهم الدما، وسلبوا البيض الدُما، وغدا بعضهم للبعض سالبًا، ولهلاكه مريدًا وطالبًا، فأصبحت الأرض من أفعالهم تعج، والخلق تجار إلى الله وتَضِجُّ، وتدعو الله عليهم بالإذلال وتعجيل الوبال، ولسان حال القضاء ينادي على أولئك الضُّلَّال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

وفيها جرت وقعة جضعة بين بني خالد[1]، وسميت بذلك؛ لأن المهاشير وآل صبيح خانوا لعبد المحسن والمنتفق ورئيسهم ثويني، فأخذوا مَن يليهم مِن العربان، فوقعت بينهم النهبة، وبدأ كل منهم في الآخر الرغبة، فنار[2] سعدون وجماعته على ظهور الخيل وقصد المسلمين، وترأس عبد المحسن ودويحس في بني خالد والحسا، فصار ذلك لعز الإسلام، ولإعلاء كلمة الحكيم العلام، أعظم مقدمة وطليعة، ولاستيطان التوحيد فيها ذريعة، فلم تكن بعد ذلك قوة تلك الأسباب عن ذلك مانعة ولا منيعة، وبشارة بالفتح معجلّة، ونصرة للدين لوقتها موجلة، فأقبل سعدون وقومه، وأرسل لعبد العزيز يطلب منه الأمان، فنهاه عن المجيء إلى البلد حتى يقف على ما عند ثويني من الخبر باستيقان، ويتحقق حقيقة الأمر والشأن، لأن بينه وبين ثويني قبل ذلك مهادنة ومصاحبة، فأراد أن يسد من ذلك أبواب المطالبة، فلم يبال سعدون لما ناله من الذلة

---

(١) يُنظر لمعرفة ماجرى بينهم: رسالة «بنوخالد وعلاقتهم بنجد»؛ للأستاذ عبدالكريم الوهبي.

(٢) نار: هرب.

والهون، بما نهاه عبد العزيز عنه فصار ذلك الإقبال منه، فتلقاه بعد ذلك عبد العزيز، فلم يشعر عبد العزيز إلا بقدومه، وسرعة دخوله البلد وهجومه، وكان لصلاته الجمعة خارجًا، ولسنة التبكير لها ناهجًا، فالتقى مع سعدون عند باب القصر، فرجع معه إليه، وأمر بتعجيل النزول عليه، وهيئ له ما أراد، ثم رجع إلى طاعة رب العباد، وقد حصل له من الكرب ما ناء بالفؤاد، وحصل له غاية المساءة والإنكاد، حين رأى قدوم أولئك العباد، ولكنه لما أتم الصلاة، وحصل له إن شاء الله من ربه الصِلاة، أسرّ بذلك الخبر، وأعلن للشيخ الذي هو للتوحيد أسنّ وأتقن وشرح له الحال، وبين له أن ذلك كدّر عليه البال، فجلا عنه الإمام جميع الشُبه والأوهام، وتلا عليه ما جلا الرَّيْن عن الأوهام، من الآيات المحكمات العظام، كما يفهمه كل قلب سليم ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلم يفرغ من قراءتها بالإكمال، حتى سري عن عبد العزيز ذلك الحال، وانجلى عن قلبه الكدر، حين تبين له المعنى وظهر، فلما بلغ ذلك ثويني تعاظم وتجبر، وصعّر خده وتكبر، وأرسل إليه عبد العزيز بألطف كلام، يستعطفه في قبول ذلك الأنام، ويبين له أني لم أنقض للهُدنة عهدًا، ولا أفتل لحبلها عقدًا، ولكن لا أجد عن قبول هؤلاء مندوحة ولا بدًا، وأنا لك بما تريد منهم كفيل، فلا تخش منهم أحدًا لا عزيزًا ولا ذليل، فلم يجنح إلى ذلك الكلام، وأنف من الاستعجاب والاستعظام، وجَدَّ في الحرب وشمّر، وأجمع رأيه عليه ودبر، فأرسل إلى البلدان يستعين على ذلك الشأن، وشرع في أحكام الأسباب والآلات، وتهيئته عددها المحكمات، وبارز في ذلك رب البريات، ونال من ذلك أعظم الرزيات، وأقبح الخزي والعقوبات.

وفيها غزا سعود، ونال من مطلوبه كل مقصود، فسار بالمسلمين ومعه بنو

خالد وآل ظفير مجتمعين، فحث السير ليلًا ونهارًا لأجل تعجيل المطلوب، وإنجاز المراد له والمرغوب، وقصده أسلاف قحطان[1]، وكانوا مقيمين بأرض الجنوب، فأعنق التسيار إليهم، ونص اليعملات[2] عليهم، حتى طوى بأيديهم صحف الفيافي والقفار، ولم يجد دونها تلافي ولا اصطبار، وسُهّل له سهلُها وحَزْنُها، وحاط بأولئك همها وحُزْنُها، وعجلت إليهم الإنذار بما قد كان وصار، فأخذوا في تعداد وأهبة، وكان لهم إلى لقاء المسلمين رغبة، ففرحوا بذلك وطربوا، وودوا قدومهم وطلبوا، وقالوا: لظى الخطوب، ونار الوغى والحروب، لنا معشر أهل الجنوب، والهيجاء هي المراد والمنى، ونحن لها وهي لنا، أيظن سعود أننا مثل مَن لقي مِن الجنود، ومَن مارس من البوادي القرود! نحن الشُّمُّ العَرَانين الكُمَاة، وذوو البأس والنجدة في الوطيس والحماة، وسيعلم ذلك ويعاين، ويدري حينئذ على من هو كائن، ويتحقق ويشاهد ما لم يكن معه يعاود. ونفض كلٌ منهم مذرويه[3]، وكان شؤم ذلك القول راجع عليه، فلما صبّحتهم تلك الجنود والأجناد، أظهروا من البأس ما يذهل الفؤاد، وتدرعوا مدارع النجدة في الجلاد، فشاهدوا فرسان الإسلام منهم أسنة حداد، وأحساما صلابًا صلاد، وقلوبًا قوية شداد، فحف الله تعالى المسلمين باللطف والإمداد، وأعاد عليهم عادته في أهل الفساد، فشد عليهم الحملة أهل الدين والتوحيد، وأيدهم الله تعالى بالنصر والإعانة والتسديد، وأنفذ في أعدائه الوعيد، فشُرِّدُوا أعظم تشريد، وبُدِّدُوا أقبح التبديد، وصاروا بين طعين وشريد، ومقطوع منه الوريد، ومُزِّقُوا كل مُمَزَّق، وأجرى عليهم عادته وحقق، وغنم

---

(١) الأسلاف: الجماعات.

(٢) جمع يعملة؛ وهي الناقة النجيبة.

(٣) يقال: جاء فلان ينفض مذرويه: إذا جاء باغيًا يُهدد الآخرين. والمذروان طرفا الشيء.

المسلمون غنيمة عظيمة، وانهزم الأعداء أخزى هزيمة، واستولى أهل الدين والإسلام، جميع الأمتعة والأثاث والآبال والأسلحة والأغنام.

وفيها غزا حجيلان بأهل القصيم، ومعه من عنزة فِرقان، فذُكِر له أن هناك ظَهرة عظيمة خارجة من البصرة وسوق الشيوخ حضر وبدوان، فأمّ لهم منار الطريق، وكان من خبرهم على يقين وتحقيق، فأسرع بمن معه وتبعه حتى وصل إلى بقعا[1]، وأقام ينتظرهم حتى قدموا بعد ذلك عليه، ووصلوا بما معهم من الأموال والأحمال إليه، فتلقاهم بغارة مزعجة مرهقة، وأسنة ماضية للأرواح مزهقة، فطاعنوا ساعة وحينا، ثم انكشفوا بعد ذلك انكشافًا وهينًا، وكان كل منهم للذلة موثقًا رهينًا، فغنم المسلمون تلك الأموال، واستاقوا جميع الأعمال، وقتلوا عددًا من الرجال.

ثم دخلت السنة الحادية فوق المائتين والألف.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، فنزل أرض ملهم[2] وأقام ينتظر إجماع المسلمين، فأتاه رؤساء الروسَه[3] من اليمامة، وأخبروه أن آل بجادي يريدون الارتداد، وقد دبروا إحكامه، وأجادوا على أهل التوحيد إبرامه، فشمر من ذلك الحين لإنقاذ المسلمين، وحقن دماء الموحدين، فوصلها ليلًا، وأدرك من التمكن منها نيلا، فلما أصبحوا وتحققوه، هموا بلباس الإسلام أن يمزقوه، فجالوا نظرهم فيه، فنظر كل منهم أن ذلك لا يفكه ولا ينجيه، فرموا جميعًا بأنفسهم إلى سعود، وقدموا إليه النساء لكي يوافق بالمقصود، فأنالهم شطر

---

(١) مدينة تبعد عن حايل حوالي ٩٥ كم.

(٢) مدينة تبعد عن الرياض حوالي ٧٠كم شمالًا. وهي إحدى بلدان إقليم الشعيب.

(٣) نسبَهم الجاسر في «جمهرة أنساب الأسر» (١/ ٣٢٦) إلى خثعم.

البغية، وأدركوا بعض المنية، وألزم عليهم الشيخ وعبد العزيز في البداية، وأجلى عنهم أهل الفساد والإذاية، ثم بعد ذلك يرجعون إلى بلادهم، وأظهروا لسعود الامتثال، وشرعوا في المسير إلى عبد العزيز والارتحال، فلما توسطوا في قلب الفلاة، كان في قلوبهم أعظم هناة، ولَوَوا إلى الحسا الأعناق، وجدوا في الوخَد إليها والإعناق[1]، وصمموا البعد عن اليمامة والفراق، فأم-ر عبد العزيز بهدم حلتهم التي تسمى البَنّة، وقد كانت باللهو مرنّة، فهُدمت ديارهم، وحُقق دمارهم، وأمّر سعود عبد الله الرويس في البلاد، وبنى حصنًا فيها وجعل فيه آلة الحرب والاستعداد، وأمّر في الحصن محمد بن غشيان، وأقام فيه مدة الزمان.

وفيها جرّ ثويني تلك الجرائر، وقاد على المسلمين تلك الجموع والعساكر، وتجاوز في ذلك المسير طوق البشر في التدبير، ورام أن يغالب الحكيم الخبير المدبر القدير، فتطاول في خروجه وتمطى، وبغى فيه وتخطى، ودبر من الكيد والأسباب والشؤون، ما لا يقدر على مثله ولا يكون، بل يعجز عن تحصيله الآخرون، وجزم أهل المعرفة بزعمهم، ومَن يدعي العلم بفهمهم، أن جيوشه لأهل الدين يغلبون، وأعرضوا عن وعد الله للذين هم يؤمنون، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فسار بتلك الجحافل الجمة الغزار، والجيوش التي لا يحصي عدتها إلا عالم الأسرار، ولا يحيط بها إلا الجبار، حافة بتلك المدافع والقنابر الكبار، التي لا يقوم عندها حصن ولا جدار، ولا يثبت عند رؤيتها قلوب الصغار والكبار، فلم يزل يجدّ إلى نجد السير والمسير، ويستدعي في ذلك آراء الرأي والتدبير، من كل رئيس بالحرب خبير، وجليس

---

(١) الوخَد: السير السريع، والإعناق: السير بين الإبطاء والإسراع.

سيئ البطانة شرّير، يجلل له دماء أهل التوحيد، ويحثه على ذلك ويشير، ويدعي مع ذلك أنه من العلم والمعرفة بالمكان الكبير، ولم يدرِ أنه قاصر الباع، قليل الاطلاع، طافح الغور غير غزير، وأنه لا يملك من ملك الله فتيلًا ولا قطمير، وأن الله تعالى وعد أهل التوحيد والدين بالنصرة والظهور على المبطلين، وفتح البلاد لهم والتمكين، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فلم ينثن لهم صارم عزم ولا همة، بل جد في ذلك الشأن وهمه، حتى أنزل في أرض التنومة[1] جميع تلك الأمة، وأحاطت بهم تلك المهمة، وغطتهم تلك الخطوب المدلهمة، وحلت بهم الكربة والشدة والغمة، والتجأوا إلى المفزع عند الشدائد، وطلبوا حسن تلك العوائد، والتحفوا القمص والأكفان، وقال كل منهم: الموت على الشهادة والإيمان، وسُنة مَن لنا من السلف والإخوان، ويأبى الله أن نتضمخ بوضَر الذلة والإذعان، ونبين عند الله والمؤمنين أننا غير صُبُر في الطِّعَان، ولا عند حلول الرزايا والامتحان، ونعوذ بالله من عاقبة الشرك والافتتان، وتسويل مكائد الشيطان، والاستسقاء من حوض الردى والذل والهوان، فليس هنا إلا التطلع إلى قصور الجنان، وما فيها من الحور والولدان.

ولما ثوى في ذلك المكان والمحل، واستقر به ونوى الإقامة ونزل، شرع في مجال القتال، وأحدقت بهم تلك الفرسان والأبطال، وأضرمت عليهم المدافع شرر النار، ولم يكن في قلوبهم منها انذعار، لما أفرغ الله تعالى عليهم النصر والاصطبار، وربط على قلوبهم فكان لهم من التثبت أجلّ قرار، وحث أهل المدافع والرماة، وندب الشجعان والكماة، وحرّض ذوي النجدة والحُمَاة، وجلب عليهم بخيله ورَجِله، ورام هدم التوحيد بأمله، فأبطل الله تعالى كيده

---

(١) من قرى القصيم - كما سبق -.

ومكره، وأظهر فيه وفي جنوده بأسه وقهره، فحاق به سوء عمله، فشرب حياض المرّ الهمّ بالأسف عَلَلًا بعد نَهَلِه، ورأى عقوبة ذلك عاجلًا قبل موافاة أجله، واستمرت تلك الأحوال الشديدة من أولئك الجموع العديدة، يقاسون كل ساعة منهم حدة وبأسًا، ولكن لا يرفعون إلى المذلة رأسًا، وبقوا أيامًا في ذلك المقام، كلُ يوم تحيط به خطوب الحِمَام، ويتجرعون مرارة السّام، ولكنّهم صبّروا تلك النفوس الكرام، عن معاطاة أسباب الآثام، وآثروا دار السلام، وما عند الملك العلام، على هذه الدار الفانية، واشتاقوا إلى دار قطوفها دانية.

فلما آيس ثويني من مصادمتهم، وتعب من مزاحمتهم، واكترب من مقامه هناك، واضطرب لبُه فقيل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، مد أسباب الغدر، ونسج رداء الخيانة والمكر، فأرسل إليهم بالأمان، وزين لهم الاستئمان، والنزول عن ذلك المكان، والخروج إلى سائر الأوطان، وحاولهم في ذلك واجتهد، وكان الواسطة بينهم عثمان بن حمد، وكان هو من أولئك الجماعة، فظنوا أنه لا يروم بهم مكرًا ولا خداعة، وإن كان نفسه إلى الشر نزّاعة، فرضوا بذلك وراضوا، بعدما تحدثوا فيه وفاضوا، ولما استقر ذلك الأمان بينهم، دخلوا عليهم القلعة سريعًا فعجلوا للمسلمين حَيْنَهم، وقتلوا غالب مَن وُجِد، ولم ينج إلا من هرب وفُقِد، ونهبت تلك القرية، ونال ثويني من ذلك خزيه، وعجل الله تعالى له في الدنيا العقوبة، ولقي من قبيح صنعه وزره وحُوبه، ثم لما بدت منه هذه الخيانة وبدرت، وظهرت منه وصدرت، ظعن من ذلك الوطن، ونزل على بريدة واستكن، وناوش أهلها الحرب من بعيد، وهمّ أن يُنزل بهم بأسه الشديد، ويمكر بهم ويكيد، فأخذه الله ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾، فأرجف قلبه وفؤاده، وأظهر له من الرعب ما حمله أن يؤم منهزمًا بلاده، وشتت شمله وجمعه

وأجناده، وأضاع هدرًا عليه من المال طريفه وتلاده[١]، فولى خاسئًا مهزومًا، مشتتًا مبعدًا مرجومًا.

ولما عزم على المسير، خرج من أهل بريدة لنفوذ التقدير، نحو سبعة رجال، وراموا أن يوقعوا في آخر الجيش نكال، فعجلت إليهم من تلك الخيول فرسان، فاقتطعوهم قبل وصول الجدران، وجد السير يريد البصرة، وقد أبدى الله تعالى فيه عبرة، وأراه شؤم تلك الأفعال، وجعل عاقبته تشتيت الحال، فحين وصل البصرة وقدم إليها، رأى الخروج على الباشة والتغلب عليها، وساعده على ذلك المتسلم، وكان لأمره مطيعًا مسلّم، وفي خدمته متقدم، ورُسِمت باسمه الخُطَب، وأبدى من التجبر العجب، فحدر عليه الباشا سليمان، في ذلك الزمان، والتقوا عند سفوان[٢]، مع تلك البدوان، فانهزم ثويني ونار[٣]، وهدم الله عزه وبار، وفَلَّ الله مَن له مِن أنصار، وعمد إلى الكويت وسار، وأقام فيها ذليلًا، يقاسي الهم زمانًا طويلًا، ثم جاء إلى الدرعية يريد الإسلام، فعاهد على الوفاء بالذمام، ثم نكث ذلك الإبرام.

ولما بلغ عبد العزيز، حرسه الله تعالى، وصول ثويني إلى نجد، جد في التأهب والاستعداد، وجمعه من الغزاة كل نجد، فجهز سعودًا عليهم أميرًا، حتى يكون لأهل البلد ظهرًا وظهيرًا، فلما انهزم ثويني وانصرف، وقصد بلاده وانحرف، جدّ سعود في أثره بالمسلمين، وكانت تلك الجيوش منهزمين، فلم يبرح، حرسه الله تعالى، يجهد في السير الركاب، ويجد في ذلك الطلاب،

---

(١) التليد: المال أو المكسب القديم. والطريف: الجديد.

(٢) من مدن محافظة البصرة بالعراق. يُعرف اليوم بصفوان.

(٣) نار: هرب.

حتى أدرك أسلافًا من شمّر، فشن الغارة عليهم وشمَّر، ورئيس ذلك الفِرقان وكبير تلك العربان، ابن جدي، فكان إليه مهتدي، فلما غطاهم من الغارة الغبار، ركب الفرسان الجياد والمهار(١)، وأقبلوا لتلقي الأبطال كأنهم في قرن، وصمموا على بذل الأعمار دون الأموال والظعن، وبذلوا في ذلك مجهودهم، ولكن الله لم ينلهم مقصودهم، فغلبتهم كلمة الحق، فلما عاينوا من أهل الدين الصدق، انهزموا وفروا، وما ثبتوا ولا قروا، فقتل المسلمون منهم رجالًا كثيرة العَدَد، وأخذوا ما عندهم من العُدَد واستولَّوا على جميع تلك الأموال من أثاث وأمتعة وزلال، وغنم وآبال، ورجعوا بأحسن الآمال.

وفي أثناء خروج سعود في ذلك الطِلاب، ظهر عبد المحسن ودويحس وبنو خالد أهل الحسا، يظنون أن ثويني لهم في انتظار وارتقاب، وأن بلدان نجد قد عمها من ثويني الخراب، وأنه مقيم هناك مع الأحزاب، لأنهم قد ثبت عندهم بلا شك ولا ارتياب، ونقله إليهم عدول ليسوا بكُذَّاب، أن ثويني ألزم على أهل الزبير، ألا يخرج أحد إلا بامرأته وعياله في ذلك السير، فامتثلوا أمره في الحال، وأظهروا معهم من الأموال للتجارة والابتياع، ولم يَجُلْ في خَلَدِهِم أنهم إليها يعجلون الارتجاع، لما يداخلهم من الذعر والرعب والارتياع، بل زعموا أنهم يقيمون أزمانًا عديدة في تلك البقاع، ولا يرجعون عنها حتى يدعوها صفصفًا قاع، فلذا ظهرت بعد ذلك بنو خالد، وكلٌّ على ذلك معين مساعد، فلم يُرَعْ بنو خالد وأهل الحسا، وهم إذ ذاك قد قطعوا الدهنا، يؤمون نجدًا ويؤملون بها إقامة وسكنًا، إلا الخبر اليقين، والعلم المحقق المستبين، أن سعودًا قد جدّ في السير والتسيار، وأن ثويني قضى عليه العزيز القهار، بالذل والانكسار،

---

(١) المهاري: من كرائم الإبل. نسبة لبلدة المهرة باليمن.

وكتب عليه الهوان والذلة والعار، والخزي والدمار، فكان ذلك عندهم من أشنع الأخبار، وأفظع ما يطرق القلوب والأفكار، واضطربوا غاية الاضطراب، وشمروا منهزمين في الانقلاب، وأرسل الله عليهم رجزًا من العذاب، فكانوا لا يلوي منهم أحد على أحد، والكل قد طار عقله وارتعد، وارتدى بأردية الموت واستعد، وقطعوا الدهنا في ذلك الصيف والصمّان، والكل منهم صادٍ ظمآن، فمات كثير من أهل الحسا، ونالوا مؤلم الهم والأسى، وتفرقوا في ذلك أيادي سبأ، وكانوا لمن بعدهم عبرة ونبأ.

وفيها غزا حجيلان بأهل القصيم ومن حوله من العربان، وقصد أهل الجبل فاستقر بذلك المكان، وأقام فيه مدة أيام وليال، وغالب أهل تلك البلاد إلى الدخول في الإسلام في إقبال، فقدم عليه في ذلك الزمن، كثير من بلدان ذلك الوطن، وعاهدوا على الإسلام، ورغبوا في الدخول والاستسلام، ومن أعرض عن ذلك وصد، تصدى حجيلان لحربه وقصد، وتأهب واستعد، وأقبل عليه بالحروب والحرابة، حتى يدين بالإسلام ويفتح بابه، وأخذ على من امتنع أموال، في ذلك الوقت والحال، حتى طاعوا للتوحيد بالإجمال، فلم يشد حجيلان للسير عنهم الرحال، حتى تلقى جميعهم الإسلام بأحسن استقبال.

وفيها وفد هادي بن غانم المعروف بأمه قرملة، على عبد العزيز أناله الله تعالى في الدارين ما أمّله، وكان هادي إذ ذاك في الإسلام راغبًا، وللدخول في الإيمان والتوحيد طالبًا، قد انشرح له صدره، وتبين فيه حاله وأمره، وبرق له من الدين بارق، ولمع منه له ضوء شارق، قبل أن يعرف الحقائق، ويسلك في أبيض الطرائق، فجاء مرغِمًا لكل عدو منافق، ومشرك ضال زاهق، وهجر من كان محبًا له مرافق، ومن كان على الباطل مصادق، ولم يكن ذلك الوقت والحين، في رئاسة قحطان من المعدودين، ولا من كبارهم المشهورين، ولكنه

ترأس بالدين، وصار له الإقبال من إمام المسلمين، لما صدق وتبين على المشركين، ونصح في جهاد المبطلين، فصار له تمكن عند المسلمين، فعاهد حين قدم على الإسلام، ولقد وفّى العهد والذمام، وقام بوظائفه أحسن القيام، وبدا له فيه طالع حسن، وجاهد فيه مَن عَبَد الوثن، وأخلص لله في السر والعلن، وتنصل عن الضلال الذي ترعرع فيه ونشأ، الشرك الذي ملأ جميع الحشا، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

ثم دخلت السنة الثانية بعد المائتين والألف.

وفيها تظاهر كثير من أهل الوادي بالإسلام، ورغب فيه جماعة من تلك الأقوام، وسبب ذلك الإعلان والاشتهار، وتبين تلك الدعوة والانتشار، أن ربيّع وأخاه بدن ابني زيد، رئيسي المخاريم[1] في الشرف والأيد، لما وفدا مع أناس من قومهم على الشيخ وعبد العزيز، وعاهدوا على الإسلام ودخلوا في حصنه الحريز، والتزموا الوفاء بجميع الأحكام، والقيام بذلك أتم القيام، وكان وفودهم قبل ذلك العام، فنفع الله تعالى به منهم خاصّا وعام، فلما أرشده الله تعالى وكان له مرشدًا وهادي، وتبين بدعوة التوحيد على أهل ذلك الوادي، أصبح كثير من أهل الضلال، بل أغلبهم له مبغضًا ومعادي، ولرد قوله ومعارضته بالباطل مُمَارٍ مبادي، وأطلقوا عليه أعنة الألسنة، وحاولوا البقاء على تلك السنن الباطلة المزمنة، والطرائق الخبيثة الضالة المنتنة، فعند ذلك الحال والأمر، بنى ربيّع له ولأهل الدين قصرًا، وشرع في تهيئة بنائه حتى أتمه وبناه، فلما فرغ من القصر والبنا، جهر بالدعوة مُجِدًّا معلنًا، وبادر بإزالة ما في ذلك الوطن من صنم ووثن، فأشعل في شجرة نار، وكانت معبدًا لأولئك الأشرار،

---

(١) من الدواسر - كما سبق -.

يزعمون أنها تجلب النفع وتدفع الأضرار، فلم يَرُعْهُم إلا دخان تلك الشجرة، وقد قضى منها الإحراق وطره، فعند ذلك تأسفوا عليها وتحرّقوا، وتجمعوا على الباطل بعدما تشتتوا وتفرقوا، وانتدبوا إلى عداوة من يتبين بالدين، ونهضوا ثاني يوم على ربيّع في قصره مجتمعين، وساروا يريدونه، وهموا بأنهم يذلونه ويردونه، وينزلونه في قصره ويهدمونه، ويجرعونه الحِمام ويسقونه، فحصروهم في القصر ثلاثة أيام، فصبر على ذلك أهل الإسلام، وقطعوا ما لهم من نخل، وبدا منهم قبيح فعل، وقتل المسلمون منهم رجلًا، ولم يدرك أهل الضلال منهم أملًا، فلما آيس أهل الباطل إليهم من الوصول، وعرفوا أنهم لا يدركون منهم مأمول، وأن المسلمين أكثروا فيهم الجراح، ولم يكن على أهل الدين من جناح، وتحققوا أن ليس في مقامهم لهم صلاح، وعزموا على المسير عنهم والرواح، أخذوا حمارًا مذبوحًا، وجعلوه في ماء أهل القصر مطروحًا، وكان ماؤهم خارج القصر من قريب، إلى حدّ ما يجيد الرامي به ويصيب، فأنتن بعد ذلك عليهم الماء، ووجدوا لفقدة ألما، وقاسوا منه شدة وظمأ، فبادروا إلى الحفير، فأظهر الله ماء عين غزير، فشربوا منه وارتَوَوا، وتيقنوا النصر من ربهم وارتجَوا، وحكموا به لقوة رجائهم وقضوا، فنالوا بذلك الأجر والفوز وحَوَوا، ولكنهم دفعوا بالتي هي أحسن، فأعطوا فرسًا من تظاهر بالشر وأعلن، فقبلوها منهم وانصرفوا، ورحلوا عنهم وانكفوا.

فأرسل ربيّع بن زيد يخبر عبد العزيز بذلك الكيد، ويعلمه بما صدر وجرى، إذ لم يكن به درى، فأمده بكثير مال وزاد، وأعطاه سلاحًا وأهبة الاستعداد، وأرسل عبد العزيز إلى مبارك بن عبد الهادي، بأن يساعد ربيّع ويقوم معه على أهل الوادي، فحين آتاه الرسول والمكتوب، بادروا إلى ذلك المطلوب، وسار حتى نزل ذلك القصر، وشد الله تعالى به لربيّع الأَزر، فحاول جماعة

الخطاطبة[١] بناء قصر مشرف على ربيّع، وكانت لذلك طالبة، وفي إخراجه من قصره راغبة، فنهاهم ربيّع وحذرهم، وخوفهم وأنذرهم، فلم ينتهوا عن المراد، وشمروا في طرق الفساد، ونصبوا راية الحرابة، وشمر كل منهم في البناء ثيابه، فحين شرعوا في البنا، زادهم الله وهنا، وقتل المسلمون ذلك البنّا، فحين قُتل منهم بنّاهم، ولم يدركوا من البناء مناهم، بعدما غرهم الشيطان ومنّاهم، ألَّب عليهم جميع أهل الوادي وتغلبوا، وراموا هلاك الموحدين وتطلبوا، وجمعوا لهم كثيرًا من الآلات، وسعوا إلى ذلك بأسباب وصناعات تسمى الزحّافات، وكانت صناديق من خشب مطبقة، لم يُدْرَكْ مَن بها ولم يُصَب، وفيها من ذوي البأس رجال، وبأيديهم مفاتيح تلك الأقفال، وتسير محمولة على دراريج، يُسمونها العجل أهل ذلك المحل، يرومون إذا قربوا من السور هدمه بلا محذور، وكان به من الناس متحصنين بدروع البأس، وفي كل صندوق ثلاثون من الأبطال، فساروا يريدون السور من غير إمهال، فلما قارب الجدار، لم يكن لهم إليه تيار، ولا وصول ولا اقتدار، بل وقفت الزحافات دونه بعد انكسار إحداهما وانكشاف الأخرى، فتبين من فيها، فأخذ المسلمون يرمونه فقتلوا منهم تسعة، ولم يكن فيهم ولله الحمد منعة، وزحفت تلك الجموع، وتداعت إلى هدم السور تلك الربوع، فرجعوا بالحرمان والخذلان، ولم يفدهم ذلك الكيد والشأن، وأخذ أهل الإسلام منهم سلاحًا ودروع، ولم يكن أحد منهم بما شاهد من الكيد مروع، ولا جبانًا ولا جزوع.

ثم بعد مضي ليال وأيام، أراد الملك العلام على بعض البروج الانقضاض، فصار لأهل الباطل على أهل الإسلام ركضة وانتهاض، فبادروا في الحال بلا

---

(١) من الدواسر.

إناءة ولا إمهال، وساروا على أهل القصر، وراموا بهم وقوع أمر، فحمى الله ﷻ المسلمين، وقتلوا ثلاثة من المشركين، ورجعوا ولله الحمد مجروحين مقروحين، ثم بعدما انقضى زمان وأمد، تجمع كل من أهل الباطل ونهد، وحزّب كل منهم وقصد، على أولئك الأقوام، وذلك حين وقع من السور بعض الانهدام، فوقع عند السور القتال والازدحام، وحمي الحرب وحان الحِمام، وحقن الله دماء ذوي الإسلام، وقتل من ذوي الشرك والضلال، في ذلك الوقت والحال، أربعة من شجعان الرجال، ثم طلبوا من المسلمين النزول والخروج، فكان للمسلمين إلى ذلك ميل وعروج، فأخذوا منهم الأمان، بشرط ما أخذوا منهم من السلاح في ذلك الزمان، والخروج عن ذلك المكان، ونزل المسلمون منه، وخرجوا بعد ذلك عنه، وقصدوا مبارك بن هادي، فكان بإكرامهم مُبَادي.

ثم بعد ذلك بأيام، قدموا على عبد العزيز الإمام، فأكرمهم جزاه الله ﷻ خيرًا غاية الإكرام، وأمدهم جميعًا بكثير من الطعام، ورفدهم منه بجزيل من الحطام، فرجعوا من عنده بأعظم المقام، وكان لهم في الدين أوفر قيام، فبنوا لهم قصر، وشاع لهم بذلك ذكر، وكان مقابلًا قرية تمرة[1]، فنفذ الله ﷻ بسببه في الوادي أمره، فأقاموا في ذلك القصر مدة شهور، وللدين منهم انتشار وظهور، وغارات أبدًا لا تفارق ولا تبارح، بل تفاجئ وتغادي وتراوح، جميع تلك القرى والقصور، فلم يكن لأهل ذاك القصر عن جهاد مَن حولهم تقصير ولا قصور.

ثم بعد ذلك تقضت أيام، وطال لهم فيه مقام، رغب جماعة كثيرة وفئام، في

(١) بلدة تقع في منطقة وادي الدواسر في نجد، تبعد عن السليّل حوالي ٢٨كم غربًا.

منهج الدين وتجريده، والقيام بنصره وتأييده، وهم الحنابجة والعمور والولامين[١]، فأرسلوا إلى ربيّع ومبارك يريدون الدخول في الدين، ويطلبون منهم أنهم يأتون إليهم، ويقدمون عليهم، فأجابوهم إلى ما أرادوا وطلبوا، فأُنِيلُوا فضيلة الإسلام وحُبُوا لما أحبوه ورغبوا، وحاولوا كغيرهم في إطفائه سابقًا وتعبوا، فلم يحصلوا ما أمَّلوه بعد أن سئموا ونصبوا، فعاهدهم على الحق والهدى، والتبيين في طمس منار الضلال والردى، وطلبوا من ربيّع ومبارك النزول معهم حتى يجاهدوا معهم العدا، ويجالدوا من تعدى عن الحدود واعتدى، وراح في طرق الشرك واغتدى، فكان منهما إلى الدعوة ميل وإزماع، وإلى الإجابة لما أرادوا حث وإسراع، فخرج ربيّع من القصر وسار، وكان له في الدراسة عند الحنابجة مقام وقرار، فأعلن عندهم لله تعالى بدعوة التوحيد، وكان للدين فيهم تصدير وتوريد، ولأهل الضلال فيهم تنغيص وتنكيد، ورعب ليس وراءه مزيد، لا يطيب لهم في الوادي سكن، ولا تطعم عيونهم لذة الوسَن[٢]، ويدعون على مَن جَرَّ ذلك عليهم وسَنَّ، وأرهف المواضي على إظهاره وسَنَّ، وأحمى عليهم الغارة وشَن، فلما طال عليهم الأمد والزمان، وقاسوا منه مصائب وامتحان، ولم يجدوا لهم نفعًا مما كانوا يعبدون، ويستغيثون بهم في الشدة ويدعون، ويخافونهم أشد الخوف ويرهبون، ويؤثرونهم في المحبة على الحق ويرغبون، من يكشف عنهم هذا الخطب، ويُفرج لهم هذا الكرب، كلا، لقد خابوا وخسروا، وضل سعيهم وعثروا، وأشركوا بالله تعالى وكفروا، فلم يعانوا ولم يُنْصَرُوا، فعند ذلك اجتمع رؤساء ذلك الشأن، ومن تظاهر بالفسق والعصيان، وتفكروا في الحال والمصير،

---

(١) من فروع قبيلة الدواسر.

(٢) النعاس.

وشرعوا في إبرام حبل التدبير، وهيهات، قد نفذ القضاء فيهم والتقدير، ولكنه في إبانه وحينه يصير، فلم يلفوا لهم إلى المراد سببًا ولا ملاذًا، ولا مرتجى ولا ملجأ ولا معاذًا، إلا إلى الوصول إلى نجران، كي يستجيشوا من هناك من العربان، فاجتمع رأيهم على ذلك المنوال، وظنوا أنهم يُدركون من المسلمين به منال، ويطفؤون نور الله الذي ربا في الضياء والاشتعال، وأزال دياجر الإشراك والإضلال، فخرج رؤساؤهم الفجار، وقوّادهم الأشرار، وهما جماهر كبير الرجبان، وحويل كبير الوداعين ذوي العصيان، فعمدوا إلى رئيس نجران، وأخبروه بجميع ما كان، وبثوا ما جرى عليهم من أهل الإيمان، وشكوا عنده بث الهموم والأحزان، وندبوه على إغاثتهم سريعًا من غير توان، وأخبروه أنه إن لم يبادر إلى حسم هذه المادة، ويقطع السير والسلوك في هذه الجادّة، وتصير أسنة عزمه مشحوذة حادّة، وأهل الدين من فرط حده وحدته نادة، فليس والله دون بلدانك، والهجوم عليك في أوطانك، لنا فئة مانعة رادة، ولا جنود لهم مصادرة صادة، فاختر لنفسك قبل اتساع الخرق على الراقع، وراموا من عداوتهم وسخف عقولهم مدافعة النازل الواقع، والمقدّر في سابق الأزل فليس له من الله دافع، فتعالى وتقدس من لا تحيط بغَيْبِه النُّهى، وتقف إذعانًا لهيبته المخلصون فيما أمر ونهى.

فلما سمع الرئيس مقالهم الفظيع، وتخويفهم الشنيع، سرى إليه الرعب والوجل، ومزج شغاف قلبه ودخل، وغره الشيطان والنفس والأمل، وما رأى من الخوَل[1]، ومن يسير معه حيث سار من الدول، فعز ربنا وجل، حيث لم يأخذ الظالم على عجل، ولا يدعه أيضًا همل، بل ينتقم منه على مهل، فيما قدر

(١) أي: العطاء.

له من الأجل، فنهض إلى تلك الإجابة، واستدعى للسير أصحابه، وأزمع على ذلك طِلَابَه، فكان ولله الحمد الذل غايته ومآبه، فسار مُجْدًّا يريد سرعة الوصول حتى يفوز بالمأمول، فنزل على الرجبان والوداعين، الذين كانوا لمجيئه من الساعين، فاجتمع عنده خلق لا تعد ولا تحصى، ولا تحسب ولا تستقصى، فحين رأى تلك الأمم، سلك معهم ذلك الأَمَم، وارتحل بمن معه ممن نهج مناهجه، فسار حتى نزل على الحنابجة، فتراموا معه من بعيد، واقتتلوا قتالًا شديد، فلم ينل منهم ما يريد، وأقام على هذه الحالة يسدد عليهم سهامه ونصاله، ويمد من أسباب المكر، ما ينتجه الرأي والفكر، وكل يوم تطلع شمسه وتغيب، يجري ويصدر من القتال فيه بينهم أوفر نصيب، ولكنّ القريب المجيب، ثبت أقدام أهل التوحيد، وكان لهم معينًا ورقيب، وربط على قلوبهم فلم يمازجها إرجاف ولا وجيب، بل كان صدر كل واحد منهم منشرحًا رحيب، فلما بان له منهم الإفلاس، وكان من المراد على بأس، رأى أن ليس عليه في الارتحال بأس، فارتحل ولله الحمد رغمًا على ذوي الإبلاس، وأهل الضلال من الناس.

فلما ذهب رئيس نجران منصرفًا، وولّى ذليلًا منحرفًا، ورجع إلى بلاده متأسفًا، رجف قلوب قرى الدواسر، فكان بعض منهم إلى طلب الإسلام مبادر، فطلب الرجبان من ربيّع الدخول في الإسلام والإيمان، فأجابهم إلى ما طلبوا وأرادوا، وعاهدوا على ذلك فزادوا واستزادوا، وأقبل جميع الوداعين، وكانوا في الإسلام راغبين، وتتابع على ذلك كافة القرى، فأغناهم الله تعالى بعدما كانوا فُقَرَا، ولكن نفوسهم لم تكن بذلك تطيب، ولم يكن لهم إذ ذاك من النور حظ ولا نصيب، ولكنهم يقولون: ما برحنا حربًا يُصاب منا ولا نصيب. فانقادوا مستسلمين، وأذعنوا للدين مكرهين، فلما صدر ذلك عنهم، وفد ربيّع

وجماعة منهم، على الشيخ وعبد العزيز وأخبره بما صدر، فحمد الله تعالى وشكر، وقابلهم بالحشمة والإكرام، وأجزل عليهم الصلة والإنعام، وطلبوا منه معلمًا للتوحيد والأحكام، فأرسل معهم عبد الله بن فاضل، فكان لوظيفة التعليم فاعل، وبقوا على ذلك نحو ستة شهور، ثم كان لهم عن الدين إعراض ونفور، وللشرك وِرْدٌ وصدور، وانشرحت لهم به صدور، واجتمع على ذلك الرجبان والوداعين، وخلعوا عرى التوحيد والدين، ودخلوا فيما كان لهم معتاد، وسَنَن الآباء والأجداد، وشربوا كؤوس الغي والفساد، وأقاموا على الضلال في استبداد.

وجاء الخبر عبد العزيز بذلك، فجهز لهم سليمان بن عفيصان مع جيش يجاهدهم هنالك، ويوردهم من الهلاك مسالك، ويقحمهم منه أعظم المهالك، فسار بمن معه ممتثلًا، وقدم عليهم عجلًا، فصب عليهم من العذاب عارض سكوب، وشب فيهم لظى الخطوب، ودام فيهم القتل والقتال، حتى أنكا أهل الضلال، ونكد عليهم العيش والبال، وضاق عليهم الحال، وعاينوا عقوبة الأفعال، عاجلًا من غير إمهال، فبعد ذلك رفضوا وهانوا، ورغبوا في الإسلام ودانوا، فطلبوا ذلك من سليمان، فأجابهم من غير توان، وشرط عليهم القدوم على عبد العزيز معه في الحال، والرضا بما يريد من النكال، فقدموا معه إلى الدرعية، راضين بما يصدر عليهم من قضية، فعاهدوا عبد العزيز على الإسلام، وشرط عليهم في عقد الأحكام ألفين ريال، وألف اتفق أن تسلم في الحال، فالتزموا ذلك وتحملوه، ووفوا به وسلموه.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، أدام الله تعالى له النصر والتمكين، فحث سيره ومسراه، وكان وصوله عنيزة هو الذي اقتضاه ورآه، وذلك أنه نما إليه صحيح الخبر، أن بعضًا من أهل عنيزة بحث عن أسباب الارتداد وحفر، وتحقق ذلك

عنه واشتهر، فعند ذلك أجمع على السير إليهم وظهر، فنزل عليهم بعد أيام وليال، ومكث عندهم يستبري الحال، ويتحقق ذلك على يقين، لئلا يقدم على ما يريده بتخمين، فيخالف قول رب العالمين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾، فلما لاحت له شمس التيقن والإيقان، من عدول أهل الإسلام والإيمان، من سكان ذلك المكان، وتحقق ذلك الأمر واستبان، وكان آل رشيد من ذلك النفر والملا، أمر عليهم بالجلا، وكل من لهم تابع، وفي أسباب الشر طامع، وأزال منها كل من يحذره ويخشاه، وأمّر عليهم علي بن يحيى لاختياره ورضاه، ثم انصرف راجعًا.

وفيها غزا سعود بالمسلمين يريد بني خالد، فأقام في الدهنا يُريد أن يتحسس، ويتفحص الأخبار عنهم ويتجسس، فاستقر الخبر أنهم قد أشملوا وثبت عنده، فبدا له عنهم ورفض قصده، وانصرف.

وفيها غزا سليمان بن عفيصان وجمع من الموحدين، وكانوا لأهل قطر في تلك الغزوة مريدين، فأسرع في سيره لأجل قضاء الوطر، فلم يلبث أن صبّح الغارة آل أبي رميح من أهل قطر، فدهمهم في تلك الأرض على اغترار، فلم يتقدم قبله إنذار، وحصل منهم للحرب بدار، وجولان دون المال والأعمار، حتى أراد الله للمسلمين عليهم الانتصار، فانهزموا وولّوا الأدبار، وقتل منهم نحو الخمسين، وأخذ جميع ما عندهم من الغنم والسلاح والأمتعة والركاب، ورجع نبيل المطلوب وآب.

وفي تلك الغزوة صبّح سليمان بن عفيصان بلد الجشة[1] من الحسا، فلم

---

(١) تبعد عن مدينة الهفوف حوالي ٢١ كم.

يشعروا إلا بعد الحرب والهم والأسى، وقد ملك عليهم السور، وحاط بهم المكروه والمحظور، فانتدبوا للقتال، وتداعو للمجال ولقاء الأبطال، وبذلوا الجد في الجلاد، مخافة الاستيلاء على البلاد، واستيصال العباد، وطال الحرب بينهم ذلك اليوم، وقتلت بعض رجال من أولئك القوم.

وفيها أمر شيخ الزمان، وعلامة الوقت والزمان، وحائز قصب السبق في الميدان، ذو الحجج التي بهرت حين ظهرت، والقواطع التي صدعت حين صدحت، والبراهين التي قمعت إذ لمعت، وسطت على الأعداء لما سطعت، المزيل عن التوحيد برقعه، المبين لذوي الألباب حسنه وموقعه، الجالي دجى الضلال، والقالي للغواة الضلال، كاشف غيهب البدع والإشراك، القائم في ذلك حسب الطاقة والإشراك، وليس بمداهن فيه ولا تراك، ناهج منهج البيان والصواب، محمد بن عبد الوهاب المسلمين أن يبايعوا سعودًا على الإمارة بعد أبيه، أطال الله تعالى عمره، وصرف عنه السوء وأجاره، وكثّر جنده وأنصاره، ومدّ في أجله طول الأمد، وأنجح له ما أراده وقصد، فنهض إليه كافة الناس، وتناوبت البيعة أنواع وأجناس، وأعطوه الصفقة المحققة من غير التباس، فاتضح له نهجها واستبان، حتى بايع على ذلك كافة أهل التوحيد والإيمان، وتعاقدوا على التزام الطاعة بالأيمان، فتثبتت له عند ذلك الإمارة واستمرت، وحققت له بعد والده واستقرت، وكانت بيعة معلومة مشهورة، متقنة بأحكام الشرع معدودة، مؤسسة دعائمها على القانون المطلوب الشرعي، والمنهج المرغوب المرعي، لا ينازعه أعاذه الله من ذلك إلا شرير ظالم، ولا يقوم عليه إذ ذاك فيها قائم، إلا وهو متعد غاشم، وصل الله تعالى بالائتلاف حبلهم، وجمع على المحبة والاتفاق شملهم، وأجارهم عن ركوب خطر الاختلاف، وانتهاج منهج القطيعة والأجناف، وحماهم عن الوقوع فيما دمر أولئك

الجموع، وأخلا منهم المنازل والربوع، وطهر عن الشحناء قلوبهم، وأنالهم سؤلهم ومطلوبهم، وذبّ عنهم ما دَبّ في الأمم قبلهم، من الحسد، الذي أهلك الديار وأهلها فلم يبق منهم على أحد، وذلك بعدما عرف أبوه حاله ومسيره، وتحقق سيرته واختبره، فترجح عنده بيقين العلم والفهم، على التحقيق والجزم، ما شرف به من الدهاء والحزم، وما خول من السياسة والعزم، وما تلألأ في غرته من طالع السعادة، وما لاح في جبينه من بارق السيادة، وما عاناه في رفع منار الهدى من مصادمة أهل الردى، حتى رفع الله تعالى به للملة الوسطى عمودًا، وعاد معينها بعدما كان آجنا مورودًا، وأورق به غصن الحق بعد ذبوله، وأسفر قمر التوحيد بعد أفوله، فرآه أهلًا للسياسة، وكفؤا لمنصب الرئاسة، فحمل أعباءها كاهله، فكانت إليه آيلة آهلة.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، فوافق البيعة أسلافًا من عنزة مجتمعين، وكانوا إذ ذاك بأرض قني[1] من نجد مقيمين، ولم يكونوا أولئك نتيجة سيره وقصده، ولكن عرضوا له في طريقه وجدّه، وغنمه الله تعالى لإسعاده وسعده، فلما رأتهم من المسلمين أولو التقدم والسبق، قالوا هؤلاء آتوك وفق، وعرفوهم على اليقين والتحقيق، وكان هذا الطريق أيمن طريق، فقد نالوا منه مرادهم من غير نصب ولا تعب ولا تعويق، فشن عليهم الغارة المسلمون، وأُتُوا من حيث لا يظنون، فتبادر من عندهم من فارس وشجاع، وانتدب إلى الأفزاع، وتسربل للطعان والدفاع، وتلاحق من عندهم من العدد، ولم يبق منهم أحد، ومن-تهم أنفسهم الغرارة، أنهم يقمعون أهل الغارة، فطاعنوا زمنًا يسير، ورأوا أن ذلك لا يجدي ولا يضير، وليس دون الفرار من مصير، ولقد صدقوا في العزم والأفعال، ولكن

(١) في عالية نجد.

عادة الله تعالى في أهل الضلال، سرعة الخذلان والإذلال، فانهزموا على الأعقاب، وليس لهم من دون الذلة والخزي من مآب، وقُتِل منهم في ذلك المجال عدة من الرجال، وغنم المسلمون منهم غنيمة كثيرة من أنواع المال.

وفيها غزا سليمان بن عفصان مع جمع من قومه أهل الإيمان، وقد أمره عبد العزيز أن يغزو من الحسا العقير[١]، فحث لذلك القصد والمرام والسير، فأسرع في ذلك المنهاج، وطوى تلك الفجاج، حتى وصل إلى ماء حرض، فإذا عويس[٢] بن غفيان[٣] مع غزو أهل اليمامة خارجًا من الحسا قد عرض، وكانوا نحو الخمسين، وقد خرجوا من الحسا مغترّين، ولبلدان المسلمين مريدين، فالتقى معهم أهل التوحيد، ونازلوهم منازلة الأبطال الصناديد، فبذلوا دون أعمارهم الجهد الجهيد، وأبدَوا من الإقدام ما ليس وراءه مزيد، فأحانهم[٤] القوي المتين، فقتلهم المسلمون أجمعين، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فأخذوا ما معهم من ركاب وسلاح، ثم سار لقصده فرحًا مرتاح، فجد السير حتى صبّح العقير، فأخذ ما في الخان من الأموال، وصعد القلعة مَن فيه مِن الرجال، فأقاموا فيها متحصنين، وأصبح بيوت الجريد به محرّقين، أضرم في جميعها النيران، سليمان بن عفيصان.

ثم دخلت السنة الثالثة بعد المائتين والألف.

وفيها غزا سعود، بلغه الله تعالى المقصود، ومعه جموع كثيرة هائلة وجنود لا يحصى لها عدد ولا يحصرها أحد، وتوجه يريد بني خالد، وكان على لقائهم

---

(١) الميناء المعروف. يبعد عن الأحساء حوالي ١٢٠ كم.

(٢) تصغير «عيسى».

(٣) قال ابن بشر (١ / ٨٣): «العبد الفارس الشاعر المشهور».

(٤) أي: أصابهم بالحَين، وهو الهلاك.

جاهد، فجدّ إلى مراده السير والسّرى، وطرد عن عيونه في ذلك الكرى، حتى أراد الله تعالى أن يلتقي الجمعان، في أرض بني خالد بمكان، وكانت جموع بني خالد قليلة العدد، وأكثرهم متفرقون في أرض ذلك البلد، ووافى منهم من العربان والأسلاف، قوم دويحس وعبد المحسن من غير خلاف، فلما طلع عليهم سعود وجنوده، كان كل منهم الهروب مقصوده، ولم يعزموا على إقامة وبقاء، فضلًا عن مقاتلة ولقاء، ولكنهم يرجون تلك الساعة، يدبرون من الرأي فسيحه واتساعه، فأسرعت إليهم من تلك الجنود فرسان، وناوشوهم بعض الطعان، ولم يطل بينهم ميدان، ولم يتفق مجاولة طويلة بين الفرسان، وكان ذلك لموجب وشأن.

وذلك أن سعودًا، حرسه الله تعالى، أَسَرَّ له في ذلك اليوم أن بعض من عنده من القوم يريد الخيانة لبني خالد، وأنه على ذلك مواعد، وتحقق ذلك الأخبار، فلم يكن له إلى اللقاء اختيار، فسأل الله تعالى ودعاه واستخار، فأرشده لخيرته وإرشاده، وهيأه إلى إرادته وإسعاده، فانصرف راجعًا إلى بلاده، ومر بلدان أهل القرى فأخذ ما عندهم لبني خالد من الزاد، وقتل عيونًا قبل الملاقاة لعبد المحسن.

ولما رجع سعود مع ما أتى معه من تلك الجنود، ولم يلتق مع تلك الشرذمة القليلة، كان ذلك إلى طغيانهم وعتوهم وسيلة، وعلى فنائهم وإذلالهم حيلة، وأي حيلة، ولكنها لم يحكم الرأي لها عَقدًا، ولم ينظم الفكر لها عِقدًا، ولا أحسن إبرامها التدبير، بل القضاء والتقدير.

وفيها غزا سعود، حرسه الله تعالى، بالمسلمين الحاضرة منهم والبادية، بعدما بعث إليهم بالجهاز مناديه، فأسرع كلٌ منهم إليه مباديه، وسار حتى نزل خفيسة الدجاني[1]، ينتظر من قومه القاصي والداني، فلما اجتمعت الجيوش

---

(١) روضة بالصمان.

عنده، أرسل إلى والده يبين له قصده، ويشير عليه بما يشاء ويريد، لأن أباه مبارك الرأي رشيد، فأشار عليه إلى ثويني بالوصول، فعسى أن يحصل منه المأمول، فسار إلى ذلك المراد، يريد أولئك الشداد، وجاءته في أثناء طريقه عيونه، حتى تخبره بتوفيقه، فأعلموه أن جميع الأعداء، وأهل الزيغ والردى، كلهم على حمض[1] مجتمعون، فعجّل إليهم لئلا يكونوا بمجيئه يعلمون، فلم يجتهر أحد قبل الغارة، فكانت لهم هي النذارة، فلما أقبلت عليهم فرسان الإسلام، كان لبني منتفق إليها بأس وإقدام، وسرعة اختلاط والتحام، فانكسرت فرسان المسلمين، فأمر عليهم سعود أن ينيخوا أجمعين، وأخبر أهل الدين والإسلام، أن ليس هنا إلا الصبر على ما قدر العلام، وتجريد مواضي العزم والهمم، فعاقبة الفشل والفرار تذم، ويحصل بها لفاعله الندم، فوطنوا أنفسهم على الزحام، وعرفوا أنهم على أحد الحُسنيين: الغنيمة أو دار السلام، فاصطفوا ميمنة وقلبًا وميسرة، وأقبلت تلك الجموع تصادم كل منهم، فلم يلفوا على المسلمين مقدرة، وقد بذلوا دون الهزيمة المعذرة، فلما لم يجدوا بُدًّا إلى العز والسلامة، وعرفوا أنهم مهما أقاموا ذاق كل منهم حِمَامَه، فامتطوا الأقدام في الفرار والانهزام، ولم يصبروا على الزحام، وكلٌّ من أولئك الشجعان رضي بالذل والهوان، وأرخى له الأوسان[2]، وطاع بها قهرًا من غير إذعان، فغنم أهل الدين والإسلام، ما معهم من جميع الحطام، على كثرة أجناسه وأصنافه، وفرط تباينه واختلافه، من بعض الخيل والأثاث والأمتعة والخيام، والصيوان[3] المشهور الأعلام.

(١) شمال قرية العليا، بالقرب من حدود الكويت.
(٢) الغفوة.
(٣) يُطلق على الخيمة الواسعة.

ولما حقق الله تعالى لسعود الإسعاد، وأناله من أعدائه المراد، وأراد الانصراف إلى البلد، ظن كافة غزاة المسلمين أنهم يصيرون لقرية واردين، بل جزموا بذلك وتحققوه على اليقين، لكن أراد أمرًا فأراد الله ضده؛ ليخذل الباطل وجنده، ويظهر شرف من أراد عزه ومجده، فلما أناخ سعود للراحة في القائلة، كانت نفسه عن ورود ذلك الماء مصروفة مائلة، وبدا له عن ذلك الطريق، لما أراد مولاه له التوفيق، وأعرض عن ذلك المراد، فلم يكن له إليه إلمام، لما أراد الله له العز والإكرام، فلما استقلت به راحلته وثارت، وصرف وجهها إلى غير قرية بهتت الغزاة وحارت، ووجلت قلوبهم من ذلك وطارت، فبادر إليه صالح أبو العلا، وأخبره بتململ أولئك الملا، وكان أبو العلا هو الدليل، فأخذ يلاطف سعود ويستعطفه ويستميل، حتى أعلمه أنه يريد الشرب من الوفرا[1]، ليقضي الله تعالى له أمرًا، فلما علم الدليل ذلك الحال، واستولى منه صحيح المقال، أخذ يشدد ذلك عليه، ويعسر المسير إليه، وقال له وهو في ذلك صادق: تصل إلى بلادك في أحسن الطرائق، قبل أن تصل إلى ماء الوفرا، فاختر لنا ولنفسك الطريق الأحرى. فلم يُجْدِ فيه ذلك الكلام، فسار حتى ورد الماء تلك الأيام، فشرب من الوفرا، ونوى بعدها الحفر[2]، وجد في سيره يريد الورد والصدر، حتى إذا توسط وغارب البيد، عنّ لهم أن على ماء الحفر طلبًا رصيد، وحزبًا يريدهم قعيد، فعلم الله حالهم؛ فلطف بهم وأنالهم، وسقاهم من فيض السحاب شؤبوب، وأمطرهم من الرحمة عارض سكوب، فاستقوا من ذلك العذب الزلال، فطاب لهم الحال، لكن لم يعد خطّتهم ذلك الوابل، بل

---

(١) مدينة صغيرة تقع في أقصى جنوب الكويت قرب الحدود السعودية، تابعة لمحافظة الأحمدي، وكانت جزءًا من المنطقة المحايدة.

(٢) حفر الباطن.

كان لإغاثتهم نازل، ولريّهم هامل، فنزل عليه يريد جميع الغنيمة، فساق الله تعالى من أياديه الكريمة، وأهدى له من مواهبه الجسيمة، ركبًا من آل سحبان[١]، كبيرهم ابن مغجل، فقُتلوا أجمعين، وكانوا قريبًا من التسعين، ثم انصرف إلى بلاده مؤيدًا منصورًا، مأنوس القلب مسرورًا، ورايات الإقبال عليه خافقة، والألسنة بتوفيق الله له ناطقة.

وفيها غزا سعود، أناله الله تعالى مراتب السعود، فسار بالمسلمين يريد الأحسا، فحث السير لذلك المرام، والهجوم على أولئك الأنام، حتى أشرف على البلاد، وظهر له منها السواد والقتام، فأناخ على المبرز[٢] حين غطى الضياء الظلام، واستحكم الكرى والمنام، في مقتل أولئك الأنام، فلم يتبين من النهار ضوؤه وبياضه، ويبدو من الإظلام تقشعه وانتهاضه، حتى بدت خيله وحُمَاته، وشهرت أصوات البنادق رُمَاته، وقد كانوا قبل ذلك الوقت والأوان محيطين بفريق العتبان، فحينما نهضوا يريدون الأصوات، أجاد كثيرًا منهم أولئك الرماة، فلم يكن لهم سبيل إلى الخروج، بل كانوا إلى السطوح في عروج، فدافعوا عن الدخول والهجوم، فلم يكن للمسلمين عليهم إقدام بعد القدوم، ثم بعد ذلك اجتمع أهل المبرز فخرجوا إلى الفضاء، وجالوا مع المسلمين ساعة، ثم رأى سعود الانصراف عنهم وارتضى، وأحكمه فكره واقتضى، فانصرف عنهم ومر الهفوف، ولم يرد عندهم وقوف.

ثم مضى من ساعته يريد الوصول إلى قرية الفضول، فأناخ عليهم وسط النهار، وشمر للحرب معهم الإزار، وأحاطت أجناد الموحدين بأولئك القوم

---

(١) من بني خالد.

(٢) تبعد حوالي ٢كم عن مدينة الهفوف بالأحساء.

المبطلين، وأحدقت الفرسان والرماة والأبطال، بقرية أهل الزيغ والشرك والضلال، وغطّاهم من فوقهم سحاب الهلاك، وحان لهم الاستئصال والإهلاك، وأمطرهم من غيم العذاب عارض، فكان لنفوسهم الخبيثة قارض، وراموا للمسلمين دفعًا، وظنوا أن البلد تنال بهم امتناعًا ومنعًا، فجَدُّوا واجتهدوا كافة، ودعوا آلهتهم كما هو عادتهم عند المخافة، ورفعوا أكف الدعاء والسؤال، وأخلصوا التضرع والابتهال، إلى من لم يفرج عن نفسه أدنى الكروب، فضلًا عن كونه يدفع النوائب والخطوب.

فلما فرغ سعود من صلاة المسا، هبّ له نسيم الصَبا، فزال عنه الأسى، ودعا ربه بحضور قلب وبال، أن يحسن له العاقبة والحال، ويمكنه من هؤلاء الضُّلَّال، فاستجاب له ربه دعوته، وعجل له طِلْبَتَه، وأنجح له سؤله، وحقق له مأموله، فنهد إليهم مسرعًا ونهض، وحفه النصر وأقبل عليه الإقبال وعرض، فشدوا على القرية الحملة، فانتدبوا إلى الفرار جملة، فلم يلفوا لهم هداية ولا توفيق، لكون المسلمين قد ملكوا عليهم كل فج وطريق، فعند ذلك كلهم راموا الاختفاء في البيوت والدور، فنزل بهم قضاء الله المحتم المقدور، وحل بهم الأمر المشهور، فدخل عليهم في تلك المنازل، فوردوا من الحِمام أمرّ المناهل، وشربوا منه كأسًا، وأنزل الله تعالى عليهم بأسًا، فقُتِلوا قَتْلَ النعَم، وسُحِبُوا سحب البَهم، وكان أكثر الرجال وجدهم المسلمون، وهم في بيت من البيوت مجتمعون، وكانوا ثلاثمائة نفس، فقتلوا جميعًا من غير لبس، وقتل غيرهم ذلك اليوم، ممن اختفى من أولئك القوم، وأخذ المسلمون جميع ما في القرية مما ينقل من المال، وأنواع السلاح والحيوان والأمتعة والأواني وبعض الطعام شيء له بال، وانصرف سعود إلى بلاده راجعًا، وقد كان عسكر الحسا ذلك اليوم مقيم، فلما برزوا أراد منهم المسير إلى الفضول مع جميع أهل

المبرز، فأبى كل منهم وما أحرز، بل أبدى الذل والرعب وأبرز، ونادى على نفسه بالجبن والذلة، ورضي لها بالمذلة.

وفيها توفي الشيخ عيسى بن قاسم، وكان بنشر الدين مُجِدًّا قائم، ولتعليم الناس ملازم، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت السنة الرابعة بعد المائتين والألف.

وفيها وقعة غريميل[1]، وذلك أن سعودًا، حرسه الله تعالى، وأسبغ عليه نواله ووالى، جمع المسلمين ومن لهم من البوادي والعربان، وسار معه بعض بني خالد الجلوية، مثل زيد بن عريعر، وقصد بني خالد وجد في ذلك الشأن، وجاءت إلى بني خالد بذلك الأخبار، وأسرعت قبلَه إليهم الأنذار، فأرسل عبد المحسن إلى أهل الحسا يريد منهم الدول، ويحثهم على ذلك فلم يُطَعْ قوله ولم يُمْتَثَل، وحاولهم أخوه ثواب وخوفهم، فلم يجد فيهم، فانصرف منهم على عجل، بخيبة القصد والأمل، فنزل بنو خالد بأرض غريميل المعروف، وكانوا حينئذ جماعة كثيرة وصفوف، يزيدون على آحاد الألوف، وأقبل سعود بأهل التوحيد، فنزل تجاههم بتؤدة وتأييد، فتقابلت تلك الصفوف، وتقاتلت تلك الألوف، وبرحوا أول النهار في تجلد واصطبار، وجولان بينهم وطراد، ومناوشة بعض وجلاد، حتى بان وقت العصر وحان، وأُدِّيَت فريضتها على سكينة واطمئنان، ونشق أهل الدين نسيم الصَبا، وسبق كل منهم إلى الجلاد وصبا، وباعوا على الله ثمين الأعمار، آخر ذلك النهار، فصبر عند ذلك بنو خالد، ورام كل منهم أن يقاتل دون ماله ويساعد، فلم يكن المولى لهم مساعد، فزحزحهم المسلمون عن مصافهم العالية، وأمست رماتهم عن مواقفهم جالية،

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٨٥): «جبل صغير تحته ماء قرب الأحساء».

وأمسى المسلمون لأعقابهم تالية، وانهزم جميع تلك الأمم، ولكن أقبح فرار ومُنْهَزَم، فانحدرت الرماة من رفيع تلك الآكام، مشمرة في الفرار والانهزام، وملك المسلمون محلهم، وشتت الله شملهم، ولم يبرحوا بعد ذلك النزول والانحدار، في تشمير الساعد والإزار، للانهزام والفرار، وكانوا آخر نهارهم وبقية ليلهم إلى أسحارهم في هزيمة وانكسار، وضياع أموال ودمار، لا يلوي أحد على ماله وأهله، ولا يروم سوى نجاة عمره لقبح فعله، وحق للمسلمين ولله الحمد عادة الله ووعده، وعمهم فضله وإحسانه ورفده، وتفضل عليهم بتلك الغنيمة العظيمة، فحَوَوا تلك الأموال الجسيمة.

ولكن سعود نهج معهم منهج الكرم المعدود، وأحسن فيهم السيرة، ولم يؤاخذهم بما سلف منهم من الأمور الكبيرة، وسابق تلك الجريرة، وما راموا من الأمور الضريرة، فما جار فيهم ولا قطع، بل أعطى ومنع، ووصل ورفَد، ولم يُعاقب منهم أحد، وأسدى إليهم المعروف وتطوَّل، وأبدى إحسانه عليهم وتفضل.

واختلف حال أولئك العربان، بعدما حق عليهم الذل والهوان، فبعضٌ صار وجهه من ساعة الهزيمة الفرار إلى الأحسا، فازداد هوانًا وتعسًا، لم تزل فرسان الموحدين في أثرهم مطلبين، ولأكثرهم مدركين، فلم ينج بما عنده إلا القليل، مثل ابن جرذي وغيره، فما كان عليهم من سبيل. وبعضٌ صار وجهه إلى سِيف قطر، وذلك عبد المحسن وعيال عريعر الذين معه، وبعض من جماعتهم، فكلٌ قصد الزبارة وصدر، واختارها لنفسه بعد التأمل والنظر والفكر. وأكثر أهل البوادي والعربان، اختاروا الاستقرار في الحسا والاستيطان، فشمروا في طلب الأمان من سعود والدخول في حوزة أهل الإيمان، فأعطاهم ذلك وأنالهم، فأدركوا منالهم.

ولما انقضى شأن غريميل كما سُطِّر وقيل، أراد سعود، حرسه الله تعالى، من زيد بن عريعر أن يسير معه إلى الحسا، حتى يقيم فيها علم التوحيد والدين، ويُزيل ما فيها من بدع المبطلين، ويحقق على أهلها العهود، في الدخول في الطريق المحمود، حتى يستمروا على سنة خير المرسلين، ويقلعوا عما كانوا عليه من سنة آبائهم الذين كانوا لهم مقلدين، وبآثارهم وآصارهم مقتدين، فأبى عن ذلك وتعلل، وتضجّر وتململ، فأراد سعود إليهم الحصول، حتى يتم المقصود والسول، فارتحل من ذلك المكان يريد ذلك الشأن، وفي أثناء ذلك الطريق عنّ في قلبه أمر وخطر، صرفه عما إليه بدر، فشمّر للظهور إلى نجد فظهر.

وفيها غزا ربيّع المسمى قاعد بجماعة من قومه، فشمّر لعزمه الساعد، وسار بمن معه وساعده وتبعه، يريد بعض البدوان، ممن صدّ وأعرض عن الإيمان، فلما أشرف على بني هاجر[1]، وكاد أن يكون عليهم غائر، ولجمعهم مشتتًا كاسر، سوّل الشيطان لأكثر من معه من البدوان وغزاة العربان، أن يخلعوا حلة الدين ويفتكوا بالمسلمين، فلما أغار على عرب بني هاجر، انخذل عنه أكثر من معه سائر، وصار غالب أهل البادية، على من بقي معه عادية، ولم يثبت مع جيش المسلمين سوى ابن قرملة وأحمد بن نجان، فكان لهما ثبات على الإيمان، فعند ذلك اشتد الكرب والبلا، على المسلمين من ذلك الملا، ووقع بينهم القتال، وحمي بينهم المجال، واستمر الطعان والضرب، واشتد الخطب والكرب، من آخر النهار إلى هزيع من الليل، والأبطال تقحم في ذلك المعرك الخيل، فُقِتل من المسلمين نحو العشرين، وأخذوا منهم مثلهم مأسورين،

---

(١) من قبائل قحطان.

وكانت تلك الوقعة تسمى (الليلية)، عند أولئك البرية، فبعد صدور تلك القضية، طمعت في الردة النفوس الشَرية، وأهل الأفعال الرديّة، فارتد جماهر وحويل ومن معهم من الأقوام، وعدلوا عن مناهج الإسلام.

وفيها أرسل غالب الشريف إلى عبد العزيز، حرسه الله تعالى، كتابًا وذكر في أثنائه أنه يريد إنسانًا عارفًا من أهل الدين، حتى يعرف حقيقة هذا الأمر المبين، ويكون فيه على بصيرة ويقين، فأرسل إليه عبد العزيز الحصين، كي يشرح له بلسان الخطاب، وجه الحق والصواب، ويزيل عن محياه النقاب، فيبدو عند ذلك لألأ السنّة، فيدعو حينئذ لمن أوضح هذا السبيل وسَنَّه، وكتب معه الشيخ إليه رسالة، بين فيها دعوته ومقاله، ونصها بعد البسملة:

من محمد بن عبد الوهاب، إلى العلماء الأعلام في البلد الحرام، نصر الله بهم سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وتابعي الأئمة الأعلام، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

جرى علينا من الفتنة ما بلغكم وبلغ غيركم، وسببه هدم بنيان في أرضنا على قبور الصالحين، ومع هذا نهيناهم عن دعوة الصالحين، وأمرناهم بإخلاص الدعاء لله، فلما أظهرنا هذه المسألة، مع ما ذكرنا من هدم البناء على القبور، كَبُرَ على العامة، وعاضدهم بعض من يدعي العلم لأسباب ما تخفى على مثلكم، أعظمها اتباع الهوى، مع أسباب أخر، فأشاعوا عنا أنّا نسبُّ الصالحين، وأنا على غير جادَّة العلماء، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب، وذكروا عنّا أشياء يستحي العاقل من ذكرها، وأنا أخبركم بما نحن عليه بسبب أن مثلكم ما يروج عليه الكذب، على أناس متظاهرين بمذهبهم، عند الخاص والعام، فنحن ولله الحمد متبعون لا مبتدعون، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وتعلمون أعزكم الله أن المطاع في كثير من البلدان لو يتبين بالعمل

بهاتين المسألتين، أنها تكبر على العامة الذين درجوا هم وآباؤهم على ضد ذلك، وأنتم تعلمون، رحمكم الله، أن في ولاية الشريف أحمد بن سعيد وصل إليكم الش-يخ عبد العزيز بن عبد الله، وأشرفتم على ما عندنا، بعدما أحضروا كتب الحنابلة التي عندنا عمده، كالتحفة والنهاية عند الشافعية، فلما طلب منا الشريف غالب، أعزه الله ونصره، امتثلنا، وهو إليكم واصل، فإن كانت المسألة إجماعًا فلا كلام، وإن كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد، فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا يُنكر عليه، وأنا أُشهد الله وملائكته، وأشهدكم أني على دين الله ورسوله، وأني متبع لأهل العلم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقدم عبد العزيز الحصين مكة المشرفة، فأكرمه غالب وشرفه، واجتمع معه مرات عديدة، وعرض عليه رسالة الشيخ المفيدة، فعرف ما بها من الحق والهدى، وما نفته من الباطل والردى، فأذعن بذلك وأقر، ثم بعد مدة أبى وكفر، وتمسك بقديم سنته وأصر، وطلب منه عبد العزيز الحصين أن يحضر العلماء معه، فيقف على كلامهم ويسمعه، ويناظرهم في أصول التوحيد، فأبوا عن الحضور، وقالوا: هؤلاء الجماعة ليس عندهم بضاعة، إلا إزالة نهج آبائك وأجدادك، ورفع يدك عن معتادك، وجوائز بلادك. فطار لبه وارتعش قلبه.

ثم دخلت السنة الخامسة بعد المائتين والألف.

وفيها غزا سعود، أدام الله له السعود، فسار بالمسلمين، وجدوا السير مشمرين، وأنضوا الجياد والركاب، في ذلك التسيار والذهاب، ولم يزل يعنق وينص في ذلك السير، حتى قارب أن يشرف على عربان من مطير، كبيرهم الحميداني، وأسلاف آخرون في أرض الجريسية[1] مجتمعون، وقد سبقت إليهم

---

(١) قرية من قرى محافظة مهد الذهب، تبعد عن المدينة حوالي ٢٥٠كم جنوبًا.

الأنذار، ولكن لا يرد الحذر الأقدار، فعجلت لهم قبله، وكانوا مع ذلك على مهلة، فرحلوا وهجوا، وجدوا فيه وعجوا، ونادوا بالويل وضجوا، فلم يكن لهم عن الأقدار من مطير ولا فرار، فحانهم[١] بأرض الجريسية الجبّار، وخانهم كما هو عادته الغرّار، فصبحهم الجند الكرار، والحزب الذي هم ليسوا في اللقاء فُرّار، والعصابة التي هم للدين أنصار، وللتوحيد حماة وأعوان وأصهار، فحاولت تلك البوادي، أن يرد الفرسان العوادي، وجالوا معهم في الميدان، وصار بينهم قتال وقتل وطعان، حتى علاهم البأس الشديد، والهلاك الأكيد، من حماة التوحيد، فأخذوا غير بعيد، ونفذ فيهم الوعيد، فانهزموا أجمعين، واستولت أعقابهم خيل الموحدين، وقتلوا منهم نيفًا وخمسين، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال، من الأمتعة والأثاث والزاد والغنم والآبال، ورجع المسلمون بنبيل الآمال.

وفيها مات عبد العزيز بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحسن الله تعالى له المآب.

وفيها أظهر الشريف غالب كيدًا لم يظهره قبله محارب، ورام أنه لأمر الله غالب، فقاد من الجيوش والاحزاب، والحضر والعرب والأعراب، ما لا يكاد يحصر رقمه القلم في كتاب، وحشد البدوان من كل شعب وفج، وساقهم من كل واد ونهج، وجمعهم من كل ناحية وبلاد، فأقبلوا يُهرعون إليه من كل واد، وجاءوا بأهبة واستعداد، وسارت له الرسل والركبان، إلى جميع القرى والبلدان، تطلب العون والنصرة، والكل ساعده وأنجح أمره، فلم يَدَعْ بلدًا ولا قرية له أوحوله، ويظن منها الإعانة إلا أرسل إليها فورًا رسله وركبانه، ووصلوه

(١) أي: أصابهم الله بالحَين، وهو الهلاك.

بما يصلح شأنه، ويقوي تجبره وتكبره وشيطانه، وتمالأ معه الخلق كافة، وما كان لهم من الله تعالى مخافة، بل جدوا معه وقاموا، وسهروا في منامهم الليالي وما ناموا، فيا خيبتهم وما طلبوا وما راموا! أيُحَارَبُ رب العزة والجبروت، ومن بيده الملك والملكوت؟ أيُنَادَى بالحرابة أصل الإسلام؟ أيُنَادِي على هدم أساسه جميع الأنام؟ أيسعى بالوهن إلى حمى التوحيد، ويتداعى على إزالته بعد التشييد؟ أينسلون إليه من كل حدب، وينسلّ له ذو الحاجة والأرَب، ولا يهاب جناب الرب ويرتقب؟ كلا، لقد عميت الأبصار والبصائر، وانسد نهج الإنصاف فليس إليه عابر، وعُدِل عن منهج البيان فأضحى محياه غابر، وتركت عين الشريعة فكاد نميرها أن يكون غائر، حاموا على سلف الجدود والأبوة، وبذلوا فيها النجدة والفتوة، وتمسكوا في الحقيقة بتلك السنة والطريقة، والتزموها أشد التزام، فلم ينفكوا عنها على الدوام، رَخُصَ عندهم في استقامتها نفيس الحطام، وهان لديهم فيها البذل والتسلم والاستسلام، بل رَخُصَ عندهم ما هو أعظم وأجمل، وأفخم وأكمل، وأجل وأغلى، وأرفع قدرًا وأعلى، الأعمار وجواهرها، وأرادوا المناصب وظواهرها، فهانت عندهم الرقاب والأعمار، وركبوا لها ركاب الأخطار، وطرحوها في ميدان القمار، وألقوها في ذلك المضمار، فكانت عقباهم الخسران والدمار، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وكلٌ يجازى بفعله.

فلما رأى ما اجتمع في فنائه ورحابه، وما نزل في أوديته وشعابه، وما ضمه إليه تطلاب ركابه، من أولئك الخلق والجموع والأسباب والملا، الذي طبق وأوسع الفجاج والفلا، ركض برَجِلِه وتجبر وعلا، وشمخ بأنفه واعتلى، وزين له الشيطان أملا، وسعى إليه عجلا، وتحكم في قلبه أبو مرة، ونفذ فيه غيّه وأمره، وزخرف له مكره وغدره، وحقق له في مرامه سولا، وحثه على التسيار

وصولًا، وكان ذلك إلى تسويله حيلة، فأسرع إليه وحرض عليه قبيله، فبادروا إلى الخروج، وسعى إلى ذلك المنهج المنهوج، وأظهر سريعًا امتثال الطاعة، لما رأى عنده من قوة الأسباب والاستطاعة، فكانت ولله الحمد بضاعته أخسر بضاعة، فلما آن أن يبدو لظهوره شموس، وحان أن يتبين في جبينه نحوس، ويخسف في أفقه نجم سعده، ويكسف بدر توفيقه ورشده، ويقف الخلق على ما أملوه من مجده، وترجع أبصارهم خاسئة بعد مطالعتهم لبركته ويمنه وجَدّه، ومشاهدتهم فلول صارم عزمه وحدِّه، وأفول كوكب عزه ونصره وفقده، فقد جزموا وحكموا، وفهموا وعلموا، أنه يفتح نجدًا بنَجْده، ويكسر حزب الموحدين بأسبابه ووجده، والأسرار التي وصلت إليه من جده، ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، يشهد به كل ذي علم عليم، وقلب على الحق مستقيم.

جهز عبد العزيز الشريف مع كثير من تلك الأجناد والأمم، وعجله في المسير إلى نجد، فسار إليها وأمّ، وانثالت أيضًا إليه من الأعراب قبائل، وأصبح كل سوادهم إليه نائل، وقبلوا بأجمعهم إليه عاجل، وارتد كثير ممن أسلم لأجل ذلك التسيار والسير، منهم حسين الدويش وعربان من مطير، وتظاهر بأسباب الردة في كل بادية وبلده خلق كثير، لا يحصون ولا يعدون ولا يستقصون، وبدا للشرك دخان وضرام، وعلا منه بالأفق قتام، وجنح إلى الضلال بعد الإسلام، من الناس فئام، وتبين العناد جهرًا والشقاق، ونفق والله سوق النفاق، بل نجم وقام على ساق، ولكن ولله الحمد لم يحصل لأهل ذلك مراد ولا اتفاق، ولم يبدُ لشمس مطلوبهم إشراق، بل شاهدوا من الهم والغم على نصرة الدين وأهله ما أوصل أرواحهم إلى التَراق، وأسقاهم من صرف الأسف والحسرة كأسًا مريرة المذاق، فلم يبرحوا حتى الساعة في قيد من البلا وأعلاق، وأسر دائم وإفلاق، حتى يكون من الثرى تحت أطباق.

فسار عبد العزيز الشريف مع تلك العربان، وكافة الأعراب والبدوان، وأكثر الأسلاف إذ ذاك معه قحطان، فنزل سريعًا على قصر في السرّ يقال له قصر بسّام[١]، ولم يكن فيه إلا قريب العشرين من الأنام، فأناخت تلك الجموع حوله، وكان لهم عنده ضوضاة وعولة، وأصوات وزعقات، وجلبة هائلة وضجّات، وحملوا على ذلك القصر أعظم حملات، وراموا الصعود إلى تلك الشرفات، وراموا الأسباب والسلالم، والكل على التسور عازم، فأبعدهم الله تعالى عنه وأزاحهم منه، فصارت تلك الحملات عليهم خزيًا ونقمات، وأعقبتهم هوانًا ومذلات، فلم يُدرك منه فائدة، ولم يحصل على مراد ولا عائدة، فانصرف خاسئًا ذليلا، وأقام في أرض السر زمانًا طويلا، نحوًا من أربعة شهور، ينتظر من أخيه غالب الظهور.

وفي أثناء تلك المدة المذكورة، والإقامة المسطورة، عزم على الرجوع إلى ذلك القصر والعود، فرجع إليه فلم ينل ما أمل من الربح والفود، فلما نزل عليه وأناخ حواليه، عزم وآلى وأقسم بالله تعالى، ألا يبرح عنه حتى يقتل أهله ويخرجهم منه، وعزم على ذلك الأمر وصمم على اليمين، فجزم جميع من معه أنهم يستولونهم على يقين، وينالون منهم التولي والتمكين، فدهموا بالسلالم الجدار محتدين، ولبس الدروع مَن يريد الصعود لأجل التحصين، وأتوا ذلك اليوم بكيد أزعج ألباب أهل الدين، ورعبت قلوب الموحدين، ولكن أراد الله لهم النصرة والتمكين، وإعلاء كلمة المسلمين، ونجاة عباده المؤمنين، فظهرت حكمة رب العالمين، وبان خزي المبطلين، وتحقق حينئذ أهل الإيمان والإسلام، أن جميع الأنام لا يقدرون على إيجاد ذرة، فضلًا عن إيصال مضرة،

(١) في مدينة البرود، بناه بسام بن علي، جد آل ناهض، من حرب.

فزادهم إيمانًا مع إيمانهم، وأقرهم في أوطانهم، وقد قُتِل من جماعة الشريف وقومه في المرة الأولى والثانية في يومه رجال كثيرة، وصارت حاله في الذل شهيرة.

وفي أثناء تلك الليالي والأيام، أمر عبد العزيز الإمام على أهل الإيمان والإسلام، أن يجردوا مواضي العزيمة، ويصدقوا النية في الجهاد لذي العطايا الجسيمة، فقد أقبلت إليكم الفتنة العظيمة، والمحنة التي أرجو أن تكون لكم منحة عميمة، وأرسل بهذا الإعلام والإخبار إلى المسلمين في جميع الديار، وحثهم على سرعة المجيء والتسيار، فأقبلوا بعد الجهاز إليه، وأمر سعود بالظهور فظهر ونزلوا عليه، وأقام سعود في أرض رمحين عند البلدان، حتى تلاحق به جميع أمداد أهل الإيمان، ثم بعد ذلك أمر حسن بن مشاري مع بعض البادية، أن يغزو تلك العربان العادية، التي هي بالشر مبادية، فنهضوا سراعًا، فلم يفاجأ بعض العربان التي مع الشريف إلا بالخيل العادية، فأخذوا بعض الإبل، ورجعوا بعد حصول الأمل.

وفي تلك الأيام أرسل سعود، حرس الله مجده وخلّد سعده، نغيمشًا مع جمع من المسلمين، إلى أهل الوادي لكون أكثرهم عن الإسلام مرتدين، وهم قوم حويل وجماهر، وقد أرسل إليهم غالب الشريف بعض العساكر، وأمّر فيهم شريفًا يسمى شاكر، وكان أكبر تلك الأقوام بني هاجر، فسار نغيمش لذلك السبيل، ولم يكن له دون ربيّع ومبارك من تأميل، ولا مرام ولا تحصيل، فأسرع بهم اللحاق، وحصل بما له الاتفاق، واستضاءت بقدومه لأهل التوحيد تلك الآفاق، فلما قدم تلك البلاد، شمّر مع ربيّع ومبارك ومن معهما للجهاد، فخرجوا إلى اللدام[1] سائرين، ولأهل الباطل المجتمعين فيه قاصدين، وكان

---

(١) من مدن وادي الدواسر.

أهل الردة وجميع العسكر قد نزل حوله وعنده، فقصدهم أهل الإسلام في بعض الأيام، وجرى بينهم قتال والتحام، والتهبت نار الطعان، وثبت الله تعالى للمسلمين الجنان، فشدوا على أهل العصيان، فانهزموا ولم يبق منهم للجلاد اثنان، وبادروا البلاد، وقتل منهم ذلك اليوم عشرون في التعداد، منهم من آل شري[١] أربعة رجال، وقتل من المسلمين ثلاثة، ورجعوا بأحسن حال.

ثم بعد ذلك وصدوره بأمد، غزا سعود بمن معه ونهد، وجرّد مرهف البأس على أولئك القوم وجرد، فأوخد وأعنق بذلك السير، حتى صبّح أسلاف مطير، عربان حسين الدويش، الذين هم للحرب تَحُدُّ السنان وتَرِيش، فلم يَرُعْهُم إلا رجفة الأرض من سنابك العراب، والأسنة تلمع في ضياء الشمس مثل ضوء الشهاب، والبواتر التي تميض مثل البروق في خَلل السحاب، أو لمعات النار في الالتهاب، فتلقتهم أولئك المطران، وأقبلوا عليهم مجتمعين في قران، كأنهم أجنحة النسور والغربان، فراموا أولئك العربان أن يسقوا عطاش المُرّان[٢]، من نحور أهل الإيمان، فأبى الله أن يدنّس واضح غُرَرِهم هوان، أو ينال من ضررهم إنسان، أو يصل إلى تلك النحور التي هي ممر لألفاظ القران من أيدي الأعداء سنان، فأيدهم الله تعالى بعزه ونصره، وخذل العداة بقدرته وقهره، فقتل المسلمون منهم فوق العشرين، وأخذوا بعض الإبل ورجعوا سالمين.

ولما جرى على عبد العزيز الشريف وقومه ما جرى، من الذل والخزي بقي حائرًا متندمًا متفكرًا، فلم يجد له الرأي ما ينتح له المراد، إلا الكذب على أخيه غالب حتى يخرج من مكة إلى تلك البلاد، فأرسل إليه الرسل أننا قد أدركنا

---

(١) من قحطان.
(٢) الرماح.

الأمل، وأنا أخذنا بلدانًا فأتنا أنت والأمداد على عجل، فقد رُعِب أهل ذلك الوطن والمحل، والكل قد جبن وذل، فلما جاء ذلك الخبر، بادر إلى ذلك وظهر، فرجع ولله الحمد بالذلة وصدر، وناوى المسلمين ونواهم بالقطيعة فما قدر، وبذل وسار بمدافعه وقنابره(١) وجاء والله بالكُبَر، وأتى معه من الأسباب والآلات ما لا يؤمله البشر، ولا تعبر تياره الفِكَر، وكانت حاله لكل مُعبّر عبرة من العبر، وآية دالة على الوحدانية، وصدق هذه الدعوة لكل من سمعها فضلًا عمن شاهدها وحضر، وبرهانًا لائحًا لأهل التوحيد من يأتي بعد ومن غبر، ودليلًا فاضحًا لأهل الضلال والزيغ والغِيَر، فسبحان من حجب عقول من شاء، عما أبدى من الآيات وأنشأ، وطبع على القلوب الضالة عن إدراك المعرفة له، وقذفها في مهواة الدرك الأسفل من الدرك، وألقاها تعاني فيه ما أعده لها، وأودعها فيه وترك، وأخذ بمن أحب ذات اليمين فاختار كل منهم ذلك الطريق وسلك، اللهم لا تهلكنا فيمن هلك، واجعلنا ممن دان نفسه وقرنها وملك، واجعل لنا من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا وفلك.

وكان خروج غالب في شهر رمضان، الذي فيه تُغلق أبواب النيران، فلما خرج غالب ظعن عبد العزيز ومن معه من أرض السر وارتحل، حتى وافى أخاه غالبًا على الشعَرا فاجتمع معه ونزل، واستقر بهم القرار في تلك الأرض، وكل يوم يصدر منهم إلى تلك القرية نهض، ويجري منهم بأس وشدة واصطلام وحدة، وسقط للأعمار وعرض، وقد عزموا على استئصال أولئك الآنام، وثلم الدين والإسلام، ولم يخشوا قبيح الآثام، يوم الوقوف والعرض، كيف لا وأكثر البوادي به لا يصدقون، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

---

(١) القنابل.

وأقام غالب وجموعه وجنوده، وكل يوم تزجي سحب العذاب على تلك القرية رعوده، ويهدّدهم بالاستئصال والإهلاك وعوده، وأسبابه وآلاته وكيده، على مصداق قوله شهوده، ويقسم بالله العظيم الواجب وجوده، لا تفارق نجدًا حتى تدمرها عساكره وراياته وبنوده، ويتم له مراده وسؤله ومقصوده، فأبى الله إلا أن يدوم عليه حزنه ونكوده، ويشمت بهوانه وذله وخزيه عدوه وحسوده، ويتألم لما ناله محبه وودوده، فرجع ولله الحمد ذليلًا متندمًا هو وقروده، وعادت سنانير أشباله وأسوده، وأرضت أرانب قفر وبغاث نسوره وفهوده، فتبارك الذي بيده الآيات البينات، ويرفع الأعلام على انفراده بالألوهية والعبادات، ويأبى أهل الزيغ والضلالات، إلا إصرار ونفورًا، صرّف سبحانه الأحكام للناس وبين، وصرَف قلوب أعدائه عن الهدى لما تبين، وأبدع الأرض وما فيها والسموات وحفظها وزين، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

ولما انصرف الشريف غالب مرعوبًا غير مدرك لما هو طالب، بل مقتول من جنوده كثير من الرجال، مشتت الفكر مكدر البال، وجاء الخبر سعودًا عن رحيله وانصرافه، أمر محمد بن معيقل مع بعض من المسلمين، أن يتبع أثره ويغير عليه من خلافه، فبادر محمد لما أمر وجد في ذلك الأثر، فأغار على فريق من قحطان، فأخذ عليهم إبلًا كثيرة، ففزع عليهم منهم فرسان، وجالدوا لردها فلم يقضه الله لهم فما كان، وأخذ من الأفزاع خمسة عشر فرسًا نجيبة كريمة، ورجع بأوفر غنيمة.

وفيها غزا سعود، أدام الله تعالى له بالتمكين والسعود، فسار بالمسلمين وأدلج في ذلك السير، يريد شمر وعربان مطير، ولم يبرح يجد في مسيره ويتنضي فيه عزمًا، ويجرد له همة وحزمًا، حتى أدركهم عند جبل سلمى، ولم يفهموا عن مجيئه خبرًا ولا علمًا، فأناخ في ذلك المكان، عند ماء يقال له

العدوة[١]، وكان عنده عربان يُدعون البراعصة والعبيّات[٢]، قد نزلوا حذوه، فلما قضى من الصلاة شأنه، ودعا الله أن يُنزل عليه نصره وسكينته ويثبت جنانه، وأن يذلّ ويهزم بحوله وقوته عدوانه، وصبّح أولئك الأسلاف والعربان، وشنت خيله الغارة على البدوان، فعند ذلك نهض أولئك المردة العتاة الأباليس، وكلهم ما بين معلّم ومقلص وشاكي السلاح ملابيس، ورئيسهم ذلك اليوم حصان إبليس[٣]، فطاعنوا حتى وهنوا، وشاهدوا من الأهوال ما اختاروا عنده الذل وركنوا، وجدوا في الدفاع عن الأعمار والأموال والظعن، وبذلوا في ذلك من البأس ما لم يبذله أحد من الناس في سابق الزمن، حتى كتب الله تعالى عليهم ما كتبه على ذوي الضلال والفتن، وأجرى للموحدين عليهم ما أجرى على إخوانهم من ذلك السَّنَن، فشمروا في الانهزام والفرار، وجدوا في الإدبار والانكسار، وكان للموحدين عليهم الدولة والانتصار، فمنح الله تعالى المسلمين جميع أموال الكفار، واستولَوا تلك الأمتعة والأثاث والغنم والإبل، وقُتل حصان إبليس وولده، ولكنه ركب غيره فما ذل ولا انخذل، بل أخذ يَرْكب العقول ويعلو قلوب الفحول، فضلًا عن صهوات الخيول، وقُتل أيضًا منهم أبو هليبة وغيرهم رجال، وانهزموا بأقبح حال، لما قطع الله تعالى وصلهم، وجذ حبلهم، وشتت شملهم، تفرقت تلك البوادي والفرسان، تندب من حولهم من العربان، وتخبرهم بما صدر وكان، وكانت تلك البوادي ترعى الغنم وتسيم البهَم، في فياض أراضي سلمى، وتحسب أنها تنال بذلك أمنًا وسِلمًا، وترِد على رغم العدا زلال ذلك الما، وقد أغراها الشيطان في نفسها وأغواها وزين لها، أن ليس أحد يرومها ويقواها، فضلًا عن كونه يود مصادمتها ويهواها، حتى

---

(١) قال ابن بشر (١ / ٨٧): «قرب بلد حايل».

(٢) من مطير.

(٣) قال ابن بشر (١ / ٨٧) عنه: «مسعود الملقب حصان إبليس».

أوردها من الهلاك مهواها، وحينئذ وقف عليهم وناداها بدعواها، هذا جزاء الغواة ومثواها، إنها تهلك النفوس بطغواها.

فلما جاءتهم الأخبار من أولئك الأشرار بشرح حال تلك الواقعة، جرعتهم كؤوس السم الناقعة، وكانت ألبابهم منها نادة فاقعة، فتداعَوا إلى النصرة أفواجًا، وملأوا لها مهامهًا وفجاجًا، وهيأوا لها سببًا ومنهاجًا، وانضم إليه ممن حولهم كل ذي عمود، وكان إلى تلبية الداعي إجابة وعمود، ومبادرة للإغاثة ونهود، واجتماع على ذلك الباطل وشهود وعقود، وإحكام الثبات وعدم الفرار بأوثق العهود، فأقبل كلٌ منهم يولي على عدم التولي وبذل المجهود، وجاؤوا بالنساء والأطفال، والمطافيل والآبال وجميع الغنم والأموال، حتى يصدقوا البأس ولا يكون عنها صدود، فأوردهم ذلك البغي الطريق المسدود، والذل الذي كان لهم إلى حياضه ورود، ونال المسلمون بذلك الأمر المحمود، فحين أقبلوا على المسلمين يزحفون، وهم على ذلك الماء أجمعون، تأهبت للقائهم الفرسان، واستعدت لطعانهم الشجعان، والكل صدق ذلك اليوم من أهل الإيمان، فلم يستتر بالذل والجبن منهم إنسان، سوى بعض فرسان من البدوان، وكان ورودهم على المسلمين مساءً قبل الغروب، وقد أبرموا الحيلة فيه فقالوا ندهمهم قرب الليل، فإن كان منهم الهروب اشتفت منهم القلوب، وحصل لنا المنى والمطلوب، وإن كان الفرار منا كان الليل منجاة للمطلوب، فلا يدرك الطالب منه مرامه، ويجد السير والسرى والليل أمامه، وقد نشر على الساري أعلامه، ويعمى أثره وأعلامه، فحملوا على أهل التوحيد حملة ليس وراءها مزيد، وقد زين لهم إبليس، أن يجعلوا الإبل لهم عن الرصاص منتريس[1]،

(١) المنتريس: الخندق. والذي يُفهم من النص أنهم جعلوا الإبل حاجزًا يتقون به رمي البنادق. وهذه عادة معروفة في الحرب. وهي نوع من أنواع المتاريس.

فساقوها أمامهم، وصبر المسلمون حتى قاربت خيامهم، فحملوا بعد ذلك على من ساق تلك البهائم، فهزموهم وصارت الإبل لهم غنائم، وقُتل من المشركين كثير في تلك الحملة، منهم ابن الجربا من غير مُهلة، وأبرزت فرسان الكفر والإشراك من التهور في الشجاعة ما لم يصل إلى أدناه دراك، ولم يذكر له نظير في العرب والأتراك، ولكن تلقتهم الحماة بالصدور، وسمحوا كما هو العادة بالأرواح والنحور، وصدّقوا في الاشتراء والابتياع، وقالوا: والله لا نُضيع ولا نُضاع، فأمسى كل منهم ببذل العمر مطواع، وإلى الشهادة قلبه نزّاع، حتى حفهم مولاهم بوعده، ونال منهم غاية قصده، وأنزل عليهم النصر والسكينة، وكانت قلوبهم على الثبات راسخة رصينة، وأجرى في أعدائه سنته، وأجزل على المؤمنين فضله ومنته، فانهزم أهل الضلال بعدما أفرغوا الجهد والحال، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ وكان ظلام الليل في بدوّ وإقبال، وولّوا على أعقابهم في الأدبار، وكان ضوء النهار في إدبار، وكان ذلك من نتائج الأفكار، ولكن الله الكريم بفضله العميم، أنال المسلمين من أموالهم ما لا يخطر على البال، وأذاق الأعداء أليم الوبال، فشمّر المسلمون في أثرهم الأذيال، بعد أداء المكتوبات من غير استعجال، وتناول بلغة من الزاد على إمهال، واستمر الطلب في أثرهم أيامًا وليال، والمسلمون في إثرهم مجدُّون، حتى تركوا أغلب الأموال وهربوا بالنفوس يسرعون، فتراجع حينئذ المسلمون عنهم، وأجمعوا جميع ما حَوَوا منهم، من الخيل والأمتعة والغنم، ما لا يكاد يحصل مثله ويُغتنم، فالذي اجتمع عند المسلمين من الإبل يزيد على ستة آلاف، ومن الغنم فوق مائة الألف بلا منازعة ولا خلاف، ولا غلو في القول ولا إسراف، سوى ما مات في الفلاة، فلم يكن إليه التفات، ورجع المسلمون بالعز والإقبال، وباء أهل الضلال بالإذلال، وقُتِل منهم بعض رجال، منهم مسلط بن مطلق الجربا، الذي زاد في الشر وأربى.

ثم دخلت السنة السادسة بعد المائتين والألف.

وفيها غزا سعود، لا زال إلى المعالي في صعود، فسار بالمسلمين يريد القطيف وبلدانها، حين أراد الله تعالى ذلها وهوانها، وأن يدمر أهلها وسكانها، ويمزق منها أصنامها وأوثانها، ويخزي أربابها وأعوانها، فسار في ذلك مُجِدًّا، ولبغتتهم مستعدًّا، فلم يستكمل الليل راحة وإناخة، حتى كان الخِط[1] مراحه ومناخه، فأمست رواحله به مُنَاخة، وحطت خيله وفرسانه فيه يمينًا ويسارًا، وخطرَ خُطّيه[2] في فنائه تبخترًا وافتخارًا، وسابق النصر الإقبال إليه وجارى، وألفى جميع تلك القرى بلا شك ولا امترا، قومًا فجارًا، قد خلعوا من أعناقهم شعار الحنيفية، وحملوها آصارًا وخرقوا الملة السنية، فنالوا به أوزارًا، وأطفأوا مصابيحها السنية، ورفعوا للرفض منارًا، وأقبلوا على عبادة آلهتهم ليلًا ونهارًا، وزادوا في ذلك غلوًّا وعلوًّا واستكبارًا، ولقد جاءتهم النصائح فأعرضوا عنها ازورارًا، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وأصروا عليها إصرارًا، وبارزوا في ذلك إعلانًا وإسرارًا، من أحاط بالأشياء علمًا خفية وجهارًا، واستمرت جياده تجول وتبارى، حتى عرف قصده وحققه معرفة واختيارًا، فأحاطوا بسيهات بعدما تلألأ الضوء وزاد إسفارًا، وكبروا في نواحيها إعظاما لله وإكبارًا، فملئت قلوب أهل الضلال حين شاهدوا ذلك الحال، ورأوا ذلك القتال مهابة واندعارًا، وصبروا ساعة تجلدا واصطبارًا، وهموا أن يحفظوا جوانب البلد، فلا يهتك المسلمون منها دارًا، فأرغم الله تعالى أنوفهم وعجل لهم هلاكًا ودمارًا، فتسوروها المسلمون وهجموا فيها زمرًا وأقطارًا، وقتلوا من فيها فلم يجدوا لهم

---

(١) يُطلق على القطيف وما جاورها.

(٢) رمحه.

من آلهتهم أنصارًا، وأسقتهم قواضب الموحدين وأسنة المسلمين كؤوس الردى فنالوا هوانًا وخسارًا، وشربوا منها عبيطًا يزيد احمرارًا، فقُتل منهم ذلك اليوم خمسة عشر مائة إقلالًا وإكثارًا، واستولوا على جميع ما فيها من الأموال، التي لا تعدّ ولا توصف ولا تُحَدُّ استعظامًا واستكثارًا.

ثم قصد المسلمون القديح[١] فقدحت فيه زنادهم فأورت نارًا، ودهمهم المسلمون فأشعلوا فيها للموت نارًا، واستولوا على ما فيها من الأموال التي لا تماثل ولا تبارى، فعند ذلك أبدت بلدان القطيف جفلة وهزيمة وانكسارًا، فاستولى المسلمون العوّاميّة[٢] وعَنَك[٣] وغيرهما لما أخرجوا أهلهم وعمدوا إلى الفُرضة[٤] وراموا بها حصارًا، فأحاط بها المسلمون ودعوهم إلى الإسلام فأبوا إلا كفورًا ونفارًا، وأقاموا أيامًا يقاسون ذلة وجهدًا واحتصارًا، حتى بذلوا للمسلمين ثلاثة آلاف زر فقبلوا ذلك وعجلوا بها إحضارًا، ولما أزال المسلمون ما فيها من الأوثان، ومعبّدات الشيطان، وكنائس الرفض والطغيان، فأصبح أهلها عليها حُسّارًا، وأحرقوا تلك الكتب القبيحة بعدما جمعوا منها أحمالًا وأوقارًا، ارتحلوا إلى تلك الأوطان في غاية من السرور والتهان وقد حازوا أجرًا وأفخارًا.

وفيها توفي شيخ الإسلام، وعلم الأئمة الأعلام، المتبحر في العلوم النافعة المفيدة، والمعاني التي لم تبرزها سوى فكرته المجيدة، ذو الفكر الوقّاد، والذهن المنقاد، الغائص على درر التوحيد في قعر البحور، الفالق عن جواهره

---

(١) بلدة تقع شمال غرب مدينة القطيف، وتبعد عنها حوالي كيلين.
(٢) بلدة تقع على الخليج العربي، تبعد عن القطيف حوالي ٣كم.
(٣) مدينة تقع على ساحل الخليج العربي في الوسط بين مدينتي القطيف وسيهات.
(٤) اسم بلدة القطيف قديمًا.

الأصداف حتى زين بها النحور، المستنبط من كتاب الله تعالى ما يقصُر عن بعضه الفهم، ولا يقدر على إبراز شذرة منه ذوو التدقيق في العلم، المتفنن في فهم القرآن والاستنباط، فلا يقاس قعر تبوّئه ولا يغاص ولا يحاط، المتفرد في نشر أعلام التوحيد، القائم فيها لله تعالى بالتجريد، المؤيَّد فيها بالإعانة من الحميد المجيد، المسدَّد فيما يبدي فيه من الدقائق ويعيد، المنصور من الله تعالى على كل جبار عنيد، وعالم ضال مضل مريد، الذي بهر علمه حين ظهر، وشاع صوت فضله واشتهر، وطبّق أطباق الأرض صيته وانتشر، قامع أهل الشرك والضلال، ورادع ذوي الزيغ والضّلال، معزّ أهل الدين والإخلاص والجُمع، ومُذِلّ ذوي الإلحاد والأهواء والبدع، من أصبح مُحَيَّا الدين به وأضحى منيرًا، وظلام الضلال منقشعًا مستطيرًا، وثغر الحق متبسمًا تبجحًا وتبشيرًا، وأصبحت به السمحاء مرفوعة العماد، ثابتة الأطناب والأوتاد، قائمة على نهجها في البادية والبلاد، يؤمها الحاضر منهم والباد، فأرشد الله تعالى بدعوته كثيرًا من العباد، وهلك من أراد الله عليه ذلك فأعرض وناد، فلم يحضر للدعوة ناد، المقيم من السنة لاحِبَها ونهجها، المقوِّم منها مائلها ومعوجَّهَا، ناهج منهج الصواب، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، طيب الله ثراه، وجعل الجنة مثواه.

فلما أراد الله تعالى أن يصب سحاب الرحمة عليه، ويوصل تمام جوده وإحسانه إليه، ويدنيه من حضرته ويقربه لديه، اختار له منزلة الدنو من الحضرة، حتى يوفيه بفضله أجره، ويمحو عنه إزره، وكان ابتداء المرض به، رحمه الله تعالى، في شوال، ثم كان يوم الاثنين من آخر الشهر وفاته والانتقال، فنقله الله إلى جواره وحضرته، وقرَّبه إلى حظيرة قدسه وجنته، وأدناه إلى دار رضوانه وكرامته، ومحل تفضله وإحسانه ومبرّته، وكانت حاله من العبادة في الصلاة

والصيام، مشهورة بين الأنام، لا يزال سميره القرآن في دجى الظلام، ودأبه إحياء غالب الليل بالقيام، والتأني والتثبيت في تنفيذ الأحكام، حتى يتيقن ذلك ويحكمه أتم الإحكام، لا يميله الهوى عن الشرع ولا يصده، ولا تحمله على ضده عداوة ولا تردّه، بل يحكم بما ترجح له وجه صوابه، وتبين له فصل خطابه، من كتب الأئمة الأربعة، المقلدة في ذلك المتبعة، لا يعدل إن لم يجد نصًا من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ إلا إليها، ولا يعوّل إن لم يَلْفِ قاطعًا إلا عليها، بعد المراجعة والتحقيق للنص، وشدة البحث والكشف عن معارض والفحص، وكان، رحمه الله تعالى، وأفاض عليه سحب غفرانه ووالى، هو الذي إليه بيت المال يُجبى، ويُدفع إليه ذلك ويُحبى، من جميع بلدان المسلمين، ويفرقه عليهم أجمعين، وكان على حالة رضيّة، وطريقة من الزهد مرضيّة، وكان عن ذلك المال متكففًا، وعن كثرة الأكل منه متعففًا، بل يُعجله خروجًا ومصرفًا، ولا يأكل منه إلا بالمعروف، وليس أحدٌ عنه من ذوي الفقر مصروف، وكان سمحًا جوادًا كريمًا، لا يُلْفَى عنده المال مقيمًا، وكان لا يرد السؤال، إما أثاب عاجلًا، أو بعد حال، فيرجع سائله بنجح الآمال. وتوفي، رحمه الله تعالى، ولم يخلف دينارًا ولا درهم، فلم يوزّع بين ورثته مالٌ ولم يُقسم، بل كان عليه دَين كثير، فأوفى الله عنه الجليل والحقير، وقال المصنف يرثيه:

إلى الله في كشف الشدائد نفزع ... وليس إلى غير المهيمن مفزع
لقد كسفت شمس المعارف والهدى ... فسالت دماء في الخدود وأدمع
إمامٌ أصيب الناس طُرًّا بفقده ... وطاف بهم خطب من البين موجع
وأظلم أرجاء البلاد لموته ... وجل بهم كرب من الحزن مفظع
شهاب هوى من أفقه وسمائه ... ونجم ثوى في الترب واراه بلقع

وكوكب سعد مستنير سناؤه   وبدر له في منزل اليُمن مطلع
وصبح تبدى للأنام ضياؤه   فداجي الدياجي بعده متقشع
لقد غاص بحر العلم والفهم والندى   وقد كان فيه للبرية مرتع
فقوم جلا عنهم صدا الرين فاهتدوا   فأسماعهم للحق تصغي وتسمع
وقوم ذوو فقر وجهد وفاقة   حووا واقتنوا ما فيه للعيش مطمع
لقد رفع المولى به رتبة الهدى   بوقت به يعلو الضلال ويرفع
أبان له من لمعة الحق لمحة   أزيل بها عنه حجاب وبُرقع
سقاه نمير الفهم مولاه فارتوى   وعام بتيار المعارف يقطع
فأحيا به التوحيد بعد اندراسه   وأقوى به من مظلم الشرك مهيع
فأنوار صبح الحق بادٍ سناؤها   ومصباحه عالٍ وريّاه ضيّع
سما ذروة المجد التي ما ارتقى لها   سواه ولا حاذى فناها سميدع
وشمر في منهاج سنة أحمد   يشيد ويحيي ما تعفى ويرقع
وينفي الأعادي عن حماه وسوحه   ويدمغ أرباب الضلال ويدفع
يناظر بالآيات والسنة التي   أمرنا إليها في التنازع نرجع
فأضحت به السمحاء يبسم ثغرها   وأمسى محياها يضيء ويلمع
وعاد به نهج الغواية طامسًا   وقد كان مسلوكًا به الناس تربع
وجرَّت به نجد ذيول افتخارها   وحُق لها بالألمعيّ ترفّع
فآثاره فيها سوام سوافر   وأنواره فيها تضيء وتسطع
لقد وجد الإسلام يوم فراقه   مصابًا خشينا بعده يتصدع
وطاشت أولو الأحلام والفضل والنهى   وكادت له الأرواح تترى وتتبع
وطارت قلوب المسلمين بيومه   وظنوا به أن القيامة تقرع
فضجوا جميعًا بالبكاء تأسفًا   وكادت قلوب بعده تتفجع

وفاضت عيونٌ واستهلت مدامع يخالطها مزج من الدّم يهمع
بكته ذوو الحاجات يوم فراقه وأهل الهدى والحق والدين أجمع
فما لي أرى الأبصار قلّص دمعها وليست على فقداه تهمي وتدمع
وما لي أرى الألباب تبدي قساوة وليست على ذكراه يومًا توجّع
لقد غدرت عين تضن بمائها عليه وكبدٌ قد أبت لا تقطّع
يحق لأرواح المحبين أن تُرَى مقبوضة لما خلت منه أربع
وتتلو سريرًا فوقه قمر الهدى وشمس المعالي والعلوم تشيّع
فما بالها قرت بأشباح أهلها ولم تك في يوم الوداع تودّع
فيا لك من قبر حوى الزهد والتقى وحل به طود من العلم مُتْرَع
لئن كان في الدنيا له القبر موضع فيوم الجزا يُرجى له الخلد موضع
سقى قبره من هاطل العفو ديمة وباكره سحب من البرّ هُمَّعُ
وأسكنه بحبوحة الفوز والرضا ولا زال بالرضوان فيها يُمتع

وفيها غزا سعود، أدام الله تعالى له السمو والصعود، فسار بالمسلمين يطوي المهامه، ويتحمل في ذاك المشاق والمكاره، وينضي الأجسام والقلوب، في قطع تلك المفاوز والدروب، حتى وطأ بيُمنى اليُمن أرض الحروب، فشرب هو وجنوده من الحناكية[1]، فروى وارتوى، فعزم أن يصبِّح حربًا ومطيرًا على الشقرة[2] ونوى، فما أقام بعد ذلك ولا ثوى، بل سار حين ألفته منه العيون، وذكروا أنهم كلهم على الماء يسقون، وأنهم عنه منهزمون، وقد ظنوا أن المسلمين لهم لا يطلبون، فلم يتم لهم على ماء الشقرة شرب ولا ورود، إلا

(١) تقع شرق المدينة، تبعد عنها حوالي ١٠٨كم.
(٢) من قرى محافظة الحناكية، تبعد عنها حوالي ٣٠كم.

والمسلمون مِن عليهم نهود، فكُلٌّ فر بنفسه يجود، ولم يستطع الوقوف فضلًا عن القعود، فهزمهم الله تعالى بالذل والإرعاب، فشمّروا للهروب بين تلك الشِعاب، وكان للمسلمين خلفهم طِلاب، فشدوا في أثرهم بالسير والذَهاب، فلم يبرحوا عنهم ولم ينفصلوا منهم، حتى صاروا شذر مذر، وتوعروا الريعان والحجر، وتجللوا صلد ذلك المدر، فرجع عنهم المسلمون، وشرعوا فيما منحهم الله يجمعون، وغنموا غنيمة عظيمة، وكانت على المشركين أخزى هزيمة، وأخذوا ثلاثين من الخيل، وحازوا مجدًا وفخرًا، ونالوا مع ذلك أجرًا، واجتمع من الإبل في تلك الغنيمة ثلاثة آلاف، فقسمت على التسوية والإنصاف، وقتل من أهل الضلال بعض من الرجال، ورجع المسلمون بنيل الآمال، في أحسن حال، وأنعم قلب وبال، رغمًا على أنوف أناس، من ذوي الشر والإبلاس، الذين زين لهم إبليس أعمالهم وزخرف لهم أفعالهم وأحوالهم، وأحال عليهم غرورهم وأوحى لهم، فظنوا أن الطريق الذي عليه الموحدون ضلالة، وحُمق وبدعة وجهالة، وسفاهة محققة مفهومة، ووسوسة عند العقلاء معلومة، وبالخروج موسومة، وستموت بعد موت صاحبها، وينطفئ منير مناهجها ولاحبها، ويندم حينئذ قلب طالبها، فلا تلفي لها من الناس داعيًا، ولا تجد بعده سامعًا ولا واعيًا، فأبطل الله تعالى فاسد تلك الدعوى، وأخزى ذوي النفاق والأهوا، وألقاهم بقدرته في القعر الأهوى، وطبع على قلوبهم بطابع البلوى، وأعطى أهل الإسلام الغاية القصوى.

وفيها غزا هادي بن قرملة مع جمع كثير العدد، وليس معهم غير البدو أحد، فجَدَّ في سيره ذلك واجتهد، مع أولئك الأعراب، حتى وافق مطير على ماء الحنابج في ذلك الطلاب، فصبّحهم على ذلك الماء المورود، فالتقته فرسانهم فبذلوا في الذب المجهود، فاجتلدوا ساعة حتى منّ الله الودود، بالنصر على

المسلمين فأصبح كل من ذوي الشر مشرود، وأخذ المسلمون ثلاثة آلاف بعير، وفاؤوا بأحسن بشير.

ثم دخلت السنة السابعة بعد المائتين والألف.

وفيها غزا إبراهيم بن عفيصان بأهل الخرج والفرع[1] وأناس من البدوان، فشمّر لقصده وابتدر، حتى بدت له أعلام قطر، فأغار على من بدى منهم وظهر، فأخذ ما معهم من غنم وركاب، بعد مجالدة وضِراب، وصدر إلى وطنه وبلاده، بعد نيل مراده.

وفيها غزا سعود، سلك الله به مناهج السعود، فسار بالمسلمين يريد بني خالد، وكانوا مجتمعين، فشمر في ذلك وجَدَّ السير والسّرى، ولم يكن عنده خبر بما قدر الله لأولئك الورى، من ظهور برّاك وجماعته، وكان ذلك بعد قتل أبيه ورئاسته، في بني خالد والحسا وولايته، وأخذه لفرقان من سبيع وغيرهم، واعتدائه عليهم وغارته، فلما توسط المسلمون تلك الفجاج، وتسنموا ذروة ذلك المنهاج، ورأوا ما بذلك العربان من الانذعار والانزعاج، فعلموا عند ذلك خبره، وفهموا غارته وضرره، فأحضر سعود غزاة الإسلام، ونشر لهم تلك الأعلام، وطلب منهم المشورة والأفهام، وما يترجح عندهم من المرام، هل يقتفي أثر هؤلاء الأقوام، أو يقصد أهلهم ومحلهم، فليس عندهم من يحول دونه من الأنام؟ فأشاروا عليه بعد الاستشارة والأفهام، أن يعمدوا إلي أهلهم عاجلًا، فيصبِّحهم ويرجع آملًا، فذلك لدينا أولى وأرجح، وأسرع للمراد وأصلح، فأبى ما دَعَوا إليه، وقال إن الأولى والأصلح مصادمة هؤلاء الأشرار، فهو أنكى لهم وأسد في الرأي والأفكار، وصمم على ذلك الشأن، بعزم مرهف

(١) الفرع: يشمل حوطة بني تميم والحريق ونعام والحلوة.

وحزم باتر وسنان، فلم يُثْنِهِ عن ذلك رأي إنسان، وكان ذلك توفيقًا من الله وإحسان.

فنهض بعد فكرته في حينه وساعته، بعد سؤاله مولاه واستخارته، وجد في السير عازمًا، وللملاقات دائمًا، وقال بعد رفعه أكف السؤال بخضوع وإذلال: يا من لا تخفى عليه خافية في السر والعلانية، مَكِّنَّا من هؤلاء واجعل مناياهم دانية، واجعلهم خبرًا بعد عين، وأدر عليهم دائرة البلاء والحَيْن. فعجَّل مولاه له الإجابة، وأدرك منه ثأره وطِلَابه، فلما وصل إلى ماء اللصافة[1]، وقد انجلى عمن معه الوجل والإخافة، نزل بها يرصد من أولئك القدوم، ويتحرى لهم كل ساعة الهجوم، حتى أنجح الله تعالى مراده، وجاءه بشير السعادة: قم إلى السعد والإسعاد، فقد تبدى لك كوكب المدد والإمداد، وأشرق يُمنك في الآفاق، وتلألأ حظك في الإشراق، ولن ترى لأعدائك من باق. فنهض مسرعًا لذلك الندا، فإذا المراد قد طلع وبدا، فأسرعت من قومه خيل العرب البادية، فناوشهم الطعان الفرسان العادية، وظنوا أن هذا غزو لبعض البدوان، فطمعوا عند ذلك في الطعان، وراموا أن يدركوا منه أسباب التهان، فأبى الله تعالى عليهم إلا تشتيتهم في البلدان، فلما تناشبت القواضب والحراب، وتلاحمت فرسان الأعراب، طلع عليهم علم الإسلام، وأظلهم من الحمام غمام، وأمطرت عليهم من العذاب سحائب، وجرعتهم من كؤوس الردى مصائب، وحلت بهم خطوب ونوائب، واستقلت عليهم كروب غرائب، وسُدَّت عليهم مناهج المطالب، وأبدى الله تعالى فيهم أمورًا عجائب، وصار كل منهم للنجاة طالب، وفي سلامة عمره راغب، وعن حومة الوغى هارب. فأخذ المسلمون

---

(١) هي قرية الجبلان من مطير وتقع في الصمان.

يقتلون فيهم قتلًا ذريعًا، حتى قتلوا منهم ذلك اليوم ستمائة سريعًا، وأخذوا ما معهم من خيل وركاب، وجدوا في أثرهم الطلاب، وهم يأخذون فيهم ويقتلون، والمسلمون لهم مقتفون، والذي غنم المسلمون من الخيل مائتان، مختلفة النوع والألوان.

وفي تلك الأيام أغار من آل ظفير أقوام وأناس من الحجاز، لم يدركوا سعودًا فصار لهم إلى بني خالد انتهاز، فصبّحوا أهلهم، وأخذوا كثيرًا من الإبل، وحووا غالب المحل، وجرى بينهم قتال، فرجع أهل الغارة على عجل، وقد فازوا بالأمل، ولما فرغ شأن أهل الشيّط[1] وانقضى، سار سعود يريد الحسا ومضى، وأرسل غنيمًا أبا العلاء ومهوس بن شقير إلى من في الحسا من الملا، وكتب معهما كتبًا يدعوهم إلى الدخول في دائرة الأمان، ويطلب منهم الإسلام والإيمان، ويرغبهم في الانقياد والاستسلام لدعوة الملك العلام، ويحث على ذلك جميع أولئك الآنام، ويحذرهم الصد والإعراض، فكان أغلبهم ذلك اليوم به راض، وكانوا إلى الإجابة في مبادرة وانتهاض، بل لم يحصل منهم تردد ولا ارتياض، فأجابوا جميعًا أولئك الدعاة، وكل أطاع بذلك وأحاط به علمًا ورعاه، وأسرعوا إلى خطّ الكتاب، وقد بينوا فيه غاية الطاعة وعدم الارتياب، ولم يدخل قلوبهم إذ ذاك ارتياب ولا اضطراب، وحَثُّوا سعودًا على القدوم إلى البلاد، حتى يبايعوه أولئك العباد، ويمهّدها أحسن المهاد.

ولما أرسل سعود غنيمًا ومهوسًا إلى الحسا، أرسل بعدهم سعود بن غيث مع ركب من المسلمين، وأمرهم بأن يكونوا في طريق الحسا مكمنين، حتى يكونوا لمن أراد الهروب مدركين، فلما قدموا ذلك المحل، وافقوا غزوًا لأهل عمان

---

(١) إحدى ديار مطير بالصمان.

قد جدوا في الهروب على عجل، فقتلوهم وكانوا يزيدون على مائة رجل، وأخذوا ما معهم من الركاب والإبل، فلما قدم إلى سعود الكتاب والرسل، تم له السرور وحصل، وأقبل إليهم تلك الأيام بعد ذلك الانتظام، وكان قدوم الرسل في وسط شعبان، وقدوم سعود أول رمضان، فلما قارب القدوم والوصول، كان لكثير من أهل الحسا إلى ملاقاته حصول، وإسراع إلى رؤيته محبة له وقبول، فنزل قرب عين نجم[1]، وطلع لسعوده في أفقها نجم، وخرج إليه جميع أهل البلاد، وعاهدوه على الإسلام بانقياد، والاعتصام بحبل الله والقيام على أعداء الله، وأحكموا عقود الالتزام بجميع الشرائع والأحكام، والاهتمام بها أوفر اهتمام، وأقال أولئك الأنام من الجهاد أعوام، ترغيبًا لهم في البقاء على الإسلام، وتوليفًا لأولئك الأقوام، فأبَوا إلا الذل والصغار، حين أراد الله تعالى لهم الهلاك والدمار.

ولما أخذ منهم أوثق العهود، وأحكم عليهم في البيعة العقود، وقلد بالبيعة رقابهم، وعرف حالهم ومآبهم، وأنهم قد طوقوا بها الأجياد، ولم يدر أنهم من الخيانة على ميعاد، شرع فيما يطلب به شرعًا، وألقى في إنجازه بصرًا وسمعًا، فأمر بجميع ما فيها من المعبَّدات والقبب، والقبور التي يُستغاث بها وتُدعى وتُندب، أن يُزال ما فيها من المحظور، وأن يُسلك بها سنة القبور، وأن تستوي على المنهج المشهور، وألا يُصرف إليها نذور، وأمر بهدم ما فيها من كنائس الرفض والبدع، فالتزم أهلها صلوات الخمس والجُمَع، وبُعثرت أماكن الزيغ والأهواء والضلال، ومعتقدات ذوي السفاهة والاعتزال، وذوي الضلالة والإضلال، وأمر بإقامة شرائع التوحيد والإسلام، وإبطال ما خالف الشرع من

(١) إحدى عيون الأحساء المشهورة.

الأحكام، وبالمواظبة على إظهار الصلوات في المساجد، ومعاقبة كل متخلف عنها معاند، وقتل كل منكر جاحد، ونادى على أنواع الربا بالإبطال، فلا يُسعى في أسبابها ولا يُنال، وإفساد كل حيلة داعية إليه، أو طريقة هادية عليه، فأضحى أهل العقود الفاسدة والحيل، وذوي العقول القاصرة التي لم تدرك المعرفة ولم تنل، يتحسرون على مذاهبهم الأُوَل، وذهاب أهل تلك الدول، وأمر بالتدريس في جميع الأربعة المذاهب، وتأييد كل سالك إليها وذاهب، وتعليم العلم ونشره وإحيائه بالمذاكرة فيه، وذكره والتجرد والتجريد في تفهم التوحيد، فقاموا فيه بعدما قعدوا، وشمروا في العلوم واجتهدوا، وأقر الأئمة في مساجدها وأكلَ حاصلها وفوائدها، وقرر العلماءَ في المدارس، فأصبح كلٌ في كتب مذهبه دارس، فلم يكن منهجها مطموسًا ولا دارس، وأقر الأحباس والسبل، فلم يصل إلى أربابها خلل، وأبطل جميع أوقاف الرفضَة، وعطل ذلك الطريق وهجر كل واحد من أربابه ورفضه، وأبطل جميع أنواع المظالم، وعفى أثر المغارم، فكسد سوق الأخماس، وعُطِّلَت العشور والأمكاس، فاستقالت الحنيفية السمحاء على المنهاج، وزال ما بها من الاعوجاج، فأسفر وجه الحق بعد ظلامه، وتقشع منه كثيف قتامه، وانجلى عن بدر السنة متراكمُ غمامه، فأضاء نوره وأسفر، واستكمل التمام بعدما أقمر، فصدحت حمائم النصر بألحانها، وصدعت بنغمات العز على أفنانها، وتغنت في روح الإنس على أشجارها بأفنانها، مذكرة بالشكر والحمد لأهل الحسا وسكانها، بإزالة المحذور وحلول التوحيد في أوطانها.

ولما أفرغ جهده في مهد سَنَن الحق والهدى، ومحق مناهج الضلال والردى، وفرغ من إكماله وأسباب إعماله، وتم له من ذلك المراد، وعزم أن يرحل عن تلك البلاد، فأشار عليه كثير من أهل البلدان أن يبني له حصنًا، وجَدَّ كل منهم

في ذلك واجتهد، وأتَوا إليه مرارًا عديدة، فكانت أقوالهم عنده غير راجحة ولا سديدة، ومشورتهم غير مفيدة، واستعانوا عليه بجماعة من قومه من ذوي الشأن، على إنجاح ذلك البنيان، وتعجيله لهم في ذلك الزمان، فلما لم يجد بُدًّا من ذلك سمح لهم باللسان، وأشار بأن يكون موضعه فيما يصلح له من المكان، فاجتمع الرأي والنظر والمشورة والفكر، على أن ليس له مكان يصلح ويليق، سوى بيوت آل حميد وما حولها من الفريق، فطاع بذلك ودان، وهدمت تلك البيوت في ذلك الأوان، وكل بيت ليس ببيت مال واحتيج إليه، أمر أن تدفع إلى ربه قيمته كاملة وتُحضر لديه، فلا يضيع ملك عليه، وحث على ذلك قيّمه وأوصاه، وحذره شؤم العاقبة إن خالف أمره وتعداه، وشرع أهل ذلك الوطن والمحل في إحكام ذلك البناء والعمل، فلم يرد إتمامه ﷺ.

ثم ظعَن سعود، حرسه الله تعالى، عن مكانه وارتحل، وقصد قرية أنطاع[1] من القرايا ونزل، ولما أراد الله تعالى الذل والهوان بأهل ذلك المكان، وحكم ﷺ بدمار ذلك المحل، وأن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والذلة لأهل الإلحاد والمبطلين، فتح لجميع الضلال والغواة أن يَدَعُوا مسلك الفوز والنجاة، ويلوذوا إلى مناهج البغاة، ويجنحوا إلى ظُلَم تلك الضلالات، ويقتلوا أولئك القوم الهداة، والجماعة الذين هم للتوحيد دعاة، ويسقوهم صرف الحِمام والردى، ويطمسوا بعد ذلك منار الحق والهدى، ويُعلنوا بأمور الفسق والردى، ويحسبون أن الله تعالى يتركهم سدى، كلا، وعزته لا يفوته مَن بغى واعتدى، فسُعِيَ في نسج برود الإثم والأوزار، وهيأوا لها أردية وإزار، وقام في ذلك الإزر والآثام أناس كثيرة وأقوام، يُنسبون إلى الكرم والإكرام، وأكثرهم

(١) جنوب النعيرية.

فساق وطَغَام، ورفضَة وفجّار وعوام، منهم محمد بن سعدون ومحمد بن عبد العزيز، ومن العتبان مهيني بن عمران، ومن أهل الهفوف سعد آل ملحم وابن عفاف والحبابي وعلي بن أحمد وابن حبيل وصويلج النجار، فاجتمعوا في بعض ليالي تلك الأيام، خارجًا عن البلد والأنام، حين استحكم دُجى الظلام، وأناخ بجرانه على العيون بالمنام، فتعاطوا بينهم مفاتيح الكلام، وتجارت خيول أفكارهم في ميدان ذلك المرام، وتبارت في ذلك المضمار على الإنفاذ والإبرام، ولكن لا يُدرك ولا يُرام، إلا بعد المعاهدة والمعاقدة والانتظام، وتوثيق ذلك بالحلف والإقسام، والتغليظ في ذلك والإعظام، فحكموا أمرهم بينهم، وأبرموا غدرهم وشَيْنَهُم، ولفظوا بنقض العهود في ذلك الميعاد، وأجمعوا على نكث العقود في ذلك الإنفاد، فأسرعوا بعاشر شوال يوم الجمعة في الارتداد، وقتلوا كثيرًا من أهل التوحيد والرشاد، الذين مكثوا عندهم للتعليم والإرشاد، وتعاطى ذلك الأمر وباشره أهل الشر والفسق والفساد، وغيرهم من ذوي الشقاق والعناد، فأصبحوا وقد أشفَوا من دماء المسلمين الفؤاد، فأطفؤوا بتلك الدماء المراقة لواعج الحزن الذي أربى في الاتقاد، وأوقده الأسف غاية الإيقاد، فباءوا بسخط رب العباد، ودخلوا في دائرة أهل الإيعاد، ومهدوا لأنفسهم من الهلاك مهاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، فاستقلت عنهم حينئذ أظلة السعد والإسعاد، وطوح بهم في خصلة الطرد والبعاد، فنالوا بعد ذلك أعظم الأنكاد، وقُتل غالبهم بعد أمد من الآماد، وجُلِيَ بقيتهم في كل بلاد، فهم كل يوم في عناء وضناء وسقم ومقاساة هموم وأحقاد، ولا يزالون في مزيد وازدياد.

وجرى ذلك اليوم بتلك الصيحة، حين وقعت تلك الفتنة القبيحة، في البلد ضجّة هائلة عظيمة، وأظلتها حينئذ خطوب جسيمة، وقُتل ذلك اليوم عبد الله بن فاضل وحمد بن حسين وإبراهيم بن حسن بن عيدان، وهؤلاء يُعلمون الناس

التوحيد في تلك الأوطان، وقُتل أمير المرابطية محمد بن سليمان، وقُتل محمد الحملي الأمير وحسين أبو سبيت الوزير، وسُطي في ابن عياش ومبارك وأخيه شهيل وناجم، ونهبوا بيت أبي سبيت والحملي، وأخذوا ما فيها من المال، وباؤوا بأقبح الأحوال، ثم بعد ذلك أمروا على مبارك بن خليفة وأخيه وصالح بن عياش وأخيه وأحمد بن هديب بأن يحبسوهم في الطرف(١)، فأقاموا عندهم مدة، وكان جملة مَن قُتِل نحو الثلاثين، وقُتِل في الصفوف عبد العزيز اليمني.

ولما سمع محمد بن غشيان، وكان أميرًا على مرابطية مَن في الكوت(٢) مِن أهل الإيمان، أصوات الناس والضجة، وذلك اللغط والعجة، ركب خيلًا مع قومه وابتدر الأصوات، وكان مقيمًا في بيت الباشات، فلما عرف الحال وتحققه، وفهم أن الأمر قد عاجله وأرهقه، قصد كويت الحصار، وكان إذ ذاك لم يكمل له الأسوار، فتحصن هو وقومه فيه عمن يريده ويؤذيه، وكان قد أخذ على ركابه بعض الزاد، لأجل التهيؤ في الحصار والاستعداد، فأطبق خلفه تلك الأمم، حين قصد ذلك القصر وأَمّ، وراموا له وقومه إدراكًا، ونظموا له عقودًا وأسلاكًا، وأسرعوا إليهم ونهدوا، وحاولوا في ذلك وجهدوا، وحرصوا على ذلك وجردوا، وأخزاهم الله تعالى فما ربحوا ولا سعدوا.

ثم بعد ذلك بأيام، اجتمع أهل الحسا في انتظام، واتَّعَدُوا على السور أولئك الأقوام، فخرجوا كأنهم جراد منتشر، وقصدوا ذلك القصر ومَن فيه مِن البشر، وحاولوا فيه بأنواع من الضرر، وجاؤوا بأمور بعضها أدهش وحيّر الفِكر، وبهت العقول وبهر، وأضحى كُلُّ مَن في ذلك القصر محاطًا به محتصر، يجزم كل من

---

(١) قرية من قرى الهفوف الشرقية.

(٢) حصن الهفوف.

شاهد تلك الحال أن أجلهم قد قرب واحتضر، فأيدهم الله تعالى وثبتهم ونصر، وخذل أعداءهم وأذلهم وقهر، حتى أن محمد بن غشيان عدا عليهم في غفلة وقتل أربعة منهم وصدر، وقُتِل منهم رجال كثيرة في تلك الأيام ممن قاتل وحَصَر، فرجعوا خائبين ولم يكن لهم عليهم مقتدر، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، ولم يفيئوا إليه ولم يُقلبوا عليه ولم يكن منهم مدكر، ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾، وبقي ابن غشيان في ذلك القصر أيامًا، ولم يُدركوا منه تلك الأحزاب مرامًا، وثبّت الله تعالى للمسلمين فيه أقدامًا، فلم يتيسر للأعداء عليهم فيه إقدامًا، ونالوا ذلًّا وخزيًا وهوانًا وإحجامًا، فكانت هذه الحال آية من الله تعالى وإعلامًا، تزيد الموحّد لله في الله إعظامًا.

ولما قل الزاد وطال الحصار والجهاد، ولم يبق عند محمد وقومه شيء من الطعام، ولا زهبة يُقاتل بها تلك الأقوام، خرج ليلًا ونار[١]، وسلك سبيل الفرار، وخرج من الحصار، وجد في السير والذهاب، ولم يكن لهم إليه طلاب، فشمّر إلى إخوانه وبلده وأوطانه، ولما خرج ابن غشيان وافاه غزو للمسلمين من العتبان، فرجع ومن معه معهم وصبّحوا قرية الشعبة[٢] وهجموا عليهم بين الدور، ووقع القتال في تلك القصور، وقتلوا منهم رجالًا، وأخذوا منها حياوين[٣]، وأموالًا ورجعوا سالمين.

وجاء سعود، حرسه الله تعالى، الخبر، وشاع الحال واشتهر، وهو إذ ذاك مقيم على أنطاع، وقد امتلأت بذلك الأسماع، فاستشار أهل الدين والإسلام، في الظهور إلى نجد أو الإقبال على أهل الحسا والإقدام، فاختلف لسان

(١) نار: هرب.
(٢) قرية من قرى المبرز.
(٣) أي: حيوانات.

المقال، وتدبير الفكر والبال، في ذلك الشأن والحال، فبعضٌ رأى الإقدام عليه وصوَّبه، وبعضٌ رأى تأخير ذلك إلى حينٍ وطلبه، حتى يأذن الله تعالى فيه ويهيئ مطلبه، وينزل على أهل تلك الفتنة شدته وكربه وبأسه وخَطبه ونُوَبَه، فسار يريد نجدًا، ويجد السير ذيلًا ووخدًا، ويدعو الله أن ينجز له فيهم وعدًا، ويمكنه من تلك الأعداء، ويهيئ له من أمره رَشَدًا ورُشْدًا، ويوليه إسعادًا وسَعدًا، فوصل إلى بلاده ذلك الزمان، وصار مجيئه الحسا بعد آن.

وفيها غزا حجيلان بأهل القصيم وبعض البادية، فسار يريد بني عمرو، وكانت للمسلمين معادية، فصبّحهم بالغارة، فلم يشد كل منهم للحرب إزاره، بل جَدَّ وصدق في النيارة[1]، وقتَل المسلمون منهم رجالًا، وأدركوا من الإبل منالًا.

ثم دخلت السنة الثامنة بعد المائتين والألف.

وفيها سار سعود، سلك الله تعالى به السنن المحمود، يريد الأحسا وإحصارها وتدميرها، وفجّارها وفساقها وكفارها، وأرفاضها وأسوارها، وذوي الردة والذين أطاروا شَرارها، وقتلوا معلّمة التوحيد وأضيافها وخُطارها، فأغضبت ملك الملوك وقهارها، وأسخطت خالقها وجبارها، وغافر الذنوب وستارها، فأسرع في المسير بالمسلمين، وقد اتفق رأي الموحدين على الحصار والمضايقة والمنازلة، وبذل الجد في الاجتهاد والمقاتلة.

وكان زيد بن عريعر وإخوانه وجماعته حين تلك النازلة، في بلد الكويت نازلة،، فأقبلوا بعد مدة على الحسا، فزادهم الله تعالى حزنًا وأسى، وبقوا مع أهلها تلك الأيام، وهم مستعدون لقتال أهل الإسلام، فلما كان آخر عاشوراء

---

(١) النيارة: الهرب.

المحرم، عزم سعود على النزول وتقدم، فنزل على قرى الشمال، وكان في الشُقيق[(١)] ستمائة من الرجال، فأضرمت نار الحروب، وأحاطت بهم سوء الخطوب، فأوقدت أعظم الوقود، وأحدقت بهم أولئك الضراغمة الأسود، فلما نزل سعود في ذلك المكان، خرج أهل الشقيق ومن معهم نحو ستمائة من العسكر من أهل العصيان، ووقع بينهم وبين المسلمين قتال، وقُتِل ذلك اليوم بينهم رجال، فلما أضاءت شمس ثاني يوم بالنور، بدر المسلمون إلى القتال فلم يكن من أهل الشقيق ظهور، فسار إليهم أهل الإيمان، وأرادوا البروز فما كان، وبقوا محتصرين في ذلك المكان، وجرى بينهم قتال بالبنادق، قضى الله بالموت على من كان لأجله موافق، وشرع المسلمون في قطع النخل، حتى منّ الله تعالى عليهم بالفتح والفضل.

فلما كان أول ليلة الثالثة حين استحكم الظلام، هرب مَن في الشُقيق مِن أولئك الأنام، وتفرقوا في القرين[(٢)] والمطيرفي[(٣)] والمبرز، والكل طلب النجاة ولنفسه أحرز، فأتى الخبر اليقين إلى سعود والمسلمين في ساعة الهروب والانهزام، فأرسل أناسًا يحفظونها من أهل الإسلام، فألفَوها من أهلها خالية، وأخذوا الأموال التي فيها حالية، لما كانت حماتها عنها جالية، ثم بعد ذلك اجتمع أهل تلك القرى في القرين، وهموا بالاشتداد، وعزموا على القتال حين أرادوا تلك البلاد والأمداد، فأطال المسلمون عليهم المحاصرة، ونووهم بطول الإقامة والمصابرة، فكتب الله عليهم الهوان والذلة، وطلبوا من سعود الصلح عن القرية والمحلة، فصالحهم عنها على نصف ذلك، فتناصفوا جميع ما

---

(١) من قرى المبرز.
(٢) من قرى الأحساء الشمالية، تبعد عن الهفوف حوالي ٨كم.
(٣) تقع شمال المبرز.

هنالك، من أمتعة وسلاح وحيوان، وجميع أنواع المال وطعام وغيره، فاقتسموا على تلك الحال، ونحا أهل المطيرفي في ذلك المنهج، وكل من قرى أهل الشمال على المناصفة عرّج.

فلما انقضى شأن الشمال في قليل من الأيام والليال، وطاعت تلك القرى، مما حل بهم واعترى، وذلت أنصارها وهانت، وألقى المقاليد بعضها للإسلام ودانت، وأمر على أهل القرين بالجلاء عن الوطن، فكل ارتحل عنه وظعن، سار بعض الخيل والجيش إلى أهل المبرز، فخرجوا جميعًا ومعهم من عندهم من أولاد عريعر وفرسانه والكل قد أبدى شأنه وأبرز، فالتقوا مع المسلمين، وجالت معهم فرسان الموحدين، وجرى في ذلك المجال طعان وقتال، فشدت فرسان التوحيد على تلك الجموع العظيمة، فلم يلبثوا إلا ساعة فشدوا في الهزيمة، وقُتِل ذلك اليوم من أولئك القوم غديّر بن عمر وحمود بن غرمول، فرجع المسلمون إلى رحالهم ومحلتهم، بعدما جدّ الأعداء في هزيمتهم.

ثم بعد أيام نهد المسلمون إلى أهل المبرز مرة أخرى، وتقابلوا معهم عصرًا، وخرج أهل المبرز للقتال، وكان المعترك دون نخيل أهل الشمال، فتداعى الجميع في ذلك المجال، ولم يقدر فيه انقضاء آجال، فرجع كُلٌّ إلى ما له من موضع ومال، فلما عرف المسلمون من أهل المبرز تلك الحال، واختبروا سيرتهم في القتال، سعَوا لهم في تهيئة أسباب الحيلة والخداع، بإظهار بواعث الطمع والأطماع، حتى يرغب أهل تلك الجموع والاجتماع، وليستمروا للمسلمين في اقتفاء واتّباع، حتى يبعدوا بهم عن تلك المواضع والبقاع، ويحطوهم عن ذرى تلك التلاع، فلا يكون لهم صعود ولا ارتفاع، ثم بعد ذلك يكرون عليهم للدفاع، ويعطفون عليهم كضواري السباع والنسور الجياع، فيكون حينئذ منهم هروب واندفاع، ورعب وانذعار وارتياع، فيشدّ المسلمون عليهم في

الاتّباع، بقلوب متوجدة عليهم ذات التياع، وأفئدة لم يفارقها حزن ذلك الافتجاع، ومواض مصقولة الشَّبا فحدها باتر قطّاع، وأسنة كالبرق اللماع، سريعة الانتهاب للأرواح والانتزاع.

فلما كان يوم الثلاثاء شمّر المسلمون للقتال في الإسراع، واجتمع من أهل الحسا ما لا يقدر عليه ولا يستطاع، ولم يطرق السمع في قتال العرب مثله سماع، حتى كادت ألباب المسلمين أن تزيل القناع، فناداها هاتف الإقبال بصوت ملأ الأسماع: قد جاءكم الفتح والنصر فلا ترجف القلوب ولا تُراع. فسكنت وراضت وكان منها لذلك قبول واستماع، وأقبلوا على أولئك الجنود التي عدمت النفع والانتفاع، وقد عزموا على الوفاء لله تعالى وصدق الابتياع، وكُلٌّ يُنْشِد بعد الحوقلة والاسترجاع، قول شاعر مقدم شجاع:

أقول لها وقد طارت شَعَاعًا ... من الأبطال ويحك لا تراعي

فصبرًا في مجال الموت صبرًا ... فما نيل الخلود بمستطاع

فإن الموت غاية كل حيّ ... وداعيه لأهل الأرض داع

فصدقوا لهم الحملة، فامتقعت ألوان تلك الجموع من الرعب أعظم امتقاع، فكان لهم إلى الهزيمة إسراع بعد إزماع، ولم يحصل منهم ولله الحمد مطاعنة ولا نزاع، بل غالب تلك الأمم لم يقفوا ساعة في المجال، فضلًا عن الجلاد والقراع، فجفلوا كأغنام صاحت بها أسود بقاع، فصار لهم إلى البيوت معاجلة وانقطاع، وقُتِل منهم نحو الستين ذلك اليوم، ومثلها في سائر الأيام فكان بها اقتناع، وانهزم زيد بن عريعر إلى بلدان المشرق، فلم يكن له إلى المبرز رجوع ولا ارتجاع، إلا بعد طلوع الشمس ثاني يوم حين علم حال البلد بتحقيق الاطلاع.

ثم بعد أيام سار المسلمون إلى أهل بلاد ابن بطال[(١)]، فجرى فيها قتل كثير من أولئك الضُّلَّال، وانهزم جميع أهلها فلم يثبتوا فيها ساعة لمجال، وأخذ المسلمون ما فيها من الأمتعة والحيوان والطعام والأموال.

ثم بعد أيام سار المسلمون إلى بلدان الشرق يريدون عليها الإقدام، فهجموا على مضيق تلك الدروب، وطاف على الجبيل طائف الخطوب، فاقتحم المسلمون عليهم، وأرادوا الوصول إليهم، فوقع عند البلاد قتل وجِلَاد، ثم انصرف المسلمون إلى مكانهم، وارتجف أهل الشرق في أوطانهم، وبقي كل من أهل الإسلام تلك الليالي والأيام، يُجِدّ في القتال ويُجِدّ في الصرام، فأسرع المسلمون خصوصًا العربان، وسائر أولئك الأعراب والبدوان، يباكرون صرم النخل والأثمار، ولا يبرحون عنه حتى يدبر النهار، وأهل الحسا في مضايقة وبأس ودمار، وضيق معيشة وحصار، فلما أراد الله تعالى أن يبرز في مقام الإظهار، ما قضاه سبحانه لأوليائه واختار، ويسلك بهم الطريق السهل الخيار، وينشر لهم أعلام الظفر والتمكين والانتصار، ويستقر قواعد التوحيد في تلك القرى والأمصار، فيشتهر ذلك في سائر الأقطار، أتى برّاكُ بن عبد المحسن سعودًا، حرسه الله تعالى، فأخبره أن أهل الحسا لهم رغبة في الدخول في الدين وإقبال، وأنهم متندمون على صدور تلك الأفعال، وأنهم يطلبون طريق الإيمان والإسلام، والالتزام بسائر الأحكام، فقال: ذلك لهم ولا يُرَدُّون، فعساهم لسبيل الحق يهتدون، وعن مَهْيَع الغي ينتهون، ولكن يخرجون للعهد إلينا، ويقدمون للمبايعة علينا. فعاد له بالقول مرارًا، وقال: إنهم لا يقدرون على

---

(١) أي: قرية البطالية، نسبة إلى ابن بطال أحد رجال الدولة العيونية، وهي من قرى الأحساء الشمالية، تبعد عن الهفوف حوالي ٧كم.

مواجهتك خوفًا منك وفرارًا، ولا يستطيعوا إلى ذلك المكان إحضارًا. فاستعان براك بكبار أهل التوحيد، على إنجاح ذلك الرأي السديد، فساعده أهل الدين والإسلام، وقاموا معه أتم القيام، حتى نجح ذلك المنى والمرام، واتفق الرأي والانتظام، بين براك وكبار أهل الحسا أن سعودًا إذا ظعن عن ذلك المكان والمقام، وفرغنا من الأثمار والصِرام، أنك تأتينا ونبايعك على الإسلام، ونُخرج زيد بن عريعر وإخوانه، وننفيه هو وأعوانه. ولعل هذه حيلة وخديعة، إذ لم تكن نفوسهم بمجيئه لهم مطيعة.

فارتحل سعود، بلغه الله تعالى المقصود، حين ألح عليه إخوانه في ذلك الشأن، وقالوا: عسى أن يكون هذا سببًا لهم في الإيمان. وجدّ سيره يريد الأهل والأوطان، وقد نال أبهى الأنس والسرور والتهان، وأزهى صِلَات البر والجود والإحسان، فلما وصل سعود إلى تلك الديار، زال عن الحسا ذلك الخوف والرعب والحصار، وبرحوا على ذلك مدة أيام، وقد وجدوا بعد ذلك لذة المنام، وزال ما بهم من الهم والأسقام.

حتى كان من براك عليهم مفاجأة وإقدام، يريد ذلك العهد منهم والإبرام، والوفاء بما عاهد عليه أولئك الأنام، وقال لهم: هذا وقت الوعد، فقد وصل سعود إلى نجد، وقد حان حين الوفا، فإياكم وسلوك طريق الخلف والجفا، فتصيرون من الهلاك على شفا. فأبوا إلا الخُلْفَ والإخلاف، وركوب متن الإجناف، فلم يحصل بمرامه إسعاف، وثار بينهم القتال، واختلفت كلمتهم بعد ذلك الحال، وافترقت قلوب تلك القبائل، فكان الله تعالى لهم مُذِلًّا وخاذل، فلم يقبلوا نصحًا لقائل، ولم يروضوا إلى عذل عاذل، فنفذ فيهم حكم الحكم العادل، والقضاء النافذ الفاصل.

فانصرف عنهم براك، بعد أن لم يحصل على إدراك، وخرج إلى البادية، ثم

بعد ذلك كانت خيله عليهم عادية، وقدم عليهم في رمضان، وجرى القتال والطعان، وخرج جملة من أهل الدين من السياسب[١] مجتمعين، وكبيرهم سيف بن سعدون، فكانوا للقتال كل يوم ينهدون، واجتمعوا في قرية الجشّة[٢]، بعد أن لم يدركوا في المبرز حيلة، فكان ذلك إلى الفتح ذريعة ووسيلة، فاجتمع أولاد عريعر محمد وإخوانه، وجميع جيشه وأعوانه، وأهل المبرز وأهل الصفوف، في بلد الجفر، وكانوا مما لا يضبطهم الحصر، فمكثوا فيه أيامًا، وأطالوا فيه مكثًا ومقامًا، وكل يوم وحين ينهد إليهم برّاك والبدو والسياسب مجتمعين، ويقع بينهم طعنٌ وطِعان، ومجادلة خيل وفرسان، وتلاحم ومصادمة واقتران، وقُتِل بينهم رجال في تلك الأيام والليال، والكل يبدي الصبر في حومة المجال، حتى أراد الله تعالى صلاح الحال، وحسن العاقبة للمسلمين والمآل، فأدخل برّاك الهفوف باحتيال، فطاب له حينئذ القلب والبال، وتم له السرور والإقبال، وهرب أولاد عريعر دويحس ومحمد وماجد، وكلٌّ من الخاصة مساعد، وأقبل براك إلى المبرز صبيحة ذلك اليوم، فتلقاه بالقبول أولئك القوم، وأتوه لأجل السلام والتهنئة بالقدوم والإقدام، وإنجاح السؤال والمرام، فطلب منهم المعاهدة على الدين والإسلام، والالتزام بجميع الأحكام، فعاهدوه على ذلك وحدانا ومجتمعين، والتزموا القيام بتوحيد رب العالمين، فوفى العهد طوائف وحمائل وآحاد في الفِرقان غير منحصرين، والرفضة وكثير من غيرهم دخلوا في ذلك العهد مكرهين، وودوا لو أصبحوا له ناكثين، ولكن الله ضرب عليهم الذّلة بحوله إلى يوم الدين، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) من بني خالد.

(٢) تبعد عن الهفوف حوالي ٢١كم.

ثم بعد صدور ذلك الأمر وإبرامه، وتحقيقه وإحكامه، وجريان شرائع الدين في الحسا وأحكامه، كتب براك إلى عبد العزيز لمزيد إخباره وإعلامه، فَسُرَّ بذلك الإخبار والإعلام، وبادر بالحمد والشكر لمولى الإنعام، على ما حبا أهل الإسلام من هذه المواهب الجسام، فأمر عبدُ العزيز براكَ بن عبد المحسن أن يبذل في الدين جهده، ويوفي عهده ووعده، ويُجلي ابن فيروز[1] وأحمد بن حبيل ومحمد بن سعدون، فجُلُوا بعدما ألزم عليهم براك يخرجون.

وفيها غزا محمد بن معيقل مع أهل الوشم وأهل القصيم وأهل الجبل، فسار بمن معه من المسلمين على غير مهل، حتى أناخ بدومة الجندل[2]، فحط فيها رحله ونزل، ثم أخذ يُحاصر أهل تلك القرى، ويُضيق على أهل الزيغ والافترا، ويفاجئهم كل يوم بالقتال، ويغاديهم بأعظم الفعال والأهوال، حتى ضاقت بهم الحال، وكلهم دانوا بالإسلام بعد إذلال، ولم يبق من تلك القرى إلا قرية بني سراح[3]، فلم يكن لها إلى الدين ارتياح، واجتمع عنده كثير من الأموال، فأعطى منها آل درع وكانوا مقاومين لابن سراح، ولهم تقدم وإقبال، وكانوا في حصار شديد ليس عليه مزيد، وقد تمسكوا بما منحوا وأعطوا، فلم يدنسوا وجوههم بغبار الردة ولم يخطوا.

---

(١) محمد بن فيروز (ت ١٢١٦هـ)، حامل لواء المعارضة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في الأحساء، له ترجمة في «السحب الوابلة» (٣ / ٩٦٩)، وستأتي قصيدته في تأليب والي العراق على الدولة السعودية، مع رد ابن غنام عليها. ولكن: تأمل كيف اكتفوا بإجلائه رغم عداوته وتأليبه.

(٢) دومة الجندل تعني: قبة الحجر، وهي تقع على مسافة ٥٠ كم جنوب مدينة سكاكا.

(٣) دومة الجندل مقسمة إلى أحياء، في كل حي عائلة كبيرة أو مجموعة من العائلات، منها: حي السراح، وحي الدرع.

وفيها غزا إبراهيم بن عفيصان بأهل الخرج والعارض وأهل سدير، فشمّر ساعده للجد في السير، حتى وصل إلى بلد الكويت بعد الهجوع، فأناخ يهيئ ما معه من الجموع، فلم تنجل الغياهب حتى فرغ من تلك المطالب، ورتب الجيش والكمين، ثم بعد الإسفار أغارت خيول المسلمين، فخرج مقاتلة أهل البلد مجتمعين، وناوشوا المسلمين القتال، وعقدوا للحرب المجال، ثم بعد ذلك ظهر عليهم الكمين، فولّوا مدبرين، وعمدوا إلى البلد مسرعين، وقتَل المسلمون منهم نحو الثلاثين، وأخذوا عليهم غنمًا كثيرة، وأسلحة ثمينة شهيرة، ورجعوا إلى بلادهم فائزين، وللمال والأجر حائزين.

وفيها غزا هادي بن قرملة رئيس قحطان، ومعه محمد بن معيقل وأهل الوشم ومطير وعربان كثيرة من البدوان، فلم يزل في ذلك النهج سائر، حتى صبّح عربانًا كثيرة من البقوم وبني هاجر، وذلك أنه قرب منهم والليل داجٍ وداجر، والظلام مجتمع العساكر، فلم يَرُعْهُم إلا ركام العياثر، والجياد التي كأنها الرياح السوائر، ولمعان المرهفات البواتر، والأسنة التي تفتت في الصدور والمرائر، فراموا الجلاد ووطنوا عليه نفوسهم فأصبح كُلٌّ على ما أصابه صابر، حتى أراد الله أن يدير من البلاد دائر، على أولئك المخالفين لأمر عالم السرائر، فشد عليهم المسلمون، فأضحى جواد عزّهم منكسرًا عاثر، فقُتل ابن شري المسمى ناصر، وأرادوا بعده الثبات والتجلد، حتى دهمهم ما لا يستطيعه الضراغم في الآجام والحواضر، فأصبح كل منهم يريد النجاة لنفسه نائر، وعن حومة الوغى بعد شدة ذلك البأس هارب نافر، وأخذ المسلمون منهم نحو ثلاثة آلاف من الإبل لكل ضابط وحاصر، وآب جند الضلال خائبًا خاسر.

ثم دخلت السنة التاسعة بعد المائتين والألف.

وفيها غزا سعود، أيده الله تعالى بالنصر والسعود، وكان عربان الشمال له

مراد أو مقصود، فسار بالمسلمين يطوي منشور البيد، بأيدي اليعملات على العنَق والتوخيد، ويؤم مطلع السها والفرقدين، ولم يبال بما حصل لعيسه من الكلال والأين، ويشكو إليه طول السّرى وحلول البرى، قلوب الكُمت والرواحل، وتحنّ إلى الورود من فرط البعد ومداومة الوخَد، فيعللها بزلال المناهل، وكان لمطالعة القطب لا ينفك ولا يزال، ولارتعاب النصر والظفر في ذلك الوجه في رجاء وآمال، حتى لمع ضياء البشرى والسرور في ساجي ذلك الديجور، وطلع له كوكب الإقبال والحبور، وهبت على أعدائه ريح الدَبور، فجاءته طلائعه وعيونه بالتهان، بأن القواسم ها هنا وكبيرهم ابن عفيصان، وهم عرب من آل ظفير، فكانوا قبالته ووفاقه في ذلك المسير، فصبّحتهم في أرض الحجَرة[1] غارته، ولم تسبقه عليهم نذراته، بل فجأته بحصول مراده بشارته، وبغت أولئك السلف دماره وخسارته، فلم يستطيعوا مع المسلمين الجوَلان، ولم يعقدوا لحومة الوغى والبأس ميدان، بل ناوش منهم بعض الفرسان، وراموا قليل طعان، ثم شمّروا في الهزيمة من غير توان، وقد أخذ المسلمون منهم إبلًا كثيرة، وجميع المحلة والغنم، وكان الإبل ألف وخمسمائة بعير على سبيل التقليل لا التكثير، ورجع المسلمون إلى البلاد، وقد حفهم الإسعاد.

وفيها جرت وقعة سعد بن قطنان، وكان قبل ذلك قد أبدى للدين إذعان، وأسلم قبل ذلك الزمان، فأراد أن يتبين على أهل الضلال وعبّاد الأوثان، خصوصًا البدوان، فبنى قصرًا محكمًا، ثم بعد ذلك تبين في الدين معلمًا، وجاهد من أهل دينه من لم يكن مسلمًا، فنالوا منه ذلًّا وهوانًا وندمًا، وأسقاهم كؤوسًا منزعة دمًا، حتى حاولوا فيه مأثمًا، وهيأوا له أمرًا محرمًا، فشرطوا

---

(١) منطقة واسعة تقع شمال شرق منطقة الدهناء إلى الشرق من لينة، وكانت من بلاد الظفير قديمًا.

لاثني عشر رجلًا، كل واحد منهم في البأس مقدمًا، على قتل ابن قطنان دراهم كثيرة يأخذها كل واحد منهم مغنمًا، وينتقدها بعد الفعل متسلّمًا، فعند ذلك جدّ كل واحد فيما كان ملتزمًا، فأبدَوا للغدر والمكر حيلة وسُلّما، فهاجروا إلى قصره مبدين للدين علمًا، وأقاموا أيامًا يدبّرون لما راموا أَمَما، وقد واعدوا رؤساء أهل دينه على يوم يكون مجيئهم فيه متقدمًا، فلما كان بعض الأيام وشرع في الصلاة من كان لها مقدمًا، جاء جمع كثير فدَلَّى كل واحد من ذوي المكر له حبلًا ورمى، فصعدوا جميعًا السور ونزلوا وحمي الحرب واحتمى، ولعب الباطل بينهم وارتمى، وانتخى كل بنخوة الجاهلية وانتمى، فقتلوا غالب أهل القصر فصاروا شهداء رُحّما، وأخذوا أولاده فأرسلوا الكبير إلى الشريف فجعلوه في حبس الدّما، وجاء بقية أولاده عبد العزيز فأعطاهم أموالًا كثيرة وإبلًا شهيرة، وانصرف كل منهم محبورًا مكرمًا.

وفيها غزا سعود، خلّد الله تعالى له الإقبال والسعود، فسار بالمسلمين يريد عربان القبلة[(١)]، وقد تقدمته طلائع العز والسعد قبله، فجد في طريقه وقد باراه النصر والإقبال، وجاراه التأييد والظفر فلم يكن لهما عنده انفصال، ولا مفارقة ولا زوال، فلم يزل يدأب السير والترحال، ويديم إنضاء الأعوجيات[(٢)] على اتصال، حتى أراد الله تعالى من تلك الأمكنة علوة وقربة، ومنحه طِلبة أي طِلبة، وذلك أنه نزل على قرى تُربَه[(٣)]، بعد أن طالع بعض العربان من دعاة ذلك المكان، فجرى بينهم مناوشة طعان، ثم انهزموا بعد ذلك حتى توغلوا الحرار، فلم يكن عليهم توصل ولا اقتدار.

---

(١) من سبيع.

(٢) في (لسان العرب): «وأعوج: فرس سابق رُكب صغيرًا فاعوجّت قوائمه، والأعوجية منسوبة إليه».

(٣) تبعد عن مدينة الطائف ١٨٠ كم من الجنوب الشرقي.

ثم بعد ذلك أقام سعود في تلك الأراضي، ولم يكن له عن حصار القرى إعراض، فاستمر محاصرًا لأهل تلك البلاد، وكل يوم يصدره منهم قتال وجهاد، ومصابرة عند التسور وجلاد، وكل يوم يحمل أهل الإسلام على الأسوار، ويرومون التسور على البلد والانحدار، ويقاسون من أولئك الفجار من طلائع الموت ما يزيغ الأبصار، وقُتل من أهل الدين والإسلام، في جميع تلك الأيام، نحو عشرة رجال، كان لهم على الشهادة آجال، منهم محمد بن غشيان، وكان يعدّ من الأبطال الشجعان، وقتل من أولئك قريب من ذلك.

ثم شرع المسلمون في قطع ما لأولئك الأقوام، من تلك النخيل العوام، ويخربون فيها كل يوم، حتى كادت تنفتّ مرائر تلك القوم، حين رأوا قطع تلك النخيل الجليلة، وأربابها عن حمايتها محصورة ذليلة، ولم يكن لهم سبب إلى سلامتها، ولا وسيلة غير المصالحة عنها، وكان ذلك لهم حيلة، فصالح أهل قريتين سعودًا على نخلهم، وقطع نخل قريتين لسوء فعلهم، ثم بعد ذلك الحال وانقضاء المراد على الكمال، عزم المسلمون على الارتحال، فساروا على تؤدة وتمهال، من غير غلو في السير ولا إيغال.

وفيها غزا إبراهيم بن عفيصان، يجمع من أهل الخرج والفرع والبدو ممن يدعي الإيمان، فسار يجد السير لنيل المراد، حتى أناخ من قطر على بادية تلك البلاد، فأغار عليهم؛ فناروا[1] فورًا وتركوا الجلاد، فأخذ ما عندهم من مال، من أمتعة وغنم وآبال، وقدم بذلك بلد الأحسا، وأقام يبيع ذلك فيها وأرسى، ثم بعد فراغه أصبح فيها وما أمسى.

---

(١) ناروا: هربوا.

ثم دخلت السنة العاشرة بعد المائتين والألف.

وفيها أظهر الشريف غالب عساكر كثيرة، وجنودًا غزيرة، ورأَّس عليهم فهيد الشريف، فنزلت عليه البوداي كل سلف وفريق، وسلكوا للشر كل طريق، وأقبلوا يريدون ابن قرملة، وكانوا على ماء يقال له ماسل[1]، فأقبل عليه تلك الأجناد والقبائل، وأتوه بعد قتل عيونه على غرة، لينفذ الله أمره، فدهموه وأهله في شعب من الشعاب، وقد ملكوا عليه فم ذاك الشعب، فلا يمكنه خروج ولا ذهاب، فطاعنهم زمانًا طويلًا، وقتل منهم ثلاثين رجلًا، وقتل من خيل ابن قرملة نحو عشرين، ثم انهزم ابن قرملة، وأخذ الشريف تلك القوم المجتمعين، ولم يقتل سوى رجل واحد من المسلمين.

وفيها غزا سعود، يسر الله تعالى له كل مراد ومقصود، فسار بالمسلمين يعتسف من الفيافي السهل والصعاب، ويطوي من أديم الموامي كل موحشة يَبَاب، لا يُسْمَعُ بها غير أصوات العرج والذباب، يظل فيها القطا فراخه فلا يهتدي، ويحير الخرّيت في مهامها فيتقنع قناع الموت ويرتدي، وتروح على رياضها اليعافير[2] وتنتدي، لا يرى بقفرها أنيس، ولا يبصر في لاحبها آثار العيس، مظمئة لا يدرك فيها ما يبل صدى الظما، يحاكي لون أديمها زرقة السما، مغبرة الأفق والأرجا، يحس الساري بها بما للجن فيها من الغمغمة والزمزمة والأزجا، فلم يزل تدأب المطي في ذلك السير الإعناق، والأباطح تسيل منها بتلك الأعناق، حتى قطع بصارم العروتين تلك المفاز، وأراد مولاه لمراده إنجاز، حتى تبين له من سواد الحرة ذلك الحجر، وبدر له منها ذلك

---

(١) قال ابن بشر (١ / ١٠٣): «الماء المعروف في عالية نجد».

(٢) الغزلان.

المدر، وألقى لها الجِران عند أولئك العربان، وذوي الضلال والعصيان، وكانوا أسلافًا، كبيرهم ابن مجبور من العتبان، فمد لها طول الراحة بعد هزيع من الإعتام، وسجّى دياجر الإظلام، إلى أن شدت عساكر الظلام، في الهروب والانهزام، ونادى المنادي بدعوة الإسلام، وأذن للصلاة بالقيام، وقضيت على الطمأنينة والتمام، وكان الدعاء بعد ذلك ختام، بنيل التوفيق والمرام، فأسرعت الرجال إلى الرحال، وأطلق الركاب من الاعتقال، وأسرعت الأبطال إلى الجياد، وتسنموا صهواتها للجلاد، وشرع كل منهم سنانه، وسأل مولاه الإعانة، وجردت القواضب المرهفة، وشنوا على أولئك العربان غارتهم المرجفة، وشهواتهم المتلفة، فانتدبت فرسان الشرك والضلالة، وأقبلوا فرسانًا ورجالة، وجالوا في الحرب مجاله، ثم أنزل الله تعالى عليهم الذلة والبأس، فانهزم ذوو الضلال والإبلاس، وأخذ المسلمون جميع أولئك الناس، وولّوا على أعقابهم، وتوعروا في الحرة في ذهابهم، وعجل الله تعالى لهم بعض عقابهم، فشد المسلمون خلفهم في ذلك الأثر، حتى أعياهم مقاساة ذلك الحجر، وخشَوا على أنفسهم وخيلهم من الضرر، فرجع كل واحد منهم وصدر، وأخذ أهل الإسلام المحلة، وشتت الله حزب الشرك وفَلَّه، وأخذ من الإبل نحو الألفين أو يزيد، ورجع المسلمون بالأجر والمزيد، وأخذ أيضًا عشرة آلاف من الغنم، وغنموا أعظم مغتنم، وقُتِل ذلك اليوم من المسلمين سبيل، وكان مقدامًا نبيل.

وفيها غزا قاعد بن ربيّع أمير الوادي، فسار بجمع من قومه يريد من هو للمسلمين معادي، وأدلج في ذلك الزمن، وهجر لذة الوسن، حتى رأى من بني هاجر[1] فريق آل ضمن، فاستقر باله واطمأن، وثبت قلبه وركن، فصبّحهم

(١) من قحطان.

بالغارة المجيدة، فكانت أسنته لهم عاملة مفيدة، ومرهفاته لهم مبيرة مبيدة، فقتل منهم فوق الأربعين، وأخذ ما عندهم من خيل وإبل وغنم، وولي قليل من الرجال منهزمين.

وفيها أظهر الشريف غالب جموعًا وأجناد، وعساكر من كل قرية وبلاد، وانضم إليه أهل بلدانه، وجميع أعرابه وبدوانه، فرأَّس فيهم ناصر بن يحيى الشريف، وأمرهم بمصادمة بوادي الدين، ومن هو منتسب للمسلمين، فخرجوا يقتحمون السهل والوعر، ولا يصدهم عن مرادهم الضجر، فلما تحقق عبد العزيز ذلك الخبر، وشاع بين الناس واشتهر، أرسل العربان المسلمين من قبلة نجد، وأعلمهم بما عزم عليه الشريف من ذلك القصد، وأمرهم أن ينزلوا بالأهل والأظعان، على هادي بن قرملة كبير قحطان، وأمر ربيّع أمير الدواسر والوادي، أن يظهر مع جيش من قومه وينزل على هادي، فالكل من أولئك الأقوام أسرع الامتثال، والقيام لأمر عبد العزيز الإمام، وبادروا لذلك المهم والإعانة في دفع ذلك المدلهم، فلم تمض قلائل من الأيام حتى اجتمع أولئك الأنام، على ماء بنجد يسمى الجمانية، فالتأمت به تلك الأمم البداونية، حتى كان آخر الأيام الشعبانية، نزلت تلك الجموع الشيطانية، وأبرزت من البأس وفرط الإبلاس، واختلاف الأجناس، ما يدهش العقول الإنسانية، ويرعش القلوب الجنانيّة، فلما بدت الغرّة الرمضانية، تلاحمت الفرسان العربانية، وشرعت الحراب السنامية، وجردت السيوف الهندوانية، وقتل ذلك اليوم أبو مجبور من الأبطال الفرسانية، وانفصلت جميع الأمم الفرقانية، لما غابت الأنوار الشمسانية.

فلما طلعت شمس ثاني رمضان، تداعى عند ذلك الكماة الشجعانية، وحملوا حملة هائلة ظلمانية، وتصلّيت تلك القوى الجسمانية والقلوب الصلدَانية، وثارت تلك العجاج الدخانية، واصطلمت تلك المدافع النيرانية، فأعلن عند

تلك الأمور الهائلة العيانية، أهل الدين والإسلام بشعارهم بتعظيم الصمدانية، والإعلان بكلمة التوحيد والوحدانية، فهزم الله جميع تلك العدوانية، وحف المسلمين النصر والظفر من العناية الرحمانية، وتفرق أهل الضلال في خلال العقبات الشعبانية، وقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل، وأخذوا من الإبل والغنم ما لم يُنَل مثله ولم يُرَم، وأخذوا جميع المحلة والأزواد والطعام، وتلك المدافع المجرورة ومنصوب تلك الخيام، وكان الغنم التي حصلها المسلمون مائتي ألف، غير ما قضى الله تعالى عليه بالحتف، وعدد ما استولَوا عليه من الإبل ثلاثون ألفًا، من غير خطأ ولا ذلل، وقُتِل من المسلمين رجال، وان-هزم الأعداء بأقبح حال.

وكان محمد بن معيقل قد أرسله عبد العزيز لعربان المسلمين مددًا، فلم يأتهم إلا بعدما فرق الله تعالى المبطلين عددًا، وجعلهم فرقًا وبددًا، وكان قدومه عليهم بعد يومين، فأطلب بني هاجر ولم يبال بما معه من الأين، فأدركهم على ماء يقال له القنصلية، فأغار عليهم وقتل نحو الأربعين من تلك البرية، فشدوا في الانهزام بعد تلك القضية، وكان هؤلاء الأعراب شمروا في الانهزام بمالهم والذهاب، حين رأوا جيوش ابن قرملة على قومه مربين، فعاجلوا بالانهزام مدبرين، فاجتمعوا على ماء القنصلية[1]، وظنوا أنهم قد أحرزوا أموالهم، فخابت آمالهم الظنية، وحواها كلها ابن معيقل، وعزز بها تلك القضية السوية، وانصرف بنيل أمنية.

وفيها غزا مبارك بن عبد الهادي، ومعه من قومه من أراد الجهاد من بين حاضر وبادي، فسار في عزمه ذلك ومرامه، يجد السير والسرى في جميع لياليه

(١) قال ابن بشر (١ / ١٠٥): «قرب بلد تُربه».

وجميع أيامه، لم يثنه النصَب، ولم يسأمه التعب، فينحل عند همته وأحكامه، حتى قرب من أرض نجران، فألقى هناك بعض البدوان، يسمون آل الهندي[١]، فكان حينئذ للغارة عليهم مبدي، فلم يشعروا إلا باهتزاز الرماح وبريق الصفاح، فانتهضوا جميعًا للقتال والكفاح، ولم يتخلف إلا من ليس عليه جناح، فتطاعنوا ساعة وزمانًا، ومكثوا للجلاد حينًا وأوانًا، ثم انهزموا بأفظع حال، وقتَل المسلمون منهم ثلاثين من الرجال، وأخذوا جميع ما عندهم من المحلة والغنم والآبال، وانصرفوا في أحسن حال.

وفي شهر رمضان من سنة عشر بعد المائتين والألف.

براك وآل الحسا من تحت إمام المسلمين، لمعت للفتنة بوارق، ووحت للفتنة بوائق، وفاح للشر عَرْفٌ وشذا، ولاح طالع النحس والأذى، واستبطن البغي والغدر، واستعلن الفحش والنكر، وعصفت للخيانة رياح، وظهر على الفساق البِشْرُ والارتياح، وعلتهم من الفرح نشوة، وزادت قلوبهم على المسلمين قسوة، واستنشق المسلمون للمكر عَرْفًا، فلا يستطيع أن يرجع في المنكر حرفًا، بل يوم ينتظرون يلاقي حتفًا، فاستمرت الحال أيامًا وليال، وبطانة الشر تعلو وتزيد، وتضمر البطش بأهل التوحيد، ولكن ليس عن ساحة الصبر من محيد، فلما أراد الله تعالى إنفاذ الوعد والوعيد، وتهيئة أسباب التمكين لأوليائه والتأييد، وهلاك مَن أراد هلاكه وخذلانه، وذل مَن أراد ذله وهوانه، قدح زنادها وحقق ميعادها، فأورت بالشر نارها واستطار لهبها وشرارها، وسمى جهارًا منارها، وأعلن أصحابها وأنصارها، وتأزر بإزار الغدر شرارها، وارتدى برداء الفتك فساقها وفجارها، وبقيت تمور بين أهل الفجور تلك الشهور.

---

(١) من يام.

هذا، والمسلمون من أهل الحسا بين لعل وعسى، وكلٌ تجرع مرارة الخوف واحتسى، وتدرّع بدروع الهم واكتسى، وكابد حرارة الغم والأسى، وقلوبهم بين رجيف واضطراب، ووجيف واكتئاب، إلى يوم للمنية في ارتقاب، وفي حطم البلية في احتساب.

هذا، وإمام المسلمين عبد العزيز، أدخله الله كنفه الحريز، يُرسل المكاتيب ويكثر فيها المعاتيب، ويُعمل الرسل والإرقام، في كل أسبوع من الأيام، إلى براك بن عبد المحسن، ويحضه على نفي المسيء والإحسان إلى المحسن، وقد اهتم بذلك والله هذا الإمام أشد الاهتمام، وأمره أن يقيم الدين أشد القيام، وأن يشيد قواعد الدين، ويبيد جملة المبطلين، ويزيل من الشرك أصله وأساسه، وينفي دعاته وأناسه، ويقيم على الحق والهدى، ويشرّد أهل الزيغ والردى، ويبتهل بإقامة السنة، ويتّبع منهج الرسول الذي سَنَّه، ويأمره بإعلان شعائر الإسلام، وإخلاص الدعوة للملك العلام، وإيقاع الخمس الصلوات في المساجد والجماعات، ويبذل له النصح سرًا وجهرًا، ويبين له أنك إن فعلت هذا نلت عزًّا وفخرًا، وحَوَيت من مولاك عزًّا ونصرًا، وأعظم لك ثوابًا وأجرًا، وقد ألزم عليه في ذلك أعظم الإلزام، وأمره أن يفي بما عاهد عليه الله حين دخوله في الإسلام، ويفعل ما شرط عليه حين عقد الإبرام، وما التزمه في الحجة من الأحكام، من نفي أهل الباطل والفجور، وطرد أصحاب الفساد والشرور، كما هو في صحيفة العهد مذكور، وفي حجة العقد مقرر مسطور، فلم تغن النصائح والإنذار، ولم يبادر بما دُعِيَ إليه من إزالة الأشرار، وتعذر من الإمام في عدم القيام وعدم الوفاء بما عاهد عليه، أن هذا لا سبيل إليه، وقد أعيا الرأي والفكرة، وليس إلى جلاء رؤسا الفتنة من قدرة؛ لما يؤدي إليه الحال، ويترقب في المآل، من الاختلاف والشقاق، وقيام أهل الرفض والنفاق،

واجتماع أهل الزيغ والباطل، على أهل التوحيد والأفاضل، والأمر يؤخذ على مهل، وَلْيُدْرَ أن الأمر جاء على عجل، وأن الفتنة قد حزّبت أحزابها، والبدعة قد نخت كبارها وأربابها، وأن الله تعالى قد حقق على الرافضة خرابها، وكبت على فساق تلك البلد ذهابها، وأبدى لهم جزاء ردتهم الأولى وعقابها، وبين لهم شؤم الخيانة ومآبها، وما أشقى به أهلها وأصحابها.

هذا، وأردية البلاء تُنْسَج وتُحَاك، ويسعى فيها كل فاجر أفاك، إذا غسق الليل ودجى الأفلاك، وترامى شرد الباطل في الأفلاك، وكان ذلك يسعى في نسج تلك الأردية والبرود، وعقد تلك الألوية الضالة عن المنهج المحمود، مَن هو في كل فتنة معدود، وفي كل مقام على المسلمين مشهود، رأس الفتنة ورئيسها الذي يثبت على أصلها وتأسيسها، ويرسي عليه عمودها، وتورق به أغصانها وعودها، وتثبت أوتادها وأطنابها، ويفتح بشؤم فكره بابها، وذلك لكونه لا يزال سميرًا للفساق والفجار، وظهيرًا للعصاة والأشرار، وهو صالح النجار، فكان إذا هدأ الناس، واشتد ظلام الإغلاس، أخذ بالشر والإبلاس، فركب دابته وجد وقصد، قصر علي بن حمد، فأحكم الرأي والمشورة، وعرض عليه تلك الأمور المحظورة، ثم سار من عنده وأجمع محكم قصده، ونحَا على الحبابي وقصد، وأحضر ابن عفّات واجتهد، وظن أنه لم يشعر به أحد، لكون هذا السعي والاجتهاد، وإعمال المسير والترداد، إنما هو في الليل، وفي النهار يُظهر للمسلمين المناصحة والميل، والمسلمون يعرفون حقيقة حاله، وقبيح ما ينظمه من فعاله، وقد أرسلوا الرسائل والكتب، وجَدُّوا في الطلب، وأعملوا المَطْيَّ بالإرقام، إلى عبد العزيز الإمام، يطلبون منه النجدة والمدد والعدة، ويحثونه على النصرة والانتصار، وقد بينوا له جميع الذي صار، وما بدا لهم من الشين الذي ضار، والشر الذي ارتفع له غبار، وكذلك أرسلوا إلى الأمير سعود بأن

يسعفهم بالمراد والمقصود.

وكان حينئذ، حرس الله مهجته وأدام عزه ودولته، منيخًا قرب شقرا، فلما جاءته الرسل من المسلمين، ومن والده، متع الله به المسلمين، وقمع به أعداء الدين، أحضر وجوه الغزاة للمشورة فيما يراه، وما عزم عليه وأبداه، وبين لهم ما يراد بأهل التوحيد من أهل الحسا، وما خالطهم من الخوف والأسى، وقال: أريد أن أعجل لهم المدد، قبل أن يقع بهم الفتك من تعاهد عليه واتعد، حتى يكون لهم عونًا، ويلقى العدو به ذلًّا وهونًا، بل ربما يكون مجيئه البلاد سببًا لبطلان ذلك العهد والاتعاد، وتخمد بمجيئه نار الفتنة التي توقد كل ليلة غاية الإيقاد. فأرسل وهو في ذلك المكان، إبراهيم بن عفيصان، ومعه مائتا مطية تعجيلًا للرعية، واستدفاعًا لما أعد من البلية، وما عزم عليه من الردة الردية، وكان ذلك رأيًا مباركًا ميمونًا، خاليًا من شوائب النحس مصونًا، وحزمًا شباه مرهفًا مسنونًا، وعزمًا حاز المسلمون به ركودًا وركونًا، فلما أقبلت الرسل إليهم، وقدموا عليهم، وسمعوا كلام البشير، وتحققوا المجيء والمسير، وفهموا قرب مكان الطليعة، عرفوا أنهم ليس لهم حيلة ولا ذريعة، وأنها ليست لهم بممنعة ولا منيعة، إن لم يسارعوا إلى ما عليه عزموا، ويعجلوا ما عقدوه وأبرموا، وينفذوا ما نوهوه وأحكموا، ويبدروا المسلمين قبل قدوم المدد المقبلين، بما أجمعوا عليه من الفتك، وندبوا إليه من الخيانة والهتك، ونصب أعلام الارتداد، ورفعها بين العباد، وشهرتها عند الحاضر والباد، قبل تلاحق الأمداد، لكي يغمسوا كافة أهل البلاد، في منتن تلك الأقذار، ويضمخوهم بهاتيك الأوضار، ويدخلوهم في دائرة الهلاك والأخطار، فأبى الله العزيز القهار، ألا يكون ذلك إلا على الرافضة والفساق والفجار، فلما آن أن يبدو للقضاء الأزلي آثار، ويظهر بعض ما انطوى في الغيب من الأسرار، وحان

الحين وحاق المكر بالأشرار، ولمع بارق قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

وأقبل ظلام ليلة الفتنة وسجى، واسودّ فيها محلولك الدُّجى، وأرخى الظلام فيها سدوله، وفقد الأفق من البدر أفوله، حتى أتى أهل الضلال والردى، والذين يريدون الفتك والاعتدا، من الرفعة والنعاثل[1]، وغيرهم من الأراذل وسفلة القبائل، رئيسهم النجار وأنيسهم، إذا انسلخ النهار فاجتمعوا عنده، وعرف كل منهم قصده، وعاودوا الرأي تلك الليلة، وأبرموا التدبير والحيلة، بأن تقتل مَن فيها من أهل التوحيد كل قبيلة، بل سمى كلٌّ من المتعاهدين قرينه وقتيله، وبينوا التدبير والاحتيال، وصمموا على الفتك والهتك والاغتيال، وبارزوا بالحرب شديد المحال، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

هذا، والأنذار على المسلمين تتوالى، والأخبار تتلى عليهم وتتالى، فلما أراد حقن دماءهم ﷻ، وخذلان من ساعد على الفجور ووالى، وتعذيب من اجتمع على الأولى والثانية وتمالى، وإلباسه في الدنيا هوانًا وإذلالًا، ومقاساته تنكيلًا ونكالًا، نما ذلك الخبر وفشا ذلك فظهر، بعد أن خفي واستتر، وتحقق أمير السياسب سيف آل سعدون، ما هم له مستعدون، وما هم عليه مجتمعون، فأحضر المهاجرين من إخوانه، وأخبرهم بقصته وشأنه، مع أنهم كانوا لذلك مستيقنين، وللخيانة مستيقظين، وللغدر كل يوم متوقعين، إلا أنهم كانوا على الله متوكلين، وللموت نفوسهم موطنين، فاتفق رأيهم وانتظم، أن يرسلوا إلى من يخشى منه الردى من جماعتهم ويتهم، ومن دخل منهم في الحلف وعزم،

(١) من أحياء الهفوف.

فلما أحضروهم كافة، ووضحوا لهم سبيل المخافة، وما يترقب على ذلك من الآفة، وأن أهل الشر والفساد، يريدون غدًا الارتداد، وليس لهم غيرنا مراد، وجيوش المسلمين والأمداد، تطلع عليهم بكرة أو روحة بالنصر والإمداد، فتنالوا بذلك غاية السعد والإسعاد، وتدخلوا في طريق الرشد والإرشاد، وترفضوا منهج من نوى السوء وكاد، ونحا قاصمة الظهر وأراد.

فكان، ولله الحمد والمنة، ذلك النصح أزال عن قلوبهم الأكنة، وصار ذلك الوعد لهم والإيعاد، مما أجدى فيهم وأفاد، فكأنهم بعدما انتضوا السيوف لملاقاة الحتوف أعادوها في الأغماد، وكأنهم انتبهوا من سنة الرقاد، ودعت منهم تلك النصائح أذن واعية، فأصبحت أركان الردة ولله الحمد ذلك اليوم واهية، حيث لم يقم من السياسب لهم داعية، وانحلّت عرا ذلك الإبرام، ورد الله بكيده من رام.

هذا، والنجار بعدما أخذ الكرى والمنام، في ظلام الدياجي أجفان الأنام، دأبه الإقبال والإدبار، وتدبير ما يريده في النهار، يحيك ذلك وينسج، ويدخل البلاد ويخرج، إلا أنه على شأن السياسب لم يُعرج، وقد أعد خارج البلد في بستان هناك رجاله، وسقاهم فيه من رحيق القهوة صافية وزلاله، وكان الوعد بينهم حين تذر قرنها الغزالة، فلم يلبث الناس بعد ذهاب الإغلاس، إلا قدر ما بدأ من كوة الأفق ضوء السراج، وأشرق على سطح البسيطة نوره الوهاج، وانتشر في بطون الأزقة والفجاج، أهل الفلاحة ذو الحاج، حتى سمعت الجلبة والأصوات، ووقع الذعر والانزعاج، فرجع الناس على أعقابهم ينكصون، وقد خالط الرعب قلوبهم، فهم منذعرون، ولم يكونوا بذلك الأمر يشعرون، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فتعاظم الأمر وعلا، وشاع شأنه بين الملا، وأسفر وجه الردة وجلا، وزادت

القلوب وجلًا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾، ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، وزاغت الأبصار والألباب، وغلقت البيوت والأبواب، ونادى منادي القضاء بالعذاب، والذهاب على الذين فعلوا ولكنهم لا يسمعون، ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ وتوقفت أشرار تلك القبائل، ولم يكن غالبهم بما عنده فاعل، وهم بين لائم وعاذل، إلا أنهم للسياسب منتظرون، ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

وبادر قوم النجار، لأنهم رؤوس الأشرار، فقتلوا شخصًا واحدًا، وهو عبد الله بن حسن، وكان النجار عنده قاعدًا، وبتثبيطه مواعدًا، فأسرعوا إليهم يُهرعون، وأقبلوا عليهم يركضون ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾، وجرحوا ابن كثير جرحًا، ولم يجعل الله لمرامهم نُجْحًا، وما أصابوا في المسلمين قرحًا، وقد عرفوا لو يطلبون صلحًا من المسلمين لا يقبلون، ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

فعند ذلك شمرت تلك العصابة، وندب النجار أعوانه وأصحابه وشيدوا الحرابة، ونهضوا إلى السياسب يُسرعون، ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، فدهموهم في الفريق والسكك، ووقع بين البيوت المعترك، وصدق الطعن من سلك، ولكنهم على الحق معتدون، ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، فحين أبصروا حرارة الطِعان، وذاقوا مرارة السِنان، وحامت عليهم للموت عِقبان، في منازلة تلك الإخوان، وتيقنوا أنهم لما يريدون لا يدركون، وأنهم أخطأوا ما يأملون، ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾، فانهزموا بأقبح الذل والنكاية، وقتل منهم واحد هو الغاية، وحف المسلمون باللطف والعناية، لعلهم بأمرهم يعتبرون، وعلى ربهم يتوكلون، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، وأدبروا يعضون أنامل الندم، وولى كل شيطان وانهزم.

ثم اجتمعوا عند رئيسهم وعزم أنهم لجميع المشرق يُرسلون، فأرسلوا

يحثونهم على المجيء والتعجيل، حتى يفوزوا بالمنى والتأميل، فلما قدمت عليهم الرسل، وأخبروهم بما حصل، نهد مقاتلة كل قرية، واجتمعوا للحرب بلا مرية، فلم يرتفع سلطان النهار، إلا والجنود تطلب البدار، وتروم لأهل المبرز الدمار، وقد أقبلوا أوّلهم، وهم النعاثل والرفعة، والذين حضروا ببيعة النجار، ثم أقبل بعدهم من أهل المشرق أعداد، وتتابع لهم جيوش وأمداد، وكل منهم لصدق الحرب في أهبة واستعداد، وتأهب لوطئة البلاد، إن لم يف لهم مَن حضر الحلف من الفِرقان، بذلك الوعد الذي كان، ويرجعوا عن طريق الخذلان، ويقتل كلُ فريق مَن عنده من أهل الإيمان، ويحققوا لهم سابق ذلك الميعاد، وينجزوا ذلك الإيعاد.

هذا، وقد استعد من أهل المبرز كل فريق، وأحرز وجعل الأرصاد كل فريق، فيما يؤتى إليه من طريق، وشمّروا للحرب سواعدهم، وأخلفوا مواعدهم، بل أظهروا أعظم الإباء والامتناع، وأشد الذب عن المسلمين والدفاع، وتبين منهم الصدق على ذلك والإجماع، فبقي مَن عندهم مِن أهل الفتنة والفجور، ينادي على نفسه بالويل والثبور، وأبصارهم تمور وأفكارهم تخور، وليس لهم من أهل المبرز مساعد، بل كل عن الفتنة قاعد، وهواتف البلاء عليهم يدرون، ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

فحين وضح واستبان، ذلك الخلف والخذلان، لصالح الرئيس الداعي إلى طريق إبليس، ولم يجد ناصرًا ولا قبيلًا، ولا معينًا ولا كفيلًا، وأضحى حائرًا ذليلًا، لم ير حيلة له إلى البقاء ولا سبيلًا، ولا منهجًا للسلامة ولا دليلًا، إلا مخادعة أهل الإسلام والإيمان، وطلب منهم الدخول معهم والأمان، فراح في ساعته، بعد تدبير فكرته، إلى فريق العتبان، وكانوا ذلك اليوم نعم الإخوان، جزاهم الله تعالى خير، ورئيسهم مهوّس بن شقير، فأخذ منهم الأمان، على

نفسه ومَن له مِن الإخوان، وكان هذا من الله تعالى حكمة باهرة، وقدرة قاهرة، وأمرًا قدره تقديرًا، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾، أبرز خذلان أعدائه عبرة لأوليائه، وتسلية لهم على بلائه، لعلهم على الفتنة يصبرون، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

هذا، ولم ينادِ المنادي لصلاة الظهر بالأذان، إلا وقد أقبلت الرسل تبشر بقدوم إبراهيم بن عفيصان، بل هم مع الوقت كفرسَيْ رِهَان، فحصل الأنس وطابت النفس، وزاد سرور أهل التوحيد والإيمان، وزال ذلك الهم والخوف والأحزان، وتم السرور، وحصل الفرح والحبور، وهبت رياح القبول والتهان، وبدت شموس الأماني والأمان، ولم يزل أهل المشرق ومن معهم من الرفعة والنعاثل، وسائر سفلة تلك القبائل، خلف السور مقيمين، ولمقصودهم رائمين، وعلى مأمولهم عازمين، إذ لم يكونوا عالمين بما قد صار من حال صالح النجار، وما جرى من الأخبار، فلم يفجأهم إلا الخيل تضبع، والأسنة تبرق وتلمع، والبيض تُشرق وتسطع، فكُلٌّ ولَّى وانهزم، وتندم على ما كان عليه عزم، وانتَضَوا بطون الأقدام، ولم يكن لهم غير البيوت إقدام، فوطئهم من المسلمين خيول، وخرج معهم من أهل البلد فحول، فحالت على قطعة من الأحزاب الفرسان، وجالت عليهم أولئك الرجالة الشجعان، فقُتِلُوا جميعًا في ذلك المكان، وجُرِّعُوا كأس المذلة والهوان، وباؤوا بالخزي والحسرة والخذلان.

وكان جملة المقتولين نحو الستين، وغالبهم من أهل الجبيل، والباقي من بلدان المشرق متفرقين، وفات الحملي ومن معه، حين أقبلت الخيل عليهم

مسرعة، وشرد هاربًا ونار[1]، ولم يجد دون بيته من قرار، وازدحموا عند دخولهم الدروازة، والكل يريد من الخوف السبق وإحرازه، فلما رأى وجوه قومه وجماعته، قبيح فعله وصناعته، ساروا إليه سريعًا، وألزموه أن يخرج مع الحبابي وقدومهما جميعًا، وألحوا في ذلك الأمر عليه، وعرف أن القرار لا سبيل له إليه، وأن وجوه الفريق والأعيان، إن لم يخرجوا عنهم لم يدفعوا عنهم العدوان، وأنهم يسلمونهم إليهم، ولا يدفع عنهم إنسان، خرج هو والحبابي، وأناس من الأشرار، حين أدبر ضوء النهار، واشتد سواد الدُّجى، وانقطع منهم الرجا، ففاجأوا علي بن حمد في قصره، واستمدوا من رأيه وفكره، وبقوا عنده ثلاثة أيام، في أكسف حال، وأشر مقام.

هذا، وبلدان المشرق ينهب بعضها بعضًا، وتُسرع إلى القتال والقتل والنهب ركضًا، وتسابق الشمس في الطلوع إلى ذلك الحال نهضا، إبداء للندامة وطلبًا للسلامة، ومقدمة بين يدي سعود، بهذا الأمر المعدود، لعله يكون للرضا وسيلة، وإلى بقائهم في أوطانهم حيلة، ولم يروا مسلكًا سواه يسلكون.

وفي تلك الأيام المذكورة والأحوال المسطورة، وإبراهيم بن عفيصان محاصر لقرية العمران، ومعه جمع كثير وجم غفير، من السياسب والعتبان، وغيرهم من سائر القبائل والفرقان.

ثم في أثناء المدة المذكورة طلب الحبابي وابن عفات والحملي، ومن معه من الرجال المحصورة، من إبراهيم بن عفيصان الخروج إلى العقير والأمان، فأعطاهم ذلك وغيرهم أناس، فخرجوا من الإحصار والأحباس، وأرسلهم إلى العقير مع محمد بن ديماس، وكان إذ ذاك لم يتسنم ذروة الضلال والإبلاس، فقطعوا في ليلتهم تلك المفاوز والقفار، وركبوا صبيحتها متن زاخر البحار،

---

(١) نار: هرب.

وامتطوا كواهل فلك السيارة، وتيمموا أهل الزبارة، فقدموا عليهم ولم يكن عندهم من الحال خبرة ولا إشارة، حتى فجؤوهم بغتة ذوو النيارة[١]، وشرحوا لهم عن الحسا أخباره، وصرحوا لهم أن قصدنا بفعلنا أن نذهبه وآثاره، ولم يعلموا أن لله تعالى على عباده غارة، وأن الله تعالى يؤيد دينه وأنصاره، وينصر أهيله وأحزابه وأصهاره، ويريد تبيينه في أماكن الرجس وإظهاره، وإثباته في الأحسا وقراره، وأبطل الله كيدهم وما يصنعون ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾.

ولما أراد الله تعالى إبراز حكمته، وتبيين آثار قدرته، واستنارة البرهان والحجة، وتقويم واضح الحجة، قدم سعود مستهل ذي الحجة، فنادى لسان الحال مبشرًا بالسعود والإقبال، ومنذرًا لذوي البدع والضلال، فأعلن وقال: الحمد لله الذي أطلع شمس الكمال في مطالع السعود، والشكر له على ما أعطى وأنال من الكرم والجود، برؤية هذه الطلعة السعيدة، والعزة المنيرة الرشيدة، فأناخت بقُرب النعاثل أولئك الجنود، وخففت رايات الإسلام والبنود، وأصبح حبل الحق ممدود، وفاز أهل التوحيد بالقُصود، وتلت ألسنتهم عند ذلك الحال المشهود، على سبيل الهنا ونيل المنى، وإبداء لشكر مولاهم الكريم، وإظهارًا للثناء والتبجيل والتعظيم، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ودارت كؤوس الأنس والأفراح، وامتلأ القلب بالفرح وارتاح، وهيمنت في الأجساد والأشباح، حداة النفوس والأرواح، على سطح البسيطة بالطول والعرض، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، ونُصبت بذلك المحل والمكان، خيام

(١) النيارة: الهرب.

التوحيد والإيمان، فغنت بلابل السرور على الأغصان، ورجعت الأغاني في الألحان، وكررت قول من قال في غابر الزمان شِعْرًا:

فألقت عصاها واستقر بها النّوى كما قرّ عينًا بالإياب المُسَافر

وطارت قلوب أهل الزيغ والضلال، حين مد فسطاطه وَظِلاله، وأبصروا فرسانه وأبطاله، وشاهدوا خيله ورجاله، وقد كانوا بها يكذبون، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وندموا على السِّلم حين فات، وقالوا: يا ليتنا نرد. وهيهات، وتمنوا الموت على الحياة، ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾، فلم يك إلا قد وحطّ الرحال، وتسوية الأحمال والأثقال، فتلقاه أهل الهفوف باستقبال، ونهضوا عليه يسلمون، ونهدوا إليه مستسلمون، ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فقابلهم بالقبول والتوقير، وعاملهم بطلائع التيسير، ونفى عنهم صنائع التعسير، وتلا لسان حاله على منهج التبشير، لعلهم بما أشار لهم يفرحون: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فأعطاهم إلا من دخل في الردة الأمان، وأدخلهم في دائرة أهل الإيمان، وأخذوا يبايعونه على الإسلام بالأيمان، وداعي الحق يذكرهم بآي القرآن عساهم به يتعظون، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

ثم أقبل أهل المشرق إليه أَرْسالا، وقدموا عليه عجالًا، وقد رعبت قلوبهم مخافة وأوجالًا، وتغيرت وجوههم ألوانًا وأحوالًا، لقبح ما كانوا له يصنعون، ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾، وقدموا بشعائر الذل والهوان، على الإساءة منه والإحسان، إذ ليس

عندهم منعة ولا مكان، عن القدوم به يتحصنون، ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، فشرع معهم في المبايعة والمعاهدة، على المتابعة والمعاقدة، والتزام حبل الطاعة والمساعدة، وهم على الوفاء له يقسمون، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ وأتاه أهل المبرز أهل الإيمان والإسلام، لأداء واجب السلام، وتجديدًا لعهد الإسلام، فقابلهم بحسن البشر والإكرام، جزاء بما كانوا يعملون، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ﴾.

فلما انقضت أيام العهود، وخف إتيان الوفود، بادر إلى ما هو الأهم والمقصود، وأخذ في تقويم السَّنَن المحمود، الذي به المسلمون يأمنون، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وجرّد مرهفه المحدود، لإقامة القصاص والحدود، وأورد الحِمام المورود، غالب من باشر الردة الثانية في يومها المشهود، فغدوا لكأس الردى يتجرعون، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وأردف جماعة من المعتدين، وثلة من الفساق المفسدين، وزمرة من الرفضة المبتدعين، الذين هم عن الصراط ناكبون، ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فأفنى رؤوس ذوي الشر والفساد، وأراح من شرهم جميع العباد، وأزاح باقيهم عن البلاد، لا سيما ذوي الشقاق والعناد، الذين هم في الأرض مفسدون، ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ودام القتل أيامًا واستمر، ومكث مدة واستقر، وكل يوم يختبر عن المفسدين الخبر، ويقتل من اطلع عليه وعثر، حتى استبرأ الحال والخبر، وعرف أنهم ليسوا بها يمكثون، ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، فشاد في البلاد أركان الإسلام، وأذن بالتوحيد فيها بالإعلان، ورفع للسّنة

الإعلام، التي كان الولاة لها يمكرون، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، فبدأ بتسوية تلك القبور، وإزالة ما عليها من المحظور، وقطع تلك الأوقاف والنذور، التي أهل الباطل لها يصرفون، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، وأرسى بها قواعد الدين، فأمسى أهل الباطل مشرّدين، ومحا آثار المبطلين، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وضُربت سُرادق الأمن والأمان، وأسس قصر التوحيد بأعلى مكان، وأحكم غاية الإحكام في البنيان، ونودي عليه بأفصح لسان، وأهل الإسلام له منصتون، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، فحينئذ نبذ الضلال ملته، ونعى الشرك حزبه وأمته، وبكى الرفض أصهاره وفئته، لأنهم كانوا له يشيدون، ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ وفقد أهل العزّى عُزّاها، وجعل الخراب جزاها، وأهل اللات لها يتبعون، ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، ومُحقت رسوم البدع والأهواء والإلحاد، وهُدت دعائم الجور والعماد، وأورق غصن الحق وماد، وبطل ما كانوا عليه يعكفون، ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، وأقبلوا على ما أوجبه الله تعالى وفرضه، ودحض أهل الضلال والرفضة، وكلٌ هجر ما كان يدين به ورفضه، وضل عنهم ما كانوا يزعمون، ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فاندرست ولله الحمد تلك الحقائق، وعطلت تلك الطرائق، ولم يكن لها موافق ولا مرافق، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، وخر عرش الشرك ووهى، لما علاه التوحيد ودهى، وعرف بطلانه ذوو النُهى، وشمروا فيما أمر الله به ونهى، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وجد

في تعلم التوحيد الصنعة والشرفاء، فوجدوه لمرض القلوب دواء وشفاء، ولم يجدوا عنها مصرفًا، ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقرر أصحاب الأوقاف والأحباس، وحث أرباب المدارس على تعليم الفقه والتوحيد للناس، فوجدوا عظيم السرور والإيناس، واستمروا علماء المذاهب يدرسون، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وأقر في أيدي أهل السنة جميع تلك القربات والأسبال، بل زاد غالبهم من بيت المال، واجتهدوا بالقيام في وظائفهم بسرور بال، فهم لهذه النعمة شاكرون، ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

ولما فرغ، حرسه الله تعالى، من ذلك العزم والتجريد، لإقامة سنن الدين والتوحيد، ومهّدها أحسن تمهيد، لعل الناس لها يسلكون، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، شرع ينظر في الرعية بالتغيير والتبديل، ويدبر أحوال التأديب والتنكيل، على سبيل التسوية والتعديل، بين أهل الهفوف وكافة الرى وهم لها يوزعون، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، وفاز أهل المبرز بحسن الحال، والسلامة من الأغلال والنكال، وطابت لهم العاقبة والمآل، لأجل ما كانوا له يدّعون، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وشد عليهم في ذلك النكال، مقابلة لما في بيوتهم من الأمتعة والأموال، لأنهم دخلوا في العهد على ذلك الحال، لعلهم عن مثلها ينتهون، ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، ومكثوا تلك الليالي والأيام، يقاسون حرارة الضنك والإلزام، ويبيعون ما عندهم من الأمتعة والحطام، لأداء ذلك الالتزام، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ * كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟

يَفۡعَلُونَ﴾ وطلب عليهم جميع ألوان السلاح، ومن أخفى عليه شيئًا فليس له في بلده مراح، بل دمه هدر مستباح، فلم يكونوا لشيء منه يخفون، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾، ثم أمر بهدم الأسوار والبروج، ولا يكون للردة منهج ولا عروج، فأصبحوا بها يهدمون، ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ فهدمت أسوار قراها والبلدان، مخافة أن ين-زغ بينهم الشيطان، ويطمع بها أحد من العدوان، ويحسبون أنهم يمكثون، ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، ولما تم بناء ذلك القصر المُحكم المشيَّد، على كل وجه من الأحكام والتسديد، والغلظ وارتفاع السُّمْك والتجويد، ووضع فيه من آلات الحرب والطعام ما يحتاج له المرابطون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ وأعدّ قطعة من خيله وركابه، وجيشًا من جنده وأصحابه، خارج عن القصر قريبٌ من بابه، لإخافة العدوان وأربابه، ولتذب عن البلد من أتوا يخرِّبون، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ﴾.

ثم دخلت سنة الحادية عشرة بعد المائتين والألف.

سار سعود من الأحسا، أناله الله الرتبة القعسا، لما اشتاق، حرسه الله تعالى، إلى نجد وصبا، وهيج شوقه نسيم الصَبا، وتواجد لها شوقًا وطربًا، كيف وهي الوطن الذي به يستوطنون، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أمر بأشخاص قوم كثيرة وحمائل، من ضَعة الناس وغالبهم أماثل، متفرقة من تلك القبائل، أنهم يحلون في الدرعية يسكنون، ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾، ثم أمر بالرحيل والترحال، وأن تقدم تلك الأحمال، وتعجل عن وجه الأثقال، ثم شدت له الرحال، فاستوى عليها وقال

ما كان السلف يقولون: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، وجد في السير إلى نجد، بعدما حاز ذلك المجد، وأكثر الشكر والحمد للمولى الذي له الخلق يثنون، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وحين قارب أن يلقي عصا السير والتسيار، ويحط الرحال في رفيع تلك الديار، وشرع إليها في النزول والانحدار، من المحل الذي لها ينحدرون قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، وبدأ المسجد حين دخوله بالتحية، ثم قصد والده والأهل والذرية، واستقر مجلسه مع والده وأعيان الرعية، وطفق عبد العزيز يشوِّقُهم لما عند الله لعلهم في الدنيا يزهدون، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وفيها وقعة أحزاب ثويني[١]، ولما استقر بهجَر[٢] عمود الدين والإسلام، ونُشرت على رغم أنوف العدا للهدى أعلام، وثبت أصل التوحيد ورسا، في جميع بلدان الحسا، غشى قلوب المبطلين الحزن والأسى، وتمثلوا ببيتي عسى وعسى، فهم على تكرار الصباح والمسا، لعودة الباطل مرتجون، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، وشوت قلوبهم حرارة الحزن، ومرارة الهم والمحن، حين ملك أهل الإسلام ذلك الوطن، وثوى فيه التوحيد وقطن، وضاق بهم فسيح الأرض فضلًا عن العطن، وعرفوا أنهم متّبعون، ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ فأرجف الله تعالى قلوبهم خوفًا وفرقًا، وسفحوا لذلك دموعًا وعرقًا، وازدادوا ذعرًا وغيظًا وحنقًا، وساروا

(١) شيخ قبيلة المنتفق.
(٢) الأحساء.

للتخريب عليها وخدًا وعنقًا، وقصدهم لنور الحق يطفئون، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وتعاظم ذلك الأمر عليهم وأربى، وسعوا في تغييره شرقًا وغربًا، وتداعوا عليه عُجما وعُربًا، ولم يعرفوا أن للدين ربًّا، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، وتجرعوا من سماع هذا الأمر غصّة، والكل أخذ من عظيم الحزن حِصّة، حين رأوا أهل الإسلام على هذه المنصّة، وودوا لو يدركون فرصة، على المسلمين بها ينتهزون، ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، وشمّروا ذيول الهمة بالتبديل والانقلاب، وجدوا إلى تحصيلها في الأسباب، والسعي في بواعث الاجتلاب، فآبوا بذلك بشر مآب، وما ظفروا بما يرتجون، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، فملأوا بطون الصحف والإرقام، من نفث اليراع والإقدام، وبث ما في الصدور والأوهام، فزخرف القول والكلام، وأرسلوا بها إلى البشارة والحكام، لعلهم في إزالة الدين يسعون، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وأقام في ذلك الصغار والكبار، واجتمع عليه السفلة والخيار، وشمر فيه ساعد الجد والإزار، فباؤوا بالخيبة والأوزار، مما كانوا فيه يمترون، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

وانتدب إلى هدم ما قد أسس من الدين وبان، وإزالة ما له من أساس وأركان، كل رئيس وعالم شيطان، من جميع النواحي والبلدان، ونمقوا في الطروس قبيح الفعل والبهتان، وأرسلوها إلى الباشا سليمان، وأقسموا له فيها أنه لا يصلح لهذا الشأن، ولا يقوم بأعباء الرئاسة ومصادمة الكتايب والشجعان، ومنازلة الجمع والأجناد من سائر العربان، ومقابلة هؤلاء العصاة

العدوان، ومقاتلة حضرهم والبدوان، وإزالة أثرهم من الحسا ومحاصرتهم في البلدان، سوى ثويني من الأنام إنسان، ولا يقدر على ما ذكرناه إلا هو ذو الهيبة والشأن، فأَطْلِقْهُ ورَئِّسْهُ حتى ترى ما يَسُرُّ الأعيان، ويقر الناظر له في العيان، وتحمد أثر سعيه في قريب من الأزمان، وترى أهل الدين من سطوته يهربون، ومرادهم على الدين يخربون، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

فلما دعا الباشا[1] ما حرروه، ووعى ما أثبتوه وقرروه، وتأمل مفهوم ما قد حبَّروه، وعرف منطوق ما سطروه، وفحوى ما كذبوا فيه وزوروه، أمر بإحضار ثويني عنده فأحضروه، وخلع عليه ورأَّسوه وكبَّروه، وعقدوا له الحكم على الحاضرة والبادية وأمَّروه، ولم يقف الباشا على حقيقة ما دبروه، وأنهم قد بدلوا الأمر عليه وغيروه، وحذروه من هذا الذي نفروه، وما هو والله إلا كذب افتروه، وأعانهم عليه قوم آخرون ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ فحين حظي ثويني بالرئاسة ونالها، وحاز من آماله منالها؛ نادى برفيع صوته: أنا لهؤلاء الطائفة أنا لها. وأعطى جماعته الأيمان على ذلك وأنالها، وهم لأيمانه مصدقون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وندبوه على قتال أهل الدين والتدمير، وحثَّوه على آلات التيسير، وتعجيل الظهور والمسير، وحرضوه على ألا يبقى منهم صغير ولا كبير، ولا يذر شريفًا ولا حقير، وكان بمسمع من اللطيف الخبير، جميع ما به يحرضون ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فأقبل متنعمًا بإزالة الدين من أساسه، وإطفاء نوره من نبراسه، وتغيير منهاجه وانتكاسه، وقتل كافة أنصاره وأحزابه

(١) والي العراق سليمان باشا (ت ١٢١٧هـ). انظر ترجمته في «دوحة الوزراء»؛ للكركوكلي (ص ٢١٨ - ٢١٩).

وأناسه، واستئصال شأفة بلدانه وأعوانه وأجناسه، واغتر بما جاء به من سواد رجسه وأرجاسه، وغوغاء أجناده وأحزابه وأنجاسه، ورام هذا المرام لقوة بأسه، وما شعر أنه مسوق إلى قطع رأسه، واستيفاء بقية أجله وأنفاسه، ولم يعرف ومَن معه مَن هم له محاربون، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، وهبط من بغداد بعد مقاساته بها الأنكاد، ومعاناته هَمَّ الأسر والقياد والغم الذي غشي الفؤاد، فأسرع في الامتثال والانقياد، وإحكام آلات الحرب والأهبة والاستعداد، وحشد الجيوش والأجناد، والاستعانة بالأسباب والأمداد، من كل ناحية وقطر بلاد، وكلهم بما قدروا عليه يمدون، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وسحب ثوب الخيلاء والتيه وجرَّه، وأوطأ سنابك خيل جيشه المجرَّة، واختال بما داخله من العجب والأنس المسرَّة، التي كان في ضمنها له الهلاك والمضرَّة، والذل والهوان والمعرَّة.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فكان، والعياذ بالله، كالجادع أنفه بكفه، والباحث عن حتفه بظلفه، وهذا شأن الذين يستدرجون، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وحث السير يريد الفيحا وصولًا، وطوى بأيدي الجياد من المهامه صعابًا وسهولًا، وعزم أن يفي بعهده، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾، حتى يصادف من الباشا رفعة وقبولًا، ولقد تكلف بما ليس واللهِ في طوقه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، وشمخ بأنفه وجر للكِبر ذيولا، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، ولكن أكثر الناس لا يتدبرون ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ولما قارب دخول البصرة في الإقبال، وتبين له منها رسوم وأطلال، خرج إليه أهلها من الفرح باستعجال، وتلقَّوه بالقبول من أميال، وبادروه بالحشمة

والإكرام والإجلال، وأظهروا من التوقير والخدمة والامتثال، ما لا يخطر على البال، ولا يحصره في البيان المقال، فدخلها بأبهة تغشى عيون الناظرين رونقًا وحسنًا، وتخجل المتأملين فيها ألبابًا وذهنًا، ويبهر العقول مشاهدة ذلك المقام الأسنى، فتنقص عند مطالعته مهابة وجبنًا، وتقول: يا ليت لنا مثله، وكذا أهل الدنيا يقولون: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾، ولم يستقر قراره في البصرة، بل ساعةَ دَخَلَها أخذ يُجهز أمره، ويُظهر تجبره وبأسه وقهره، ويجدّ في أسباب الحرب والمكايد خفية وجهرة، ويُحذر الناس سطوته ومكره، ويُخوفهم لكي يساعدوه ويشدوا أزره، ولقد بذلوا الجد في مساعدته، وحققوا عزه وغلبته ونصره، وما جال في خَلَدِهم أنه قد حفر لنفسه من الشر حفرة، وهي لمصرعه بيديه قبره، ولقد كانت حاله لذوي العقول عبرة، ولكن أكثر الناس لا يعتبرون، ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وفي حدود إتيانه البصرة ووصولها، وهبوطه إليها ودخولها، ومكثه فيها وحلولها، أتته من رؤساء ما تليه من البلدان ومن العلماء، الذين هم لهذا الدين عدوان، وعلى محقه من الأرض أعوان، محررات الوسائل للنفوس، ومحبرات الرسائل في الطروس، والصحف التي أُجيد في السجع منشورها، والقصائد التي جُلّي بالبهتان صدورها، وأُفصح بالعداوة والبغي منشورها، وأبان محض الحسد والاستكبار صدورها، فكانت، ولله الحمد، شؤمًا عليه قدومها وظهورها، لما بالغ فيه من الفحش بهتانًا وزورُها، وتعدى فيه عصيانه وفجورها، ومضمون تلك الرسائل والقصائد، ومطلوبها من الأماني والفوائد، حَثُّه على سرعة التعجيل لما هو قاصد، لكي يفوز بما أملوا من المقاصد، ولم يجر على بالهم أن الله تعالى له بالمراصد، وأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون،

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ واستغاثوا به في منثورهم ومنظومهم وندبوه، وسألوه تعجيل النصرة لهم وطلبوه، ولم يخشوا الله تعالى في ذلك ولم يرهبوه، ووعدوه الأجر على ذلك ورغبوه، وتألَّوا في نصره على الله فيما كتبوه، وليتهم لسوء هذه الجرأة يفهمون، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، وأعنقوا في سيرهم ذلك ونَصُّوا، وعَمُّوا في حكمهم له وخَصُّوا، وجزموا له فيما زخرفوه له بالغلبة ونصوا، وما اكترثوا بمن عليه يجترون، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وقد وصل إلينا من هاتيك الديار، منظومة لابن فيروز من تلك الأشعار، متضمنة لأقبح العار، تبين فساد مبناها وبطلان مفهومها ومعناها بأول وهلة قبل التأمل والاختبار، كيف وقد صرح فيها ناظمها ومُنْشِيها بالاستغاثة بملك جبّار، وظالم تعدَّى وجار، والدعوة والاستغاثة حق للواحد القهار، كما هم في محكم التنزيل يقرؤون: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، ولقد نظمها ابن فيروز وأرسل بها إليه، وقدمت البصرة عليه، فقابلها بالقبول التام، وأبدى من حسن القبول والإعظام، ما زاد على السؤل والمرام، وأمده بكثير من الحطام، وكان بينهما قبل ذلك محبة وصحبة والتئام، ومعاشرة ومواصلة وانتظام، فهم على الخلة مجتمعون، ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وهذا نصها:

أنامل كف السعد قد أثبَتت خَطًّا   بأقلام أحكام لنا حُررت ضبطًا

وقد أجاب عنها المصنف، وأرسل بها إليه، وهذا نص الجواب:

على وجهها الموسوم بالشؤم قد خُطا   عروس هوىً ممقوتة زارت الشطا

تخطت فأخطت في المساعي مرامها ... ومُرسلها عن نيل مقصوده أخطا
وثارت لنار الشرك تذكي ضرامها ... وسارت فبارت والإله لها قَطا
لقد شوهت ما زخرفته بزورها ... كما أنه بالمَين قد أحكمت ربطا
وقد جاء منشيها بزور ومنكر ... وفحش وبهتان يعط به عطا
وحان به داعي العناد لمهيع ... تنكب عن سُبل الهداية واشتطا
فضلّ عن الإرشاد للحق واعتدى ... وغط أناسًا في طريقته غطا
وجاوز منهاج الهداية راضيًا ... عن الدين بالدنيا فما نالها بسطا
يحاول تشييدًا ورفعًا لما وهت ... قواعده فوق البسيطة وانحطا
ويسعى بتحريض وتهييج فتنة ... تصير إذا شبت لحاء العدا شمطا
وربك بالمرصاد ممن يريد أن ... يؤسس ركن الشرك من بعد أن حُطا
فلا عجبٌ من يعْش عن ذكر ربه ... يُقيض له الشيطان ينشطه نشطا
لقد خاب من مسعى غدا طول عمره ... يصد عن التوحيد من دان أو شطا
ولا كابن فيروز يروم سفاهة ... دفاعًا لحق في البرية قد وطّا
وصار يذود الناس عما أتى به ... أجل شفيع في الجَزا لِلِّوَى يعطا
ويدعو إلى نهج الضلالة معلنًا ... ومنهاج أهل الزيغ جهرًا به أطّا
يغالب أمر الله والله غالب ... ويندب من لا يملك الرفع والحطّا
ويرجو من المخلوق غوثًا ونصرة ... يناديه من بعد أغثنا بلا إبطا
وذاك من الأقدار ما فك نفسه ... ولم يغن عنه المال إذ بذل الشرطا
لئن كان يدعوه لتفريج كربة ... فليس سوى الرحمن ندعو بلا استبطا
فبشراه بالخسران والذل إن سعى ... بهضم لهذا الدين أو وافق الضغطا
ومن جرب الأشياء يكفيه ما جرى ... ويلغي أباطيلًا عن الاهتدا شحطًا
وينظر في عقبى الخيانة والردى ... فكل امرئ خان العهود غدا سقطا

وللشهم في تلك القضايا مواعظ ... يرد بها عنه الغواية والهمطا
وكم دولة كادت وقادت جموعها ... فبادت وما فادت وما أدركت مسطا
يريدون إخفاء لما الله مظهر ... وإتمام نور الله بالحفظ قد حيطا
رويدًا فوعد الله لا بد واقع ... وقد وعد التمكين من عمل القسطا
ومن عارض الأقدار أو سخط القضا ... فربك قهار له المنع والإعطا
وما ذاك إلا معتد ذو حماقةٍ ... توغر في الإبلاس واغتر وانغطا
فويل له يوم القصاص وحيث لا ... مناص وأهل النار تسرطهم سرطًا
سمت عصبة التوحيد عما يشينهم ... وعن وصفهم بالكفر لكنه الأخطا
أيوصف بالطاغوت من جدد الهدى ... وأحيا أصول الدين والسنة الوسطا
وأعلن بالإسلام والدعوة التي ... لها كشط المختار رأس العدا كشطا
وقام بأمر الحق في جاهلية ... وأهل الردى والشرك تحسبه خلطا
وأطلع مولاه نجوم سعوده ... بآل سعود حين صاروا له سبطا
فسبحان من عم العباد بحلمه ... وفي هذه الدنيا بإمهاله غطا
يكفّر قوم بالكتاب تمسكوا ... وبالهدي والإجماع ما خالفوا شرطا
وما عمموا بالكفر بل خصصوا به ... أناسًا من الإشراك أعمالهم حبطا
أفي محكم التنزيل تكفير من دعا ... إلى الله والتقوى وإسلام من شطا
أأهل الهوى والزيغ والفرق التي ... تحرف وحي الله حازوا الهدى خرطا
وهل جاء في التنزيل والوحي شاهد ... بتحقيق إسلام الروافض قد خطا
ومن قد نحا في الدين سنة صحبة ... ينادي عليهم أنهم خبطوا خبطًا
فتبا وسحقا يا لها من مقالة ... من الإفك والبهتان قد سحبت مرطا
لينظر ذوو الأحلام والعلم والتقى ... إلى أي قوم في الهدى تبعوا الخطا
وفي غربة الإسلام أعظم شاهد ... بإسلام من قد قام يدعو الورى عبطا

وبرهانه العقلي نصرة رهطه … وتمكينهم في الأرض أكرم بهم رهطا

لقد رفعت أعلامهم بأميرهم … وأبناه أسد الحرب بل بأسهم أسطا

بهم أسفرت شمس الدجى بعد دجنها … وزال ظلام الشرك من بعدما لطا

ذوو الحزم والتسديد والعزم والنهى … وأهل المعالي والفخار بهم ينطا

يذودون عن ورد الدنايا نفوسهم … ويسخون في نيل المرايا بها سفطا

فقد بذلوا في ذا النفوس فأحرزوا … به العز يا طوبى لمن أدرك القطا

وقد ولي الأحسا سعودٌ فأسعدت … مساعيه أهل الخير فانتظموا سمطا

وأبعد أهل الشرك عنها وأيدت … مذاهبهم فيها وما أبصروا غمطا

وقرر أرباب الوظائف كلهم … وما شاهدوا في كل أوقافهم هبطا

مدارسهم معمورة بعلومهم … وما ثبطوا عن نشر أحكامهم ثبطًا

وما أبطلت أحكامهم حيثما أتى … بإبطاله الشرع الشريف وما أخطا

نعم هُدمت للرفض فيها كنائس … وكل شعار الرفض عن أرضها ميطا

وما كان من جَور ونكث وبدعة … ولهو وتابوت وكل الدعا معطا

ولم ينف إلا كل من عمل الردى … ومن كان سبابا لمنطقه مسطا

فليس ترى إلا مفيدًا وهاديًا … وعلما وتحديثًا بذا تسمع اللغطا

وأمر بمعروف وتنكير منكر … وتنكيرًا من قد قارف الذنب والسخطا

وحثا على فعل الصلاة جماعة … وتوبيخ من عنها تخلف أو أبطا

فلله رب الحمد والشكر دائمًا … على نعم لم يحص نظمي لها ضبطًا

لقد منّ مولانا علينا بمنة … وخوّلنا من فضله خير ما أعطا

وصب علينا من شآبيب بره … سحائب رُحمى قد حوينا بها غبطا

بإنقاذنا من غمرة الشرك والهوى … ولولاه كنا في غياهبها ورطا

عسى الله يعلي في الجنان محمدا … ويولي الرضا عبد العزيز الذي وطا

ويحرسه عن كل سوء ونسله ويبقى سعودًا في سعود وفي إبطا

أبا عمر هُنيت بل هني الورى بما نلت والتوحيد حاز بك البسطا

إليك القرى والمدن ترنو عيونها تمناك ترعاها فتملأها قسطا

وترتاح من عليا سعود ونصره وتغبط نجدًا والحسا الآن والخَطا

فجهز لها المنصور بالبشر تلقه وتفرش إكرامًا لإقدامه بسطا

فقد طرز الإقبال آيات فوزه براياته والنصر والفتح قد خُطا

ودُمْ شاربًا كأس المسرة والهنا بأطيب عيش والعدا تأكل الخمطا

وأزكى صلاة يفضح المسك عَرْفَهَا تعم رسولًا في الورود لنا فرطًا

كذا الآل والأصحاب ما خط كاتب ونمق في مرسومه الشكل والنقطا

ولنرجع إلى تمام الحديث عن ثويني وحاله، وشرح مسيره وتدبيره وتدميره ومآله، وذلك أنه لما أقام في ذلك المكان، في ترتيب الحال وتدبير ذلك الشأن، واجتمع عنده من أحباس الأجناد لغات مختلفة وألوان، ومن عُدة الحرب والمدافع وآلتها وقاداتها وحماتها ورماتها، ما يذهل الأذهان، ولم يجتمع قبله مثله عند إنسان، ولا أحكمت سياسته مَن هو في شكله مِن رؤساء الزمان، وانتظم ذلك في قليل من الشهور، وانقادت له طوعًا استدراجًا صعاب الأمور، أذّن مؤذن التعدي والفجور، في تلك الجحافل والمحافل والعسكر المجرور، بالارتحال والمسير إلى الأحسا والنفور، والمبادرة بالخروج والظهور، وتردّى برداء الإعجاب والغرور، ونسي يوم البعث والنشور، يوم يساقون للحساب ويحشرون، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.

وانضم إليه كثير من سواد البوادي والأعراب، ونسلوا إليه من كل فج وباب، وتنادَوا بينهم أن اغدوا للأخذ والاستلاب، ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، وسمحت نفوسهم على المساعدة وتقوية الأسباب بما كانوا ببعضه

يبخلون، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾، وأقبل جميع آل ظفير إليه، ونزلوا بأجمعهم عليه، وكانوا معه ولديه، وخلعوا ما ادعوه قبل من ذلك اللباس، وجنحوا إلى سَنَن الإبلاس، واستحوذ على رؤسائهم الوسواس، حتى أنزل الله تعالى بهم البأس، وكانوا عن سبيل الحق يصدون ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

فزحفت تريد الحسا تلك الجنود، والجموع التي ضاق منها الأودية والفجاج والوهود، وقاد معها القنابل والقنابر والمدافع التي أصواتها كالرعود، وجدّوا يريدون أن ينالوا المقصود، فقضى الله تعالى أنهم يساقون لحياض الحِمام المورود، ويعجلون لأجلهم المعدود، في ذلك اليوم المقدر المشهود، وأُخِذُوا من حيث لا يظنون، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فلما تحقق عبد العزيز الإمام الخبر، عن ثويني بصحيح الكلام واشتهر، عند الخاص والعام أنه نشر، للظهور الرايات والأعلام، رفع يديه لمولاه وسأله ودعاه، وألح في دعائه وناداه، وقال وهو من الإجابة على يقين: يا من يجيب دعاء المضطرين، ولا يخيب رجاء المرتجين، ويكشف السوء عن المكروبين، اكفنا بحولك وقوتك المعتدين، واصرف عنا شر الضلال والمشركين، وأنزل بأسك بالمجرمين، واقطع دابر الظالمين، وشتت شملهم أجمعين، واجعلهم في كل فج ممزقين. فلم يتم حينئذ دعاؤه، حتى قوي في يقينه رجاؤه، وغلب على ظنه أن البلا، كتب على جميع ذلك الملا، وأن الهلاك عليهم قد سطر، والإذلال عليهم رُقِم وزُبِر، وقد فُرِغ من ذلك وقُدِر، فتلا: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، فحقق له ذلك الرجا، وأنجح له ما أمّله وارتجى، ولم يكن باب الإجابة عن قبول دعائه مرتجى، والله يحب

الذين إليه في كل حالة يتضرعون، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم بعد التضرع والإقبال والدعاء والسؤال، والتذلل بين يدي الله والابتهال، أمر سعودًا والمسلمين، بالتجهز والخروج أجمعين، لمنازلة المبطلين، ومصادفة المسرفين، وأرسل بذلك إلى كافة البلدان، مَن هو داخل في دائرة الإسلام والإيمان، البعيد والقريب والقاصي منهم والدان، فكل أجاب طِلْبَتَه ومراده، ولبى دعوته وإنجاده، وخرجوا للطاعة بدارًا، وللجهاد شوقًا واختيارًا، وقد بلاهم الله بذلك اختبارًا، وامتحنهم ليميز الخبيث من الطيب جهارًا، فلقد أبدى الله ﷻ في هذه الحادثة برهانًا ساطعًا، وحكمًا قاطعًا، من الآيات والأسرار المطوية الخفيات، والأمور المكتومة الخبيثات، والعقائد التي في الصدور منطويات، والأهوية التي هي قبلُ مائلة إلى الردّات، والقلوب التي هي مملوءة ببغض هذا الدين من البريات، وتربص بذلك الدوائر من أهل الشرك والضلالات، والأفئدة التي هي بالإحن على أهل الدين مشحونات، من البدو والحضر، من غير تعداد ولا حضر، ففضح الله تعالى خلقًا كثيرًا فافتضحوا، وزين لهم الشيطان أعمالهم فما فازوا ولا ربحوا، حيث رغبوا في الردة حينئذ وجنحوا فأوبقتهم الأعمال، فأخرجوا إلى دائرة العدل والإهمال، وزال عنهم الاستدراج والإمهال، فانقطعت بهم الآمال، في مفاوز الهلاك والوبال، ظنوا حين رأوا قوة ذلك العدد والأسباب، أن هذا إبان حلول العذاب، وأوان الدمار والذهاب، على أهل نجد، بل جزموا به من غير ارتياب، ولم يعلموا أن هذا هو، وربِّ الأرباب، كله على القطع سراب، فكم غر قبلهم من قبائل، وآل في البيداء المضلة لمعان الآل، ولقد رفع أعلام الآيات الكبير المتعال، لكل من له قلب سليم ولب كامل وبال، وأبرز القواطع على تفرده بالألوهية والعبادة

والكمال، في تلك الحال وغيرها من الأحوال، فأبى إلا الصد والإعراض أهل الإلحاد والضلال، وقالوا: ليس لنا عن سَنَن أسلافنا انتقال، ولا نبرح على ما كانوا عليه من سالف الأعمال، وسابق ذلك المنهاج والأفعال، حتى تزول الأرض أو تزال، فأنزل عليهم العذاب سريع العقاب والإنزال، فقطع دابرهم باستئصال، وعاجلهم ذلك قبل حصول مأمولهم وإدراك مطلوبهم وسؤلهم، ونودي عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

وخرج جيش أهل الحسا آخر شعبان، وجيوش أهل نجد اجتمع أكثرها في شهر رمضان، وخرج سعود، بلغه الله تعالى كل مقصود، في النصف الأول من شوال، في أحسن حال، وأكمل بال، وقد أمر جيوش المسلمين وأمداد الموحدين، أن يكونوا عند العربان مجتمعين، وينزلوا طرف الصمان، مباراة لأولئك العربان، وكبيرهم محمد بن معيقل، فكان أهل الإسلام كلما أقبل أولئك الطَّغَام ونزلوا مكانًا آخر، ارتحل ابن معيقل ومن معه وجَدَّ في ذلك وبادر، حتى نزل المسلمون قرية[1]، ونزل أولئك بناحيتها بلا مرية، وكانت تلك الجنود والأحزاب، تروم السبق على الطَف[2] وما يليه من غير ارتياب، فعرف أهل الدين مرادهم وممشاهم، فسبقوهم على ذلك وكان عقباهم الخسر ومثواهم.

ولما خرج سعود لذلك المنهج المحمود، أقام على الحفر يجمع عليه الإمداد، من كل أرض وبلاد، ويرسلها إلى عربان المسلمين، وأجناد أهل التوحيد المجتمعين، وقد أعمل المطي والرسائل، إلى جميع العربان والقبائل،

---

(١) تبعد عن مدينة الدمام شمالًا بحوالي ٣٢٠ كم.

(٢) «يُطلق على منطقة مرتفعة ممتدة من الجنوب إلى الشمال بامتداد المنطقة الشرقية، من غرب الأحساء إلى غرب الظهران». (المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ٣ / ١٠٣٢).

وإلى جميع قرى الإسلام وبلدانه، ومَن حَلَّ التوحيد بأوطانه، من أهل الجنوب والشمال، فانتظم من الخلق والأمم ما لا يحصره القلم، ولا يعبر عنه ناطق بفم، ولما تحقق عنده زوال ثويني وادي القرايا، أرسل حسن بن مشاري، رحمه الله تعالى، مع جنديه من تلك البرايا، حتى يستريح منهم البال ويحسن منهم الحال، فقد كانوا في كرب وأوجال، لا سيما من عدم قدوم سعود عليهم بالاستعجال، ونزوله عليهم تلك الأيام والليال، ولم تعبر أحلامهم ساحل الفكر والاحتيال، ولم تتجار خيول أفكارهم للرأي في مجال، ولم يفهموا ما ابتدأه من نتائج الباب الدهاة من الرجال، ولم يسمعوا ما ورد في صحيح المقال: «**الحرب خدعة**»[1] ولله درُّ المتنبي حيث قال شعرًا:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هي أولٌ وهو المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العليا أعز مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

فقصر باع الأفهام أن تدرك سن التأني في ذلك المقام، وعدم المبادرة بالإقدام، وظنوا أنه إحجام، ولم يتعودوا ممارسة العقول بالتدبير والسياسة، ولم يتأهلوا للقيام بأعباء الرئاسة، وأضاعوا مواد الحزم، وخبطوا خبط عشوا بلا يقين ولا جزم، وحكموا بما لم يحيطوا به علم، ولم يكونوا من غامضه على فهم، فاستحسنوا ما ليس بالحسن، لكون المقدمة لم تنتج لهم المطلوب في العلن، وإلا فالأناة محمودة، والعجلة مذمومة مسعودة، كما ورد في بعض الآثار ومستحسن الأخبار، ولقد قال من سبق في هذا المضمار:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١١) ومسلم (١٠٦٦).

قد يُدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

ولقد دبر فكره فيهم مكائد، وأقام لخداعه رصائد، ونصب لهم شَركًا وحباله تقتنصهم فرسانًا ورجاله، وأحكم لهم من الآراء درعًا سابغة، وزردًا بيوم الهياج نابغة، وهمت عند المنازلة لكتائب الأعداء رابغة، وأسنة مسنونة وعصبة بالنصر مقرونة، لم ير قط عن الأقدام لها تأخر ولا إحجام، بل لا تزال للوغى طالبة، وفي الجهاد راغبة، وللأرواح ناهبة، وللمهج سالبة، وأراد بهم أمرًا أمَرّ، ومن القاصمة كاهلًا وظهرًا، فأرسل إلى حسن بن مشاري يأمره أن يجمع عربان المسلمين وجموعهم، على أمواه أم ربيعة، لكونها منزلًا للقتال، والمحل الواسع لمنازلة الكتائب والمجال، فعسى العدو إذا رأى هذه الحال، يظنها رعبًا وأجفال، فيسرع في القدوم والإقبال، فتقع المصادفة والمزاحمة، وتصدر المقاتلة والملاحمة، فلا يطول مكث لتلك الكتائب، حتى يرى سواد سوادي آيب، فتقع حينئذ في الطعن عجائب، وتبدو أحوال غرائب وخطوب ومصائب، فتضحى كماة الأعداء للنجاة طوالب، وتلك الأحزاب متمزقة هوارب، ويضيق عليهم إذ ذاك فسيح المطالب، ويمسي كل واحد لكأس الذل شارب.

ولكن صدور ما جرى تدبير من ليس له غالب، وإرادة من لا يعجزه في الوجود هارب، وخِيَرَةُ بَرٍّ وَصُول، حليم غير عجول، كريم جواد، يحف بالنصر والإمداد، من أراده من العباد، وكفى بإرادته وخيرته للموحدين وعصبة الدين من خِيَرَة ومراد، وبإمداده وإسعاده من إمداد وإسعاد، فسبحان الذي قدر الأشياء قبل الإبراز والإيجاد، فوقع في الكون ظهورها وبدا مستورها على ما شاءه وأراد.

ولما أتى حسن بن مشاري ذلك الأمر من سعود، لم يكن له بدّ عن الارتحال حتى يتم المقصود، فارتحل تلك الأيام، وترك الإقامة في ذلك المقام، وشمّر في السير بعد الرحيل، من غير أناة ولا تمهيل، وسار عن الطّف وما يليه بعدما

كان له فيها مراح ومقيل، وقصد ما أمره به الأمير، لكونه رأيًا سديدًا وتدبيرًا من أحسن التدبير، فعند ذلك طمع الأعداء وكافة ذوي الردى، وحسبوا أن ذلك مخافة وجبنا، ورعبًا أطار قلبًا وذهنًا، فزحفوا إلى المكان الأدنى، فأكسبهم الله ذلًّا ووهنًا، وأهلكهم بما كسبت أيديهم، وأورث المؤمنين المحل الأسنى، ودثرهم من أموالهم وأغنى، طمس الله تعالى على بصائرهم وأبصارهم وعمّى عليهم الحيل والخداع، فلم يعتدوا لذلك بأفكارهم، فألقوا أنفسهم إلى التهلكة بأيديهم، وهذا شأن قائدهم، يغويهم ثم يرديهم، وقد كشف الله تعالى بالارتحال عن ذلك المكان، ما أضمر في القلوب واستكن في الجنان، وأبرزه سبحانه من أناس في صفحات الوجه وفلتات اللسان، فنطق بالنفاق كثير من العربان، لاسيما في ذلك البدوان، فكاد أن تنفق للنفاق أسواق، ويكون للباطل اعتلاق، وللزور والكذب اختلاق، ومالوا إلى طريق الهوى، وحاولوا عن الهدى نفورًا، ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾، وثبّت الله تعالى أهل التوحيد والإيمان، وزادهم فيه تصديقًا وإيقان، وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ كما في القرآن، فأولاهم أسنى مراتب العرفان، وأفاض عليهم هاطل البر والإحسان، وكانت العقبى لهم مع منحهم من رفيع ذلك الشأن.

وفي حدود هذه الأيام أرسل حسن بن مشاري جيشًا كثيرًا من المسلمين، منهم محمد آل علي المهاشير وفراج وصالح بن عياش، وأمرهم أن يطالعوا أدنى تلك الأحزاب، ويرسلوا إلى براك بن عبد المحسن حتى يُسرع إليهم في الإياب، لأنه قد أرسل إلى عبد العزيز الإمام، حدود مسيره إلى الشمال تلك الأيام، يبين له ما جرى وأنه لم يُرد ذلك المرام، ولم تطب نفسه بذلك ولم يتقدم له فيه كلام، وإني أريد بالمسلمين اللحوق، ولكنني عن ذلك مَعُوق، وإن آتاني

من المسلمين غزوان، بادرت إلى لقائهم من غير توان، وكتب كذلك إلى سعود، قبل ظهوره من البلد وبعده، وبذل فيه جهده، وكتب إلى حسن بن مشاري تلك الأيام، وهو غير خائف ولا مماري بل رغبة في الإسلام، والانقياد للأحكام.

فلما سار ذلك الغزو إلى تلك الأقوام، لم يحصل لبراك انتهاز فرصة ولا انهزام، لكون الأحزاب به مرجفة، ومنه محذرة مخوفة، فصارت له مكشفة، فردت تلك الغزاة منحرفة.

وفي هذه الأيام أغار فراج كبير سبيع مع غزو المسلمين حاضرة وبادية، فأصبحت خيولهم على المعادين عادية، وكانوا عنهم مخبّرين، وعن قدومهم منذرين، فصاروا لهم مستعدين، فوقعت بينهم مطاعنة شديدة، وكان للمسلمين فيها أحوال حميدة، بعدما أناخوا للقتال، ولم يتبين فيهم رعب ولا إجفال، فقُتِل بينهم رجال، وقتل المسلمون منهم ثلاثة عشر فرسًا، وأخذوا عليهم آبال، ورجعوا في أحسن حال.

وفي تلك الأيام أيضًا أغار نفجان بن سند النّدي مع غزو معه على الضويحي[1]، فأخذ منهم إبلًا كثيرة، وفزعوا يريدون ردها فرجعت أبصارهم عنها حسيرة.

وفي هذه الأيام أرسل سعود رسلًا نحو القطيف، ومعهم ركب آل مرة، لكون الطريق يخيف، فلما أتوا ذلك المكان، وجدوا قومًا من العمائر العدوان، ففاجأوهم على غرّة، ونفذ الله فيهم أمره، وقتلوا منهم خمسة وعشرين، وأخذوا السلاح وما كانوا له مجمعين.

وفيها وقع مطر عظيم، وجرى سيل جسيم، وكان ذلك وقت الوسمي وأوانه،

---

(١) من بني خالد الجوف.

وحينه وزمانه، وأول أيامه وإبانه، فزاد ذلك وأربى، وأشفق منه الناس مخافة وكربًا، وتلاطم موجه وزاد، وأزال كثيرًا من دكاكين أهل البلاد، وتعاظم جريانه وطمى، وصعد بعض البيوت وارتمى، وطرح بعض نخل من البطحاء ورمى، وهدم كثيرًا من الركايا، وأقامت منه بيوت خوايا، ونالت منه بعض الضرر الرعايا، وألقى بيوت أهل الدلم وأزالها، وأغرق ما فيها من الأمتعة والطعام والأموال وشالها، فغير من أرباب تلك البيوت حالها، فاختطوا بعد ذلك لسكناهم خطة، وكان ذلك السيل عليهم من البلاء حطة، ونزل على حريملا برد كثير كبار، لم يعرف له مثيل، قتل بهائم كثيرة، وكسر جمار بعض النخيل، وكسر غالب الأشجار، وحصل للمسلمين منه انذعار، وهدم كثيرًا من الجدران، وأشفق منه غالب البلدان، فلجأوا في رفعه إلى الله مولاهم، فكشفه عنهم ومنحهم مناهم.

وفيها أيضًا في فصل الصيف أتى سيل أخجل الألباب والأذهان، ولم يجر قبله مثله في سابق الزمان، هدم بعض حوطة أهل الجنوب، وحصل للمسلمين منه كروب، وهدم من العيينة والدرعية وغيرهما بيوتًا مَعُودة، وأغرق زروعًا كثيرة محصودة، ولكن أدرك الناس به نعمة منيفة، ومنة من الله تعالى شريفة، حيث استمر سنة يجري من غير مطر وادي بني حنيفة، فطابت لهم البلاد وحسن لهم العيش والحال، وأقاموا مدة هذه السنة في أنعم بال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

وفيها كثر الجراد، وعم في أكثر البلاد، وانتشر في غالب الأقطار، وربى في كثير من البلدان والأمصار، وحصل للناس من خلفه الصغار الذي لا يقبل الزجر والانزجار، ولا يعتريه من الرهج انذعار، أعظم ضرر وإضرار، فأكل ذلك الدبا لما مشى ودبى، ولم يشعر به الناس حتى طلع عليهم جيشه وبنا غالب ثمر

الأشجار، ثم ولى بقدرة العزيز القهار.

وفيها غزا ربيّع بن زيد أمير وادي الدواسر بجيش من جماعته ما بين حاضر وباد، فأسرع في سيره يريد بعض البدوان، ذوي الشرك والضلال والطغيان، فصبّح فريقًا يقال له أبو البؤس من شهران، فشن الغارة على ذلك الفريق دون إمهال ولا تعويق، فشمر حزب الفسق للقتال بالصدق، وعزموا أن يكشفوا العوادي القوادح، ويوقعوا من عزمهم بالمسلمين أمورًا فوادح، تسويلًا من الشيطان، واغترارًا بالصبر عند الطعان، حتى رأوا من بأس أهل الدين، ما أكذب أمانيّهم فولّوا منهزمين، وقتل منهم نحو الخمسين، وأخذ المسلمون جميع المحلة والغنم والإبل، ورجعوا بالأجر وحسن العمل.

وفيها غزا ربيّع أمير واديه بجمع من حاضره وباديه، فسار بمن معه من المسلمين وحزبه المتبعين، يريد بلدان المشركين، فعمد إلى بيشة، ونزل على الشقيقة والجنينة[(١)]، وبادرهم بالقتال بعد أن أبوا الإسلام وحينه، ثم بعد أن مضَوا لهم ليال وأيام، وهو محاصر لهم في ذلك المقام، ورغبوا في طريق السلم والاستسلام، ونزلوا للبيعة على الإسلام، فعاهدوا جميعًا على ذلك، وحسن لهم المقام هنالك.

وفيها أمر عبد العزيز، أدخله الله تحت كنفه الحريز، ربيّع بن زيد أن يسير بجماعته، إلى رنيه[(٢)] مع من عنده من أهل ذلك المكان ومهاجرته، فسار ممتثلا لذلك الأمر، حتى أناخ على رنيه فبنى بها قصر، فلما أُحْكِم بناؤه، وتم رفعه واستعلاؤه، جعل فيه آلة للحرب وكثيرًا من الطعام، وأمّر فيه محمد بن سعيد بن

---

(١) من قرى بيشة.

(٢) تقع في منطقة مكة، على الطريق بين منطقة عسير ومكة.

قطنان، فحين عاينوا أهل رنيه ذلك العمل، رجف بهم ذلك الوطن والمحل، وضاق عليهم فسيح الرحاب، ودهاهم أعظم الاكتراب، وحل بهم الأسى والاكتئاب، فلم يجدوا منهجًا للدفاع، ولم يكن عن الدخول في الدين امتناع، وإن كانت تفر عنه تلك الطباع، وليس لهم في البقاء على حالهم أطماع، فعند ذلك أسرعوا في الإسلام على المبايعة، وأقبلوا للعهد متابعة، فأبدوا أولئك الأقوام مناهج الاستسلام، ودانوا لما تضمنه من الأحكام على طريق الإلزام.

وفيها غزا محمد بن معيقل مع جمع من أصحاب الحسا والمهاشير وأهل نجد، وكانت جزيرة العمائر[1] التي بالبحر له قصد، فسار وقد زال عنه ومن معه من الرجال، رَيْنُ النصب والسآمة والكلال، وقد أجهد المطي في السير والترحال، لئلا يعلم ما دبره وهيأه من الحال، فلم يزل يجد التسيار، ويقد بمقراض اليعملات القفار، حتى شخص له لمع البحار، وسمع زخر موجه التيار، وبدت له في الجزيرة الأشخاص، فأسرعت الجيوش الأحسائية، والأبطال المجربة النجدية، إلى خوض اللجة البحرية، مستمدين النصر والإعانة السرمدية، من خالق البرية، ولم تسبق قبل هذه في البحر لأهل الدين غزوة، ولم يفترعوا من تياره صهوة، بل لم يقصدوا نحوه، وخاض معهم بعض الخيل، ولم يكن لأحد عليهم قبل ذلك صدود ولا ميل، فشمّر يعوم من كان يحسن العوم من أولئك الجماعة والقوم، حتى وصلوا إلى ساحل الجزيرة، فساروا إليها بأعظم الجريرة، وحين رأى مَن بها مِن الرجال، مهول تلك الأفعال، علم أن وراءه من القتال أحوال وأهوال، فركبوا سيارة الأفلاك، فكان لهم بها من السلامة أفلاك،

---

(١) تقع على الشاطئ الشرقي من الخليج العربي على بعد ٣٥ كم شمال مدينة الجبيل. والعمائر من بني خالد.

ولم يكن لهم سبيل ولا إدراك، وقتل منهم بعض الرجال، وأخذ المسلمون جميعًا ما بها من الأموال، فأدركوا فيها ستًّا من الخيل الأجاويد، ونحو أربعين من إناث العبيد، وخيامًا كثيرة وسلاح، وأمتعة ونقود وأرباح، وفازوا بالأجر والفلاح، ورجعوا من الأمل بالنجاح.

وفيها أرسل غالب الشريف رسلًا إلى عبد العزيز، أصلح الله تعالى له الحال وبلغه جميع الآمال، يطلب منه عالمًا من أهل الدين والتوحيد، ويزعم أنه يقصد بذلك تحقيق هذا الأمر ويريد، ويحرض على قدومهم مع مَن أرسله مِن البريد، حتى يقف على الحال عن يقين وعيان، ويحيط بعد ذلك بالعرفان، وينجلي له من المناظرة في شريف ذلك المكان، ما خفي عليه من مدة أزمان، وربما تشرق له أنوار شمس البيان، ويحصل منه بعد الإباء والإصرار إذعان، وبعد النفرة عن عذب ذلك المنهل شرب وإدمان.

فلما عرف إمام أهل الإيمان، ما قصده ذلك الإنسان، وما حرض عليه من المناظرة لديه والتبيان، رغب أن يكون انقدح له من الدعوة شي، أو نشر له من الحق طيّ، وربما يبدو منه إياب وَفيّ، بعد فرط صدود وامتناع وَلَيّ، ويقتضي مَن شاء مِن القرب لذلك المكان، وأيضًا فالهداية والتوفيق قد يكونان في أوقات دون أوقات، و«**لله في دهره نفحات**»[1] كما جاء عن النبي ﷺ في بعض الروايات.

وكان من حسن سيرة عبد العزيز وفطنته، وبديع هديه وسنته، وعظيم فضل الله عليه ومنته، أنه يدعو إلى الله تعالى بالتي هي أحسن وأحكم، ويرشد العباد للتي هي أقوم، فرأى إسعافه بذلك المرام وإسعاده، واختار أن ينيله مأموله

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٨٦٥) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ١٩١٧).

ومراده، فعسى أن يكون له سببًا للسعادة، فعند ذلك أرسل إليه من أهل الدين من يكشف عنه شبه المبطلين، ويوضح له سبل المهتدين، وهم أناس من أهل الميز والتبيين، وحسن المحاضرة في المناظرة بالبراهين، وكبيرهم حمد بن ناصر بن معمر، وكان هو المرأَّس عليهم والمؤمَّر، فجهزهم بأحسن الجهاز وأتمه، وخوَّلهم من معروفه أَعَمَّه، فجردوا للمسير الهمة، وقطعوا تلك المهامه المدلهمة، حتى أتم الله تعالى عليه الفضل والنعمة، وصرف عنه البؤس والنقمة، فوصلوا بعد إنضاء الأعوجيات، وإرقال تلك المهريات في سياسب الفلاة، ومواصلة السُّرى في الدجنات، بلد الله الحرام ومحلة الحج الذي هو أحد أركان الإسلام، فدخلوها معتمرين، فطافوا وسعَوا، وأتوا بالعمرة على التمام، ونحروا الجُزر التي أرسلها الأمير سعود إلى بيت مولاه، في المروة التي تراق دماء شعائر الله، أوصل الله تعالى إليه أجر ذلك وثوابه، وأناله على ذلك القبول وأثابه، وبلغه في الدارين مقصوده وطلابه.

فقابلهم الشريف بالإقبال، وأبدى لهم طلائع الإجلال، وتلقاهم بطلاقة وجه واستهلال، وأنزلهم منزل التوقير والسلامة، ووالى عليهم حشمته وإكرامه، وأحضرهم لديه مع علمائهم ليال، وعقدوا للمناظرة مجال، وتجارت الأذهان فيها للجدال، وشرعوا أسنة المقال، وراموا أسنة الحق بالمحال، ولم يأتوا ولله الحمد على كُلٍّ بما يثلج لهم وهيج البال، من النصوص السالمة من الضعف والاعتلال، ولم يجلبوا من البراهين المؤيدة للشرك والضلال، سوى موضوعات الملحدة والضلال، وأكاذيب الزنادقة وغلاة العباد الجهال، التي عفت منار الحنيفية وما لها من معالم وأطلال، حين جرت على مباهج مناهج محياها الأذيال.

فلما تحققوا ذلك وعلموه، وتيقنوا أنهم لم يجدوا في الدفع وفهموه، أجمعوا

رأيهم وأحكموه، في المغالطة في اللفظ فأبرموه، فراشوا في المقال النِصال، وحدّدوها للرمي في النضال، ورصدوا للحسن في اللفظ والمقال، لما تبين منهم الخذلان والإذلال، فلم يعثروا في سرد صحيح السنة القامعة لهم والأنقال، على ما فيه لبس لدى مصنّف وإشكال، سوى لفظة جرى اللسان فيها على اللحن في الإعراب والإشكال، فارتفع مِن بعضهم عند ذلك التخطئة بالمبادرة والاعتجال، وناهيك بهذا من نقض في اللب والاختلال، وسخافة في العقل وخبال، ووسوسة من الشيطان أبرزها له في الخيال، وحسبك كونه في الفلج بالحجة لم يبال، ولم يبد منه فضيحة واعتجال، مع أنهم بذلك الإلزام والفلج لم يذعنوا، ويجحدونه وهم به مستيقنون، ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وصفة ما جرى منهم أنهم حضروا ببيت الشريف، تجاه بيت الله المنيف، وجالت خيول الأذهان لدى غالب، والكل جرى ذلك المضمار لإدراك المآرب، فأول ما افتتحوا به التكلم والتخاطب، وأجمعوا عليه في المطالب، وصدر منهم البداة والتنافر، ووقع منهم بتلك المجالس، وجرى منهم التحاور والمفاوضة والتخاطب فيه والمراوضة، مسألة قتال الموحدين الناس، والكشف عن وجهها حجب الالتباس، فطُلِبَ من حمد بيان الحجة والدليل، والبرهان السالم من الأعاليل، والنص القاطع للاحتمال والتأويل، والقامع لسائر الأقاويل، على ذلك المنهج والسبيل، فأتى لهم جزاه الله تعالى الثواب الجزيل، من النص القاطع القامع، لكل أذن واعية وسامع، وأصَّل لهم من الأصول فيها، ما تودي بالمراد ويكفيها، وجلب من الأحاديث الصحيحة الراجحة، والأدلة الباهرة اللائحة، ما شفى وكفى، وصيرهم من قطع اللسان والحجة على شفا، وأزاح عن محياها القتام ونفى، فقصف على بيت عنكبوتهم

نسيم الحق فهفا، ومزق آثارهم ومنارهم بعدما هب عليهم وسفا، وأوقفهم على المنصوص، فأقروا وسلموا لتلك النصوص، وصدر منهم الإذعان، بعدما حملهم الشيطان، على كون تلك لم تكن في الكتب مسطرة، ولا موصولة فيها ومقررة، وتفوهوا بحضرة الشريف بذلك، حتى أوقفهم حمد على ما هنالك، ونقل من الكتب التي عندهم ما ضعضع وِجْدهم، وجلب عليهم علتهم وجهدهم، فوطفت جباههم من العرق، لما داخلهم من الخجل والفرَق، فلم يكن لهم حينئذ بد ولا حيلة، حين قرأوا حجته ودليله، ولم يستطع منهم إنسان على جحود ذلك البرهان، بل صار منهم إقرار بذلك وإعلان، ولم يكترثوا بما صدر قبل من الكتمان، وما ابتدأوا به من الزور والبهتان، فأمسوا بذلك يقرون وبمضمونه يُصدقون، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

ثم تفاوضوا بعد ذلك في مجالس عديدة في دعوة الأموات، فأبدى لهم من النصوص العادلة السديدة، والآثار الراجحة المفيدة، والأقوال الصحيحة العديدة، ممن له الفكرة بالتحقيق من أقوال الأئمة الكبار، والأتباع المتقدمين الأخيار، ما أدهش العقول والأفكار، مما لا يسع المنصف له إنكار، ولكنهم جحدوا وقوع ذلك في الوجود، وأنكروا أن يكون ذلك في الأقطار موجود، وذلك عندهم واقع مشهود، وهم على ذلك كل ساعة شهود، فالعياذ بالله تعالى عن هذا الإنكار باللسان، مع أنهم متيقنونه في الجنان، ويشاهدونه الخلق عندهم بالعيان، فنقول: سبحانك هذا بهتان.

ولا بِدْعَ فيما جرى وصدر، فقد قال كبيرهم أول من حضر، وتأهب للمناظرة واتزر، وجرد ذيول الخيلاء وافتخر، واختال من الكبر والأشر: اعلم أني أقول ولا أماري، ولا أخاصمك ولا أناظرك ولا أباري، إن أتيتني بالدليل من الكتاب

أو سنة النبي، التي هم خصم لكل كذاب، ولا أجاريك ولا أطالب بما قاله علماء المذاهب، سوى ما قال به إمامي أبو حنيفة، لأني مقلد له فيما قال، فلا أسلم لسوى قوله مَن قال، ولو قلتَ قال رسول الله أو قال الله ذو الجلال! لأنه أعلم مني ومنك بأولئك، وأدل بابتهاج تلك المسالك، والأخذ بغير قول الأئمة هو عين اقتحام جراثيم المهالك.

فليقف العاقل على هذا المقال ويقضي منه العجب، حيث صدر من هذا المدعي للعلم مع الله سوء هذا الأدب، فيا بئس ما اقترفه من الإثم واكتسب، لم يخف الله ولم يراقب، ولم يخش سوء العواقب، وحاول بذلك في الدنيا المراتب، حتى يكون من الجاه والرئاسة فيها متوسط الكاهل والغارب.

فلما انقضت تلك الأيام والليال، وتقضت ساعات المناظرة والجدال، طلبوا من حمد بن ناصر بن معمر تأصيل ما برهن به واحتج به وقرر، وكتْب ما سجله عليهم وسطر، فانتدب لذلك، أدام الله نفعه وكثر من الفوائد جمعه، فحرر من الكتب التي عندهم في ذلك المكان، ما أراده من ذلك الأمر والشأن، بعد طلبه منهم تلك الكتب وتسميتها بالأعيان، فجمع لديهم عجالة، وعجّل لهم في سَوحهم رسالة، أوجز فيها مقاله، وأتى فيها بما فيه كفاية، في الحجة والدلالة، يذعن بعد سماعها كُلُّ منصف عاقل، ويشهد بفضل قائلها كل فاضل، وتقر بصدقها وصحة مضمونها الأماثل، ولا عبرة بمنافق أو غبي أو جاهل، بنى للحق المبين على أساسها صرحًا، وأجاد فيما أحكمه من التحرير إيضاحًا وشرحًا، فأفاد فيما نحاه من التحبير صدعًا وصدحًا، وترك مناظريه يعانون في الجواب عنها كدحًا، فلم يدركوا من سعيهم ربحًا، بل زادوا فيما زخرفوه عن الصواب بعدًا ونزحًا، وهي عليك مجلوّة، وحججها مقروءة ومتلوّة، مميطة لوضيء حسنها النقاب، سافرة الوجه للنقّاد والنّقاب، خالية من شين الإسهاب

والإطناب، جالية التجرين والأرتاب، ولكن عيبها سلامتها من الإعجاب، وهذا نص الرسالة المزبورة، والعجالة المنقحة المسطورة، وأتيت بها على تأصيلها ووضعها، ولم أغيِّر بديع منوالها وصُنعها.

الرسالة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

المسألة الأولى: ما قولك فيمن دعا نبيًّا أو وليًّا واستغاث في تفريج الكربات، كقوله: يا رسول الله. أو: ياابن عباس. أو: يا محجوب. أو غيرهم من الأولياء والصالحين؟

الجواب: الحمد لله، أستعينه وأستغفره، وأعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان واقتفى آثارهم إلى آخر الزمان، أما بعد:

فإن الله تعالى قد أكمل لنا الدين، ورسوله قد بلغ البلاغ المبين، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

(١) وهي رسالته الشهيرة «الفواكه العِذاب في الرد على من لم يُحكم السنة والكتاب»، نُشرت في «الهدية السنية» (ص ٦٣ - ١١٨)، وفي «الدرر السنية» (١٠ / ٢٧٩ - ٣٣٥). وطُبعت مفردة مرارًا، من آخر طبعاتها: طبعة الشيخ عبدالرحمن التركي، عام ١٤١٥هـ.

أَعۡمَىٰ﴾ وقال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[١]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ الآية.

روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»**[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»**[٣].

وقال ﷺ: **«ما تركت من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا شيء يقرب إلى النار إلا وقد حدثتكم به»**[٤].

وقال ﷺ: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»**[٥].

فمن أصغى إلى كتاب الله وسنة رسوله وجد فيهما الهدى والشفاء، وقد ذمّ الله تعالى مَن أعرض عن كتابه، ودعا عند التنازع إلى غيره، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٣٨٩).

(٢) الموطأ (٣٣٣٨) بلاغًا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣) والإمام أحمد (٤/ ١٢٦) من حديث العرباض بن سارية، وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٤٣٦٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ١٢٥) وقال الشيخ الألباني: مرسل حسن (الصحيحة ١٨٠٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢) والإمام أحمد (٤/ ١٢٦) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٢٥٤٩).

إذا عرفت هذا فنقول:

الذي شرعه لنا رسول الله ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى الميت بالدعاء له، والترحم له والاستغفار له، وسؤال العافية، كما في صحيح مسلم[(١)] عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى المقابر يقول: «**السلام عليكم يا أهل الديار**» وفي لفظ: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا بكم إن شاء الله لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية**».

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة، كلهم يشفعون له، إلا شُفِّعُوا فيه**» رواه مسلم[(٣)].

فإذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعوه، ونشفع له لا نستشفع به، فبعد الدفن أولى وأحرى، فبدّل أهل الشرك قولًا غير الذي قيل لهم، بدلوا الدعاء له بدعائه، والشفاعة له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحسانًا إلى الميت سؤالَ الميت، وتخصيصَ تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة بنص رسول الله ﷺ فعن أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة**» رواه الترمذي[(٤)]. وعن النعمان بن بشير

---

(١) صحيح مسلم (٩٤٩).

(٢) سنن أبي داود (٣١٩٩) وسنن ابن ماجه (١٤٩٧) وحسنه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٦٦٩).

(٣) صحيح مسلم (٩٤٧).

(٤) جامع الترمذي (٣٣٧١) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ٣٠٠٣).

قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه[1].

ومن المحال أن يكون دعاء الموتى مشروعًا ويُصْرَف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله ﷺ ثم يُوَفَّق له الخُلُوف الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون! فهذه سنة رسول الله ﷺ وهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل نُقِل عن أحدهم نقل صحيح أو حسن؛ أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعَوا عندها وتمسحوا بها، فضلًا عن أن يسألوا أصحابها جلب الفوائد وكشف الشدائد! ومعلوم أن هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ بالأمصار عدد كثير متوافرون، فما منهم مَن استغاث عند قبر، ولا دعا، ولا استشفى به، ولا انتصر به، ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ من بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأولياء، ولا الصلاة عندها، فإن كان عندكم في هذا أثر صحيح أو حسن فأوقفونا عليه، بل الذي صح عنهم خلاف ما ذهبتم إليه، ولما قحط الناس في زمان عمر بن الخطاب استسقى بالعباس وتوسل بدعائه وقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، ونحن نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. فيُسْقَوْنَ. كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، ذكره في كتاب الاستسقاء من صحيحه[2].

ونحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأمته أن يدعُو أحدًا من

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٧) والترمذي (٢٩٦٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) والإمام أحمد (٤/ ٢٧١) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الترغيب ١٦٢٧).

(٢) صحيح البخاري (٣٥٠٧).

الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

قال مجاهد: يبتغون إلى ربهم الوسيلة، هو عيسى وعُزير والملائكة[١]. وكذا قال إبراهيم النخعي.

قال: كان ابن عباس يقول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هو عُزير والمسيح والشمس والقمر[٢].

وعن السدي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: عيسى وأمه والعُزير[٣].

وعن عبد الله بن مسعود قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم،

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٤).
(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٤).
(٣) تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٣).

فنزلت هذه الآية. ثبت ذلك عنه في صحيح البخاري، ذكره في كتاب التفسير[١].

وهذه الأقوال كلها في معنى الآية حق، فإن الآية تعم كلَّ من كان معبوده عابدًا لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر، فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوًّا، وذلك المدعُوُّ يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين فقد تناولته هذه الآية، ومعلوم أن المشركين يدعون الصالحين، بمعنى أنهم وسائط بينهم وبين الله، ومع هذا فقد نهى الله تعالى عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، ولا يدفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر صيغة تعم أنواع التحويل، فكل من دعا ميتًا من الأنبياء أو الصالحين، أو دعا الملائكة، أو دعا الجن فقد دعا مَن لا يُغِيثُه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله.

وهؤلاء المشركون اليوم منهم من إذا نزلت به شدة لا يدعو إلا شيخه، ولا يذكر إلا اسمه، قد لهج به كما لهج الصبي بذكر أمه، فإذا تعسر أحدهم قال: يا بن عباس. أو: يا محجوب. ومنهم من يحلف بالله ويكذب، ويحلف بابن عباس أو غيره ويصدق ولا يكذب، فيكون المخلوق في صدره أعظَمَ من الخالق! فإذا كان دعاء الموتى يتضمن هذا الاستهزاء بالدين، وهذه المحادة لله ولكتابه، فأي الفريقين أحق بالاستهزاء وبالمحادة لله؛ من كان يدعو الموتى ويستغيث بهم، أو من كان لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، كما أمرت به رسله، ويوجب طاعة الرسول ومتابعَته في كل ما جاء به!

ونحن، بحمد الله، من أعظم الناس إيجابًا لرعاية جانب الرسول، تصديقًا له

---

(١) صحيح البخاري (٤٧١٥).

فيما أخبر، وطاعة له فيما أمر، واعتناء بمعرفة ما بُعِث به واتباع ذلك دون ما خالفه، عملًا بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

ومعنا، ولله الحمد، أصلان عظيمان:

أحدهما: ألا نعبد إلا الله. فلا ندعو إلا هو، ولا نذبح النسك إلا لوجهه، ولا نرجو إلا هو، ولا نتوكل إلا عليه.

الأصل الثاني: ألا نعبده إلا بما شرع. لا نعبده بعبادة مبتدعة.

وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن شهادة أن لا إله إلا الله تتضمن إخلاص الإلهية، فلا يَتَألَّهُ القلب ولا اللسان ولا الجوارح غيره تعالى، لا بحب ولا بخشية ولا إجلال ولا رغبة ولا رهبة. وشهادة أن محمدًا رسول الله تتضمن تصديقه في جميع ما أخبر به، وطاعته واتباعه في كل ما أمر به، فما أثبته وجب إثباته، وما نفاه وجب نفيه. وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**» فقالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[1].

إذا عُرِف هذا، فالذي نعتقده وندين به الله، أن من دعا نبيًّا أو وليًّا، أو غيرهما، وسأل منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أن هذا من أعظم الشرك الذي كفَّر اللهُ به المشركين، حيث اتخذوا أولياء وشفعاء يستجلبون بهم المنافع، ويستدفعون بهم المضار، بزعمهم، قال الله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فمن جعل الأنبياء أو غيرهم، كابن عباس والمحجوب أو أبي طالب، وسائط يدعوهم،

(١) صحيح البخاري (٧٢٨٠).

ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع، بمعنى أن الخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك حوائج الناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدبًا منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لكونهم أقرب إلى الملك، فمن جعلهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك حلال الدم والمال، وقد نصّ العلماء، رحمهم الله، على ذلك، وحكموا عليه الإجماع.

قال في (الإقناع) وشرحه: مَن جعَل بينه وبين الله وسائط، يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، كفر إجماعًا؛ لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[١] انتهى.

وقال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي، رحمه الله تعالى: لما صعبت التكاليف على الجُهَّال والطَّغَام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامه، وإلزامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا. وأخذ تربتها تبرّكًا، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى[٢]. انتهى.

وقال الإمام البكري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ وكانت الكفار إذا سئلوا: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله. وإذا سئلوا عن عبادة الأصنام قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ لأجل طلب شفاعتهم عند الله.

---

(١) الإقناع (٤/ ٢٩٧).

(٢) نقله عنه الإمام ابن القيم (إغاثة اللهفان ١/ ١٩٥).

وهذا كفر منهم. انتهى كلامه.

فتأمل ما ذكره صاحب (الإقناع) وكذلك ما ذكره ابن عقيل من تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج، وهو كفر.

وقال الحافظ العماد ابن كثير رحمه الله، في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾: أي إنما يحملهم على عبادتهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين، في زعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده. ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله عليهم بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فأخبر أن الملائكة التي في السموات، من المقربين وغيرهم، كلّهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك أو أبغضوه ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ تعالى الله عن ذلك[1]. انتهى كلامه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٨٤ - ٨٥).

وقال الإمام البكري رحمه الله، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الآية: فإن قلتَ: إذا أقروا فكيف عبدوا الأصنام؟ قلتُ: كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه، لكن بطرق مختلفة، ففرقةٌ قالت: ليست لنا أهلية عبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته، فعبدناها لتقربنا إليه زلفى. وفرقة قالت: الملائكة ذوو وجاهة ومنزلة عند الله تعالى، فاتخذنا لنا أصنامًا على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله زلفى. وفرقة قالت: جعلنا الأصنام لنا قبلة في العبادة، كما أن الكعبة قبلة في عبادته. وفرقة اعتقدت أن لكل صنم شيطانًا موكلًا بأمر الله، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله، ولا أصابه شيطان بنكبة بأمر الله. انتهى كلامه.

فانظر إلى كلام هؤلاء الأئمة وتصريحهم بأن المشركين ما أرادوا ممن عبدوا إلا التقرب إلى الله، وطلب شفاعتهم عند الله، وتأمل ما ذكره ابن كثير، وما حكاه عن زيد بن أسلم وابن زيد، ثم قال: وهذه الشبهة التي اعتقدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بردها والنهي عنها. وتأمل ما ذكره البكري رحمه الله، عند آية الزمر، أن الكفار ما أرادوا إلا الشفاعة، ثم صرّح بأن هذا كفر.

فمن تأمل ما ذكره الله في كتابه؛ تبين له أن الكفار ما أرادوا ممن عبدوا إلا التقرب إلى الله وطلب شفاعتهم عند الله، فإنهم لم يعتقدوا فيها أنها تخلق الخلائق، وتنزل المطر، وتنبت النبات، بل كانوا مقرين أن الفاعل لذلك هو الله وحده، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ

يُؤْفَكُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾ الآيتين، إلى غير ذلك من الآيات التي أخبر الله فيها أن المشركين معترفون أن الله هو الخالق الرازق، وإنما كانوا يعبدونهم ليقربوهم ويشفعوا لهم، كما ذكره سبحانه في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ فبعث الله الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده، لا يجعل معه إله آخر، فأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، وأنه لا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، وأنه لا يرضى إلا التوحيد، فالشفاعة مقيدة بهذه القيود، قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾.

وفي الصحيحين[1] من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلق على الله أنه قال: «**آتي تحت العرش، فأخر لله ساجدًا، ويُفْتَحُ عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيَدَعُني ما شاء الله أن يَدَعني، ثم قال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع**» قال: «**فيحدّ لي حدًّا فأدخلهم الجنة، ثم أدعو**» فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

وقال الإمام البكري الشافعي رحمه الله، عند قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ

---

(١) صحيح البخاري (٧٤١٠) ومسلم (١٩٣).

أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ : نَفى الشفاعة، وإن كانت واقعة في الآخرة؛ لأنها من حيث إنها لا تقع إلا بإذنه كأنها غير موجودة من غيره، وهو كذلك، لكن جعل ذلك لتبيين الرتب، وجملة النفي حال من ضمير ﴿يُحْشَرُوٓاْ﴾ وهي محل الخوف، والمراد به المؤمنون العاصون. انتهى.

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ : دل على أن الشفاعة تكون للمؤمنين فقط.

قال الإمام الحافظ عماد الدين ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ : يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم، وإنما كان عبد هؤلاء المشركون مع الله آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر عنهم بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم يزجرهم عن ذلك، وينهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم[1]. انتهى.

والمقصود بيان شرك المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ وأنهم ما أرادوا ممن عبدوا إلا التقرب إلى الله وطلب شفاعتهم عند الله، وبيان أن طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم في الشدائد أنه من الشرك الذي كفَّر اللهُ به المشركين، وبيان أن الشفاعة كلها لله ليس لأحد معه من الأمر شيء، وأنه لا

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٦ - ٤٤٧).

شفاعة إلا بعد إذن الله تعالى، وأنه تعالى لا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، وأنه لا يرضى إلا التوحيد، كما تقدمت الأدلة الدالة على ذلك، ومعلوم أن أعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عند الله هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم وأمرهم، فيأذن سبحانه لمن شاء أن يشفعوا فيه، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له تعالى، والذي شفع عنده إنما شفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته أن يرحم عبده، وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها سبحانه في كتابه بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.

ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد، كما صرحت بذلك النصوص، فروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله. خالصًا من قلبه**»[1] وعن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني آت من عند ربي، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا**» رواه الترمذي وابن ماجه[2].

فأسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ أهل التوحيد، الذين جرد التوحيد وأخلصوه من التعلقات الشركية، وهم الذين ارتضى الله سبحانه، قال الله

(١) البخاري (٩٩).

(٢) جامع الترمذي (٢٤٤١) وسنن ابن ماجه (٤٣١٧) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٥٦).

تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ فأخبر سبحانه أنه لا يحصل شفاعة تنفع إلا بعد رضاه قول المشفوع له وإذنه للشافع، وأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله، ولا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه هو الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع له، والذي وفقه لفعل ما يستحق من الشفاعة، فمُتَّخِذ الشفيع مشرك، لا تنفعه شفاعته ولا يُشَفَّع فيه، ومُتَّخِذُ الرب إلهه وحده ومعبوده هو الذي يأذن للشافع أن يشفع فيه، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فبين أن المُتَّخِذِين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم، وإنما تحصل بإذنه سبحانه للشافع، ورضاه عن المشفوع له، كما تقدم بيانه.

والمقصود أن الكتاب والسنة دَلَّا على أن من جعل الملائكة والأنبياء، أو ابن عباس أو أبا طالب أو المحجوب، وسائط بينهم وبين الله، يشفعون له عند الله لأجل قربهم من الله، كما يفعل عند الملوك، أنه كافر مشرك حلال المال والدم، وإن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. وصلى وصام وزعم أنه مسلم، بل هو من الأخسرين أعمالًا ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

ومن تأمل القرآن العزيز وجده مصرحًا بأن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّون بأن الله هو الخالق الرازق، وأن السموات السبع ومن

فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن، كلهم عبيده وتحت قهره وتصرفه، كما حكاه الله تعالى عنهم في سورة يونس وسورة المؤمنين وسورة العنكبوت وغيرها من السور، ووجده مصرحًا بأن المشركين يدعون الصالحين، كما ذكر تعالى ذلك عنهم في سورة سبحان والمائدة وغيرهما من السور، وكذلك أخبر عنهم أنهم يعبدون الملائكة، كما ذكر ذلك في سورة الفرقان وسبأ والنجم، ووجده مصرحًا أيضًا بأن المشركين ما أرادوا ممن عبدوا إلا الشفاعة والتقرب إلى الله تعالى، كما ذكر ذلك عنهم في سورة يونس والزمر وغيرهما من السور.

فإذا تبين لكم أن القرآن قد صرح بهذه المسائل الثلاث، أعني اعتراف المشركين بتوحيد الربوبية، وأنهم يدعون الصالحين، وأنهم ما أرادوا منهم إلا الشفاعة، تبين لكم أن هذا الذي يُفْعَلُ عند القبور اليوم من سؤالهم جَلْبَ الفوائد وكَشْفَ الشدائد، أنه الشرك الأكبر الذي كفّر اللهُ به المشركين، فإن هؤلاء المشركين شبَّهوا الخالق بالمخلوق، وفي القرآن العزيز وكلام أهل العلم من الرد على هؤلاء ما لا يتسع له هذا الموضع، فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس تكون على **أحد وجوه ثلاثة**:

إمّا لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه. ومن قال إن الله لا يعرف أحوال العباد حتى يخبره بذلك بعض الأنبياء أو غيرهم من الأولياء والصالحين، فهو كافر، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

الثاني: أن يكون الملك عاجزًا عن تدبير رعيته ودفع أعدائه، إلا بأعوان يعاونونه، فلا بد له من أعوان وأنصار لذله وعجزه. والله سبحانه ليس له ولي ولا ظهير من الذل، وكل ما في الوجود من الأسباب فهو سبحانه ربه وخالقه، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين

إلى ظهرائهم، وهم في الحقيقة شركاؤهم، والله سبحانه ليس له شريك في الملك، بل لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد، ولهذا لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فضلًا عن غيرهما، فإن مَن شفَع عنده بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب، أثَّر فيه بشفاعته حتى يفعل ما يطلب منه، والله لا شريك له بوجه من الوجوه.

الثالث: أن يكون الملك ليس مريدًا لنفع رعيته والإحسان إليهم إلا بمحرك يحركه من خارج، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظه، أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه، تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته. والله تعالى رب كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأسباب إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه إذا أجرى نفع العباد بعضهم على يد بعض، فجعل هذا يُحْسِن إلى هذا ويدعو له أو يشفع له، فهو الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن، والداعي إرادة الإحسان، والدعاء، ولا يجوز أن يكون في الوجود مَن يُكْرِهُهُ على خلاف مراده، أو يُعَلِّمُه ما لم يكن يَعْلَمُهُ، والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون عنده إلا بإذنه، كما تقدم بيانه، بخلاف الملوك، فإن الشافع عندهم يكون شريكًا لهم في الملك، وقد يكون مظاهرًا لهم معاونًا لهم على ملكهم، وهم يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، والملك يقبل شفاعتهم تارة لحاجته إليهم، وتارة لجزاء إحسانهم ومكافأتهم، حتى أنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك، فإنه محتاج إلى الزوجة والولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لَتَضَرَّرَ بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه، فإنه إذا لم يقبل شفاعته يخاف ألا يطيعه، ويقبل شفاعة أخيه مخافة أن يسعى في ضرره، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا أحد يقبل شفاعة أحد إلا لرغبة أو لرهبة، والله تعالى لا

يرجو أحدًا ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الغني سبحانه عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، والمشركون يتخذون شفعاء مما يعبدونه، مثل الشفاعة عند المخلوق، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فأخبر سبحانه أنما يُدْعَى مِن دونه لا يملك كشف الضر ولا تحويلًا، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه، فقد نفى سبحانه ما أثبتوه مِن تَوَسُّطِ الملائكة والأنبياء. وفيما ذكرناه كفاية لمن هداه الله، وأما من أراد الله فتنته فلا حيلة فيه ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

وأما المسألة الثانية: وهي من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ولم يُصَلِّ ولم يُزَكِّ، هل يكون مؤمنًا؟

فنقول: أما من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وهو مقيم على شركه؛ يدعو الموتى، ويسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، فهذا مشرك كافر حلال الدم والمال، وإن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. وصلى وصام وزعم أنه مسلم، كما تقدم بيانه.

وأما إن وحّد الله تعالى ولم يُشرك به شيئًا، ولكنه ترك الصلاة والزكاة تكاسلًا عنها، فهذا قد اختلف العلماء في كفره، والعلماء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة، لا يجتمعون على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء رَدُّوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى الرسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال العلماء: الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول

هو الرد إلى سنته بعد وفاته. وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقد ذمّ الله من أعرض عن كتابه ودعا عند التنازع إلى غيره، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

إذا عُرف هذا فنقول: اختلف العلماء، رحمهم الله، في تارك الصلاة كسلًا مِن غير حجود؛ فذهب الإمام أبو حنيفة، والشافعي في أحد قوليه، ومالك إلى أنه لا يُحْكَمُ بكفره، واحتجوا بما رواه عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس كتبهن الله على العباد، من أتى بهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له**»[١].

وذهب إمامنا أحمد بن حنبل، والشافعي في أحد قوليه، وإسحاق بن راهويه وعبد الله بن المبارك والنخعي والحكم وأيوب السختياني وأبو داود الطيالسي، وغيرهم من كبار الأئمة والتابعين، إلى أنه كافر، وحكاه إسحاق بن راهويه إجماعًا، ذكره عن الشيخ أحمد بن حجر في شرح الأربعين، وذكره في كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر)[٢] عن جمهور الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين.

وقال الإمام محمد بن حزم: سائر الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين ومَن بعدهم يكفِّرُون تارك الصلاة مطلقًا، ويحكمون عليه بالارتداد، منهم أبو بكر وعمر وابنه عبد الله وعبد الله بن عباس ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة، ولا نعلم لهؤلاء مخالفًا من الصحابة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥) والنسائي (٤٦١) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٣٢٤٣).
(٢) الزواجر (١/ ٢٥٧ - ٢٦٧).

وأجابوا عن قوله ﷺ: «**من لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له**» أن المراد عدم المحافظة عليهن في وقتهن، بدليل الآيات والأحاديث الواردة فيها وفي تركها.

واحتجوا على كفر تاركها بما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة**»[١].

وعن بريدة بن الحصيب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**العهد بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**» رواه الإمام أحمد وأهل السنن[٢] وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. إسناده على شرط مسلم.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بين العبد والكفر والإيمان الصلاة، فإذا تركها فقد أشرك**»[٣] وإسناده صحيح على شرط مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: «**من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا وبرهانًا ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف**» رواه الإمام أحمد وأبو حاتم ابن حبان في صحيحه[٤].

---

(١) صحيح مسلم (٨٢).

(٢) المسند (٥/ ٣٤٦) وجامع الترمذي (٢٦٢١) وسنن النسائي (٤٦٣) وسنن ابن ماجه (١٠٧٩) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٤١٤٣).

(٣) قال الشيخ الألباني: رواه هبة الله الطبري بإسناد صحيح (صحيح الترغيب ٥٦٦).

(٤) المسند (٢/ ١٦٩) وصحيح ابن حبان (الإحسان ١٤٦٧) وحسنه الشيخ الألباني (الثمر المستطاب ١/ ٥٣).

وعن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ﷺ فقال: «**لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تتركوا الصلاة عمدًا، فمن تركها عمدًا خرج من الملة**» رواه ابن أبي حاتم في سننه[١].

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله**» رواه الإمام أحمد[٢].

وعن أبي الدرداء قال: أوصانا رسول الله ﷺ ألا أترك صلاة متعمدًا، فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذمة. رواه ابن أبي حاتم[٣].

وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة...**» الحديث[٤].

وعن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة. رواه الترمذي[٥].

فهذه الأحاديث كما ترى صريحة في كفر تارك الصلاة، مع ما تقدم من إجماع الصحابة، كما حكاه إسحاق بن راهويه وابن حزم وعبد الله بن شقيق، وهو مذهب الجمهور مِن التابعين ومَن بعدهم، ثم إن العلماء كلهم مُجْمِعُون على قتل تارك الصلاة كسلًا، إلا أبا حنيفة ومحمد بن شهاب الزهري وداود، فإنهم قالوا: يُحْبَسُ تارك الصلاة المفروضة حتى يموت أو يتوب.

---

(١) رواه الضياء في الأحاديث المختارة (٣٥١) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الترغيب ٣٠٠).
(٢) المسند (٥/ ٢٣٨) وصححه الشيخ الألباني (الإرواء ٢٠٢٦).
(٣) رواه ابن ماجه (٤٠٤٣) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٧٣٣٩).
(٤) رواه الترمذي (٢٦١٦) والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٢٩) وابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٥١٣٦).
(٥) جامع الترمذي (٢٦٢٢) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الترغيب ٥٦٥).

ومن احتج لهذا القول بقوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله**» فقد أبعد النُّجْعَةَ؛ فإن هذا الحديث لا حجة فيه، بل هو حجة لمن يقول بقتله، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

واحتج الجمهور على قتله بالكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ فشَرْطُ الكَفِّ التوبةُ من الشرك وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإذا لم توجد الثلاث لم يكف عن قتالهم.

قال ابن ماجه: حدثنا نصر بن علي ثنا أبو أحمد ثنا نبأ الربيع بن أنس عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته وحده لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، مات واللهُ عنه راضٍ**»[1] قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء.

وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ قال: خلع الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِۗ﴾.

وأما السنة فثبت في الصحيحين عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»[2] فعلق العصمة على الشهادتين والصلاة والزكاة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٧٠) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الترغيب ١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٣) ومسلم (٢٠).

وقد بعث النبي ﷺ كتابًا فيه: «**مِن محمد رسول الله إلى أهل عمان، أما بعد: فأَقِرُّوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأدوا الزكاة، وخطوا المساجد، وإلا غزوتكم**»[١] أخرجه الطبراني والبزار وغيرهما، ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي في شرح الأربعين.

وروى ابن شهاب عن حنظلة عن علي بن الأشجع أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يقاتل الناس على خمس، فمن ترك واحدة منهن قاتِلْهُ عليها كما تقاتل على الخمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

وقال سعيد بن جبير: قال عمر بن الخطاب: لو أن الناس تركوا الحج لقاتلناهم على تركه كما نقاتل على الصلاة والزكاة.

وبالجملة؛ فالكتاب والسنة والآن على أن القتال ممدود إلى الشهادتين والصلاة والزكاة، وقد أجمع العلماء على أن كل طائفة ممتنعة من شريعة من شرائع الإسلام فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله، كالمحاربين وأولى. انتهى.

وأما حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**» فهذا لا إشكال فيه، بحمد الله، وليس لكم فيه حجة، بل هو حجة عليكم، قال علماؤنا رحمهم الله: إذا قال الكافر: لا إله إلا الله. فقد شرَع في العاصم له، فيجب الكف عنه، فإن تمم ذلك تحققت العصمة، وإلا بطلت، ويكون النبي ﷺ قد قال حديثًا في وقت فقال: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» ليعلم المسلمون أن الكافر المحارب إذا قالها كف عنه وصار ماله ودمه معصومًا، ثم

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٨٤٩).

بيّن النبي ﷺ في الحديث الآخر أن القتال ممدود إلى الشهادتين والعبادتين قال: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**»(١) فبيّن أن تمام العصمة وكمالها إنما يحصل بذلك، ولئلا تقع الشبهة بأن مجرد الإقرار يعصم على الدوام، كما وقعت لبعض الصحابة، حتى جلاها أبو بكر الصديق ثم وافقوه رضي الله عنهم. انتهى.

ومما يبين فساد قولكم وخطأ فهمكم في معنى حديث أبي هريرة، أن الصحابة رضي الله عنهم، أجمعوا على قتال مانعي الزكاة، بعد مناظرة حصلت بين أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما، واستدل عمر على أبي بكر بحديث أبي هريرة، فبيّن صديق الأمة رضي الله عنه، أن الحديث حجة على قتال مَن منع الزكاة، فوافقه عمر وسائر الصحابة، وقاتَلُوا مانعي الزكاة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويصلون، ونحن نسوق الحديث، ثم نذكر كلام العلماء عليه ليتبين لكم أن فهمكم الفاسد لم يقل به أحد من العلماء، وأنه فهم مشئوم مذموم، مخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة، فنقول:

ثبت في الصحيحين(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر مَن كفر مِن العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولّوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»! قال أبو بكر: لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق للمال، فوالله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله، ما

(١) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (١٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٦) ومسلم (٢٠).

هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. وهذا الحديث خرجه البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم في كتاب الإيمان، وهو من أعظم الأدلة على فساد قولكم؛ فإن الصديق رضي الله عنه، جعل المُبِيحَ للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب.

وقد تكلم النووي، رحمه الله تعالى، في شرح صحيح مسلم فقال: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولّوا (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ وأن من قال ذلك عصم نفسه وماله، إلا بحقها، وُكِلَت سريرته إلى الله تعالى، وقتال مَن منَع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام، واهتمام الإمام بشرائع الإسلام. ثم ساق الحديث، ثم قال: قال الخطابي في شرح هذا الكلام كلامًا حسنًا، لا بد من ذكره لما فيه من الفوائد، قال رحمه الله: مما يجب تقديمه في هذا أن يُعْلَمَ أن أهل الردة كانوا إذ ذاك صنفين:

صنف ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعادوا لكفرهم، وهم الذين عنى أبو هريرة بقوله: من كفر من العرب.

والصنف الآخر: فرّقوا بين الصلاة والزكاة، فأقروا بالصلاة، وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها إلى الإمام، وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة مَن كان يسمح بالزكاة ولا يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي وقبضوا على أيديهم في ذلك، كبني يربوع، فإنهم جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم، وفي أمر هؤلاء عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر رضي الله عنه، فراجع أبا بكر رضي الله عنه، وناظره، واحتج عليه بقول النبي ﷺ بقوله: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله. فقد عصم نفسه وماله**» وأن هذا كان من عمر

تعلقًا بظاهر الكلام، قبل أن ينظر في آخره ويتأمل شرائطه، فقال له أبو بكر: الزكاة حق المال. يريد أن القضية قد تضمنت عصمة دم ومال معلقة بإيفاء شرائطها، والحكم المعلق بشرطين لا يحصل بأحدهما والآخر معدوم، ثم قايسه بالصلاة وردوا الزكاة إليها، وكان في ذلك من قوله دليل على أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعا من الصحابة، ولذلك ردوا المختلف فيه إلى المتفق عليه، فلما استقر عندهم صحة رأي أبي بكر رضي الله عنه، وبان لعمر صوابه، تابعه على قتال القوم، وهو معنى قوله: فلما رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال عرفت أنه الحق. يريد انشراح صدره بالحجة التي أدلى بها، والبرهان الذي أقامه نصًا ودلالة[١]. انتهى.

فتأمل هذا الباب الذي ذكره النووي، رحمه الله تعالى، وهو إمام الشافعية على الإطلاق، تجده صريحًا في رد شبهتكم أن من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. لا يباح دمه وماله، وإن ترك الصلاة والزكاة، فالترجمة نفسها صريحة في رد قولكم، فإنه صرح بالأمر بالقتال على ترك الصلاة ومنع الزكاة.

وتأمل ما ذكره الخطابي أن الذين منعوا الزكاة منهم مَن كان يسمح بها ولا يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي وقبضوا على أيديهم، كبني يربوع، فإنهم أرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم، وأنه عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر في هؤلاء، ثم إن عمر وافق أبا بكر على قتالهم.

وتأمل قوله: واحتج عمر بقول النبي ﷺ: **«أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»**، وكان هذا من عمر تعلقًا بظاهر الكلام قبل أن ينظر إلى

---

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٢ - ٢٠٣).

آخره ويتأمل شرائطه. وتأمل قوله أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعًا من الصحابة.

وقد أشار الخطابي إلى أن حديث أبي هريرة مختصر، قال النووي رحمه الله: قال الخطابي: ويبين لك أن حديث أبي هريرة مختصر، أن عبد الله بن عمر وأنس رضي الله عنهم، رَوَيَاه بزيادة لم يذكرها أبو هريرة، ففي حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**» وفي رواية أنس: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن يستقبلوا قبلتنا، وأن يأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم، إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين**»[1] انتهى.

قلتُ: وقد ثبت في الطريق الثالث المذكور في الكتاب من طريق أبي هريرة وروايته أن رسول الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»[2].

وفي استدلال أبي بكر واعتراض عمر رضي الله عنهما، دليل على أنهما لم يحفظا عن رسول الله ﷺ ما رواه ابن عمر وأنس وأبو هريرة، وكأن هؤلاء الثلاثة سمعوا الزيادة في رواياتهم في مجلس آخر، فإن عمر لو سمع ذلك لما خالف، ولما كان احتج بالحديث، فإن هذه الزيادة حجة عليهم، ولو سمع أبو بكر هذه الزيادة

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٣) والترمذي (٢٦٠٨) وصححه الشيخ الألباني (الصحيحة ٣٠٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢١).

لاحتج بها، ولما كان احتج بالقياس والعموم والله أعلم[١]. انتهى كلام النووي.

فتأمل ما ذكره عن الخطابي تجده صريحًا في رد قولكم، وتأمل قوله: فإن عمر لو سمع ذلك لما خالف ولما كان احتج بالحديث، فإن هذه الزيادة حجة عليهم.

وبالجملة؛ فحديث أبي هريرة حجة عليكم لا لكم، ولو لم يكن فيه إلا قوله «**إلا بحقها**» لكان كافيًا في بطلان شبهتكم؛ فإن الصلاة والزكاة من أعظم حقوق (لا إله إلا الله) بل هما أعظمهما على الإطلاق.

ومما يدل على بطلان قولكم وفساد فهمكم في معنى هذا الحديث، أعني حديث أبي هريرة: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» أن جميع الشرّاح والمُحَشِّين لم يُؤولوه على هذا التأويل الذي ذهبتم إليه، فإنه حديث صحيح مخرّج في الصحاح، وهؤلاء شراح البخاري، وكذا شراح مسلم، هل أحد منهم استدل به على ترك قتال مَن تَرك الفرائض؟ بل الذي ذكروه خلاف ما ذهبتم إليه، ولو لم يكن إلا احتجاج عمر به على أبي بكر، ثم موافقته لأبي بكر على قتال مانعى الزكاة، لكان كافيًا، ونحن نذكر لكم كلام الشراح عذرًا ونذرًا.

قال النووي، رحمه الله تعالى: قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله. فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله تعالى**»: قال الخطابي: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون (لا إله إلا الله) ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف. قال: ومعنى «**وحسابه على الله تعالى**»: أي: فيما يسرونه

---

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٦).

ويخفونه. قال: ففيه أن من أظهر الإسلام وأَسَرَّ الكفر أنه يُقْبَلُ إسلامه في الظاهر، وهذا قول أكثر العلماء، وذهب مالك أن توبة الزنديق لا تقبل، ويُحْكَى ذلك عن أحمد بن حنبل[١]. هذا كلام الخطابي.

وذكر القاضي عياض، رحمه الله تعالى، معنى هذا وزاد عليه وأوضحه، فقال: اختصاص عصمة المال والنفس ممن قال (لا إله إلا الله) تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد مشركو العرب وأهل الأوثان ممن لا يوحّد، وهم كانوا أول مَن دُعِيَ إلى الإسلام وقوتلوا عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقول (لا إله إلا الله) إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، فلذاك في الحديث الآخر: «**وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة**» هذا كلام القاضي. قلت: ولا بد من الإيمان مما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء في الرواية الأخرى لأبي هريرة: «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به**»[٢] انتهى كلام النووي.

فتأمل ما ذكره الخطابي، وما ذكره القاضي عياض، أن المراد بقوله (لا إله إلا الله) التعبير عن الإجابة إلى الإيمان، واستدل لذلك بالحديث الآخر الذي فيه: «**وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة**»، وتأمل قوله أن المراد بحديث أبي هريرة مشركو العرب وغيرهم ممن لا يوحدون، وأما الذي يقر بالتوحيد فلا يكتفي في عصمتهِ بقول (لا إله إلا الله) إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده. وتأمل قول النووي: ولا بد من الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ.

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٦).
(٢) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٦ - ٢٠٧).

وبالجملة فقوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» لم نعلم أحدًا من أهل العلم أجراه على ظاهره وقال إن من قال (لا إله إلا الله) يُكَفُّ عنه ولا يجوز قتاله، وإن ترك الصلاة ومنع الزكاة، هذا لم يقل به أحد من العلماء، ولازم قولكم أن اليهود لا يجوز قتالهم لأنهم يقولون (لا إله إلا الله) وأن الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب لا يجوز قتالهم لأنهم يقولون (لا إله إلا الله) وأن الصحابة مخطئون في قتالهم مانعي الزكاة لأنهم يقولون (لا إله إلا الله) ولازم قولكم أن بني حنيفة مسلمون لأنهم يقولون (لا إله إلا الله) سبحان الله! ما أعظم هذا الجهل ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومن العجب أنكم تقرؤون في صحيح البخاري هذا الباب في كتاب الإيمان، حيث قال: باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ حدثنا عبد الله بن محمد المسندي قال: حدثنا شعبة عن واقد بن محمد: سمعت أبي يحدث عن ابن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا ويشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى**»[1]: ثم بعد ذلك هذه الآية والحديث الذين ذكرهما البخاري وبأي شيء تدفعون به هذه الأدلة؟

وقال الإمام أبو عيسى الترمذي في سننه، في باب (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله): حدثنا هناد أنبأنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى**

(١) صحيح البخاري (٢٥).

يقولوا لا إله إلا الله. . .» الحديث[1] ثم أردفه بحديث أبي هريرة في قتال أبي بكر لمانعي الزكاة، وساق الحديث بتمامه ثم قال: (باب ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة) حدثنا سعد بن يعقوب الطالقاني أنا ابن المبارك أنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، ويستقبلوا قبلتنا، ويأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم، إلا بحقها، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين**»[2] وفي الباب عن معاذ بن جبل وأبي هريرة، هذا حديث حسن صحيح.

والمقصود بيان ذم هذه الشبهة التي دسها من يدعي أنه من العلماء على الجهلة من الناس، أن من قال (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فهو مسلم، لا يجوز قتله ولو ترك فرائض الإسلام، وهذا كلام الله، وهذا كلام رسوله، وهذا كلام العلماء صريحا في رد هذه الشبهة، بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على أن الطائفة الممتنعة تقاتل على ترك الصلاة ومنع الزكاة، وإن أقروا بالوجوب، كما تقدمت النصوص الدالة على ذلك، بل قد صرح العلماء أن أهل البلد إذا تركوا الأذان والإقامة يقاتلون، وصرحوا أيضا بأنهم لو تركوا إقامة صلاة الجماعة يقاتلون، وكذا لو تركوا صلاة العيد، وعلماء حرم الله الشريف يقولون: من قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه، وإن لم يصل ولم يزك! فسبحان مقلب القلوب والأبصار، وهل هذا إلا معارضة لكلام الله ورسوله وكلام أئمة

---

(١) جامع الترمذي (٢٦٠٦).
(٢) جامع الترمذي (٢٦٠٧).

المذاهب، وهذا كلامهم موجود في كتبهم يصرحون بأن من ترك الصلاة قتل، وأن الطائفة الممتنعة من الصلاة والزكاة والحج تقاتل حتى يكون الدين كله لله، ويحكون عليه الإجماع، كما صرح بذلك أئمة الحنابلة في كتبهم.

فإذا كانوا يصرحون أن من ترك بعض شعائر الإسلام، كأهل القرية إذا تركوا الأذان، أو تركوا صلاة الجماعة، وتركوا صلاة العيد، فإنهم يقاتلون، فكيف بمن ترك الصلاة رأسا؟ وهؤلاء يقولون: من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم نفسه ودمه، وإن كانوا طائفة ممتنعين من فعل الصلاة والزكاة، بل يصرحون بأن البوادي إسلام، حرام علينا دماؤهم وأموالهم، مع العلم القطعي بأنهم لا يؤذنون ولا يصلون ولا يزكون، بل الظاهر عندهم أنهم كافرون بالشرائع، وينكرون البعث بعد الموت! سبحان الله! ما أعظم هذا الجهل!

وقد ذكرنا من كلام الله وكلام رسوله، وكلام شراح المحدثين، ما فيه الهدى لمن هداه الله، وبينا أن العصمة شرطها التوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فمن لم يأت بهذه الثلاث لم يكف عنه ولم يخل سبيله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ وقال النبي ﷺ: **«أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»**.

وأما كلام الفقهاء في كتبهم فنذكره على التفصيل:

أما كلام المالكية؛ فقال الشيخ علي الأجهوري في (شرح المختصر): من ترك فرضًا آخر لبقاء ركعة بسجدتها من الضروري قُتِلَ بالسيف حَدًّا على

المشهور. وقال ابن حبيب وجماعة خارج المذهب: كافر. واختاره ابن عبد السلام[١] انتهى.

وقال في فضل الأذان: قال المازَرِيّ: في الأذان معنيان:

أحدهما: إظهار الشعائر والتعريف بأن الدار دار إسلام، وهو فرض كفاية، يُقَاتَلُ أهل القرية حتى يفعلوه، إن عجزوا عن قهرهم على إقامته إلا بالقتال.

والثاني: الدعاء للصلاة والإعلام بوقتها.

وقال الأُبِّيُّ في (شرح مسلم)[٢]: والمشهور أن الأذان فرض كفاية على أهل المصر؛ لأنه شعار الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ إن لم يسمع الأذان أغار، وإلا أمسك. وقول المصنف: يُقَاتَلُون عليه. ليس القتال من خصائص القول بالوجوب، لأنه نص عن عياض في قول المصنف: والوتر غير واجب، إلا أنهم اختلفوا في التمالي في ترك السنن هل يقاتلون عليها، والصحيح قتالهم وإكراههم، لأن في التمالي على تركها إماتتها انتهى.

وقال في فضل صلاة الجمعة: قال ابن رشد: صلاة الجمعة مستحبة للرجل في نفسه، فرض كفاية في الجملة. ويعني بقوله (في الجملة) أنها فرض كفاية على أهل المصر، ولو تركوها قوتلوا، كما تقدم. انتهى.

وعبارة غيره: وإن تركها أهل بلد قوتلوا، وأهل دار أجبروا عليها. انتهى كلام الشيخ رحمه الله، علي الأجهوري[٣].

فانظر تصريحهم أن تارك الصلاة يُقتل باتفاق أصحاب مالك، وإنما اختلفوا

---

(١) الفواكه الدواني (٢/ ٢٠١).
(٢) (٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥).
(٣) مواهب الجليل (١/ ٤٠٥).

في كفره، وأن ابن حبيب وابن عبد السلام اختارا أنه يقتل كافرًا، وتأمل كلامهم في الطائفة الممتنعة عن الأذان وعن إقامة الجماعة في المساجد، وأنهم يُقَاتَلُون، فأين هذا من قولكم أن من ترك الفرائض مع الإقرار بوجوبها لا يحل قتالهم لأنهم يقولون لا إله إلا الله!

وأما كلام الشافعية؛ فقال الإمام العلامة أحمد بن حمدان الأذرعي رحمه الله، في كتاب (قوت المحتاج في شرح المنهاج): من ترك الصلاة جاحدًا وجوبها كفر إجماعًا، وذلك جارٍ في كل جحود مجمع عليه، معلوم من الدين ضرورة، فإن تركها كسلًا قتل حَدًّا على الصحيح والمشهور، أما قتله فلأن الله تعالى أمر بقتل المشركين، ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ فدل على أن القتل لا يرفع إلا بالإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولما في الصحيحين: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها**» ثم قال: إشارات:

منها قتله ردة، ووجد لشرذمة، منهم منصور التميمي وابن خزيمة، وقضية كلام الرونق، أنه كلام منصوص، حيث قال: فإذا قُتِلَ ففي ماله ودفنه بين المسلمين قولان: أحدهما ما رواه الربيع عن الشافعي أن ماله يكون فيئًا ولا يدفن بين المسلمين. والثاني ما رواه المازني عن الشافعي أن ماله لورثته ويدفن في مقابر المسلمين. وقال في المستعمل: سألت الربيع: ما يصنع بماله إذا قتله؟ قال: يكون فيئًا.

ومنها قال في (الروضة): تارك الوضوء يقتل على الصحيح، جزم به الشيخ أبو حامد[1]. وفي (البيان): لو صلى عريانًا مع القدرة للستر، أو الفريضة قاعدًا

(١) روضة الطالبين (١/ ٦٦٨).

بلا عذر، قُتِلَ، وكذلك لو ترك التشهد أو الاعتدال. حكاه ابن الأستاذ عن البحر، فإن صح طرد في سائر الأركان والشروط، ويجب أن يكون محله فيما أجمع عليه.

ومنها لو امتنع من الصوم والزكاة حُبِسَ ومُنِعَ من الفطرات، وقال إمام الحرمين: يجوز أن يكون الممتنع مما يضيق عليه، كالممتنع من الصلاة يجبر عليه، فإن أبى ضُربت عنقه. قال المصنف: والصحيح قتله بصلاة واحدة، بشرط إخراجها عن وقت الضرورة. انتهى كلام الأذرعي.

فانظر كلامه في قتل من ترك الصلاة كسلًا، وأن الربيع روى عن الشافعي أن ماله يكون فيئًا ولا يُدفن في مقابر المسلمين، وتأمل كلام أبي حامد وكلام صاحب الروضة في قتل تارك الوضوء، وكلام صاحب البيان فيمن صلى عريانًا مع القدرة على الس-ترة، أو صلى الفريضة قاعدًا بلا ع-ذر، أنه يقتل، فأين هذا من قولكم أن من قال لا إله إلا الله كف عنه ولا يجوز قتاله بوجه من الوجوه؟

وقال الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي في (التحفة) في حكم تارك الصلاة: إن ترك الصلاة جاحدًا وجوبها كفر بالإجماع، أو تركها كسلًا مع اعتقاد وجوبها قُتِل لآية ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ وخبر: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس...**» لأنهما شرطان، وفي الكف عن القتل والمقاتلة بالإسلام وإيتاء الزكاة، لأن الزكاة يمكن الإمام أخذها، ولو بالمقاتلة ممن امتنعوا وقاتلوا، فكانت فيها على حقيقتها، بخلافها في الصلاة فإنه لا يمكن فعلها بالمقاتلة. وقال في باب صلاة الجماعة: وقيل: هي فرض للرجل، فيجب، بحيث يظهر بها الشعار، فإن امتنعوا كلهم أو بعضهم، كأهل محل من قرية كبيرة، ولم يظهر الشعار إلا بهم قوتلوا، يقاتلهم الإمام أو نائبه لإظهار هذه الشريعة الكبيرة. وقال في باب الأذان والإقامة:

سنة. وقيل: فرض كفاية، فيقاتل أهل بلد تركوهما، أو أحدهما، بحيث لم يظهر الشعار. وقال في باب صلاة العيدين: هي سنة. وقيل: فرض كفاية، فعليه يقاتل أهل بلد تركوها. انتهى كلامه في (التحفة)[(١)].

فانظر إلى كلامه في قتل تارك الصلاة كسلًا، وتأمل قوله أن الآية والحديث شرطان في الكف عن القتل والمقاتلة الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن الإمام يأخذ الزكاة، ولو بالمقاتلة ممن امتنعوا وقاتلوا، وتأمل كلامه في باب صلاة الجماعة، وأنها تجب بحيث يظهر الشعار في ذلك المحل، حتى في البادية، وأنهم يقاتلون إذا امتنعوا، بل كلامه في الأذان والإقامة، وأن الأمام يقاتل على تركها، وعلى ترك أحدهما، على القول بأنهما فرض كفاية، وتأمل كلامه في الطائفة إذا امتنعوا من صلاة العيدين. فأين هذا من كلام من يقول أن أهل البلد والبوادي إذا قالوا لا إله إلا الله محمد رسول الله لم يجز قتالهم وإن لم يصلوا ولم يزكوا، فسبحان الله ما أعظم هذا الجهل!

وأما كلام الحنابلة فقال في (الإقناع) وشرحه في كتاب الصلاة: من جحد وجوبها كفر، فإن تركها تهاونًا وتكاسلًا لا جحودًا يهدده، فإن أبى أن يصليها حتى تضايق وقت الذي بعدها وجب قتله، لقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ فمتى ترك الصلاة لم يأت بشرط التخلية، فيبقى على إباحة القتل، ولقوله عليه السلام: «**من ترك الصلاة عمدًا متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله ورسوله**»[(٢)] رواه أحمد عن مكحول، وهو مرسل جيد. ولا يُقتل حتى يُستتاب ثلاثة أيام، كالمرتد نَصًّا، فإن تاب بفعلها وإلا قُتِلَ بضرب عنقه، لما روي جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «**بين الرجل وبين**

(١) حاشية الجمل على شرح المنهاج (٢/ ١٢٩).
(٢) المسند (٦/ ٤٢١).

الكفر ترك الصلاة» رواه مسلم، وروى بريدة أن النبي ﷺ قال: «**من تركها فقد كفر**» رواه الخمسة، وصححه الترمذي[١]. انتهى.

وقال في باب الأذان والإقامة: فإن تركهما، أي الأذان والإقامة، أهل بلد قُوتِلُوا، أي قاتلهم الإمام أو نائبه، حتى يفعلوهما، لأنهما من أعلام الدين الظاهرة، فيقاتلوا على تركها كسلا كصلاة العيد[٢].

وقال رحمه الله، في باب صلاة الجماعة: وهي واجبة وجوب عين، فيقاتل تاركها، وإن أقامها غيره، لأن وجوبها على الأعيان بخلافه[٣].

وقال في باب صلاة العيدين: وهي فرض كفاية، إن تركها أهل بلد يبلغون الأربعين، بلا عذر، قاتلهم الإمام، كالأذان، فإنه من شعائر الإسلام الظاهرة، وفي تركهما تهاون بالدين[٤].

وقال في باب إخراج الزكاة: ومن منعها، أي الزكاة، بخلًا بها وتهاونًا، أُخِذَت منه قهرًا، كدَين الآدمي، وإن غيب ماله أو كتمه، وأمكن أخذها، بأن كان في قبضة الإمام، أخذت من غير زيادة، وإن لم يكن أخذها استتيب ثلاثة أيام وجوبًا، فإن تاب وأخرج كُفَّ عنه، وإلا قُتِلَ، لاتفاق الصحابة على قتال مانعها، وإن لم يمكن أخذها إلا بالقتال وجب على الإمام قتاله إن وضعها موضعها[٥]. انتهى كلامه في (الإقناع) وشرحه.

فتأمل كلامه فيمن ترك الصلاة كسلًا من غير جحود أنه يُستتاب فإن تاب وإلا

---

(١) كشاف القناع (١/ ٢٢٨).
(٢) كشاف القناع (١/ ٢٣٤).
(٣) كشاف القناع (١/ ٤٥٤).
(٤) كشاف القناع (٢/ ٥٠).
(٥) كشاف القناع (٢/ ٢٥٦).

قُتل كافرًا مرتدًا، وتأمل كلامه في أهل البلدان إذا تركوا الأذان أو الإقامة أو صلاة العيد أنهم يقاتلون بمجرد ترك ذلك، فهذا كلام المالكية، وهذا كلام الشافعية، وهذا كلام الحنابلة، الكل منهم قد صرح بما ذكرناه، فإذا كانوا مصرحين بقتال من التزم شرائع الإسلام، إلا أنهم تركوا الأذان وتركوا صلاة الجماعة وتركوا صلاة العيد، فكيف بمن ترك الصلاة رأسًا، كالبوادي، ولا يُزكون ولا يُصومون، بل يُنكرون الشرائع، ويُنكرون البعث بعد الموت، هذا هو الغالب عليهم، إلا من شاء الله، وهم القليل، وإلا فأكثرهم ليس معهم من الإسلام إلا أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ومع هذا يجادل علماء مكة ويقولون إنهم مسلمون، وإن دماءهم وأموالهم حرام بحرمة الإسلام، وإن لم يصلوا ولم يزكوا ولم يصوموا، لأنهم يقولون (لا إله إلا الله)! وهل هذا إلا رد على الله حيث يقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾! وهؤلاء يقولون: يُخلى سبيلهم وإن لم يصلوا ولم يزكوا.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام**»[1] وهؤلاء يقولون: من قال (لا إله إلا الله) فقد عصموا دمهم ومالهم وإن لم يصلوا ولم يزكوا! ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهذا كتاب الله وسنة رسوله.

وهذا إجماع الصحابة على قتال من ترك الصلاة أو منع الزكاة، قال صدّيق الأمة أبو بكر رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ. وفي رواية: عناقًا، لقاتلتهم على منعها.

---

(١) أخرجه: البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

وهذا إجماع العلماء، قال في شرح (الإقناع): أجمع العلماء على أن كل طائفة ممتنعة من شريعة من شرائع الإسلام، فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله وحتى لا تكون فتنة كالمحاربين وأولى[١]. انتهى.

قال أبو العباس، رحمه الله تعالى: القتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب، فأي طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء والأموال والخمر والزنا والميسر، أو نكاح ذوات لمحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي لا يكفر الواحد بتركها بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تُقَاتَلُ عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء، وإنما اختلفوا الفقهاء في الطائفة الممتنعة إذا أصرت على ترك بعض السنن؛ كركعتي الفجر والأذان أو الإقامة، عند من لا يقول بوجوبها، ونحو ذلك من الشعائر، فهل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا، فأما الواجبات أو المحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف في القتال عليها[٢]. انتهى.

فتأمل كلام الحنابلة وتصريحه بأن من امتنع عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة، كالصلوات الخمس، أو الصيام، أو الزكاة، أو الحج، أو ترك المحرمات؛ كالزنا أو شرب الخمر أو المسكرات، أو غير ذلك، فإنه يجب قتال الطائفة عن ذلك حتى يكون الدين كله لله، ويلتزموا جميع شرائع الإسلام، وإن

---

(١) كشاف القناع (٦/ ١٦٧) نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠٣).

كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائع الإسلام، وأن ذلك مما اتفق عليه الفقهاء من سائر الطوائف فمن بعدهم، فأين هذا من قولكم أن من قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ودمه وإن ترك الفرائض وارتكب المحرمات؟

بل من تأمل سيرة النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده عرف أن قولكم هذا مضاد لما فعله النبي ﷺ وما فعله الخلفاء الراشدين من بعده، فيا سبحان الله أما علمتم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وهم يقولون (لا إله إلا الله) وسبى نساءهم واستحل دماءهم وأموالهم!

أما علمتم أن رسول الله ﷺ أراد أن يغزو بني المصطلق عند قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾!

أما علمتم أن علي بن أبي طالب حرق الغالية مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله)!

أما علمتم أن الصحابة قاتلوا الخوارج بأمر نبيهم ﷺ مع أنه عليه السلام أخبر أن الصحابة يحقرون صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وقال: «**أينما لقيتموهم فاقتلوهم**»[1]!

أما علمتم أن الصحابة قاتلوا بني حنيفة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، ويؤذنون ويصلون!

أما علمتم أن الصحابة قاتلوا بني يربوع لما منعوا الزكاة، مع أنهم مقرون بوجوبها، وكانوا قد جمعوا صدقاتهم، وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر، فمنعهم مالك بن نويرة! وفي أمر هؤلاء عرضت الشبهة لعمر رضي الله عنه، حتى جلاها الصديق أبو بكر وقال: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ

(١) أخرجه: البخاري (٣٦١١).

لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

وقد تقدم ذلك مبسوطًا، وذكرنا لفظه في شرح مسلم في باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. أما علمتم أن رسول الله ﷺ بعث البراء إلى رجل تزوج امرأة أبيه، كما رواه الترمذي في سننه، حيث قال: (باب فيما جاء فيمن تزوج امرأة أبيه) حدثنا أبو سعيد الأشج أخبرنا حفص بن غياث عن أشعث عن عدي بن ثابت عن البراء قال: مر بي خالد أبو بردة، ومعه لواء، فقلت: إلى أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه برأسه[١]. حديث حسن غريب انتهى.

ولو تتبعنا الآيات والأحاديث والآثار وكلام العلماء، في قتال من قال لا إله إلا الله وترك بعض حقوقها، لطال الكلام جدا، فكيف بمن ترك الإسلام كله، وكذب به واستهزأ على عمد، إلا أنهم يقولون (لا إله إلا الله) كهؤلاء البوادي!

وفيما ذكرناه كفاية لمن طلب الإنصاف، فقد ذكرنا الأدلة من كلام الله، وكلام رسوله، وإجماع الصحابة، وإجماع العلماء بعدهم، فإن كان هذا الذي ذكرنا له معنى آخر ما فهمناه بينوه لنا، من كلام الله وكلام العلماء، ورحم الله امرءا نظر لنفسه وعرف أنه ملاق الله الذي عنده الجنة والنار.

وأما المسألة الثالثة: وهي مسألة البناء على القبور، فنقول ثبت في الصحيح والسنن عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن البناء على القبور وأمر بهدمه، كما رواه مسلم في صحيحه، حيث قال: حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي ليلى عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي: ألا

---

(١) جامع الترمذي (١٣٦٢) والحديث أخرجه البخاري (٢٣١٤) ومسلم (١٦٩٦).

أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته[١].

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا حفص بن غياث عن أبي جريج عن ابن الزبير عن جابر رضي الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يبنى عليه، وأن يكتب عليه[٢].

وقال أيضا: حدثنا هارون الأيلى قال: حدثنا ابن وهب قال: حدثني عمر بن الحارث أن ثمامة بن شفي حدثه قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره يسوى، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[٣].

وقال الترمذي: باب (ما جاء في تسوية القبور) حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن حبيب عن أبي ثابت عن أبي وائل أن عليا رضي الله عنه، قال لأبي الهياج الأسدي: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته[٤]. قال: وفي الباب عن جابر.

وقال ابن ماجه: باب (ما جاء في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها والكتابة عليها) حدثنا أزهر بن مروان حدثنا عبد الرزاق عن أيوب عن أبي الزبير عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور[٥].

---

(١) صحيح مسلم (٩٦٩).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٧) ومن طريقه أخرجه مسلم (٩٧٠).
(٣) صحيح مسلم (٩٦٨).
(٤) جامع الترمذي (١٠٤٩) والحديث أخرجه مسلم (٩٦٩).
(٥) سنن ابن ماجه (١٥٦٢) وصححه الشيخ الألباني (صحيح ابن ماجه).

حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا حفص بن غياث عن أبي جريج عن سليمان بن موسى عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يكتب على القبر شيء[١].

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي نبا وهب حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن القاسم بن مخيمرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ نهى أن يبنى على القبر[٢].

قال النووي رحمه الله، في شرح مسلم: قال الشافعي في (الأم): رأيت الأئمة في مكة يأمرون بهدم ما يبنى. ويؤيد الهدم قوله: ولا قبرا مشرفا إلا سويته[٣].

وقال الأذرعي رحمه الله، تعالى في (قوت المحتاج): ثبت في صحيح مسلم النهي عن التجصيص والبناء، وفي الترمذي وغيره النهي عن الكتابة، قال القاضي: ولا يجوز أن يبنى عليها قباب ولا غيرها، والوصية عليها باطلة. قال الأذرعي: ولا يبعد الجزم بالتحريم في ملكه وغيره، من غير حاجة، على من علم النهي، بل هو القياس الحق، والوجه في البناء على القبور والمباهاة ومضاهاة الجبابرة والكفار، والتحريم يثبت بدون ذلك، وأما بطلان الوصية بالبناء على القباب وغيرها من الأبنية العظيمة وإنفاق الأموال الكثيرة عليه، فلا ريب في تحريمه، والعجب كل العجب ممن يلزم بذلك الورثة من حكام العصر، ويعمل الوصية بذلك. انتهى كلام الأذرعي، رحمه الله تعالى.

ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما أنتم عليه من فعلكم مع قبر أبي طالب والمحجوب وغيرهما، وجد أحدهما مضادا للآخر مناقضا له، لا يجتمعان أبدا، فنهى

---

(١) سنن ابن ماجه (١٥٦٣) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٦٨٤٣).
(٢) سنن ابن ماجه (١٥٦٤) وصححه الشيخ الألباني (تلخيص أحكام الجنائز ١/ ٨٥).
(٣) شرح مسلم للنووي (٧/ ٢٧).

رسول الله ﷺ عن البناء على القبور، كما تقدم ذكره، وأنتم تبنون عليها القباب العظيمة، والذي رأيته في المعلاة أكثر من عشرين قبة نهى رسول الله ﷺ أن يزاد عليها غير ترابها، وأنتم تزيدون عليها غير التراب التابوت الذي عليه لباس الجوخ، ومن فوق ذلك القبة العظيمة المبنية بالأحجار والجص!

وقد روى أبو داود من حديث جابر أن رسول الله ﷺ نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه.

ونهى رسول الله ﷺ عن الكتابة عليها، كما تقدم من صحيح مسلم.

وقال أبو عيسى الترمذي: (باب ما جاء في التجصيص والكتابة عليها) حدثنا عبد الرحمن بن الأسود أخبرنا محمد بن ربيعة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها وأن توطأ. هذا حديث حسن صحيح.

وهذه القبور عندكم مكتوب عليها القرآن والأشعار.

وقال أبو داود: (باب البناء على القبر) حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرني ابن جريج قال: حدثني أبو الزبير أنه سمع جابرا يقول: سمعت النبي ﷺ نهى أن يقعد على القبر، وأن يجصص، وأن يبنى عليه. انتهى.

ولعن رسول الله ﷺ من أسرجها، والذي رأيته ليلة دخولنا مكة، شرفها الله تعالى، في المقبرة أكثر من مائة قنديل، هذا مع علمكم أن رسول الله ﷺ لعن فاعله، فقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج. روى هذا أهل السنن[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦) والترمذي (٣٢٠) والنسائي (٢٠٤٣) والإمام أحمد (١/ ٣٣٧) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ٤٦٩١).

وأعظم من هذا كله وأشد تحريما الشرك الذي يفعل عندها، ودعوة القبور، وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، لكن تقولون لنا: إن هذا لا يفعل عندها، وليس عندنا أحد يدعوها ويسألها، ونقول: اللهم اجعل ما ذكروا حقا وصدقا، ونسأل الله أن يطهر حرمه من الشرك، ولا ريب أن دعاء الموتى وسؤالهم جلب الفوائد وكشف الشدائد، أنه من الشرك الأكبر الذي كفر الله به المشركين، كما تقدم بيانه في المسألة الأولى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ إلى آخره.

وقد روى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء مخ العبادة**» وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

قال العلقمي في (شرح الجامع الصغير): حديث الدعاء مخ العبادة، قال شيخنا في (النهاية): مخ الشيء خالصه، وإنما كان مخها لأمرين:

أحدهما: أنه امتثال لأمر الله تعالى، حيث قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فهو محض العبادة وخالصها.

والثاني: إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع عمله عما سواه ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة، ولأن الغرض من العبادة هو الثواب المطلوب عليها، وهذا هو المطلوب من الدعاء[1].

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٦٤١).

وقوله: «**الدعاء هو العبادة**» قال شيخنا: قال الطيالسي: أتى بالخبر المعرف باللام ليدل على الحصر، وأن العبادة ليست غير الدعاء. وقال شيخنا: قال البيضاوي: لما حكم أن الدعاء هو العبادة الحقيقية، التي تستأهل أن تسمى عبادة، من حيث إن فاعلها مقبل على الله، معرض عمن سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا منه، واستدل عليه بالآية، يعني قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ فإنها تدل على أمر مأمور به، إذا أتى به المكلف قُبلَ منه لا محالة، وترتب منه المقصود ترتب الجزاء على الشرط، والسبب على المسبب، وما كان كذلك كان أتم العبادة وأكملها. انتهى كلام العلقمي، رحمه الله تعالى.

وليكن هذا آخر الكلام على هذه المسائل الثلاث، فإن وافقتمونا على أن هذا هو الحق فهو المطلوب، وإن زعمتم أن الحق خلافه فأجيبونا بالكتاب والسنة، فإنهما بين الناس فيما تنازعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وقد ذكرنا لكم الأدلة من الكتاب والسنة وكلام الأئمة، فإذا أجبتم على هذه المسائل الثلاث أجبناكم عن بقية المسائل، إن شاء الله تعالى، ولنختم الكلام بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ والحمد لله أولًا وآخرًا كما يُحب ربنا ويرضى، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

ثم دخلت السنة الثانية عشرة بعد المائتين والألف.

وفيها أظهر الشريف غالبُ عثمانَ المضايفي مع كثير من العساكر والجيش، وذوي السفاهة والطيش، وقصد عربان الإسلام لكون جرودهم[1] عند سعود،

(١) الجرود: الطوائف الكبيرة من القوم المحاربين.

ولم يكن عند الأهل كثير من أهل الإقدام، بل كانوا غزاة حماة تلك الأقوام، فظن أنه يحصل منهم على مرام، فأسرع الوصول إليهم، وقدم وهم على ماء عقيلان آل روق من قحطان[١]، وغيرهم من سائر العربان، وكبيرهم مسفر بن نقيحان، فأغارت عليهم فرسان الشريف، بقوة تُرعب وتُخيف، فتثبت لهم أولئك العرب، ولم يكن أحد منهم عزم على الهرب، وصبروا على الجلاد، خوفًا على الأموال والأولاد، حتى أعانهم الرحمن، فانهزم ذوو الطغيان، وتبعهم أولئك البدوان، وقتلوا منهم فوق الخمسين، ونار[٢] الباقي مدبرين، ومات كثير منهم من الظمأ متفرقين، وأخذوا كثيرًا من السلاح والركاب، وخسر جميع الأحزاب.

هذا، ولنرجع إلى تمام الحديث عن ثويني وإكماله، وما لقي في طريقه من سوء أعماله، وذلك أن الله تعالى الولي الحميد، المبدئ المعيد، المنتقم من كل جبار عنيد، لما أراد فيه إنفاذ الوعيد، وأن يولي المسلمين من فضله المزيد، ويجري لهم عادته من النصر والتأييد، ويخذل كل رائم لهم الهوان ومريد، من كل باغ وشيطان مريد، أقبل يقطع المفاوز، ويعقب وراءه كل مهمة ويجاوز، ويروم أنه بالحسا فائز، وأنه لولايتها مناهز، وعن مصادمة المسلمين في بلدانهم بعد ذلك غير عاجز، يعلل بذلك نفسه إذا سجى الدجى، ويحقق له الغرور ذلك الرجا، يولي في تلك المسامرة ويعزل، ويحكم بما شاء على من شاء ويفصل، ولم يدر أن الله تعالى له بمرصد، وأن القضاء له بمقعد، فلم يطل له على تلك الأمواه مقام، بل أسرع في المسير والإقدام، ولم يكن له عن أرض الشباك[٣]

---

(١) قال ابن بشر (١ / ١١٠): «دون بيشة».

(٢) نار: هرب.

(٣) قال ابن بشر (١ / ١٠٨): «الماء المعروف في ديرة بني خالد». وهو بالقرب من بلدة «ثاج»، وثاج تقع غرب مدينة الجبيل بحوالي ٨٠كم.

إحجام، لما قضي عليه بشرب كئوس الحِمام، وأن الله تعالى بحكمته التي بها للسموات والأرض القيام، وحسن لمن فيهن بها الانتظام، وقدرته التي قهرت جميع الأنام، وإرادته التي تم بها الوجود واستقام، اختار أن يبين للناس ما فيه آية عظيمة، يستدعي بها إذعانًا لوحدانية الله ذوو العقول السليمة، وسالكو المناهج القديمة المستقيمة، ولكن الله تعالى إذا طبع على القلوب بطابع الحجاب، وسلب الإدراك والمعرفة من الألباب، فلا تحس بما يصدر من العجاب، وتتمادى فيما هي فيه من الزيغ والارتياب.

فلما نزل ثويني في رياض أراضي الشّباك، مدت له من الحبائل شِباك، ونصب له من أسباب الحِمام أشراك، حتى تخمد نار الغواية والإشراك، وترجع خاسئة على أعقابها أولئك السُلاك، فناداه منادي القضاء المجيد، إلى أين تذهب وتريد، وقد حان هلاكك غير بعيد، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ فلم تمض له إلا أيام قليلة، فصاح به أخرى وأسمعه قبيله، وناداه ولكن لا يسمع ولا يجيب، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، وجعل الله تعالى منية ذلك الضرغام، الذي لا يستطاع بأسه ولا يرام، على يد أذلّ وأضعف الأنام، وذلك أن الأسرار الغيبية، والمصالح التي نيط بها نظام البرية، وجميع العوالم العلوية والسفلية، لا تدركها جياد الأفهام والأذهان، بل تحجم دون ذلك الميدان، ولا يكون لها فيه جولان، ويقصُرُ باعها عن ذلك ولو أطلق لها عنان، فترجع حينئذ ألباب أهل العرفان، وصفوة أهل التوحيد والإيمان، حين تشاهد تلك الحكم التي ظهرت في غاية البيان، وأبرزها مَن هو كل يوم في شأن، في وقتها المقدر لها بحسبان، إلى زيادة الإقرار والإذعان، لمكوّن الأكوان ومقدر الآجال والأزمان، ومحتم الفنا على كل إنسان وملك وجان، بمصداق، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

ومما يفتح هذا الباب لذوي البصائر والألباب، ويحث على التوحيد وإخلاص الدعوة لرب الأرباب، هذا البرهان الذي شاهده أولو الأبصار، والحكم العادل الصادر من قاصم كل جبار، المبرز في مساق النصرة والانتصار، صونًا لزلال الشريعة عن الأكدار، وقذر زعاف الأشرار، ليستيقن أهل الدين بعد التتبع والاعتبار، ويزيد أهل الإيمان إيمانًا بذلك الاستبصار، فلا تبدر العقول والأفكار، إلى امتطاء كاهل الإنكار، ولا تدخل في ضنك القنوط فتزيغ منها الأبصار، فما في الغيب من خفي الأسرار، أجل من أن تحيط به البصائر المستضيئة بالأنوار، فتبارك الذي أقصى من شاء من العباد، ونحاه إلى بيداء الإبعاد، وقسم له الطرد والحرمان، وأضله على علم لإرادته به الهوان، وسبحان الذي قرّب أولياءه إلى جنابه، ومنح أصفياءه لذيذ خطابه.

وحاصل بيان هذه المنقبة، وتهيئة أسبابها الموجبة، وإشراق أنوار هذه الموهبة، أن ثويني لما ظهر للحرابة، وكان منه إليها تلبية وإجابة، وفتح من الشر بابه، وارتد من البدوان كثير من العربان، كما قدمناه عن آل ظفير، وكُلٌّ أقبل إلى الفتنة يسير، جاء بنو خالد الذين في الشمال، وأسرعوا إلى براك بن عن المحسن ومن معه من قومهم وأعلموهم بالحال، وخوفوهم من ثويني وما أتى من الكيد الذي لم يسبق له مثال، وأراد براك الامتناع، فهددوه بالأسر والاعتقال، فأشمل بعد ذلك هو ومن معه وكانوا إلى لقاء ثويني في استقبال، وهاجر من قوم براك جماعة كثيرة وقصدوا الدرعية، بعد صدور تلك القضية، ثم بعد ذلك خرجوا مع أهل الجهاد، وكان طعيس ممن هاجر وأبى الارتداد، وخرج للغزو مع تلك الأمداد، وكان يُكثر الدعاء لمولاه والسؤال، ويُديم التضرع والابتهال، ويتمنى ذلك في كل حال، ويتفوّه بذلك بين الرجال، حتى يظن سامعه أن به وسواسًا وخبال، ويستبعد أن يكون للأسود والأشبال، إلى حِمَى ثويني وصول واتصال،

أو تدرك منه مرامًا أو منال، فضلًا عن مثل هذا المهان الذي لا يلقى إليه بال، يجسر على هتك تلك الأبّهة العديمة المثال، ووطء بساط تلك الحضرة التي دون رحبتها خطوب وأهوال، فلا يرام الوقوف عندها ولا تنال.

فأراد الله الكبير المتعال، أنه يغزو مع منّاع أبا رجلين، وهم أهل أربع ركاب يريدون اختلاس بعض الآبال، فوافقهم أناس من آل ظفير ذوي الضلال، فأخذوهم وبقي طعيس عند أولئك الجنود، وأخذت نفسه تُحدثه بتلك الآمال، ويُصمم على ذلك ويدعو بتيسيره في البكور والآصال، فاستعد للإقدام وباع نفسه وأبرم الاحتيال، وأخذ حربته وقد قوى الله عزيمته، فجاءه وهو قاعد مع بعض الرجال، فأنفذ فيه الحربة، وكان منه له اغتيال، فلما أحس بالطعنة جرّد صارمه فضرب به طعيسًا، وقام عليه مع غيره رجال، فقُتِل بعد ذلك في الحال، ولم يكن له ساعة إمهال، عليه رحمة الله تعالى، وبقي ثويني ذلك اليوم إلى العصر، ثم كان له إلى القبر انتقال، فضجت تلك الأمم مما حل بهم ودهم، وذعرت وارتجت، وماجت قلوبها بعدما رعبت وعجت، وحاق بها مُدْلَهِمُّ الخطب، وعراها وقراها الزمان ما أوهى قراها، وضاق عليها فسيح الفجاج والرحاب، وأحاط بهم رجز من العذاب، وانهزم منهم براك ونار، وأرسل للمسلمين بالأخبار، وتبعه أناس من قومه، وجد في الهروب من يومه، ولم يثبت لهم قوة ولا قلوب ولا قرار، بعدما صدر من براك وجماعته ذلك الفرار، وحاول قوم ثويني وناصر أخوه في الثبات واجتماع الحال، فلم يحصل له ما يرجوه، وأبت تلك العربان وندت أسلاف البدوان[1]، وشمّرت في الانهزام والذهاب جميع طوائف الأعراب، وشتت الله شمل أولئك الأحزاب، واستمر

---

(١) الأسلاف: الجماعات.

كل واحد منهم في الهزيمة لا يلوي أحد على أحد ولا يجيب، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

ولما تحقق المسلمون ما صدر وجرى، وتبين لهم صدق ما نزل بهم وعرا، بادر حسن بن مشاري وجميع أهل الإسلام، في طلب أولئك الجموع العظام، وشمّروا في أعقاب أولئك الأقوام، يأخذون ويقتلون، والأعداء منهزمون ولا يلوون، وتركوا جميع ما عندهم من الغنم، وما ثقل من الطعام والنَعم، ولم يكن لهم على جرّ المدافع الكبار، حيلة ولا وسيلة ولا اقتدار، فأخذ المسلمون جميع المدافع ولم يكن دونها مُدافع، وغنموا من جميع الأموال ما لا يخطر على البال، واستمروا في آثارهم على ذلك المنوال، إلى قريب الجهراء يجمعون الأموال ويقتلون الرجال، فقُتِل منهم في الصبيحيّة[1] جماعات من تلك البرية.

ورجع المسلمون بعد نيل الآمال في أنعم عيش وبال، وأقبل سعود، بلغه الله المقصود، في حدود ظهور أنوار تلك الآية، وقد رفع طالع الإقبال على رأسه للنصر راية، فأحاطت به من جوانبه الألطاف والتوفيق والعناية، وحق السعد والحفظ والرعاية، ونوى أن يغزو أولئك الجنود، ويبذل فيهم المجهود، وعزم على ذلك وصمم، وأجمع عليه رأيه وتقدم، وقال: لا بد في أرضهم من الوطأة والمجال، حتى يكون ذلك أردع وأقمع لذوي الضلال. فانتدب إليه من كبار المسلمين رجال، وقالوا: هذا صعب المنال، والركاب والجياد لا تستطيع السير بحال، وكفى ما وقع بهم من القتل والإذلال، وما نالوا من الشر والوبال، وعسى أن يتم لك المراد على الإمهال. فجنح إلى قولهم وراض، وكان له عن عزمه إعراض.

(١) جنوب الكويت.

وأقام سعود حرسه الله في تلك الأرض، يجمع الغنائم ويأخذ منها الخُمُس الفرض، ويقسم الباقي على المجاهدين، حتى وزعت بينهم أجمعين، وكان جميع ما حصل من الإبل ثلاثة آلاف، من غير مبالغة ولا إسراف، والذي جمع من الغنم فوق مائة ألف، وأكثرها عاجلة الهلاك والحتف، ولم يدرك من الخيل إلا قليلًا، ونال أهلُ الإسلام عزًا جليلًا، ونصرًا مؤيدًا جميلًا، وثوابًا عظيمًا وأجرًا جزيلًا، ورجع حزب البغي ذليلًا، وقد نكله الله، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وأقام سعود على تلك الأمواه أيام، وأطال بها المقام، ثم بعد ذلك سار إلى الحسا ونزل عن المبرز شمالًا، وقد انشرح صدره ونعم بالًا، ومكث يدبر شئونًا وأحوالًا، ويعاتب مَن تَبيَّنَ فيه رعب وأبدى خفة عند تلك الأحزاب واعتجالًا، ويؤنب من نار[1] إلى البحر ويوبخه مقالًا، ويحثهم على الاجتهاد والاجتماع، والمساعدة في الجهاد والدفاع، عند نزول طوارق الفتن، وحلول عوارض المحن، حتى ينالوا بذلك الدرجة العليا في الأخرى والدنيا، ويحوزوا أسمى المراتب السنية، ويفوزوا بأسنى المطالب السمية.

واجتهد بعض أهل الحسا على بعض، وصار لهم في السعاية عنده إسراع وركض، ولم يقفوا عند حدود الله تعالى بالترك والرفض، وراموا بذلك إليه تقربًا ووصولًا، ومنزلة وتمكينًا لديه وحصولًا، وجمعوا له في ذلك الميدان، من قبيح الزور والبهتان، جملة وفصولًا، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، فدأبوا في السعاية لديه بالنمائم، والكل من أهلها للحظوظ الدنيوية دائم، ولم يخشوا عاقبة المآثم، ومن هو

---

(١) نار: هرب.

بخفي حالهم عالم، وكاد أن يكون سوقها قائم، لولا منّ الله عليه بلطفه فزجر أهل تلك المظالم، وأصبح لمناهجها يزيل عنها تلك المعالم، ولجميع موادها حاسم، وينشد قول شاعر عالم[1]:

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا … الدين أمتن والسجية أكرمُ

وأردتمو تضييقَ صدرٍ لم يَضق … والسُمر في ثُغَر الصدور تُحطَّمُ

وزحفتمو بمحالكم لمجرِّب … ما زال يَثبت للمجال فيَهزمُ

أنى رجوتم غدرَ من جربتمو … منه الوفاء وجورَ من لا يَظلمُ

ونهاهم عن تعاطي تلك الخصلة القبيحة الذميمة، والكبيرة التي لا يرضاها، فضلًا عن كونه يتعاطاها، مَن له مَسْكَة من الدين أو شيمة، فيا لها من كبيرة في الدين عظيمة، لو لم يكن فيها من الإغلاظ والإعظام، إلا قوله عليه الصلاة والسلام على سبيل التهديد والتحذير والإعلام، لكافة ذوي الدين والإسلام من سائر الأنام: «**لا يشم عَرْفَ الجنة نمّام**»[2]، وقول الله تعالى في الذكر الحكيم: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾، لكفى عن اقترافها وسرعة الهجوم عليها والإقدام، وقد جاء فيها من الوعيد ما ليس عليه مزيد من صحيح قول الأنام، مما لا تحيط به الأفهام، ولا تحويه الإرقام، ولكل من سرده الأقلام، ولا يليق باستقصائه هذا المقام، قال المصنف مهنيًا للأمير سعود، ولأبيه عبد العزيز، في قدوم سعود الحسا، بعد قتل ثويني:

تلألأ نور الحق وانصدع الفجر … وديجور ليل الشرك مزقه الظهر

وشمس الأماني أشرقت في سعودها … ولاح بأفق السعد أنجمه الزهر

---

(١) ابن زيدون، في ديوانه (ص ٣١١ - ٣١٢).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرج البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥) من حديث حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**».

وجلّى ظلام الخطب بيض صنائع كأن سناها في غياهبه بدر
وأسفر وجه الوقت بعد تعبس وحالت بصنع الله أحواله الكدر
فأيامه بالأنس بيض شوارق تضيء كما أضوى بديجوره فجر
وهبت رياح النصر والفوز والهنا فحق لنا منها البشائر والبشر
وروّح روح الأنس كل موحدٍ ففي قلبه سُكر وما مسه خمر
كأن به من نشأة اللطف نشوة ترنح منها العطف واستحكم السكر
وغنت بروضات السرور بلابل يرجّعن ألحانا يهش لها الصخر
فأصل التهاني دانيات قطوفه وفرعُ المُنى غضٌّ وأوراقه خضر
ونادى منادي الحق بالخلق معلنًا ألا فليحل الحمد وليعظم الشكر
فما قلب ذي ظهر بفيفا أضله وفاجأه عند التوى ذلك الظهر
بأفرح منا بالبشير وقوله أتى الفتح والإقبال والعز والنصر
أذيق العدا كأس الردى فسما الهدى وشلت يمين الشرك وانقصم الظهر
وفلّت جنود المعتدين ومُزقت وزال ظلام الشرك وانمحق النكر
فمن حامد منا ومُثْنٍ وساجد لمولاه شكرًا بعدما انكشف الأمر
لقد أقبلوا والأرض ترجف منهمو وقد أدبروا يقفوهم الذل والصغر
وساروا بأسباب المكائد والردى إلينا فما أغناهم الكيد والجرّ
وقد زاغت الأبصار واحتنك الفضا علينا كأن الأرض مما بنا شبر
فآبوا وقد خابوا وما أدركو المنى وبادروا وما سادوا وعقباهم الخسر
جنود فساد وابتداع وفتنة يقودهم الإضلال والبغي والفجر
يريدون أن يطفوا مصابيح نوره ويخفوا قويمًا لا يرام له ستر
أبى الله أن يسمو الضلال على الهدى ويطمس أعلام الحنيفية الكفر
وتُعلى البواغي والطواغي وحزبها على عصبة في الدين شرعهم الذكر

وينسخ آيات الكتاب وحكمه لحونُ الغنا والعود والطبلُ والزمر
لقد فل غضب الشرك بل ثل عرشه وسل حسام الدين واندرس الشر
وحالت مغانيه وأثوت ربوعه وزالت مبانيه فساحاته صِفْر
كأن لم تكن فيه الملاهي مرنّة ولم يجتمع للهو في ساحة سَمر
نعى الشرك أحزاب الضلالة بعدما تغشاهم الإذلال والعار والوزر
وقامت نواعي الرفض يندبن أهله بحرقة قلب فيه مِن فقدهم جمر
رمى الله أحزاب الضلال كما رمى ذوي الفيل إذ أعياه عن مكة الحصر
أديرت عليهم في الشباك رحى الردى ودارت كئوس للمنايا لهم حُمْرُ
وحاق بهم ما أضمروا من طوية وخانهم المغوي وخانهم المكر
فمنهم مئات بالصبيحية اغتدت تراوحها الأشبال والذيب والنمر
مرابع فيها للطيور مراتع وترقص فيها النسر والحرّ والصقر
إذا مرها المجتاز يلفي موائدًا وليس بها إلا كماة العدا جزر
برب طعيس لا طعيس تقشعت سحائب رجز بالمنايا لها شر
لقد حق وعد الله واعتز جنده فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر
تولى إله الخلق نصرة دينه فأعلى منار الحق وانشرح الصدر
أرانا بهذا البطش ذو العرش آية وذكرى لنا في ضمنها يظهر البشر
رأى جزعًا منا فأبدى انتقامه وذكرنا للوعد إذ جاءنا الصبر
على أن مولانا أبان بصنعه لنا أن جند الحق لم يدره الحَجْر
عيون القضا ليست نياما وسهمه مصيب فما يغني عن القدر الحذر
وحسن الرجا للعبد أقوى وسيلة إلى قصده والعسر يتبعه اليسر
تمنى رجال أن ينالوا مناله وقد عاهدوا بالبيع إن سامهم سعر
فهم في انتظار النحب يرجون فوزهم وقد سمحوا بالعمر إن حارب الغمر

فمن مبلغ عني العداة رسالة ... أنيبوا فما يأويكم السهل والوعر
أتيتم إلينا رائمين قطيعة ... فحل بكم بأس وعاجلكم حذر
ورمتم ذرا السمحا وجبّ سنامها ... وهدم دعامات عليها رسا قصر
وناويتم الإسلام والله دونه ... وأحزابه والسُمر والبيض والبتر
تقاسمتم الأحساء قبل منالها ... فللروم شطر والبوادي لهم شطر
أمانيّ من أردى العباد بمكره ... وما وعده إلا الأباطيل والغدر
تعستم فهجرٌ دونها خُطّة البلا ... ودون حماها يُقطع الهام والنحر
ومن دونها يومٌ به يرعف الفنا ... وتروى المواضي والمثقفة السمر
بها الأسل كالآجام والأسد حولها ... مثال الرواسي والنجيع به بحر
أنيبوا سراعًا قبل أن يُهتك الغطا ... ويكشف عن وجه المخدرة الخُدر
أفيقوا فأنتم في دجى غمرة الردى ... وأبصاركم عمي وفي سمعكم وقر
ألم ينهكم عن مهيع الغي ما جرى ... ففيه لذي الألباب عن غيهم زجر
ألم يأن أن تأووا إلى معقل الهدى ... فقد جاءت الآيات واستتبع النذر
تبين نهج الحق والرشد للورى ... فليس لمن ينحو سبيل الردى عذر
وقامت على الدين القويم شواهد ... يقصر عن تعدادها الضبط والحصر
فآياته محفوظة عن معارض ... وراياته لا يُستطاع لها كسر
يشيعها التسديد حيث تيممت ... ويتبعها التأييد والنصر والقهر
تشعشع من خمسين عامًا ضياؤه ... ولم تبق أرضٌ ليس فيها له ذكر
سقى قبر من أحياه شؤبوب رحمة ... وعم سحاب العفو من ضمه القبر
فقد جاءنا يدعو إلى الدين بعدما ... عفا رسمه والأرض من نوره قفر
فجادله الأحبار فيما أتى به ... من الحق والبرهان يكشفه السَّبْر
ونوظر حتى ألزم الخصم عجزه ... وصار إليه الفلج والورد والصدر

فعودي بغيًا واهتضامًا ونصرة … لملة آباء عليها مضى العمر

وهموا بما لم يدركوا من وقيعة … فما ناله مما أرادوا به ضُر

نفته العدا لما جفته أقارب … فآواه بل ساواه من خصّه البر

فجاهد حتى أطلع الله بدره … بآل سعود حتى شُد له الأزر

فهم أنجم للمهتدين وصارم … شباه بهام المعتدين له طر

لقد أحرزوا خُصَلَ الفخار وأبرزوا … من الدين مطويًا فلاح له نشر

فأضحت بهجر شرعة الحق غضة … وصوّح نبت الشرك وانقطع البذر

بهدي إمام المسلمين ومهده … أضاءت نواحيها فأرجاؤها سفر

تهن بهذا الفتح يا بن محمد … فقد تم للدين القويم به فخر

هنيئًا لك الفتح الذي فتحت له السـ … ـموات والفردوس وافتخرت هجر

هنيئًا لك الفتح الذي طأطأت له … جباه الملوك الصِيد واتضع الكبر

فهذا هو الفتح الذي بضيائه … تهلل وجه الدهر وابتسم الثغر

وهذا هو الفتح الذي جل قدره … فليس بمُحْصٍ فضله النظم والنثر

فلله فتحٌ طبق الأرض صيته … وهزت به البلدان وارتعدت مصر

بك الدين يا عبد العزيز مؤيد … يعزره بالبيض أبناؤك الغر

فراع جناب الحق في الخلق وارعهم … بعدل وإحسان لكي يعظم الأجر

وأحسن إليهم واعف عنهم ولا تطع … بهم قول واش جل مقصوده التِّبْر

يسارع في سخط الإله تقربًا … إليك لكي يدنى فينمو له الوفر

ولا تصطفي للنصح إلا مجربًا … تقيًا نقيًا ليس في قلبه وحر

فلا بد من حشر ونشر وموقف … مهول به التقوى تكون هي الذخر

وبالعدل والإحسان والعفو والتقا … ينال الرضا والملك يبقى له الحبر

أثابك مولاك الكرامة في الجزا … وجادك من هطّال سحب الرضا قطر

سعود بهذا الفتح هنئت فليكن يقابله منك التجاوز والغفر
وإسبال ذيل العدل والصفح والرضا لِجَانٍ فإن العفو يسمو به الحر
أساء الأعادي ظنهم فيك فاعتدوا وما علموا ما ينتج الرأي والفكر
فظنوا سفاهًا أن حزمك رازم وعزمك معقول اليمين به حصر
وأنك وإن بعد إدّلاجك السرى وحدّك من بعد المضاء به دثر
وقد عرفوا منك الشهامة والدَّهَا ومن بأسك المشهور عندهم الخبر
فأنساهم الشيطان ما يعرفونه ليقطع منهم حيث أغواهم الدبر
وما جحدوا ما استيقنوا منك في اللقا ولكنهم من شؤم أعمالهم غُرُّوا
وما غرهم إلا تأنيك عنهمو ولم يفهموا أن الأناة لها سر
فبُرد الوغى ما لم يُجد نسجه الحِجَا ويحكمه التدبير قبل اللقاء طُمر
وأصل الوغى التدبير والرأي ساقها وأغصانها صبر وأثمارها نصر
فلبثك عن صدم الأعادي خديعة ومكر فما يلفى عليك به سخر
وتا الله ما اخترت المقام على اللقا لجُبن ولكن المراد بهم فقر
وما أنت إلا مسعر الحرب إن خبت وخواض حاميها إذا حمي الدسر
بربك أركان الشريعة قد رست وقوم منها ما تخلله الصعر
لئن زادت الأحسا بنصرك بهجة فقد زانت الدنيا بوجهك والعصر
وإن لم تكن زاحفتهم بعد رجفهم فقد زاحفت عنك المهابة والذعر
وقابلهم بأس الإله ورجزه وصاح بهم صوت القضاء أَلَا فِرُّوا
فولَّوا سراعًا مدبرين وخلفهم ليوث شرى من طبعها الفتك والأسر
عصابة توحيد إذا اشتبك القنا وضاق مجال الخيْل وانتفخ السَحر
تخوض عباب النقع والموت ناقع كأن حياض الموت عندهمو نهر
أدام لهم ربي بك النصر والهنا كما للعدا منك النكاية والقسر

وأولاك مجدًا يحسر الطرف دونه ويقصر عن إدراكه البدو والحضر
ولا زلت في الدنيا عزيز مؤيّدًا لك النقض والإبرام والنهي والأمر
ودونك من خرد القريض خريدة يجلّ سناها أن يماثله الدرُّ
تحتك وخمر التيه يهصر عطفها عسى أن يرى حسن القبول لها مهر
وأزكى صلاة يبهر البدر حسنها على خير مبعوث به رفع الإصر
كذا الآل والأصحاب ما جادت الصَبا على الروض مطولًا فعطرها الزهر

وفيها غزا ربيّع بأهل الوادي، ومن يرعى فجاج تلك الأرض من سائر البوادي، فسار حتى نزل في أرض بيشة، فأعد عند الجنينة والشقيقة، وكانتا للمسلمين هناك جنده وجيشه، فاستمر يغير على أهل تلك البلد والقرايا، وينالون منها عظم البلايا، ويصبحهم بالغارة كل ساعة وحين، فليسوا من مقاسات القتال بمستريحين، فأقاموا على تلك الأحوال مدة، يقاسون منه تضييقًا وشدة، فلم يحسن لهم تلك الأيام، في بلدانهم سكنى ولا مقام، ولا يهنأون بطعام، ولا يجدون راحة منام، حتى أقبلوا على القسر منهم والإرغام، إلى منهج الاستسلام، فطلبوا الدخول فيه، ولا يجوز لأحد أن يبعد من أراد ذلك وينفيه، فدخل الإسلام كثير من أولئك الأنام، وعاهد على ذلك كثير من القرى، حتى جرى عليهم من الردة ما جرى.

وسبب ذلك أن غالب الشريف لما تحقق عنده ما جرى على أهل بيشة، تكدر حاله وتنغص عليه المعيشة، فدبر فكرته وحيلته، وحقق قصده ووسيلته، فأظهر جيشًا كثيرًا وجما غفيرًا، واستمد سائر البوادي، فكل بالإسراع أجاب ذلك المنادي، فرأَّس فيهم الشريف فهيد، فخرج بأعظم الكيد، وسار حتى نزل على الجنينة، وكانت للإسلام سابقة، وتلك القرى بعدها لاحقة، فدعاهم إلى النزول بالأمان، أو قطع تلك البواسق الحسان، فأجابوه لذلك من غير توان، وظهروا

عليه من ذلك المكان، فأوقع بهم الخزي والهوان، وقتل منهم كثيرًا من أهلها ممن يدعي الدين، وينتسب للموحدين، وأسر أناسًا كثيرة ونهب البلاد، وعاينوا أقبح الفساد.

ثم بعد مضي ذلك وانقضائه، وصدور قدر الله وقضائه، على أولئك العباد، وما نالوا من الذل والإنكاد، سار إلى رنيه عاجلًا، وكان لنيل المأرب منها آملًا، فأناخ على النخيل والحلل، ورام أن يقطعها على مهل، وظن أهلها إليه لا يخرجون، وإذا رأوها يقطّعها يزعجون، ويحنون عليها حنين الثكلى، وكفى بذلك تنكيلًا ونكلًا، ألا يدركوا منها أكلًا، فحين نزل قريبًا منها خرجوا إليه سراعًا، فنحوه عنها وطال بينهم مجال القتال، وصبر على البأس أولئك الرجال، وطاعنوا دون الحلل والنخيل، وليس عندهم سوى الرجا تأميل، فأمدهم بالنصر والظفر، من علم حالهم وأعان فرسانهم ورجالهم، وكتب على أعدائهم خذلانهم وإذلالهم، بعدما سول لهم الشيطان وأملى لهم، فقتلوا منهم مائة رجل، ثم انهزم فهيد ومن معه على عجل.

وفيها غزا هادي بن قرملة مع كثير من قومه قحطان، وقليل من سائر العربان، فسار حتى انفلق له ضياء الأمل، وتقشع عنه قتام النصب والكسل، فأبصرت البقوم عيونه فحققت ظنونه، فعند ذلك كسا تلك الأقوام، من نقع الغارة قتام، ودجا عليهم من سنابك الجياد ظلام، فاشتد الزحام، وحانت المضاجع في الرجام، فاجتلدوا لحظة وكلٌ أخذ من النجدة حظه، ثم بعد ذلك انهزم الأعدا، وحامت على رؤوسهم عِقبان الردى، فولّوا على أعقابهم مدبرين، وقتل المسلمون منهم نحو الستين، وأخذوا منهم كثيرًا من الإبل، ورجعوا بحسن الأمل.

ثم بعد مضيّ شهرين، عاد عليهم طائف البين، فأغار عليهم هادي بن قرملة،

فأدرك منهم فوق ما أمله، وتلاحمت بعد الغارة فرسان البوادي، فكان طالع الإقبال لهادي، فصدقت أبطاله ونصحت رجاله، فحسنت عند ذلك حاله، فانهزم أعداؤه، ونجح رجاؤه، فأخذ من الغنم ألوف، وجرع أربعين رجلًا الحتوف، وأدرك بعض الآبال فنعم له البال.

وفيها رأَّس سليمانُ باشا بغداد حمودَ بن ثامر، بعدما قتل الله ثويني وانهزمت تلك الجيوش والعساكر، وكتب الله عليهم التمزيق والشتات، فتفرقوا أيادي سبأ في الفلاة، ولم يكن لهم بعد ظهور البراهين والآيات، صبر ولا اجتماع ولا التفات، وظن الباشا سليمان أن تلك الأحزاب والعربان، إذ رأَّس حمودًا على البصرة والبلدان، تُقبل عليه وتجتمع لديه، ويكون لهم في التخريب أمر وشأن، فأرسل إليه النُجب والبريد، بذلك للرئيس والتأييد، مصحوبًا بخُلعة فاخرة جميلة، وصِلات وافرة جزيلة، فترنح عطفه بخمرة الملك، فاستضاءت رحابه حين انتظم واسطة لذلك السلك، وأشرق ناديه بعد ذلك الحلك، ولم يدر أنه طوّق بأطواق من الشر والهلك، فلما أدرك الرئاسة واحتوى، وكرع في مواردها حتى تضلع وارتوى، وما خطر على باله ما كمن في ضمنها وانطوى، وتسنم كاهل السياسة وارتقى، واختار من أعوانها وانتقى، وتقلد أعباءها وتطوق، وتحلى بحلاها وتحقق، أقبل إليه كل من تشتت وتفرق، والتأم عليه كل من تقطع وتمزق، وأسرع لديه كل من خاف من المسلمين وأشفق، وكل من صد عن التوحيد والحق، ورام للدين وأهله مغالبة، وأنه يدرك منهم مطالبه، وسيعلم من تكون له العاقبة، وأنها كما نطق به الكتاب المبين، من غير شك لعباده المتقين، وحزبه المؤمنين وجنده الموحدين.

وفيها غزا من أهل الحسا غزو، وأميرهم أبا رجلين مناع، فلم يكن لهم دون

الكويت اقتناع، ولا حيلولة ولا دفاع، فصبحوا تلك البلد بعد حث وإسراع، فأغار ذلك الجيش على أطراف البلاد، بعدما جعلوا لهم كمينًا للجلاد، فأخذوا غنمًا كثيرة، وفزع أهل البلاد بجموع غزيرة، وعدة عظيمة شهيرة، فوقع بينهم قتال من بعيد، والرمي يصيب فيهم ويجيد، وكل من الفئتين ليس له على الثبات من محيد، حتى طلع ذلك الكمين المعدود، فانهزم أهل البلد وكان لهم إليها ورود، وما كان لهم دون ذلك صدود، فملك المسلمون أعقابهم، وكان كؤوس الردى شرابهم، وعجل الله تعالى لهم عذابهم، فقَتَلَ منهم نيفا وعشرين، وأخذ ما معهم من سلاح وولى الباقي منهم منهزمين.

وفي تلك الغزوة صادف منصور بن فضيل مع ركب معه من العماير[1]، وهو إذ ذاك للقطيف سائر، فقُتل ومن معه، وجُرِّع حِمامه فجرعه.

وفيها أيضًا وافق مناع أبا رجلين وغزو أهل الحسا ما جلب لهم السرور والإيناس، وهو ركبٌ معهم محمد بن ديماس، فقُتل مَن معه، وخاضت البحر بمحمد بن ديماس فرسه مسرعة، فدعي عند ذلك بالأمان، لكونه لم يعرفه من المسلمين إنسان، فأقبل بعد ذلك سريعًا، ونال ذلًّا شنيعًا، فقُيِّدَ وأُسِرَ بعدما مَلَكَ وقَهَر، ثم بعد صدور القضية، أتى به مناع إمامَ المسلمين في الدرعية، فحاول على قتله حجة شرعية، وطريقًا يبري ذمته عند رب البرية، فكأنه، حرس الله تعالى من المكروه مهجته، وأدام توفيقه ونعمته وبهجته، تورّع في المسارعة إلى قتله، مع ما صدر من قبيح فعله، فقد كان وقافًا عند الحدود، وكان يدرؤها بالشُبه كما للنص بذلك ورود، ولكنه ترك ابن ديماس يعاني همّ الأحباس.

وفيها أغار مشاري بن عبد الله آل حسين، على فريق من زغْب[2] فقرب الله

---

(١) من بني خالد.

(٢) إحدى قبائل بني سُليم.

تعالى له الهلاك والحين، وكان غازيًا من الكويت مع أهل عشرين مط-يّة، وبعضٌ من الخيل، فلم يدرك إلا الرزية، ومفاجأة الحمام والمنية، معاقبة لأفعاله الردية، وشؤم صنعه في البرية، ونفوته عن التوحيد، وموالاته لكل شيطان مريد، وبذل جده في مصادمة الحق والهدى، ومساعدته لأهل الضلال والردى، وقيامه مع من تعدى وجار، من سائر طوائف الفسّاق والنجار، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وفيها أرسل كثيرٌ ممن حول مكة من البدو إلى عبد العزيز يطلبون منه الإسلام والأمان، وجعلوا بينهم واسطة حمود بن ربيعان، فأجابهم إلى ذلك الإمام، وشرط عليهم النكال، فالتزمه ذلك الأنام، وجعل على كل بيت شيئًا من الدراهم، وعلى كل سلف ركابًا وسلاحًا وخيلًا جيادًا كرائم، لكونهم قد نزعوا حلية الدين، ونزغوا إلى طريق المبطلين، وكان التنكيل بالمال، مما لا خفاء في جوازه ولا إشكال، والمعاقبة بذلك جائزة واردة، والنصوص عليه شاهدة، ولا عبرة بمن كانت بصيرته جامدة، وفكرته لذلك جاحدة، وكانت هذه سنة عبد العزيز، حرسه الله تعالى، فيمن عدل عن الحق والمنهاج، وركب طريق الزيغ والاعوجاج، فراض على ذلك الاشتراط، من كان له بالمسلمين ارتباط، وفي الإسلام رغبة واغتباط، وهم كثير من أولئك العربان، وأعظمهم كثرةً فِرقان العتبان.

ولم يبق ممن يسيم مواشي الآبال في تلك الشعاب والتلال، سوى البقوم من أهل الضلال، فشق ذلك على غالب، وكان عليه من أعظم المصائب، وهمه ذلك وأقلقه، وأزعجه ما جرى وأرهقه، وأحزنه ما صدر من حالهم، ودخولهم في الإسلام بعد ضلالهم، وتحقق أن ذلك عليه داء عضال، وأنهم يجرون عليه الهوان والإذلال، فلم يلف بعد معاودة الفكر والبال، طريقًا إلى التوصل في

بقائهم عنده على تلك الحال، إلا الخروج والاستعداد للقتال، ومصادمة الأعراب والبوادي، ومكابرتهم بالجيوش والعوادي، فعند ذلك شمّر في الأمر وسعى، ونادى على الإغاثة ودعا، وأقبل إليه أحزابه شِيعًا، وخرجوا معه تبعًا، فجدّ في وجهته مسرعًا، فوافى عيونًا لابن قرملة، فأخذهم وتهددهم حتى دلوه على ما أراده وأمله، فلم يشعر هادي إلا بغالب عليه عادي، وتطاعنت الفرسان ولم يحضر من فرسان قحطان سوى ثلاثة عشر فارسًا من الشجعان، فحمي بينهم سعير الوغى، ولم يكن دون الجلاد مبتغى، فقتل من قوم الشريف خمسة أفراس، وأقام ابن قرملة معهم في غاية الجلاد والمراس، وهزم أكثر الإبل، فلم يدرك منها غالب غاية الأمل، وأخذ منها بعضًا في ذلك المجال، وأخذ كثيرًا من بعير الظهر ذي الأثقال، ثم حصل بينهم المفارقة والانفصال.

ثم بعد ذلك عمد هادي ومن معه إلى رنية، وأقام غالب على ماء القنصلية، ثم سار إلى رنية من غير ونية، فنزل عليها ليالي وأيام، وحاصر من فيها من الأنام، ممن دان للإسلام، وحاول نزول أهلها بلين الكلام، ورغبهم في نبذ العهد والذمام، فلم يفز منهم بسؤل ولا مرام، فأخذ يقطع النخيل وزين له الشيطان أنه يفوز بتأميل، فعند ذلك أسرع أهل البلاد إليه، وصمموا في البيعة عليه، فالتقوا ذلك اليوم، وحمي القتال بين القوم، وقتل بينهم رجال، ثم وقع التفرق والانفصال، وأقام على تلك الحال أيامًا وليال، ثم أراد الله تعالى ذله وهوانه، وخزيه وأعوانه، وذلك أنه في بعض تلك المواطن، وأهل البلاد يقاتلونه في بعض الأماكن، ونار الوطيس بينهم حامية، وعيون الجراح منهم دامية، عدا عليهم ابن قرملة مع أناس من جماعته، فوقع بينهم قتال، وقُتِل كثير من أحزاب الشريف في ساعته، وكان جميع مَن قتل مِن قومه قبل ذلك اليوم وفي يومه مائة وزيادة، فانصرف ولم ينل منها مراده، ولم يرد تعالى إسعاده، بل سلب منه مدده وإمداده.

ولما أتى الخبرُ عبد العزيز بما صدر من غالب الشريف، أرسل إلى حجيلان أن يسير مع أهل القصيم حتى يتم لابن قرملة المطالب، ويسلك معه ما أراد من المذاهب، ويعينه على ذلك العدو المحارب، وكان سعود، بلغه الله المقصود، إذ ذاك مقيمًا بالأجردي[1]، يريد أن يغزو أهل الشمال ويعتدي، فأتاه الخبر اليقين، بما صار من المعتدين، وحزب غالب المسرفين، فأرسل ربيع أمير الوادي مع جمع من المسلمين، ممن كانوا معه مجتمعين، وللغزو في تلك الأيام مريدين، فأمرهم أن يعجلوا المسير، ويساعدوا ابن قرملة حتى يحصل بهم له الفرج والتيسير، ويشمروا ساعد الهمة والعزمة أتم التشمير، فساروا منه وهو في ذلك المكان، فصار ولله الحمد له شأن ولهم شأن، وحصل لكل منهم بهجة وسرور، وانتصار واستعلاء وتمكين من الكفار، فقصد سعود السها وجعله أمامه، وقصد ربيع ومن معه أهل تهامة، فنال كل من المسلمين مرامه، وأدرك العز والكرامة.

وبعدما صار من غالب تلك الأفعال، جر من الفخر الأذيال، فشمّر إلى بيشة سائرًا، وعلى مَن بها مِن المسلمين غائرًا، ولمن له فيها من الجماعة معينًا وناصرًا، فرجعه الله تعالى ذليلًا خاسرًا، مهانًا مشتتًا ولله الحمد عاثرًا، وذلك أنه لما أتى إليها وأناخ بجمعه عليها، هرب من فيها من المسلمين، ولم يكونوا في تلك البلدان مقيمين، وقد هاجر قبل قدومه إليهم ووفوده عليهم ناس من أهل بيشة كثيرة، كان لهم في الدين بعض بصيرة، فتفرقوا في رنية والوادي، وكان الله تعالى لهم مرشدًا وهادي، وحملهم على الهجرة والهرب، والفرار عن المسكن الذي هو للنفوس مطلّب، سبب هو أعظم السبب، وذلك أن غالب تلك

---

(١) وادي الأجردي، يقع شرقي القصيم.

البلاد، يرغبون في منهج الغي والفساد، وأنهم أَنِفُوا من أهل الدين، وكانوا لعداوتهم مضمرين، وتبين وظهر وتحقق واشتهر، أنهم أرسلوا إلى غالب الشريف، يأتي إليهم بلا توقف ولا وتوقيف، ويقتل من دان بالتوحيد حتى يرجف غيرهم ويخيف، فأتاهم سريعًا لذلك الحال، فأقام عندهم أيامًا وليال، يرتب ما أراد من الأحوال، ثم لما عزم على المسير والارتحال، أخذ أناسًا معه في الاعتقال، وقادهم معه في السلاسل والأغلال، فشمر ساعد المسير، لما يريده من الحزم والعزم والتدبير، فنال أعظم الهلاك والإذلال والتدمير، فالحمد لله العلي الكبير.

وذلك أنه أسرع في تسياره، يريد قضاء بعض أوطاره، حتى يرجع متبجّحًا عند رعيته وأنصاره، ويدخل متبخترًا بحضرة بلده وأهل داره، فنزل على قرية يقال لها الخرمة[1]، وفيها سكن قليل من الناس مسلمة، فلما علموا بقدومه لتلك القرية، هربوا وندوا، وطلبوا النجاة لأنفسهم وشدوا، فتعلقوا البدوان، وساروا مع العربان، فساعة أناخ بها ركابه، ومدّ بها أطنابه، وقر له بها القرار، أشعل في تلك القرية النار، وعجل الله لها بالدمار، وكانت عقباه في يومه ذلك البوار، وأظهر الملك القهار، والمنتقم الجبار، فيه للمسلمين آية الانتصار، وعلما من أعلام الأقدار، وبرهانًا على الوحدانية لا يعرف له مقدار، ولا يحاط بكنهه في الفكر والاعتبار، يجل عن القيام بحق حمده وشكره، وتقصر الألسنة عن الثناء عليه وذكره، فمواهبه سبحانه لأهل الدين، وفواضله على كافة الخلق أجمعين، ونصرته لعباده المؤمنين، وإعزازه لأوليائه المفلحين، ودفعه عنهم

---

(١) تقع شمال شرقي مدينة الطائف، وتبعد عنها حوالي ٢٣٠ كم، وهي تابعة لإمارة منطقة مكة.

صروف الحادثات والنوب، وتفريجه عنهم الشدائد والكروب، أكثر من أن يعدّ ويحصر، وأشهر من أن يُحصى ويذكر، ولكن أين الألباب الذي تعي ذلك وتفهم، وتُخلص التوحيد وتُسْلِمُ وتَسْلَم، وتحزن على ما جرى منها وتندم، وتذكر ذلك الضلال الأعظم، والغي الأقبح الأقدم، في ذلك الزمان الذي مضى وتقدم، فنسأله أن يوزعنا شكر نعمائه، ويوالي علينا فيض بره وآلائه، وأن يصرف عنا مضلات فتنه وابتلائه، ويحقق لنا سؤلنا ومأمولنا في حسن رجائه، وتحقيق الحديث والخبر، عما جرى على غالب وجنده ممن شاهد الأمر وحضر، أنه لما نزل بذلك المكان والمحل، وفعل بالإحراق له ما فعل، لم يكمل له أنس، ولم تغب له فيه شمس، حتى دهاه فيها ما أزهق الروح والنفس، وذلك أنه لما عمد إلى ذلك المكان، وسار لقصد ذلك الشان، أتى خبره ربيّع أمير الوادي وابن قرملة أمير قحطان، فاستعانوا الرحيم الرحمن، في الغزو عليه بأثره حتى ينالوا بذلك الثواب من الله والإحسان، ويوقعوا به بعض الذل والهوان، ولم يقع في رُوعِهِم أنهم لجنده منازلون، ولجيشه مصابرون ومقاتلون، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، فجدوا السير بأثره يطلبون، ولبعض النصرة عليه مِن مولاهم مؤملون، فلم يفاجئه إلا وفرسانهم عليه مشرفون، وذكر له أن هؤلاء ربيع وهادي وقومهم لهم متبعون، فركض برجله الأرض وفحصَ وقال: الآن أفترس الضرغام وأقتنص، ولكن لا تروم السنانير الأشبال، ولا يروم السِّرحان[1] على الريبال[2]، ولا تحوم بُغاث الطيور على العِقبان والنسور، أيحاكي طنين الذباب زئير ليث الغاب؟ ولئن حكت صولة الأسود، في الانتفاض الهررة والقرود، فلا تناظرها في البأس والورود،

---

(١) الذئب.

(٢) الرجل الذي يغزو وحده.

والإقدام والنُهود:

ومن رام في الهيجا لقاء جحافلي وخوض لظى بأسي بيوم التنازل
فقد ضل في قَفر السفاهة والردى وأُلقي في قَعر الظنون السوافل
وأضحى ينادي بالحماقة جهرةً ويرفل في ثوبٍ من الجهل نافل
أتسمو إلى مجدي وذروة مفخري جميعُ الورى أو يدركون منازلي
مجاز تمنى دون ذاك مناله فأين الثريا من يد المتناول
أمانٍ كلمع الآل[1] لم يُرو صاديًا ويحسبه الظمآن عذبَ المناهل
لقد عدمتني الكُمت[2] يوم مجالها ولا وسطت بي الجمع يوم التناضل
ولا أروت الأسلُ الظما سُحب راحتي ....

آخر ما وُجد من التاريخ، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.



(١) السراب.
(٢) الكميت من الخيل: بين السواد والحُمرة.

نبذة موجزة عن نُسخ تاريخ ابن غنام

كتبها: الأخ الشيخ عبدالله بن بسام البسيمي - وفقه الله -

١- نسخة بخط محمد بن عثمان بن عيدان، سنة ١٣١٣هـ، في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، ضمن مخطوطات فوزان السابق. انظر: نشرة (أخبار المكتبة)، العدد ١٤ .

٢- الجزء الأول، مصور بالفتوستات، عن نسخة بخط: مِثل بن ناصر الحلّي، عن نسخة ابن عيدان المتقدمة، للكرملي . والجزء الثاني كذلك سنة ١٣٣٢ هـ، برقم (٧١٠١ح)، في دار الكتب المصرية.

ونسخة ثانية بخط حسين فهمي خطاب، سنة ١٣٦٥هـ، برقم (٩٧٣٧ح). انظر عن وصفها: (فهرس المخطوطات)، نشرة بالمخطوطات التي اقتنتها الدار من سنة ١٩٣٦-١٩٥٥م، دار الكتب المصرية، ط ١٣٨٢هـ، تصنيف أمين سيد، ج ٢، ص١٥٣ .

٣- قطعة منه تقع في٢٧ ورقة، على فلم في الجامعة الإسلامية، مصور من جامعة الرياض. انظر: (فهرس كتب التاريخ والرحلات والجغرافيا والبلدان في المصغرات الفلمية بالجامعة الإسلامية)، ط ١٤١٥هـ، ص٧١ .

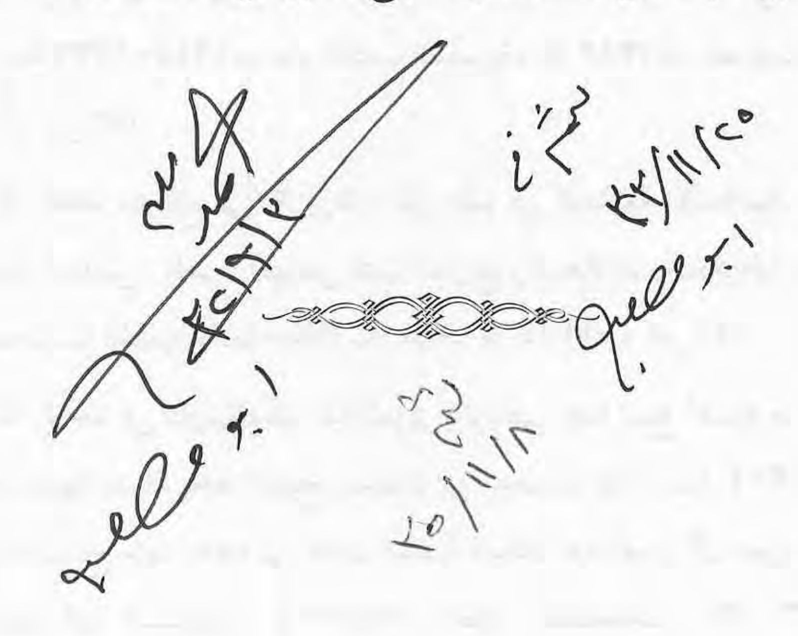
٤- توجد في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عدة نسخ أصلية من تاريخ ابن غنام، منها نسخة بخط الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله، سنة ١٣٠٤هـ، نشرت الدارة نماذج منها بخطه في كتاب (مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة)؛ للدكتور فهد السماري، ط ١٤١٧هـ. انظر: الصفحات: ٢٢، ٢٣، ٢٠٦، ٢٠٧).

٥- نسخة في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، الجزء الأول برقم (١٤٦٣/ ١)، والثاني برقم (١٤٦٣/ ٢). انظر: (فهرس مخطوطات جامعة أم القرى)، ج ٥، ص ٢٧٨ - ٢٧٩، ط ١، ١٤٢٢هـ.

٦- وفي جامعة أم القرى نسخة برقم (١٧٥٩)، جاء وصفها في (فهرس مخطوطات جامعة أم القرى)، ج ٤، ص ٢٥٩، ط ١، ١٤١٤هـ.

٧- وتوجد نسخٌ أخرى من تاريخ ابن غنام. منها نسخة في دار الكتب المصرية، برقم (١١٠٣٣ح)، غير النسختين السابقتين. ونسخة في مكتبة المتحف البريطاني بلندن.

انظر عن ذلك: (تاريخ الكويت)؛ لأحمد مصطفى أبوحاكمة، ج ١، ص٢٢ . و(دراسة في أهم مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر)؛ لعبدالفتاح أبو علية، ص ٣٨٣، دار المريخ، الرياض، ١٤٢٢هـ.



فهرس الأعلام والقبائل



فهرس الأماكن والبلدان والقبائل



فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

